

مصر

من قدوم نابليون حتى رحيل عبد الناصر

تأليف: ريمون فلاور

ترجمة: سيد أحمد على الناصري

تقديم ومراجعة: يونان لبيب رزق

المشروع القومي للترجمة

مصر

منذ قدوم نابليون حتى رحيل عبد الناصر
(حكاية مصر في العصر الحديث)

تأليف
ريمون فلاور

ترجمة
سيد أحمد على الناصري

تقديم ومراجعة
يونس لييب رزق



٢٠٠٠

هذه ترجمة

Napolean To Nasser
The Story of Modern Egypt

By
Raymond Flower

مقدمة

هذا العمل الذى عكف الأستاذ الدكتور سيد الناصرى على ترجمته باقتدار كان فى أصله الإنجليزى تحت عنوان: Napoleon to Nasser - The Story of Modern Egypt by Raymond Flower. طبعته الثانية الصادرة عام ١٩٧٦، بعد أن كان قد صدرت طبعته الأولى قبل أربع سنوات، أى بعد وفاة عبد الناصر بعامين فحسب، الأمر الذى يمكن القول معه إن المستر فلور قد بدأ تأليفه عقب تلك الوفاة، بينما كانت دماء الزعيم المصرى الراحل لم تجف بعد، وبينما كان الرجل لا يزال ملء أبصار وأسماع الدنيا كلها، ولعل ذلك كان وراء التنفيذ السريع للطبعة الأولى، كما أنه كان وراء العديد من الملاحظات التى سوف نسجلها فى هذه المقدمة!

وثمة ملاحظة مبدئية على العنوان، إذ نرى أن الرجل كان دقيقاً عندما اختار وصف "قصة مصر الحديثة The Story of Modern Egypt" وليس "تاريخ مصر الحديثة The History of Modern Egypt"؛ لأنه من الناحية العلمية الدقيقة يصعب توصيف ما جاء فى هذا العمل بأنه تاريخ خالص، ولكنه نوع جديد من الدراسات يخدم دارسى التاريخ والمشتغلين بالكتابة التاريخية.

فالمستر ريموند فلور اختار أولاً مسطحاً زمنياً لعمله قارب القرن وثلاثة أرباع القرن (١٧٩٨ - ١٩٧٠)، وكتب التاريخ الأكاديمى لا يفعلون ذلك، فهم إما يختاروا ظاهرة بعينها، سياسية أو اجتماعية أو اقتصادية، على مسطح زمنى واسع، وإما أن يختاروا واقعاً تاريخياً عاماً يدرسونه بعمق فى حيز زمنى ضيق، ويكون أحياناً فى غاية الضيق!

ثم إن صاحبنا - ونتيجة لهذا الاختيار - قسم كتابه إلى عدد كبير من الفصول (٢٥) القصيرة التى لم يزد أكبرها عن اثنتى عشرة صفحة، بينما وصل أغلبها إلى ما يتراوح بين سبع وتسع صفحات، ولم تأت الدراسة مع

هذا كمرصد متأن؛ وإنما جاءت أقرب إلى الانطباعات السريعة عن الموضوعات التي اختارها كعناوين للفصول..فهو يختار للحملة النابليونية ما أصابها من خيبة مما جسده عنوان "تهاية حلم"، ويأخذ من محمد علي دوره في تأسيس الأسرة الحاكمة، ومن إسماعيل "الثمن الباهظ لمظاهر الترف"، وهكذا.

ومثل هذه العناوين الموحية إنما يدل على انحيازات مسبقة للرجل، فهو حين يتناول الثورة المصرية ١٨٨١ - ١٨٨٢ يخصص لها فصلاً (العاشر) تحت عنوان "إخضاع عرابي"، وهو يتبنى بذلك وجهة النظر البريطانية بالكامل، ثم إنه يتخير من فترة الحكم البريطاني المباشر للبلاد كل ما يشرف هذا الحكم، وذلك قبل أن يقفز بنا إلى التمهيد لثورة ١٩٥٢.

وقد يشفع للمستتر فلاور أنه لم يزعم أنه مؤرخ تقليدي، غير أنه من جانب آخر لم يشبع فضولنا في التعرف على شخصه باستثناءات بسيطة وردت في عمله هنا وهناك، فحسب ما جاء في المقدمة: "وعندما عدت إلى القاهرة بعد غيبة شهر أو نحو ذلك من وقوع الانقلاب، كانت الشوارع تموج بملابس الكساكى"، مما يقود إلى الفهم أن الرجل كان يعيش في مصر، غير أن ذلك الفهم يشير من التساؤلات أكثر مما يقدم من الإجابات..هل كان مقيماً بشكل دائم أم منقطع في العاصمة المصرية؟ ثم ما هي طبيعة هذه الإقامة؟

ونستطيع أن نستشف من بعض ما جاء في الكتاب حقيقة مؤداها أنه كان للرجل جذور في مصر، وأنه كان مقيماً بها على نحو دائم باستثناء الفترة التي تلقى خلالها تعليمه في أكسفورد، وطبعاً الفترات الأخرى التي كان يقضيها في بلاده، ونظن أنها كانت متقطعة!

يدل على ذلك ما جاء في مصادر الفصل الحادى عشر من الكتاب من قوله: "وقد كان جدى وجدتى معتادين على قضاء الشتاء في القاهرة بعد انتهاء القرن الماضى، ولما شرع والدى وهو شاب في إدارة مشروعات الأسرة في عام ١٩٠٦، فقد كنت محظوظاً أن أكون قادراً على الإفادة من

خبراتهم منذ ذلك الوقت فصاعداً، ويقول في مصادر الفصل السادس عشر "لقد تناولت غذائي أكثر من مرة في مطعم فاروق المفضل باتادس"، ويبدو أنه كان أحد المطاعم التي اشتهر اليونانيون بإقامتها خلال تلك الفترة، ويقول في موقع ثالث (مصادر الفصل الرابع عشر) "أما عن وصفى الانطباعي الخاص عن الإسكندرية فليس له مصدر غير تجربتي الخاصة".

وفي تقديرنا أن الدراسة التي تلقاها مؤلف كتابنا هذا في أكسفورد كانت ذات طبيعة أدبية فلسفية مما نتبينه من الأسلوب الراقى الذى وضع به عمله ومن جملة المؤلفات التي استعان بها في وصفه، والتي غلب عليها التجارب الذاتية لواضعيها.

فالقسم الأكبر من تلك المؤلفات ترقى إلى مستوى "المشاهدات الشخصية"، فقد كانت إما مذكرات خاصة Memoirs مثل تلك التي وضعها السير أنطونى إيدن، وخصص بعض فصولها عن "حرب السويس" التي أنهت مستقبله السياسى، أو سير ذاتية Biographies مثل كتاب جون نينيه عن عرابى باشا أو بريان جارنر عن النبى، أو كتب رحلات Narratives وأشهر عمل إدوارد لين عن عادات وتقاليد المصريين المحدثين الصادر في لندن عام ١٨٣٦، وأخيراً تقارير القناصل البريطانيين في مصر وأشهرها تقرير بورنج Bowring الذى عمل قنصلاً عاماً لبلاده في القاهرة في عصر محمد على، وكذلك المقاولات التي نشرت في الصحف الأوربية خلال تلك الفترة.

ولا يملك أى مؤرخ محترف سوى الاعتراف بأن مثل هذه المادة العلمية ترقى إلى مستوى المادة الأصلية، وأنه لم يكن ينقصها سوى الرجوع إلى الوثائق، وهو ما لم يكن مطلوباً من المؤلف، خاصة وأنه لا يمتن كتابة التاريخ التقليدى ويمتلك ملكة فلسفية غير تقليدية.

غير أن هذا الاعتراف لا يمنع من تسجيل ملاحظتين:

الأولى: أن الكتاب حافل بالآراء والأحكام ذات الطابع الشخصى لا

الموضوعي، فيتحدث مثلاً في الفصل الحادي عشر عن أن رجل الشارع المصري خلال سنى الاحتلال الأولى لم يكن يملك بالنسبة للإنجليز سوى الشعور بالعرفان؛ لأنه كان يتذكر حالة البؤس التي كان يعيشها في عهد إسماعيل، وكبار السن من الفلاحين لم ينسوا "الكرباج"، ولا الاستدعاء للسخرة، ولا ندري كيف عرف المستر فلور بمشاعر الإنسان المصري قبل نحو قرن من وضع مؤلفه، اللهم إلا إذا كان قد أخذ بدون مراجعة بما جاء في كتاب اللورد كرومر المعتمد البريطاني في مصر وقتذاك تحت عنوان "مصر الحديثة"، والذي وصفه بـ "الحاكم بأمره على ضفاف النيل".

الثانية: إنه في أكثر من موقع يعطى الانطباع بالتعاطف مع بعض الزعماء المصريين، ولكن لا يمضي وقت طويل حتى يفرغ هذا التعاطف من أي مضمون، الأمر الذي نلاحظه في التعامل مع شخصية عرابي باشا يصف تصرفاته بعد معركة التل الكبير بقوله: "كان عرابي نائماً عند بدء القتال ودون أن يتوقف حتى ليضع نعليه في قدميه، ألقى بنفسه فوق صهوة جواده، وبعد أن استولى على قاطرة ذات محرك بخاري عند بليس وصل إلى القاهرة وهو داخل مقصورة الوقادين ليصل في الوقت المناسب ليشهد الاحتفالات التي أقامها الخديو على شرف الجيش المنتصر"، وهي صورة أدبية تقطر سخرية ومرارة، ولكن تعوزها الدقة، ففيما يبين موقعة التل الكبير ويدخل ولسلي القاهرة ثم عودة الخديو توفيق من الإسكندرية كانت قد مرت أيام وليس مجرد السويقات التي استغرقتها القاطرة البخارية في المسافة القصيرة الفاصلة بين بليس والقاهرة.

وتبدو هذه الروح أكثر بالنسبة لجمال عبد الناصر؛ إذ يحظى الفصل الثالث والعشرون والذي عنوانه بـ "مايسترو العالم العربي" بوضع السم في الدسم أكثر من أي فصل آخر، والواضح أن مصالح الرجل في مصر، باعتباره أحد أبناء الجالية الإنجليزية في العاصمة، كانت قد تعرضت للضرر بسبب سياسات عبد الناصر التمسيرية التي كثيرا ما لقيت سخرية صاحبنا، واعتبر أنها كانت وراء كل مصيبة حاقت بالاقتصاد المصري.

الثالثة: نتيجة لذلك، ونتيجة للافتقار لأدوات البحث العلمى القائمة على تحرى كل واقعة للتثبت من صحتها، فإنه كثيراً ما كان يقع فى أخطاء ساذجة، لعل أهمها اتهامه للضباط الأحرار أنهم كانوا من وراء اغتيال أمين باشا عثمان، عميل الإنجليز ووزير المالية فى حكومة الوفد، عام ١٩٤٣، ولا يمكن لأحد أن يزعم أن هذا التنظيم كان قائماً وقتذاك، فكافة الكتابات تشير إلى أن الفكرة قد ولدت خلال حرب فلسطين ودخلت فى حيز التنفيذ عام ١٩٥٠، اللهم إلا إذا كان قد استنتج من وجود السادات ضمن المتهمين فى حادث اغتيال أمين باشا عثمان، وضمن الضباط الأحرار بعد ذلك، أن الأخيرين هم الذين فعلوها، وهى رابطة واهية على أى الأحوال.

غير أنه على الجانب الآخر، وقد تحرر من قيود البحث العلمى، فقد غلب فى كثير من الأوقات خيال الأديب عن حقائق المؤرخ الجافة، مما أضفى كثيراً من أسباب الجاذبية على عمله، وهو الأمر الذى يستطيع أن يلمسه القارئ من أول سطور الكتاب إلى آخرها، مما أعطى عمله قدراً كبيراً من التشويق، نعتقد أنه كان من الأسباب التى دعت مؤرخاً كبيراً مثل الدكتور سيد الناصرى إلى العكوف على ترجمته، وهو بذلك يقدم عملاً للمثقف العادى قبل المؤرخ المتخصص بالمعنى المهنى.

هذا فضلاً عن أنه لم تنقصه روح الفكاكة الإنجليزية والتى كثيراً ما كانت تبدى فى رواية هنا أو هناك نسوق منها ملاحظته للتدليل على الشعبية التى أصبحت تحظى بها الملكة فريدة من أن كثيراً من المصريين أسموا بناتهم وقتها باسمها.

وبينما نوصى كل مصرى أن يقرأ هذا الكتاب، ليعرف كيف كان ينظر الإنجليز إلى بلاده، فإننا ننبهه أن يتسلح بالرؤية النقدية، ولا يأخذ الآراء ولا المعلومات التى امتلأ بها هذا العمل المهم، مما يجعل من تلك القراءة رياضة ذهنية نحن فى أشد الحاجة إليها للتعرف على كيف كان يفكر فينا الآخرون.

يونان لبيب رزق

مقدمة المترجم

بعد رحيل الرئيس جمال عبد الناصر بسنوات قليلة أصدر خليفته الرئيس الراحل محمد أنور السادات قراراً بتشكيل لجنة عليا لكتابة تاريخ الثورة برئاسة الفريق حسنى مبارك الذى كان نائباً لرئيس الجمهورية وقتذاك. وقد كتبت وقتها فى جريدة الأهرام مقالاً معترضاً على ذلك لسببين أنه لا يجوز كتابة التاريخ من قبل الدولة، خاصة وأن على رأسها أحد زعماء الثورة؛ لأن ذلك سوف يكون تاريخاً رسمياً خالياً من النقد.

ومن ناحية أخرى أن الأجدى بالكتابة هو تاريخ الشعب وليس تاريخ السلطة. وقد رد الرئيس الراحل أنور السادات فى أحد أحاديثه التليفزيونية على ذلك الرأى بطريقة غير مباشرة مؤكداً أن تاريخ الثورة هو منعطف يختلف عن مسار تاريخ الشعب المصرى!

ومنذ ذلك الوقت انهالت - ولا تزال تنهال - المؤلفات والمذكرات المتضاربة التى تعبر عن آراء متناقضة، ومصادر غير موثقة، ومذكرات شخصية تمجد ذات كاتبها تحمل من الصراع أكثر ما تحمل من الوفاق، وتموج بال بغضاء أكثر ما تموج بالولاء والإعجاب حتى أصبح الشباب مشوشاً لا يعرف الحقيقة، ويظهر ذلك واضحاً من كتاب المذيع الرائع طارق حبيب الذى حاول أن يسجل آراء عدد كبير من رجال الثورة ورموز السياسة التى ارتبطت بالثورة من قريب أو بعيد.

ولما حاول الشاعر الحالم ومحرر الصفحة الثقافية فى جريدة الأهرام فاروق جويده أن يفتح الصفحة الثقافية أمام المتحدثين عن الثورة خاصة ممن شاركوا فيها سواء من الصف الأول أو الثانى فوجىء بتيار متناقض جعله يؤثر إغلاق الباب.

ومما زاد الطين بله، وساهم فى إحداث تلك البلبلة وهذا التشويش أن تاريخ الثورة أصبح سداً مداماً للكثير من رجال الصحافة، حتى إن بعضهم

جعل من مقالاته وابلاً من الأحقاد يصبها على زعيم الثورة. ذلك البكباشي الذي يمثل أول بارقة أمل في إحياء الوطنية المصرية، هذه البليلة أصابت الشباب والجيل الصاعد فغدا يتساءل أين الحقيقة؟

وفي حديث متلفز للمفكر الكبير السيد يسر عبر فيه أسفه أنه لا يوجد حتى الآن مؤلف عن التاريخ الوطني المحايد للشعب المصري، وأن المؤرخين المصريين يقفون عاجزين عن إنجاز مثل ذلك العمل.

وقد أثارني ذلك المفكر الكبير وصرخة الشاعر الحالم فاروق جويده في التحرك، غير أنني فوجئت بهذا الكم المتضارب من الروايات التي تحركها نزعات شخصية وإيديولوجية فتراجعت عن الفكرة حتى لا تحرق أصابعي عندما يخط قلمي ذلك التاريخ.

ثم خطرت لي الفكرة: لماذا لا نبحث عن طرف أجنبي محايد يكون "شاهد عدل" يلم بمنهج البحث التاريخي وطرق لبحث فيه، ويكون على معرفة جيدة بمصر وعاصر أحداث الثورة، ويمتلك المصادر والوثائق التي هي غير متاحة للمؤرخ المصري؟

وبعد سنوات من استعراض المؤلفات البريطانية والفرنسية وقع اختياري على ذلك المؤلف المهم الذي كتبه ريمون فلاورز عن تاريخ مصر الحديث منذ قدوم نابليون وحتى رحيل عبد الناصر، وذلك لعدة أسباب:

أولها: أن المؤلف عالي الثقافة، ملم بنظريات التاريخ السياسي والاجتماعي والاقتصادي، بل والثقافي، ولا يفصل التاريخ الحديث عن القديم.

ثانيها: أنه عاش في مصر بل إنه ولد في مصر وتربى فيها، وقضى أسعد أيامه في بيته الريفي في البدرشين؛ حيث الهرم المدرج من خلفه والحقول الخضراء التي يكد فيها الفلاح ويشقى هو وماشيته من بزوغ الشمس حتى مغيبها من أمامه؛ مما جعله يدرك أن هذا الفلاح هو أحق من يكتب تاريخه.

ثالثهما: أنه كابت "طبقة ذوات"، اختلط بأبناء مثل هذه الطبقة من المصريين، فكان يتردد على الأماكن الراقية مثل نادى السيارات (الملكى) ونادى الجزيرة الرياضى ويسجل ما كان يدور فيها من أحاديث جانبية وشائعات ونوادى وطرائف، وكما ذكر أنه كان يتردد على ملاعب "الاسكواش" فى نادى الجزيرة. ولما قامت الثورة فى يوليو عام ١٩٥٢ اكتشف أن بعض رفاقه فى الملعب أعضاء فى مجلس قيادة الثورة. وظل ريمون فلورز مقيماً فى مصر بعد إنهاء دراسته الجامعية فى أرقى جامعات بريطانيا، ويبدو - والله أعلم - أنه كلف من قبل حكومته بمراقبة الأحداث فى مصر، وظل مقيماً فيها حتى رحل عنها عام ١٩٥٦ بعد وقوع العدوان الثلاثى الذى أدانته بشدة، مؤيداً حق مصر فى تأمين قناة السويس، ثم عاد إلى مصر بعد انتهاء الحرب، وظل يراقب ويسجل فى مذكراته الأحداث الجارية حتى حدوث كارثة ١٩٦٧. عاد بعدها إلى بريطانيا وعكف منذ ذلك التاريخ على كتابة تاريخ مصر منذ قدوم نابليون.

وتعتبر الفترة الواقعة ما بين مجيء نابليون بونابرت وحتى رحيل عبد الناصر من أغنى فترات التاريخ المصرى؛ لأنها بداية قيام مصر من رقتها التى استمرت دهوراً. كالعنقاء المصرى الذى ينهض من رفاة سلفة، وقد عبر أحمد شوقي عن ذلك بقوله:

يا رب هبت شعوب من منيتها واستيقظت أمم من رقدة العدم

كما جسم ذلك الفنان الخالد مختار فى نحت تمثاله "تهضة مصر" الذى لا يزال يقبع أمام جامعة القاهرة.

وقد أعجبنى هذا المؤلف - رغم صعوبته وأرسنراطية اللغة التى كتب بها - أنه مزج التاريخ القديم بالحديث، ومزج التاريخ السياسى بالاجتماعى والاقتصادى والثقافى، كما أن تحليلاته فلسفية وعميقة، ومراجعته متعددة، أغلبها مقالات من الصحف البريطانية والفرنسية التى ليست فى منالنا، كما أن حبه للفلاح المصرى الذى جاء من بلاده ليراقبه ويكتب التقارير السرية

عن حركتها الوطنية انتهت به إلى الوقوع في هواه، فجعل من كتابه ضريبة وواجب عليه نحو هذا الفلاح الخالد كخلود النيل، وبالرغم من أن أموال أسرته أمت وطرد من مصر في عهد الثورة، لكن ذلك لم يمنعه عن مخالفة ضميره العلمى فى أن يسجل تاريخ مصر الحديث بحياد ملفت للنظر، وبثراء فى المادة لم نجدها فى أى مؤلف مصرى لايدانيه فى ذلك غير مؤلفات الأستاذ الكبير محمد حسنين هيكل فى وثائق تاريخ مصر المعاصر.

وإذا كان المؤلف قد أهدى مؤلفاته إلى الفلاح المكافح كدين عليه نحوه، فإننى لست أقل منه حماساً فى إهداء هذه الترجمة لنفس الفلاح الذى أصبح أحفاده علماء يحصلون على جائزة نوبل أو قادة كبارا ومفكرون ووزراء، رجالاً ونساءً.

سيد أحمد على الناصرى

مقدمة المؤلف

الثورة صدمة مفاجئة لكن لا يمكن أن يكون هناك انقلاب أحدث دهشة تقل حجماً مما أحدثته استيلاء ناصر ورفاقه من الضباط الأحرار على الحكم عام ١٩٥٢. إنها كما لو كانت غلاية قد انفجرت حتى في نظر الأجانب تلك الطبقة ذات المزايا فإن الأيام الأخيرة للعهد البائد Ancient Regime كان وقتاً فاسداً. إذا أن مظاهر الترف والفساد الذي تفشى بين طبقة الباشوات فاق كل حد متوقع، فقبل ذلك بستة أشهر قام جمهور غاضب بحرق الحى الأوربى للقاهرة. وكنا - في كل الأحوال - رهائن مضمونة عند حدوث أى انفجار. ففي نادى السيارات الملكي تباهى الأمير عباس حليم وهو يروى آخر مداعباته لفاروق أنه قال للملك: يا صاحب الجلالة عندما يأتى الشيوعيون إلى الحكم سيقولون: عباس يا لك من شاب رائع ! غير أنك تريد ستة بوصات في قامتك ولذلك سوف نقص هذه البوصات الست من أعلى قامتك وسيفعلون نفس الشئ معك يا أفندينا، والحقيقة أن الانقلاب الذي قام به الضباط الأحرار (أو أى شئ يفوقه تأثيراً) كان متوقعاً جداً، وكل إنسان كان يعلم ذلك. ففي صيف عام ١٩٥٢ كانت الدولة المصرية على شفا ثورة بركان انفجاره لم يعد ينتظر.

وعندما عدت إلى القاهرة بعد غيبة شهر أو نحو ذلك من وقوع الانقلاب، كانت الشوارع تموج بملابس الكاكي، غير أن كل شئ كان على حاله في المنطقة المحيطة بنادى السيارات. صحيح أن الملك قد ذهب، وألقاب معظم أعضاء النادى قد ألغيت بقرار رسمى، إلا أن عباس بقامته المشوقة بقيت كما هى، وظل يدخن سيجاره الفاخر الباراتاچاس Paratagas. وإذا كان هناك بؤادر التغيير فقد كان ذلك في طي الحدث، أما بالنسبة لى فإن الشئ المدهش حقاً أن أجيد العديد من الضباط المشاركين في الثورة أصدقاء ومعارف قدامى جمعتنا ملاعب التنس والاسكواش، وكثيراً ما كنا نتبادل النكات في حجرة تغيير الملابس أو عند تناول الشاي، وكان أغلبهم في نفس سني، وكنت أعرف مدى طموحاتهم التي كان غايتها أنهم كانوا يريدون

تحرير وطنهم من سيطرة القصر، ومن أى تورط أجنبي بأى شكل من الأشكال . لقد كان فاروق يتظاهر بعذائه للإنجليز لكي يكسب لنفسه شعبية هو في أمس الحاجة إليها، وكان آخر شيء يتمناه الملك هو أن لا تغادر قوات الاحتلال البلاد لأن بذهابها يذهب معها الضمان الأخير لبقائه في مواجهة شعبه، ولم يكن رفاقي في ملاعب التنس والاسكواش يكون العداء في قلوبهم للبريطانيين، ولكنهم كانوا عازمين كل العزم لوضع نهاية لأى تدخل أجنبي في شئون بلادهم، بل كانوا على استعداد لخوض الحرب من أجل أفكارهم إذا وصل الأمر إلى هذا الحد.

ومن وجهة النظر البريطانية، بالطبع كان ذلك يسبب مضايقة، لكن هل يستطيع أحد أن يلومهم في ذلك؟ فلو قدر لك أن تدخل تحت جلد المصري فإنك سوف تدرك مدى الضغوط التي رزح تحتها مواطنوه، ولكي تفهم السبب كيف يكونون محملين بالتاريخ ومحرومين من السلطة، فعبر آلاف السنين عانوا الأمرين من الاستغلال الأجنبي، حتى بدا فيها أن أحداث انفجار هو الترياق الوحيد . فالمصري يعتريه كبرياء يشعر به، أن من أرضه بدأ التاريخ ذاته، فكل الحضارة المدونة خرجت من وادى النيل الضيق، غير أن الأمر بالنسبة للرجل العادي في الدلتا كان على امتداد التاريخ قصة الفساد والاضطهاد الهابط عليهم من السلطة العليا .

وهناك وثيقة من البردى في المتحف البريطاني عبارة عن مراسلات بين امينيمان Ameneman (*) مدير مكتبة رمسيس الثاني وبين الشاعر بنتاؤر تسائل فيها امينيمان: هل دار بخلك قط مدى خوف الفلاح الذي يفلح في الأرض؟ فقبل أن يلمس منجله محصوله، يكون الجراد قد أخذ نصيبه منه، ثم يأتي دور الفئران والطيور، وإذا تقاعس في الحصاد تمتد يد اللصوص إلى المحصول، وسيموت حصانه (حماره) من شدة العمل، ثم يصل جامعو الضرائب ومعهم أتباعهم مسلحين بالهراوات، ويصحبهم أيضاً زنوج يحملون

(*) ربما هو الذى ذكر فى القرآن الكريم باسم هامن.

سياطاً من كعوف النخيل، وكلهم يصرخون: « أعطنا غلتك ! » ولم يكن أمامه من سبيل يتجنب به مطالبهم الغربية، بعد ذلك يلقي القبض على المسكين ويقيده ويرسل للعمل الشاق بدون أجر في حفر القنوات، ويأخذون أيضاً زوجته ويقيدون بها ويجردون أولاده من ثيابهم وينهبون . لم يتغير وضعه عما كان عليه كثيراً منذ ٣٢٠٠ عام . فخطاب امينيمان يمكن أن يعيد الذاكرة لكتابات كتابته لوسى دف جوردون Lucie Duff Gordon منذ أقل من قرن مضى، حتى بالرغم من أن الضرب بالكرباج أصبح محظوراً وقتذاك، إلا أن وكيل الباشا كان لا يزال يمسك بهراوته . لقد كان الفلاح عام ١٩٥٢ بعد الميلاد ليس بأحسن حالاً فيما كان عليه أجداده عام ١٢٥٢ ق.م. فلا عجب إذن أن يصر ناصر وفريقه الذين جاءوا جميعهم من أصول فلاحية على إحداث تغييرات جوهرية في النصف الثاني من القرن العشرين.

وفى مواجهة هذه الحقائق، تم التوصل في النهاية إلى اتفاق بالجلاء عن منطقة قناة السويس، وقبل بضعة أيام من انتهاء صلاحية معاهدة ١٩٣٦ غادر آخر جندي بريطاني بور سعيد، غير أنه لم يمض أربعة أشهر ونصف حتى عادوا تحت وابل من نيران أسلحتهم ليعيدوا احتلال المناطق التي جلوا عنها، فقد أظهرت أزمة السويس بكل مآسيها النفور الكامل للعقليات بين رجال الهوايتهول White hall (مقر الحكومة البريطانية) والقاهرة .

وكما حدث، بعد أيام قلائل من تأميم القناة، كان المسترسلوين لويد Selwyn Lloyd ضيف الشرف في حفل استقبال أقيم في لندن . وكان السيد وزير الخارجية المذكور قد عاد لتوه من رحلة طيران سريعة في أول المساء، حيث التقى مع جى موليه Guy Mollet وكريستيان بينو Christian Pinaud في باريس، حيث اتخذ قرار الرد كما يستشف بغزو مصر . وبعد العشاء ألقى خطاب بدأه بالإشارة إلى موضوع قبعات " نينا " (وكانت نينا إحدى بطلات الرياضة الروسية وجهت إليها تهمة سرقة زوجين من القبعات ثمنها ١,٧٥ جنيه استرليني من أحد محلات شارع إكسفورد وقامت السفارة الروسية بتهديبها محدثة زوبعة من السخرية) قائلاً: " إننا لن نسمح لإجراءات العدالة البريطانية أن تخضع لمثل هذا السلوك " ثم رفع يديه في

غضب قائلاً: " إننى واثق من أننا سنكون على حق لو اتخذنا موقفاً صارماً".

أن يستهل خطابه بسخرية ضاحكة فهناك ما يبرر ذلك وهذا عدل، لكنه تحول فجأة إلى موضوع قناة السويس وهجوم ساخر على عبدالناصر.

وهنا يلمس الواحد منا أنه يريد أن يربط في تفكيره بأن نينا وناصر لسان يجب أن ينالا عقابهما ولا يجب أن يتركا ليفلتا بما أخذاه . ويجب أن يلقي عبدالناصر درساً . وما أفلقنى حقاً فشله الواضح والذي تردد صداه بين كثير من أصدقائه في إنجلترا - في أن يتفهم تتابع الأحداث التي حدثت بناصر أن يقوم بهذا العمل، وقبل كل شيء تغاضيه عن الضغوط التاريخية والديموجرافية بل حتى الإنسانية التي ربطت بين سد أسوان العالى وقناة السويس وحياة ثلاثين مليون نسمة (عدد السكان في ذلك الوقت) يعيشون في دلتا النيل . لقد كان أمراً منافياً للعقل أن يطلق على عبد الناصر لقب "الرص"، لأنه لم يسرق القنال، كما أنه تصدى بطريقة كانت له فيها اليد العليا، وكان لديه من الأسباب ما يكفي لغضبه، ولكن كان هناك حاجة ماسة لتقييم الموقف بعيداً عن العواطف وإجراء مفاوضات على مستوى الند للند.

وإذا ما رجعنا إلى الوراء إلى ذلك المنظر البراق يوم أن جاء نابليون بأوربا إلى مصر ليدرك المرء كم هناك من حاجة إلى إلقاء نظرات جديدة ليس على وجهات النظر الأوربية فحسب، لأن مصر معروفة جيداً، بل على الجانب المصري من الرواية . ربما لم يركز على هذا أحد بالقدر الكافى بالنسبة إلى الجمهور الناطق بالإنجليزية على الأقل، لكن بعد مهزلة السويس أصبح ذلك ضرورياً أكثر من أى وقت مضى .

كانت مسألة السويس إما جريمة، أو عمل طائش، إن لم يكن قد أسدل الستار على قصص الاستعمار الإنجليزي الطويل وبطولاته، فقد أعطت ناصر الإلهام ليشرع في مغامراته خارج البلاد والتي كتب لها الفشل . كما ساعدت أجهزة الدعاية أن تحدث ضباب الشك والكراهية . وكان هذا يعنى أن العلاقات بين البلدين بقيت متأزمة بشكل غريب . وربما كان هذا أمر لا

مفر منه طالما بقى يمسك ناصر بدفة الحكم . ولكن الآن توجد رغبة لدفن الماضي بدأت تحطم جدار العداء. والذي لا شك فيه أن المصريين اليوم يشعرون أكثر مما كانوا يشعرون منذ وقت طويل بالاتجاه العاطفي نحو إنجلترا . فقد سارعوا بالإمساك بيد الصداقة التي مدتها إليهم سياسة إدوارد هيث Edward Heath في الاقتراب من المشكلة بعقل مفتوح جديد كما أن تجول السير أليك دوجلاس هيوم Alec Douglas Home بين الآثار وهو يركب الجمل (وهو الآن معروف بين زملائه بكنية The Cammel Laird) كانت لمسة من العبقرية، فقد لجأ إلى المزاج المرح، وبذلك ألغى بضربة واحدة عقوداً من "العنطرة".

وبالرغم من أن أنور السادات يبدو في بعض الأحيان غامضاً إلا أن إمساكه بالحبل بشدة يتخللها فترات من اللين . لقد بذلت الدبلوماسية المصرية المتشددة الكثير لكي تكسب لمصر تعاطفاً دولياً في موقفها الذي لا تحسد عليه.

وبالرغم من أن ذلك يبدو محيراً، إلا أن هناك بعض العوامل الأساسية التي يجب أن تبقى في أذهانتنا، فلو أن الروس بقوا متخندقين بقوة في الدلتا اليوم، فإن ذلك للمصلحة النفعية وليس من باب الاختيار . لأن المصري العادي لا يحب ولا يحترم النظام الشيوعي لكنه لا ينكر أن روسيا هي الأفضل بالرغم من أنها التي تقف إلى جانب مصر في هذه الورطة القائمة، بينما تبدو أمريكا في عيونه هي الأفضل على وهي تفعل العكس من ذلك تماماً . وبسبب رعونته الجيوبوليتيكية فتح الغرب الطريق للتسلل السوفيتي . لقد ساهمت أزمة السويس، وتصرفات ليندن جونسون Lyndon Johnson واللوبي الصهيوني في واشنطن جميعاً في اندفاع القاهرة التدريجي نحو مخالب موسكو .

وعندما تحل المواجهة المزمنة مع إسرائيل حلاً نهائياً وتعاد سيناء، والتي كما نفهم هي الشغل الشاغل لاهتمام القاهرة في هذه اللحظة فسوف تكون هناك فرصة لعودة السلام إلى ربوع الشرق الأوسط . وعندما يحدث ذلك

فإن مصر ستصبح أبعد بكثير من أن تستضيف القوات السوفيتية وصواريخها(*)، غير أن الاتحاد العربي وحلفاءه ينظرون إلى القضية نظرة واضحة المعالم، فهم يعتقدون أنهم لا يقاومون الإسرائيليين وحدهم، لكنهم يقاومون مصالح أمريكا الاقتصادية الممتدة عبر إسرائيل، ولذلك يميلون بشدة إلى ضرورة استخدام روسيا كقوة مضادة .

ومرة أخرى، في حين أن المرء على أى حال قد يبدو متعاطفاً مع المأسى والآلام التي تعرض لها اليهود، يجب أن نضع في ذاكرتنا أن الدولة اليهودية ولدت وتوسعت على حساب العرب، فإسرائيل الحديثة ما هي إلا طائر الوقواق الذي يعشش في الشرق الأوسط . إن المصير المحزن الذي لقيه اليهود في ألمانيا وشرق أوروبا لم يكن خطأ الفلسطينيين، لكن كان عليهم وعلى جيرانهم أن يدفعوا الثمن، وليس هذا دليلاً في حد ذاته: إنما هي مسؤولية جوهرية وتاريخية لا نستطيع نحن في الغرب أن نتهرب منها . ومع الأسف ليس ذلك الأمر الوحيد، فكلما تعمق الإنسان في المسألة كلما أدرك أن العالم العربي منذ أيام نابليون، والمصريون على الأخص، ليس لديهم سوى القليل المفيد ليشكرونا عليه . فهم كما هم اليوم واقعين في شباك القوى الكبرى، دافعين ثمن الأخطاء أكثر من المخطئين أنفسهم .

هناك أمر معين يتوق إليه دائماً الرجال والنساء العاديون في مصر قبل أى شىء وهو أن يتركوا لحالهم يعيشون في سلام، مسالمين وتواكليين يعملون تحت النير عمل شاق لا يتوقف سواء في الحقول أو بعض الوظائف الحكومية المجمدة، وطموح أغلب الشعب لا يزال بسيطاً، وهو أن يكسب بعض القروش الإضافية لتحسين وضعهم قليلاً، وطموح الغالبية العظمى من المصريين لا يتغير وهو الحصول على سبع أو ثمان أكواب من الشاي الثقيل مضافاً إليه الكثير من السكر يومياً، وفي مناسبات الأعياد تناول وجبة اللحم الضأن المشوى أو الكفتة، وقضاء ساعة أو ساعتين في مقهى القرية .

(٥) وكما يبدو أن الأحداث قد أثبتت ذلك منذ أن ظهر هذا الكتاب .

وجلباب جديد في شم النسيم (عيد الربيع) .. هذه هي طموحات الغالبية العظمى للفلاحين للمصريين التي لا تتغير . يضاف إلى ذلك أهمية عامل الدين، وصلة الرحم، والقرية والكرامة الشخصية . لقد حقق جمال عبد الناصر حسين شيئاً لهذا الشعب، لقد أعطاهم القوة الدافعة لكي يفخروا بأنهم مصريون، وهو إحساس حرموا منه منذ أيام الفراعنة .

إنه لمن الصعب أن نقرر عما إذا كان ناصر قد فعل الكثير أو القليل داخل مصر خلال السنوات الثمانية عشرة التي قضاها في السلطة، إذ لا يزال من السابق لأوانه أن يصدر حكم عما إذا كانت سياسته الداخلية قد نجحت أو فشلت . إن العواطف التي فجرها خارج الحدود كانت كالبركان حتى أن الكثيرين من مواطنيه يجدون صعوبة في أن يتبينوا أن القاهرة قد أصبحت واحدة من محاور القوة الهامة في العالم الثالث غير المنحاز، لكن لذلك جانب آخر، وكما لاحظ جيمس الدردج James Aldaridge أي كتاب عن القاهرة: "ليس في مقدور أحد أن يتنفس في هذه المدينة دون أن يحس بهمساتها العصبية وابتهاجاتها خالية البال وذلك لأسباب بسيطة فربما لا توجد مدينة في العالم تضحك أكثر منها، ليس فقط من نكات اللاذعة، ولكن أيضاً من حالها الذي يدعو للسخرية" فكثير من سحر المصريين الجارف يقبع في استعدادهم لتحويل أي أمر جاد إلى "هزار" ومضاعفة الضحك عند أقل ذريعة .

لقد قال لي من هو ذات مرة إن إطلاق النكات تصرف طبيعي عند المصريين، كما تفعل أغنية كالبسو Calypso عند سكان جزر الهند الغربية أو كما تفعل الأناشيد الروحانية الدينية أو الجاز عند الزنوج الأمريكيين، وليس الغريب أن يضحكوا فيما بينهم وبين أنفسهم عند فكرة أنهم يلعبون دور "السيد العربي" لقد كانت مصر دائماً أهم بلدان الشرق الأوسط، ولكن بالرغم من ذلك حتى في أيام قمة مجدهم عندما كان نجم عبد الناصر يشق عنان السماء، فإن قليلاً من المصريين كانوا يرون أنفسهم حقاً قادة للعالم العربي، بل حتى لو نظروا إلى أنفسهم على أنهم عرب فقط، ففي داخل أفئدتهم كانوا دائماً ينظرون إلى الماضي، غارقين بعشق وحماس في أمور بلادهم الأساسية، وقلماً كان لهم أي اهتمام بالاستراتيجية الدولية . والآن وهم

يجددون أنفسهم وقد نال بهم الإرهاق مبلغه من جراء المغامرات الخارجية بينما، يوجد الكثير الذي يتوجب عمله في الوطن . وبالرغم من الحديث عن المعركة القادمة التي لا مفر منها، وعن مظاهرات الطلاب (والتي هي تعبير خالص عن الإحساس بالضيق الوطني) فإن المصري في جوهره رجل سلام.

إن أنور السادات يدرك ذلك جيداً، عندما يتفاوض ببراعة وثقة بالنفس كتلك التي يفصل بها تاجر البازار لاستعادة الأراضي التي سلبها الإسرائيليون دون أن يلجأ إلى السلاح . كما أن جولدا مائير وموشيه دايان يعرفان ذلك أيضاً مما قد يشكل سبباً برجماتياً لعناد تل أبيب التي تتبنى وجهة نظر الذي لا يستعمل شيئاً ولا يدع غيره يستعمله، ومادام المتخصصون في حل ألغاز الكلمات المتقاطعة في الهوايت هول يدركون ذلك أيضاً، فإن هناك الآن سبباً وجيهاً لعقد الآمال على صياغة علاقات وثيقة من الصداقة بين جيل جديد من الإنجليز والمصريين .

وتأسيساً على هذه الملاحظة المتفائلة، دعني أضيف: وبالرغم من وجود مساحة خافتة من الاستعلاء والاستغلال، لا تزال فترة القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين التي تمثل فصلاً فاصلاً للاستعمار الأوربي تمثل مرحلة مثيرة مثل أى فترة من تاريخ مصر الرائع .

إن الموضوع الذي اعتنى به هو وصف تتابع أحداث العصور منذ اللحظة التي ظهر فيها نابليون عام ١٧٩٨ حتى رحيل عبد الناصر عام ١٩٧٠ مركزاً على القضايا الأساسية والأزمات التي عصفت بالأرض العريقة في العصر الحديث، غير أنها مرت مرور الكرام على التطور الهائل في مجال التكنولوجيا والاقتصاد والسياسة خلال العقدين الماضيين لأن ذلك يقع خارج مجال الكتاب متمنياً أن يكون ذلك موضوع جزء مكمل . ومن ثم فقد قصد به أن يكون إلقاء نظرة بانورامية إطلائية لمصر في العصر الحديث.

وأستطيع أن أدعى لنفسي أنني كنت على مسرح الأحداث لأكثر منذ ربع

قرن، وهى الفترة التاريخية التي يغطيها هذا الكتاب . حقاً لقد انتهيت من كتابة أغلب فصوله خلال السنوات التي قضيتها في بيتنا على ضفاف النيل في البدرشين حيث كان يحيط بنا الفلاحون وهم يعملون في الحقول، ومن ورائهم في الخلفية تقبع منف وسقارة فتحقق لى الإحساس بأننى بكل كيانى على اتصال بتراب مصر وروحها .

وبالرغم من استخدامى للمصادر التي ذكرتها في البليوجرافيا بطريقة متحررة، إلا أننى جمعت الكثير من مادتى التاريخية في القاهرة والإسكندرية، ولهذا سوف أكون مقصراً لو نسيت أن أسجل ما أنا مدين به من جميل لكل أصدقائى الذين لم يساعدونى في أصول الكتاب فحسب، بل شكّلوا على الدوام أفكارى، ووجهة نظرى إزاء تلك الأرض التي عشت على ترابها منذ أن كنت طفلاً يبلغ عمره ثلاثة أشهر . فخالص شكرى لعطفهم الدائم الذي لم يخذلنى قط، والذي جعل علاقة حبى لمصر لم يتوقف، ومن ثم فإنه من المناسب أن أهدى لهم هذا الكتاب . فإلى أصدقائى الكثيرين الرائعين؛ هذا واجب تقدير يقدمه "ابن البلد".

ريموند فلاور

تمهيد

نابليون يترصد إنجلترا

ففي ليلة سادها الصقيع من شهر نوفمبر ١٧٩٧، بينما كان سكان الوديان المتناثرة يتكدسون حول مدافئهم، هرولت قافلة عسكرية فرنسية من ناحية الشمال عبر الألب... إنه المواطن الجنرال بوناپرت عائداً من إيطاليا.

لقد حقق وهو في سن الثامنة والعشرين من عمره نجاحاً مذهلاً، ففي خلال خمس سنوات فقط علا نجمه من رتبة ملازم مجهول في سلاح المدفعية إلى منصب القائد العام للقوات الفرنسية في إيطاليا... قائدًا عاماً لقوات تمرست في القتال، وتدين له بالولاء، وعن طريقها تمكن من اجتياح شمال شبه الجزيرة (الإيطالية)، ووضع نهاية لجمهورية البندقية، وأجبر إمبراطور جمهورية البندقية على عقد السلام، لقد كان يحيا حياة شبيهة بحياة الملوك، ويهلل له المعجبون به بأنه "ها نيبال الجديد" فقبل شهر كان قد وضع نهاية سعيدة لهذه الحملة بعقد معاهدة كامبو فورميو Campo Formio.

ولكن في باريس حيث كانت الحكومة تتخبط في الفشل، وتواجه ألف مؤامرة، فقد كان يعرف أنه يتوجب عليه التعامل معها بحذر فلم يكن يدور بباليه أن انتصاره المذهل في إيطاليا لم يقابل إلا بأقل درجة من التقدير والإعجاب من جانب حكومة الإدارة الفاسدة، والتي كانت تنظر إليه بعين الغيرة والحسد، في حين أن ولاءه للنظام كان راسخاً لا جدال فيه (ولقد دار الهمس في باريس أنه دفع ثمن ترقيته من قبوله الزواج من إحدى عشيقاته أحد رجال الإدارة التي كان يريد التخلص منها)، لكنه لم يستطع أن يمحو من ذاكرته كلما هرول نحو باريس أنه قد ألقى القبض عليه مرتين، وزج به في غياهب السجن خلال السنوات الخمس السابقة، وأنه في هذه المرة، إذا ما قام بأدنى تحرك فاشل فسوف يكون في ذلك نهايته.

أما السبب في استدعائه هذه المرة فلم يكن سراً، إذ صدر قرار الحكومة في ٢٦ أكتوبر بتعيينه قائداً لجيش حملة إنجلترا، أو بمعنى آخر قائداً لغزو

بريطانيا . فلقد أطلقت معاهدة كامبو فورميو أيدي الجمهورية (الفرنسية) لتدخل في صراع مع عدوتها التقليدية، لكن كلما أمعن بونابرت في التفكير كلما أدرك أن القيام بعملية عبر القنال الإنجليزي لن تكون بكل تأكيد مجدية من الناحية العملية في ذلك الوقت . فلقد كان ضعف الأسطول الفرنسي عائقاً يدعو للتردد، كما أنه لم يكن لديه النية في أن يرتبط اسمه بعمل فاشل .

لقد سافر من مومبيلاو Mobello إلى راشتادت Rashtadt ثم إلى باريس بأقصى سرعة تسبقه شهرته . فعند كل قرية كان عليه أن يتوقف ويستمع إلى خطبة من عمدتها، وفي كل مدينة كان عليه أن يتلقى كرم الضيافة . ومن حين لآخر كان يفصح لرفاقه المسافرين معه بما يدور في نفسه فقد أسر إلى صديقه ميو ميليتو Miot Melito قائلاً: ما قمت به حتى الآن لا يساوي شيئاً؛ لأنني في بداية سباق كتب عليّ أن أخوضه، هل يدور بمخيلتك أنني حققت النصر ببساطة لأضمن بقاء هذه الحفنة من المحامين الذين يشكلون حكومة الإدارة رجال من نوعية كارنو Carnot وباراس Barras وفيما بعد قال له في راشتادت: وبالنسبة لي يا عزيزي " ميو " دعني أقول لك، أنني لم أعد أوامر فأطيع، لقد تذوقت طعم القيادة ولا أستطيع الاستغناء عنها . لقد توصلت إلى قرارى إن لم أصبح سيدا فسوف أغادر فرنسا ! ».

كان الاستقبال الحافل الذي استقبل به في باريس سواء من جانب مؤيديه أو منتقديه رائعاً مما بعث في نفسه السرور، ففي كل مكان رفرقت عليه أعلام الثورة ذات الألوان الثلاثة . كما أن الجمهور المبتهج كان مقتنعاً أنه (أى نابليون) ما أن يطل بوجهه على بريطانيا حتى تجثو الإمبراطورية البريطانية تحت قدميه، غير أنه سمع وهو يصيح: "هل تتوقعون منى أن أطرب لمثل هذه المظاهر العامة ؟ أتدرون السبب أنه نفس الجمهور الغفير الذي سوف يشاهدنى وأنا في طريقى إلى المقصلة"! . وعليّ مضض قام أعضاء حكومة الإدارة بتكريم الجنرال؛ حيث استقبلوه استقبالا رسمياً، وألقى باراس خطبة غراء مخاطباً إياه بقلب محرر إيطاليا ومحقق السلام لأوروبا . ففي لوكسمبرج اعتلى الناس الموائد ليفوزوا بنظرة على البطل، فشاهدوا شخصاً نحيف البنية، شاحب البشرة، يرتدى بزة زرقاء ويتمنطق بسيف يكاد يحف

بالأرض . غير أن مظهره هذا أثار حماس تاليران Talleyrand الذي كان على علاقة طيبة معه، وهو الذي وصفه بقوله: "إنه شخصية جذابة ذو بشرة شاحبة، يبدو عليه علامات الإرهاق . في حين أن أصحاب الصالونات الأدبية كانوا يتهامسون فيما بينهم بأن الجنرال الشاب يبدو كقط يرتدى الزي العسكري " ولقد كان سلوكه يجمع ما بين الجفاء والخشونة التي تتطلبها أصول المهنة، وبين الروح الاجتماعية الطيبة، وأحسن ما يقال عنه أنه كان ذا ابتسامة تسحر الألباب.

وبعد الاحتفال سارع هارباً من كل هذه الضوضاء، ومظاهر النفاق إلى بيته الصغير في شارع شانتييرن Rue Chanterine والذي أعيد تسميته بعد عودته إلى شارع النصر Rue de la Victoire وفي هذا البيت كان ينكب على عمله الروتيني مع هيئة أركان حربه من الضباط المكلفين بتجهيز المؤن والعتاد المتعلقة بالحملة، بل أنه كان يلتقى فيه بشخصيات مدنية من أدنى السلم الاجتماعي مثل صائدي الأسماك المتقاعدين، والمهريين المحترفين. وبدأ من مطلع شهر فبراير راح يستكشف موانئ الساحل الشمالي (فرنسا)، وبينما كانت عربته تتعثر فوق الحصى بين كاليه Calais ودينكرك Dunkirk، تأكد من مخاوفه بأن غزو بريطانيا في هذه الظروف سيكون بمثابة الكارثة المحققة، لكنه كان لديه النية عندما تحين الفرصة المناسبة أن يعمل على إسقاط الإمبراطورية البريطانية والحكومة الفرنسية أيضاً، لأن ثمرة الكمثرى لم تكن قد نضجت بعد في الوقت الحالي. ولذلك قدم للحكومة اقتراحاً بديلاً في الخامس من شهر مارس عام ١٧٩٨ بالقيام بحملة على مصر، وفي نفس اليوم الذي قدم فيه الاقتراح جاءت موافقة حكومة الإدارة.

قبل اثني عشر شهراً من ذلك التاريخ كان القنصل الفرنسي في القاهرة قد تقدم بمذكرة مطولة يقترح فيها أن الوقت قد حان للتدخل في مصر، وقال إن هذا التدخل سوف يجد ترحيباً ليس من جانب المصريين الذي كانوا ضحايا لحكومة ظالمة وفاسدة، بل سيجد ترحيباً أيضاً من جانب تركيا، صاحبة السيادة، إذ لم يعد سراً أن الباب العالي كان يعاني الأمرين من جانب بكوات المماليك الذين كانوا يسيئون معاملة الخمسين أو الستين تاجراً فرنسياً الذين

كانوا يقيمون في مدن الدلتا، ولم يكن هذا التقرير جديداً في مطلبه، فقبل ذلك وعلى طول السبعينات والثمانينات من القرن الثامن عشر، انهار على وزارة الخارجية الفرنسية التقارير بخصوص المسألة الشرقية، غير أن أحداً لم يكثر بها كثيراً، ولكن في هذه المرة أعاد صوت له نفوذ تكرر هذه الفكرة، وهو صوت شارلز موريس دي تاليران Charles Maurice de Talleyrand . في بداية حياته كان تاليران أسقفاً على أوتون Autun غير أن الكنيسة طردته من رحمتها لهرطقته، وكان قد عاد لتوه من حياة الدعة الاستعمارية في فيلادلفيا (حيث لجأ إليها حتى انتهى حكم الإرهاب) وفي قصر اللوفر ألقى محاضرة عامة كان عنوانها " حول مزايا مستعمرات فرنسا الجديدة " وقد أشار فيها إلى كيف أن بريطانيا قد سلبتها من فرنسا وكان آخرها في عهد آخر ملوكها . وإذا كانت الفكرة قد ضربت على وتر حساس، ولقيت استجابة من مستمعيه في باريس، فإنها أكملت دائرة تفكير هذا الشاب الحالم الذي كان في ذلك الوقت يعقد اجتماعاً في مومبيلو Mombello .

لقد كان نابليون بونابرت يحلم بسحر الشرق حتى منذ أن كان ملازماً أول، يقتل الساعات المملة الثقيلة داخل الثكنات في الأقاليم، بل أنه كان يسجل يومياته برصد بعض الملاحظات مثل - تاريخ مصر، وقرطاجة، والتتار، والآثار، بل وأبعاد الهرم الأكبر، وتاريخ تولى السبع والعشرين خليفة (من الآثار)، إلى جانب ترجمات لحياتهم، وتفاصيل دقيقة عن مسلك زوجاتهم، بل أنه دون عبارة تقول: " المجد كله يأتي من الشرق مثل الشمس Toute la Gloire vient de l'Orient comme le Soleil .

وفجأة تذكر ذلك الفتى الكورسيكي الذي تجرى في عروقه دماء البحر المتوسط فتوحات الاسكندر وقيصر، لكنه كان يقيس أحلامه بمعيار العقل والمنطق كما روى ذات مرة للكونتيسة ريموسات Remusat بأنه قادر على أن يربط بين رؤيته لإقامة إمبراطورية في الشرق، والتفكير في إلحاق الأذى بإنجلترا في الغرب .

وشاعت الأقدار أن يصبح تاليران وزيراً للخارجية بعد أسبوعين فقط من

إلقائه محاضراته الشهيرة، وعلى التو بدأ بونايرت يتراسل معه بخصوص مشروعه لتحقيق السيطرة على البحر المتوسط، فقد كتب إلى الوزير الجديد يقول: « ليس اليوم ببعيد عندما ندرك ضرورة الاستيلاء على مصر إذا كان في نيتنا تدمير إنجلترا. إنه في قدرتنا أن نبحر ونستولى عليها بقوة تعدادها ٢٥,٠٠٠ رجل يصحبهم ثمان أو عشر سفن حربية إن الإمبراطورية العثمانية الشاسعة التي تموت يوماً بعد يوم تدفعنا بأنه لا مفر من البحث عن وسيلة أخرى يجب أن نتبعها لكي نحمل تجارتنا في شرق البحر المتوسط ».

وسواء كان تاليران مقتنعاً بذلك أم غير مقتنع (فعندما فشل المشروع فيما بعد وتحول إلى كارثة ألقى كل منهما اللوم على الآخر) . غير أنه كان داهية دبلوماسية ولا يرفض فكرة ضرب عصفورين بحجر واحد إن استطاع، وأن الفرنسيين إن لم يحتلوا مصر فمن المحتمل أن تقوم بذلك قوة أخرى، وقبل كل شيء، كان يفضل أن ينشغل شخص ذو شعبية تثير قلقه في مشروع عسكري على ضفاف النيل على أن يراه يتسكع على ضفاف السين بدرجة تثير الخطر.

ومهما كانت دوافع تاليران الخاصة، فإن مقترحاته التي قدمها كانت تؤيد فكرة الحملة، كما تضمنت خطته أيضاً مشروعات لحفر قناة في خليج السويس ومشروعاً آخر للقيام بحملة لفتح الشام بعد احتلال مصر، وكان ذلك كافياً للحصول على تأييد حكومة الإدارة والوقوف إلى صفه، فقد وضح لهم أن مصادر تمويل إنجلترا تأتي من بلاد بعيدة عنها، وأن هجوماً ناجحاً لقطع خطوط المواصلات سوف يكون بمثابة ضربة قاضية، ويستبعد من ذلك القيام بحملة لغزو إنجلترا حتى قبل انتزاع الهند منها، فلو أصبح الأسطول البريطاني متورطاً حول الإسكندرية، فإن هجوماً خاطفاً عبر القتال الإنجليزي يصبح في الإمكان القيام به: وهكذا اتفقت وجهة نظر حكومة الإدارة مع وجهة نظر نابليون في الهدف، لكنها اختلفت في الغرض، أما الأموال اللازمة لتكاليف الحملة، فقد أمكن تدبيرها بالقيام بغارة خاطفة ومفاجئة على سويسرا . وخلال ست وسبعين يوماً من العمل المضني وتحت أقصى الظروف صعوبة، وبدرجة رائعة من السرية، ثم اختيار الفريق

المشارك في الحملة سواء على مستوى المشاة أو البحرية، أو الجهاز المدني حتى أصبحت الحملة جاهزة .

ولقد اختار نابليون أركان حربه من بين الضباط الذين كان يثق فيهم، كما اختار جنوده من بين أولئك الذين حاربوا معه بشجاعة في إيطاليا، وتم ذلك وهو جالس في مقصورة زوجته الخاصة (فقد كانت جوزيفين كثيرة التغيب وتكون عادة في حجرات نوم إما باراس أو معلم الرقص مسيو هيبوليت Hippolyte) وبمساعدة فريق من العلماء على رأسهم جاسبارد مونج Gaspard Monge وبرتوليه Bertholet عالم الكيمياء الشهير أمكن تجنيد عدد مدهل من المتخصصين للانضمام للحملة، فلقد كانت فكرة السير في أثر الجيوش العظمى في العالم القديم تجذب إليها عدد كبيراً من رجال الفكر كما تفعل قطعة المغناطيس . وبينما كانت إنجلترا متورطة في بناء إمبراطورية شاسعة، أدركت فرنسا الثورة أن الوقت قد حان لبعث الحياة في البحر المتوسط، والذي كان على مر التاريخ محور العالم .

حتى ميشيليه Michelet الذي كان أقل الناس إعجاباً به كتب يقول: "ليست هذه حملة عادية، حافظها الجشع، إنما دافعها أمل البعث الرائع النبيل" ولم يمض وقت طويل حتى كانت نواة جامعته الشاملة قد تكونت، فقد شملت علماء فلك، ونبات، وعلماء الهندسة، وعلماء في المناجم والمحاجر، وعلماء في الآثار وعلماء متخصصين في الدراسات الشرقية، وعلماء اقتصاد سياسى بالإضافة إلى زمرة من الموسيقيين والرسامين والشعراء، وقد بلغ مجموعهم ١٦٧ عالماً، كان أغلبهم في سن الشباب، اتجهوا واحداً بعد الآخر إلى ميناء طولون Toulon فقد كانت النية عازمة على دراسة كل كبيرة وصغيرة على أرض مصر، ذات التاريخ التليد بكل دقة متناهية . وقد يسخر مقاتلوه من جنود المشاة من هؤلاء العلماء الحالمين، ويطلقوا عليهم ساخرين لفظ "الحمير" لكن في نظر بوناپرت كانوا يمثلون أهمية بالغة، فهم الرجال الذين سيخلدون شهرته بأنه الإسكندر الجديد .

وفى صباح يوم ١٩ مايو عام ١٧٩٨ الباكر، اقتربت عربة تجرها خيول

ثم توقفت أمام فندق لانتاندنت L Inetendent في طولون، ومن أعلى الدرج هبط نابليون وقد تأبطت جوزفين ذراعه، ويقول شهود العيان أنه لم يظهر أى انفعال عاطفى لهذه اللحظة، فقد كان يجلس طوال الوقت في العربة صامتاً متبلد الحس، ومن حين لآخر كان يرفع أصبعه للرد على تحيات الجماهير، وعندما اقتربت العربة من حافة البحر طبعت جوزفين على خده قبلة الوداع هامسة في أذنه: متى ستعود؟ فأجاب وهو يهز كتفيه: « ربما بعد ست شهور، أو ست سنوات »، ثم أكمل هامساً وهو يضع قدميه على الرصيف: « وربما لا أعود أبداً » .

وعلى الجانب الآخر (من البحر) في ذاك الوقت نفسه لم يكن التهديد بغزو محتمل من جانب فرنسا يلقى تأثيراً كبيراً على الحياة اليومية، وإذا كان هناك ما يشغل الناس في إنجلترا فهو ما كان يحدث في الأسطول، إذ أن أعمال التمرد والشغب التي اندلعت في منطقة سبيتهيد Spithead كانت سيئة للغاية، بل لم يكد يمر شهر على حدوثها حتى اندلعت موجة تمرد شاملة في منطقة نور Nore، ولم يكن أحد يدرك بالطبع كم كانت حياة جندى الأسطول شاقة . لكنهم صدموا لما علموا أن تجنيد الأسطول يتم إلى حد كبير عن طريق الخطف، وإن جرایة الجندى قليلة لا تكفيه للغاية، وأن الأطباء في السفن يختلسون الدواء، ومرتبات العاملين والمتقاعدين لم تكف لإعالة أسرهم التي نادراً ما يرونها، وبالرغم من أن حركة التمرد قمعت بأشد درجات القسوة، إلا أنها أثارت الرأى العام بدرجة تكفى لممارسة الضغط على البرلمان وعلى قيادة الأسطول لمنحهم المزيد من التنازلات (وبالمصادفة فإن ذلك أقنع عدداً قليلاً جداً من الأجانب المقيمين الذين عاصروا هذه الأحداث في القارة، بأن الثورة الإنجليزية على وشك الحدوث).

ووسط هذا كله، أُنذرت صحف لندن أن الاستعدادات الفرنسية في موانئها على القنال قد وصلت إلى درجة عالية من الاستعداد والتأهب، كما أن عميلاً سرياً شاهد الجنرال بوناپرت على الطريق بين فورنس Furnes وبنكرك، وأبلغ آخر عن بناء قوارب واسعة الحجم في برست Brest ومن ثم فإن الحملة لم تكن مستبعدة تماماً، وبعدها بقليل انهالت التقارير بأن فرنسا تخطط



جاسبرد مونج من أشهر علماء الرياضيات والهندسة
كان أيضاً من المصاحبين لنابليون في حملته على مصر

لعملية في الجنوب على نطاق واسع . كما أن أحد ضباط الأسطول البريطاني الذي انتهت به مغامراته الطائشة أن يصبح سجين حرب في باريس، نجح في توصيل رسالة تفيد بأن حكومة الإدارة قد وضعت عيونها على مصر وعلى تجارة بريطانيا في البحر المتوسط، وبعد أسابيع قليلة تمكن السير سيدني سميث Sidney Smith من الهروب من سجن لوتمبل Le Temple، ودعا اللورد جلانفيل Lord Glanville لتناول الإفطار، ثم اصطحبه إلى القصر الملكي حيث أخبر الملك أن بطانة بونايرت قد شملت علماء في الرياضيات ومؤرخين وجيولوجيين يستطيعون كتابة التقارير عن الآثار وعن تطوير المصادر الطبيعية لمصر . كل ذلك بدا بعيد التصديق، وعلى أي حال فقد قرر "بت" Pitt رئيس الوزراء أن الوقت قد حان للتفكير في شئون البحر المتوسط، وفي الثاني من شهر مايو أصدرت قيادة الأسطول التعليمات إلى اللورد سان فنسنت Lord St. Vincent المرابط في قاعدة قادش Codiz بأن يبعث بمجموعة من السفن تحت قيادة السير هوارشيو نيلسون Horatio Nelson الذي كان قد وصل لتوه من إنجلترا وهو يقود سفينة القيادة لصاحب الجلالة Vanguard. وفي الوقت الذي وصلت فيه الرسالة إلى اللورد سان فنسنت في ٢٤ مايو، كان نيلسون قد سبقه في طريقه إلى طولون، وكان واقفاً في مازق .

قبل ذلك بأربعة أيام فقط، بينما كان الأميرال يقطع كمينته جيئة وذهاباً، غمره فجأة إحساس بابتهاج يفوق الوصف، فالبرغم من أنه كان قد فقد ذراعه الأيمن، إلا أنه أعيد ليتولى قيادة كتيبة طائرة تحمل تعليمات سرية بخصوص التعامل مع الفرنسيين . وبعد مغيب شمس يوم رائع، بدأ الجو يتقلب، وعند منتصف الليل بينما كانت سفينة القيادة فانجارد تستعد لمواجهة عاصفة، وجدت نفسها في خطر داهم، فقد مال قلعتها الرئيسي على جانبه، تلاه الشراع الذي يعلو المؤخرة، واستمرت العاصفة لمدة ثمان وأربعين ساعة، كانت خلالها سفينة القيادة فانجارد أن تصبح حطاماً . ولولا الحظ الحسن ومهارة بحارتها ما أمكن سحبها بسلام إلى خليج أورستانو Oristano في سردينيا، وهناك تم إصلاح العطب بمجهود جبار خلال أربعة أيام فقط .

وكما حدث، كانت هذه الأيام حرجة، فقد أبلغ تاجر أن بونابرت في صحبة ثلاث عشرة ناقلة للجنود وأربعمائة سفينة تموين، قد أقلعوا من تولون في اليوم الذي سبق على هبوب العاصفة . لقد انطلق الطائر، والأدهى من ذلك أنه لم يكن لدى نيلسون أدنى فكرة إلى أين يتجه هذا الفرنسي، وزاد الطين بلة، أنه اضطر إلى التوقف بسبب عدم هبوب الرياح .

ونستطيع أن ندرك مدى الإحباط الذي عاناه طوال الشهرين التاليين من خلال قراءتنا لما جاء في يومياته، إذ كتب وهو يتذمر: " حتى الشيطان له نصيبه من الحظ السعيد Even the devil has the devil s own luck، وبكل تأكيد لم يكن الحظ إلى جانبه في لعبة الاستغماية الدائرة حول البحر المتوسط، إذ لم يكن لديه سوى فرقاطتان تأتيان إليه بالمعلومات، كما أنه أخفق بالكاد في اللحاق بالقافلة البحرية الفرنسية. ففي ليلة ٢٢ يونيو وسط طقس ساهم الضباب بالقرب من صقلية مر على مسافة قريبة جداً من الأرمادا (الفرنسي) الذي كان يسير ببطء شديد حتى أن الاميرال دي بروي Breuys كان في إمكانه أن يسمع طلقات إشارة السفن البريطانية . وفي ذلك اليوم علم أن الفرنسيين قد استولوا على مالطة، ثم أبحروا بعدها شرقاً وذلك قبل أسبوع، ومن ثم انطلق نيلسون بكل سرعة قاصداً الإسكندرية، لأنه خطر له فجأة أنها سوف تكون هدفاً نابليون . وما أن وصل إليها في ٢٨ يونيو إلا أنه لم يرصد شيئاً فيها، فقد كان مينائها الشرقي خالياً من السفن إلا من سفينة حربية تركية واحدة وأربع فرقاطات، أما الميناء الغربي أو «الأفرنجى» فلم يكن فيه سوى خمسين مركباً تجارياً من جنسيات مختلفة، ومن ثم اعتقد أن الفرنسيين يوجهون شرورهم نحو مكان آخر، ولكنه في اليوم التالي بينما كان حراس الميناء يستطلعون بالمنظار فنار جزيرة فاروس بالإسكندرية شاهدوا بالكاد أشعة قافلة نيلسون البحرية وهي تختفي وراء الأفق الشمالى الشرقى في اتجاه آسيا الصغرى، عندئذ بدأ أسطول فرنسي هائل في الظهور والاقتراب من ناحية الشمال الغربى . وبينما كان نيلسون يوزع سفنه على طول ساحل آسيا من حلب حتى خليج إيطاليا، ثم مرة أخرى عبر كريت حتى سيراكوزة (صقلية)، كان نابليون قد وصل إلى سواحل الدلتا بسهولة كما

فعل الإسكندر وقصر في أيامهم . ولم يتبين لنيلسون أن ما خمنه في أول الأمر كان صحيحاً إلا عندما جاء يوم ٢٣ يوليو، ولم يكن خطؤه أنه وصل متأخراً قليلاً، ولكن لأنه وصل مبكراً قليلاً . ففي ذلك الوقت كان نابليون يستعد لدخول القاهرة الكبرى كقاهر، ومن هنا يبدأ تاريخ مصر الحديث.

الفصل الأول

تقلبات مفاجئة

كتب الشيخ عبد الرحمن الجبرتي في حولياته: " سنة ثلاث عشرة ومائتين وألف (من السنة الهجرية التي بدأت في ١٥ يونيو عام ١٧٩٨م)، هي أول سني الملاحم العظيمة، والحوادث الجسيمة، والوقائع النازلة، والنوازل الهائلة، وتضاعف الشرور، وترادف الأمور، وتوالى المحن، واختلال الزمن، وانعكاس المطبوع، وانقلاب الموضوع، وتتابع الأهوال، واختلاف الأحوال، وفساد التدبير، وحصول التدمير، وعموم الخراب، وتواتر الأسباب (وما كان ربك مهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون).

كان للفرع الذي انتاب الشيخ ما يبرره، فقد أحدث نابليون تأثيراً مزعجاً، لكن يجب أن نضع في الحسبان أن العنف والتقلبات المفاجئة لم تكن شيئاً جديداً على مصر، فعلى امتداد القرن سارت الحياة في مواجهة خلفية من التحزبات وأعمال الثأر، والحروب. فقد ظل وادي النيل تدوسه أقدام الغزاة لما يقرب من ٢٥٠٠ سنة، وكان الفراعنة في الحقيقة آخر المصريين الذين حكموا بلادهم. فبعد أن أزاح قمييز الفارسي الأسرة الصاوية تماماً عام ٥٢٥ ق. م. شهدت مصر مراحل متتالية لحضارة اليونان الراقية، وعنف العسكرية الرومانية، وتطرف المسيحيين الأولين، وظل الفلاح هو الفرد الوحيد الذي لم يتغير، ذلك الفلاح المصري الذي استمر يفلح الأرض، يشد الحزام على البطن ليقتصد حتى يفلت من المجاعات، وكان ضحية للاستغلال من كل من تصادف وملك زمام الحكم.

لابد وأن يكون الفلاح هو أقدم مخلوق في الدنيا. فقد شاهد كل شيء. فخلال العصور الوسطى شاهد بلاده، وقد استقل بها حكام مسلمون. ففي عام ٦٤١م حل العرب محل المسيحيين (البيزنطيين)، وأصبح الخلفاء سواء من دمشق أو بغداد سادة مصر. وفي القرن العاشر (الميلادي) تعرض هذا البلد لغزو جديد لكن في هذه المرة من قبل الشيعة حكام تونس^(١). ومن أشهر من

خلف هؤلاء المغامرين الذين جاءوا من شمال أفريقيا واجتاحوا الشام وصقلية ودخلوا في صراع لم يتوقف ضد الصليبيين هو ذلك القائد الأسطوري صلاح الدين (الذي عرف عند الصليبيين الذين انتزع منهم بيت المقدس باسم سلاطين Saladin). وإلى جانب تشييده قلعة القاهرة التي أصبحت لستة قرون تالية. مركز أعصاب مصر. ترك صلاح الدين أثراً في مجال آخر ظل باقياً عبر القرون، إذ أنه جرياً على عادة الخلفاء في بغداد، راح يفتش في أسواق الرقيق في آسيا الصغرى، بحثاً عن فتیان النصارى ليشد من أزر قواته الكردية (إذا لم يكن من الصعب العثور على القوى البشرية، ففي ذلك الوقت كانت أسواق القسطنطينية تملج بأبناء اللاجئين الفارين من التتار). وبسرعة مذهلة تمكن من أن يجعل منهم قوة مقاتلة، ذات كفاءة عالية. استطاع بها اجتياح الشام، ونجح أخيراً في طرد الصليبيين من الأرض المقدسة. ولوقت طويل لم يكن هناك مثيل في التاريخ لنظام المماليك الحربي القائم على تجنيد الرقيق. والذي لم يوجد إلا تحت راية الإسلام فقط، ثم تحول إلى طبقة اجتماعية كاملة، لها قوانينها الخاصة وتقاليدها المتبعة، والتي أسقطت أسرة صلاح الدين ذاتها، بل أنها ظلت تحكم مصر لستة قرون بكل مظاهر الأبهة والفساد.

إن مصطلح "مملوك" يحمل سراً غامضاً يثير الفضول، فالبرغم من أن معنى المصطلح في اللغة العربية، يعنى "الرقيق" المملوك أو العبد، وعلى الأخص العبد الذكر، ذى البشرة البيضاء، الذى يشتري لى يصبح مجنداً فى الجيش. وكانت القاعدة الأساسية لنظام المماليك هو الولاء المطلق، ليس للجيش ذاته أو بمعنى آخر للتاج، و لكن لسيد معين الذى تم عن طريقه شراء المجند أو الذى على يديه قد يتم عتقه فى ظروف مناسبة.

وما أن تقوم أسرته ببيعه، أو فى حالات أكثر احتمالاً أن يقوم نخاس بختفه من قريته فى إقليم القوقاز، حتى يجد الصبى نفسه مشحوناً فى سفينة مع آخرين مثله، تتجه بهم إلى القاهرة، حيث يعرض للبيع عارياً فى أسواق الرقيق، ويظل ينتظر حتى يشتريه أحد بكوات المماليك، وهنا تنقطع الصلة النهائية بينه وبين أسرته ووطنه بعد أن يفقد هويته بل حتى عقيدته الدينية،

ويصبح عضواً في طبقة عسكرية، ذات قوانين صارمة، وتقاليد رهيبة.

وبالرغم من أنه كان يعيش داخل ردهات قصر البك، إلا أنه قد يجد نفسه يوماً ما ابناً متبنياً داخل أسرة سيده الكبيرة، شديد الولاء لمولاه "البك" ولرفاقه من المماليك، ويبدأ تدريبه لكي يصبح عضواً في طبقة خاصة من الإخوان، تحتقر الفلاح وغير العسكريين على السواء، بل تنظر إلى الزواج وحياة الأسرة كشئ قد يقضى على مهنته كرجل حرب.

وإذا جانبه الحظ في سوق الرقيق، فقد يشتريه السلطان نفسه، أو واحد من بكوات المماليك، ذوى النفوذ، بعدها يرسل الفتى المملوك إلى مدرسة عسكرية حيث يتعلم أصول القراءة والكتابة وحفظ القرآن الكريم، وتصل موهبته في فنون الكر والفر، وكان محظوراً عليه بتاتاً الاتصال بالعالم خارج المدرسة. التي كان يطبق فيها النظام الصارم عن طريق نظام ولاية الأقدم في الخدمة على الأحدث فيها، فقد كان المماليك الأقدم في الخدمة يسمون "الأغوات"^(٢) ويتولون أمور باقى المجندين، وخلال مدة الدراسة في المدرسة لم يكن المملوك يتلقى أى راتب، ولم يكن له أى حقوق، ولكن ما أن يتخرج منها حتى يمنح بشكل رسمي حق الحرية والعق.

وإذا ما نظرنا من هذه الزاوية فإن نظام الرقيق كان نظاماً قديماً كوسيلة مناسبة للتجنيد فى المهن والحرف المتعلقة بالحرب والصناعات الأرستقراطية الراقية. ولا ننسى أنه لم يكن ينظر إلى الرقيق نظرة العار فى بلدان الشرق، إذ أن العبد لم يزد عن كونه مستخدم مأجور. وبالطبع لم تؤت الفرصة لأغلب المماليك لكي يعتقوا، فقد قضى كثير منهم حياته كلها فى العبودية، تلك المرحلة التي مروا بها جميعاً بدءاً من السلطان والبكوات ووجهاء الدولة، بل أكثر من ذلك أنهم كانوا فخوريين بها. فبعد عشرين عاماً من شرائه وهو طفل من قرية ما فى أرمينيا بما يساوى مائة دولار، أصبح برقوق سلطاناً على مصر، وبعد عشرين عاماً من شراء برقوق له، أصبح المؤيد بدوره سلطاناً على مصر^(٣)، وكما لاحظ أرنولد توينبى: "ما أن وطأت قدما هذا العبد الشركسى أرض مصر حتى رأى أن المستقبل مفتوح

أمامه... وأدرك أن القدر قد يشاء له أن يصبح سلطاناً ثم أضاف ساخراً "ورغم أنه أصبح سيداً إلا أنه كانت تتملكه روح العبد".

كان الفتى المملوك يدرك بكل ثقة أنه لن يمر وقت طويل حتى تكون المناصب العليا متاحة أمام مواهبه وقدراته، فقد يحتضنه البك لو كان ماهراً في فن الفروسية والمبارزة والسيف أو رمى السهام، أو ربما بسبب وسامته وجمال تقاطيع وجهه، وقد ينقل إلى بطانته الخاصة حيث يصبح "حامل المحبرة" أو حامل "الغليون" وفي الوقت المناسب وبضربة حظ قد يرقى إلى درجة أمير "العشرة" وهي أولى درجات سلم الوظائف القيادية، ومعها يبدأ اشتراكه الطائش في مؤامرات القصر. وكان الترقى يعنى الثراء وإمكانية الصعود إلى زمرة الطبقة المتحكمة في البلاد، وتأسيس بيت حاكم خاص به.

كان السلطان - أقوى البكوات الذين نجحوا في انتزاع العرش^(٤) - يحكم من القلعة، وكان له قواده، ولقواده نقباؤهم، وللقباء ضباط برتبة ملازم، لكل واحد من هذه الرتب سرايا من القوات يأمرون بأمر رئيسهم الذى اشتراه وحرره، والذى يدين له وحده بالولاء والطاعة، ولقد كانت هذه القوة المنظمة التى تقوم على العنف والقسوة والدسائس، هى السبيل الوحيد الذى يضمن السلامة للعرش، فقد كان العرش على الدوام مهدداً من قبل البكوات الأكثر نفوذاً. وبالرغم من أن الابن، بل حتى الحفيد قد يرث فى بعض الأحيان العرش، غير أنه قلما نجد أسرة حاكمة تستمر فى البقاء بعد الجيل الثانى أو الثالث قبل أن يسقطها مغتصب جديد. والإحصائيات تتحدث عن نفسها فى ذلك، فمن بين المائتين والخمسين سلطاناً الذين حكموا مصر خلال فترة مقدارها ثلاثمائة سنة مات منهم أربع وعشرون ميتة طبيعية، وفى خلال الحفلات المجنونة فى القلعة كان الخنجر وكأس السم دائماً جاهزين، ولذلك لم يكن غريباً أن تكون القاهرة فى العصور الوسطى مسرحاً لروايات ألف ليلة وليلة.

فمن طريق القسوة والانتقام والتسلط، حكم سلاطين المماليك وقوادهم.

فقايتسباي - الذى كان من المفروض أن يكون حاكماً مستتيراً - وكانت له قلعته التى تواجه ميناء الإسكندرية فى المكان الأثرى لجزيرة فاروس، كان فى استطاعته بشخصه أن يجلد بالسياط رئيس مجلس الدولة وغيره من كبار الموظفين الآخرين ليحثهم للحصول على مزيد من الأموال للخزانة، وقد قيل أن أحد سلاطين المماليك قتل جواده بضربة واحدة من قبضته، لكن فى أغلب الأحيان كان السلطان يجد متعة فى قتل الناس، فقد كان يأمر بقتل العشرات من البشر بل أنه فى بعض الأحيان كان يمسك بيديه سيف الجلاد العملاق المقوس وحيد الحد ليقوم بنفسه بقطع رأس متمرّد، أما لو كان فى قلبه قليل من الشفقة فقد كان يكتفى بقطع يده أو ساقه أو يأمر بتركيب حدوة فى بطن قدمه مثل الفرس تماماً. وفى حالات أخرى قد ينهال بالهدايا على حاكم صديق أو صديق مفضل استولى على خيوله. أن الحالة التى عاشها المماليك كانت مذهلة: فمئات من رجال البلاط كانوا يحيطون بالسلطان، ولكل واحد من هؤلاء كان له أتباعه. (أظهرت وثائق السلطان بيبرس أن عشرين ألف رطل من الطعام كانت تعد يومياً لاستهلاك القصر، وأن التكاليف اليومية لشراء اللحوم والخضروات فى عهد السلطان الناصر بلغت ما يوازى عشرة آلاف دولار) لقد كان ثراؤهم عارماً مثل ثراء البندقية التى ارتبطوا معها معاهدات تجارية، وكان مصدره تجارة الهند فى شرق البحر المتوسط، فلكونهم سادة على مصر والشام، كان المماليك يفرضون مكوساً وجمارك على كل بالة من المنتجات الشرقية التى كانت تصل من الخليج الفارسي والبحر الأحمر عند مرورها فى طريقها إلى البندقية. وفى خلال القرون الست التى كانت فيها أوربا تشهد زلزالاً عجل بنهاية العصور الوسطى مثل حركة عصر النهضة والأحياء Re - naissance، وحركة الإصلاح الدينى، والحروب الأهلية، وصراع القوميات وموازين القوى، كانت هذه الأوليغارخية العسكرية تفعل ما يحلو لها فى ذلك الركن البعيد من البحر المتوسط. ولقد كتب ستانلى لين بول Stanley Lane - Poole يقول: «ينفرد المماليك بأنهم نموذج مناقض تماماً لأى سلسلة من الأمراء فى العالم، إنهم عصابة من المغامرين الذين لا يلتزمون بالقانون، إنهم رقيق فى الأصول، جزارون فى السلوك، متمرّدون، عطاشى لسفك الدماء، وكثيراً ما كانوا يلجأون إلى سلاح الخيانة، وبالرغم من ذلك كان هؤلاء السلاطين الرقيق

نواقيس للفنون. وهذا مسلك قد يوصف بأنه حميد يصدر من أى حاكم شديد التحضر قد يتصادف جلوسه على العرش بطريقة دستورية. فقد أظهروا فى منشأتهم وزخافها، وفى ثيابهم وأثاث بيوتهم ذوقاً رفيعاً وصفاء من الصعب أن يوجد له مثيل فى دول غرب أوربا، إنها إحدى الحقائق التى ينفرد بها تاريخ الشرق، فابن طولون التترى هو الذى وضع أول نموذج للمسجد الإسلامى الحقيقى فى القاهرة. إنهم سلسلة سلاطين المماليك كلهم أترك أو شراكسة، الذين ملئوا القاهرة بأكثر الآثار رونقاً وجمالاً يفوق أى مدينة أخرى.

وبالرغم من كل هذا الترف، فنادر ما كان لديهم الوقت للتفكير العاطفى فى الأسرة والبيت والوطن، فعلى طريقة الشرقيين، جعلوا المرأة فى وضع أدنى من الرجل فى سلم الطبيعة، فقد كانوا يميلون إلى معاملتهم كخليات فى بيوتهم، مهمتهم مخصصة لوسائل المتعة ولا شىء غير ذلك. فقد كان جناح الحريم مليئاً بالمحظيات من المصريات، والنوبيات، والحبشيات، ولو عقدوا قرانهم بالزواج. فإن ذلك يكون على نساء من بنى جلدتهم أى جورجيات أو شركسيات. ونادراً ما كانوا ينجبون منهم أبناء (فكثيراً ما كانت زوجات المماليك يلجأن إلى إجهاض أنفسهن للحفاظ على مظهرهن وسيطرتهن على أزواجهن^(٥))، وذلك لأنهن وجدن أنفسهن فى منافسة دائمة مع فتيات الرقيق (الجميلات) وأيضاً كانت الحياة غير مستقرة لهم فى مصر فى العصور الوسطى، فقد كانت جيوش المماليك فى تحرك دائم مما جعل الصورة العامة تبدو مكرسة للرجال ولطبقة اجتماعية معينة، وبالرغم من أنهم حكموا مصر لزم من طويل إلا أن المماليك لم ينتموا إلى أمه بعينها. إذ ظلوا على الدوام جيشاً متحفظاً للقتال، جنوده أجانب لا يربط بينهم وبين المصريين - أهل البلاد الأصليين - الذين كانوا فى الواقع هم الرقيق - أى رابطة أو مصالح مشتركة. وكما عبر عن ذلك ستانلى لين بول يقول: «أنهم قطيع من الذئاب الأجنبية تتحكم فى ملايين الأغنام وهم فى أمان كامل».

لقد كان اكتشاف فاسكو دا جاما Vasco da Gama لطريق الأطلنطى عبر رأس الرجاء الصالح عام ١٤٩٨ ضربة قاصمة لقوتهم التى تفككت بعد سبع

عشر عاماً عندما طارد السلطان العثماني جيشاً مملوكياً وطرده من الشام، ثم ألحق بهم هزيمة ساحقة بالقرب من القاهرة، ومنذ ذلك الوقت فصاعدا وحتى عام ١٩١٤ كانت مصر رسمياً جزءاً من إمبراطورية الأتراك.

وعلى طول إمبراطوريتهم وعرضها والتي وصلت في اتساعها إلى نفس القدر الذي وصلت إليه الإمبراطورية الرومانية الشرقية يوماً ما، لم يزد اهتمام الأتراك بأي ولاية أكثر من اهتمام مستثمر في مصنع اشترى أسهمه، ولم يكن لديه الوقت الكافي لزيارته، إذ كان الاهتمام الأوحـد للباب العـالى هو المقدار الدائم لأموال الضرائب. وبالرغم من أن إدارة مصر كانت من الناحية الأسمية في يد الباشا التي ترسله القسطنطينية، وأن كل شيء كان يتم التصرف فيه باسم السلطان إلا أن المماليك (الذين كانوا من الناحية النظرية يعترفون اسمياً بعميق الإجلال والتبجيل لصاحب الجلالة السلطان) استمروا يحيون حياة البذخ على حساب باقى السكان، وظلوا على حالهم يتآمرون فيما بينهم فى صراع من أجل التفوق على بعضهم البعض من آن لآخر. وبدأت قوة الباب العالى تنهار وتتضاءل، كلما أصبح مركز الباشا يزداد حرجاً، فقد ترك هذا الممثل للسلطة الهائلة بالرغم من أنها خاملة - معزولاً، فقد كتب عليه أن يترك ليغلى فى مرجل دسائس القلعة الذى أوشك على الانفجار.

وعندما بدأ كل من كلايف Clive و وارن هـيستتجز Warren Hastings فى استعمار الهندوسـتان عام ١٧٦٩، وكانت تركيا غارقة فى حربها مع روسيا، وجد البكوات فرصة سانحة، فقاموا بذبح الحامية التركية فى القاهرة، وأرسلوا الباشا مشحوناً كطرد. ولوهلة قصيرة من التاريخ وبتحريض من جمهورية البندقية وروسيا، استعاد المماليك بعض مجدهم المنقضى فاجتاح كبيرهم على بك(*) الشام وبلاد العرب حتى وصل إلى مكة وهناك بـويع خليفة للمسلمين، غير أن ذلك لم يدم طويلاً، وبعد أن دفعت رشوة مناسبة تنفست بعدها القسطنطينية الصعداء عندما علمت أن خنجراً فى ظهره قد

(*) كان على بك الكبير يشغل منصب شيخ البلد (المترجم).

وضع نهاية لطموحاته المزعجة. لقد كان ذلك أشبه بالمأساة. فقد كان على بك الكبير يمثل الحاكم المستتير الذى فعل الكثير ليقضى على الفساد وليجعل حياة الفلاحين أكثر يسراً. وقد حل محله اثنان من شباب البكوات هما إبراهيم بك ومراد بك اللذان اقتسما الحكم بينهما تحت السلطة الاسمية للباشا التركى. غير أنهما كادا يدمران البلاد لأن جشعهما للمال لم يكن له حد، وفى خضم مطالبهم القاسية توالى خذلان النيل وقت الفيضان، فاندلعت الأوبئة التى أهلكت القسم الأعظم من السكان.

وعندما وصل نابليون إلى مصر، لم يجد فيها سوى قشور حضارة، وبلداً مرهقاً يرسف فى أغلال الأسر، ولكنه أيضاً وجد أن المصريين عبر هذه القرون من الكوارث قد تعلموا أن يكونوا أصحاب وجهة نظر ثوابلية إزاء الحياة، وتعايشوا بطريقة ما مع سادتهم المبهرجين كغيرهم من الشعوب المقهورة، وأصبحوا منظويين على أنفسهم يرفضون التجديد بشكل يثير الغرابة، فهم يعيشون فى حالة من القناعة السلبية التى كانوا غير راغبين فى المجازفة بها. لقد كان وصول الفرنسيين يبشر بجلب رعب جديد لحياتهم المستكنة أساساً. وبينما كان يتصور أنهم سوف يستقبلونه بالعرفان كمخلص لهم - قام نابليون بأول - وليس آخر - أخطائه الجسيمة فى مصر.

الفصل الثانى

معركة الأهرامات

فجأة سمع كل واحد فى القاهرة الأنباء: فى مقاهى خان الخليلى وفى الحى الأفرنجى، ومن وراء مشربيات الحريم، وفى مجلس أهل الرأى فى القلعة حيث هرول إليها السعاة من الإسكندرية وهم يلهثون، فقبل يومين سرت شائعة بأن ثلاث عشرة سفينة حربية قد ألقت مراسيها قبالة شاطئ الإسكندرية، تلاها بعد ذلك، بوقت خمس عشرة أخرى. وأن زمرة من الضباط نزلوا إلى اليايسة فى قارب تجديف، وأنهم أخبروا الحاكم السيد محمد كريم بأنهم إنجليز جاءوا يتتبعون أسطولاً فرنسياً كبيراً انطلق إلى جهة غير معلومة. وأن الإنجليز يعتقدون أن الفرنسيين ينوون القيام بهجوم مباغت على مصر، لن تقدر الأهالى على صدده، وعلى ذلك طلبوا أن يلقوا مراسيهم قبالة الإسكندرية فى انتظار الأسطول الفرنسى، وأنهم يرغبون أثناء الانتظار فى شراء المؤن والماء العذب.

غير أن حاكم المدينة منحهم مهلة قصيرة، إذ لم تفت عليه أن فكرة قيام الفرنسيين بغزو مصر أمر يقلق الإنجليز، ورجح أن الإنجليز هم الذين يريدون الاستيلاء على مصر، إذ قال لهم بلهجة حازمة: هذه بلاد السلطان وإذا رغبتم فى محاربة الفرنسيين فى إمكانكم أن تفعلوا ذلك خارج المياه المصرية فأمامكم البحر بكامله.

وخلال الضجة التى أحدثها ذلك الحادث، شعر الناس أن الحاكم قد تصرف بوقار. وبعد أيام قليلة، جاءت الأنباء بأن السفن الإنجليزية قد أقلت بعيداً... وما كادت سيرة هذا الحدث تخبو، حتى فوجئ الناس بقعقه الحوافر المهرولة وقد عادت عبر بوابة النصر. وفى هذه المرة صدم سكان العاصمة عندما علموا وهم يقضون الوقت فى احتساء القهوة، وتدخين النرجيلة أن أسطولاً عرمرماً غطى البحر بلا نهاية قد ألقى مراسيه قبالة الإسكندرية.

ففى عصر اليوم الأول من شهر يوليو أذاع الساعة أن بعض الضباط الفرنسيين قد رسوا إلى البر، وتحدثوا مع قنصلهم، وفى مساء اليوم ذاته تحرك الأسطول بأكمله متجهاً إلى خليج العجمى الذى يقع على بعد أميال قليلة إلى الغرب، وفى فجر اليوم التالى، انتشر الفرنسيون خارج الإسكندرية "كالجراد".

ولم يكن قد مر وقت، حتى استطاع المصريون مواساة أنفسهم عندما علموا بأن رسو السفن لم يتم كما خطط له بونايرت. فخليج العجمى الذى هو الآن شاطئ راق لقضاء الصيف يزخر بصخور معروفة يغطيها الماء، وأخرى غير معروفة، وكما يحدث فى الصيف فإن هناك موج عال يتكسر على الصخر ويضرب الشاطئ بعنف، غير أن نابليون أدرك ضرورة إخلاء الموقع قبل أن يعود نيلسون، وقبل أن يأخذ المصريون حذرهم، أعطى أوامره بالرسو مهما كان ثمن المغامرة. ولهذا فإن كثيراً من المراكب الصغيرة غمرتها المياه، وأجبرت سفن أخرى على التراجع وغرقت سفن أخرى. وعلى طول الليل، لم يتمكن سوى أقل من لواء بقليل، من الوصول إلى البر بسلام وقد أصاب دوار البحر الجميع تقريباً، وغرق ثلاثون فرداً، حتى نابليون نفسه زحف وهو خائر القوى إلى الشاطئ بعد منتصف الليل بقليل وارتمى على الشاطئ يعتوره الإرهاق والانهيار.

وفى أثناء ذلك الوقت كانت أسواق القاهرة الكبرى تموج بالشائعات التى تروى تفاصيل كيف دعا السيد كريم جميع المسلمين الصالحين لطرد وتدمير الغزاة، وأنه رفض كل عروض التفاوض، وهاجم بكل ما لديه من أسلحة (التى للأسف لم تكن ندا لأسلحة الفرنسيين) وما أن دعى كاشف البحيرة على عجل، حتى جاء ومعه جنوده من البدو، غير أن كل ذلك لم يجد من الأمر شيئاً، فقد ولى البدو هاربين، وبسرعة تسلق الفرنسيون حصون المدينة المتداعية، وأجبر السيد كريم - تعيس الخط - على الاستسلام.

لم يلاحظ أحد خلال الذعر الذى قوبلت به الأنباء أنه من بين الإصابات فى الجانب الفرنسى كان اثنان من كبار الجنرالات، وربما كانت حادثة أن

كليبّر قد تلقى ضربة فوق أم رأسه، وأن مينو سقط فاقد الوعي بسبب حجر سقط عليه بينما كان يتسلق الأسوار، مادة رائعة لأصحاب النكات، غير أن الوقت لم يكن وقت نكات، ففى مواجهة هذا الرعب المفاجئ، جمع كثير من سكان القاهرة أمتعتهم وفروا هاربين إلى الصحارى، بينما صاح المتطرفون مطالبين بذبح النصارى، واندفع جمهور غريب شق طريقه إلى قصر إبراهيم بك المطل على النيل، حيث كان كبار القادة العسكريين والمشايخ يعقدون اجتماعاً لمناقشة ذلك الحدث الطارئ. واستمر النقاش طوال الليل، فقد كان إبراهيم بك يميل لصالح خطة التفاوض مع الفرنسيين، بينما كان مراد يرفض أن يسمع ذلك مسترجعاً بكبرياء ذكرى انتصارات المسلمين فى الماضى على الصليبيين، وكان متحرّقاً للقتال، وأنهى الاجتماع وهو يصيح قائلاً: دع الكفار يأتون فسوف أدوسهم تحت سنابك خيولى.

ولكونه جاهلاً بأى شىء يحدث خارج مصر، فقد كان مراد بك شديد الازدراء لكل الأجانب حتى أنه كان يعتقد أنه سوف يشق الفرنسيين كما يقطع البطيخ، وكان مقتنعاً أن الفرنسيين لن يجرعوا على الإقدام للنزول إلى البر، وأنهم سوف يحاربون من قوارب على صفحة النيل. ولكى يحبط أعمالهم، فقد أمر بمد سلسلة ضخمة من الحديد يبلغ طولها ثلاثمائة قدم (أى واحد وتسعون متراً) عبر شاطئ النيل يحرسها قوارب مزودة بالمدافع، معلناً أن ذلك يفوق طاقة الفرنجة للدخول فى معركة، وبعد أداء فروض الصلاة، انطلق مراد بك على رأس قواته يتحدى الغزاة.

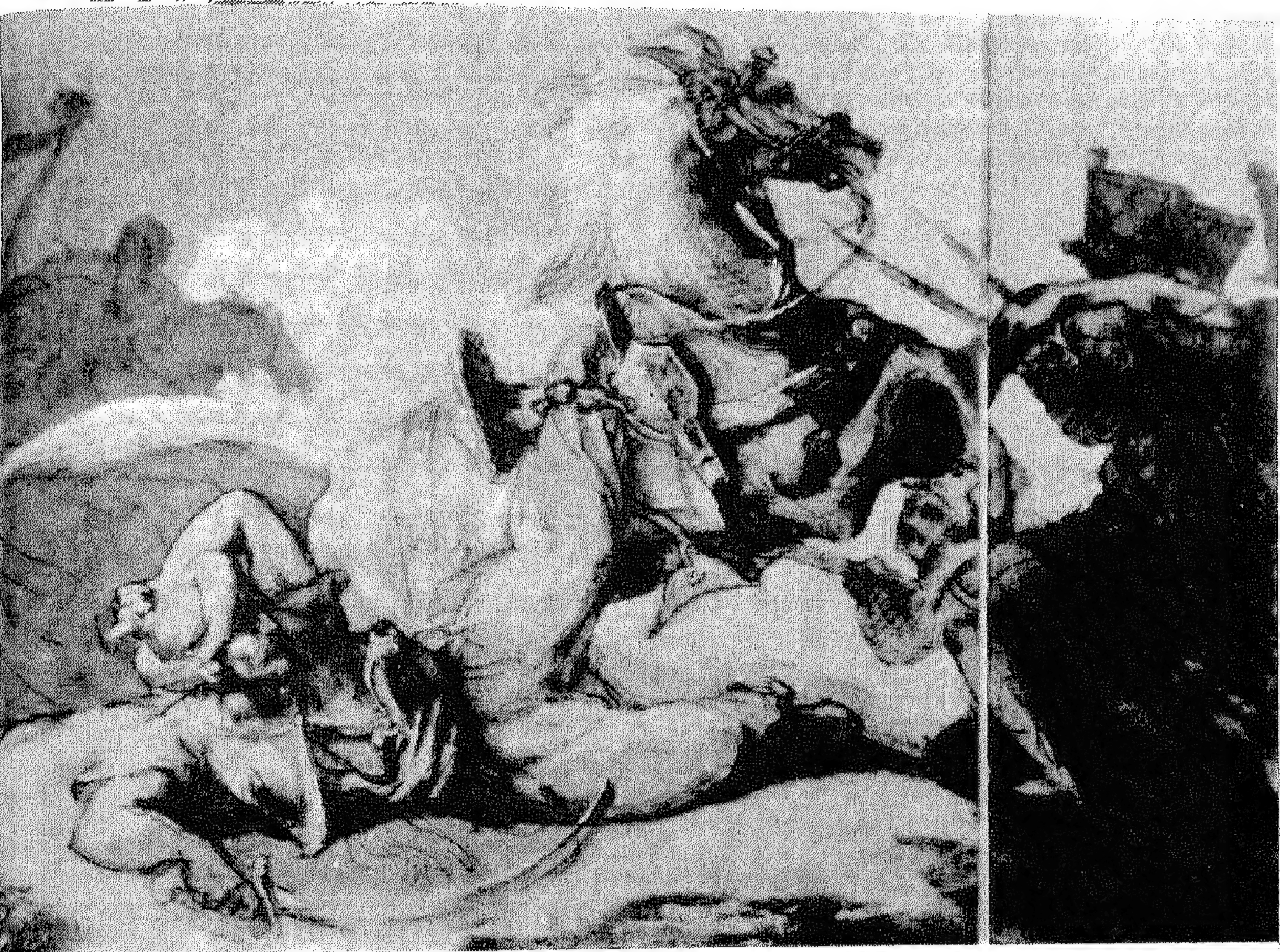
أما الذين بقوا فى الخلف فقد كانوا بعيدين كل البعد عن مشاركته هذه الثقة بالنفس، فقد كانت أعصاب الناس متوترة حتى أن السلطات أصدرت أمراً بأن تظل المقاهى مفتوحة طوال الليل، وفيها كان السكان يهزون رعوسهم رفضاً حول بيان الجنرال الذى كان قد هرب من الإسكندرية مع أمواج اللاجئين. وجاء فيه: يا أيها المصريون قد قيل لكم أننى ما نزلت بهذا الطرف إلا بقصد إزالة دينكم، فذلك كذب صريح فلا تصدقوه، وقولوا للمفتريين أننى ما قدمت إليكم إلا لأخلص حقكم من يد الظالمين، وأننى أكثر من المماليك أعبد الله سبحانه وتعالى، واحترم نبيه، والقرآن العظيم، وقولوا لأمتكم أن

الفرنساوية هم أيضاً مسلمون مخلصون، وإثبات ذلك أنهم قد نزلوا في رومية الكبرى وخربوا فيها كرسي البابا الذي كان دائماً يحث النصارى على محاربة الإسلام. طوبى ثم طوبى لأهالى مصر الذين يتفقون معنا لكن الويل ثم الويل للذين يعتمدون على المماليك في محاربتنا.. فلا يجدون بعد ذلك طريقاً إلى الخلاص ولا يبقى منهم أثراً(*).

وبالنسبة لرجل الشارع، كان الموقف محيراً، فقد كان أول هجوم مضاد شنوه ضد الفرنسيين في شبراخيت المطلة على النيل - قرب دمنهور - بلا شك لصالح المماليك في البداية ولكن عندما واجهوا تشكيلات في وضع قتال مدججة بالبنادق ذات الحراب من الصلب (السونكى) التى تطلق وابلاً من الرصاص فى كل اتجاه فقد فرسان المماليك رباطة جأشهم، فبدوا كما لو كانوا يواجهون جيشاً من جنود ذوى قوة خارقة جاءوا من الفضاء الخارجى. فقد كان المماليك لا يزالون يعيشون فى أجواء العصور الوسطى، فالحرب فى مفهومهم هى هجوم مباغت شرس، ومبارزات بين الأفراد، ومن ذا الذى يجاريهم فى استخدام الخيل والسيف!.

ولذا كان هذا الأسلوب الجديد الذى تميز برباطة الجأش، والانضباط المحكم، أمراً غريباً عليهم. ومما زاد من ارتباكهم أن قارب مراد بك الخاص المزود بالمدافع شبت فيه النيران، فانفجر مخزن البارود محدثاً انفجاراً رهيباً، وتطايرت أشلاء كل من كان فى القارب لتسقط فى النيل، وولى مراد هارباً عائداً إلى القاهرة وهو يترنح بعد أن فقد اتزانته، وأصبح لا حول له ولا قوة. وعندما عاد أحد بكواته الذين كانوا لا يزالون يتمسكون بتقاليد الفروسية متحدياً فوق صهوة جواده قائداً الفليق الفرنسى ليدخل معه فى مبارزة فردية، غير أن قوات الجمهورية التى كان العطش والإرهاق قد حلا بهما، لم تكن فى مزاج يقبل مثل هذا المزاح، فبوابل سريع من الرصاص تحول ذلك الفتى الدمشقى إلى كومة من المخلفات الملطخة بالدم.

(*) عبد الرحمن الجبرتي، الجزء الثالث، ص: ٦. الناشر مطبعة الأنوار المحمدية بالقاهرة.



صورة لأحد فرسان المماليك وقد تكوم على الأرض
بفعل مدافع بونايرت وكأن الصورة رمز لانتهااء أسلوب
حرب الفرسان في العصور الوسطى وبداية الحرب
الحديثة (الرسم بريشة الرسام الفرنسي جيركو
Gericault من اللوحات التي عرضت بعد عودة نابليون
إلى فرنسا ليحول هزيمته في مصر إلى نصر)

وفى القاهرة تحول الذعر إلى رعب، فقد أجبر الناس على حمل السلاح، وعلى الفور شرعت مجموعة متحمسة فى حفر الخنادق، وإقامة المتاريس عند مداخل المدينة وراح الدراويش: يجوبون الحواري الضيقة المتعرجة وهم يرفعون بيارقهم الملونة تصحبهم أنغام المزامير ودقات الطبول الغربية التى قد تنفر الأذن الأوروبية من سماعها إلا أنه كان لها سحر غريب على العربى مثل ما يحدثه نشيد المارسليليز Marseillaise (*) يملأ من يستمع إليها بالحماس الشديد للعمل والفداء. وعندما خرج السيد عمر - نقيب الأشراف - من القلعة يحمل راية الإسلام، انضمت الآلاف من ذوى الملابس الرثة فى موكب لا نهاية له، اخترق المدينة بينما كان الشيوخ يبثون الحمية فى نفوسهم، يرددون بعض الأحاديث النبوية على أسماعهم يقرأونها من كتاب البخارى المقدس. وفى الأسواق ارتفعت الأسعار إلى أرقام فلكية، ولم يكن لأحد سلاح ذو قيمة تذكر مثل تلك التى كانت تشتري بثمن باهظ، فقد كان على غالبية الناس أن يسلحوا أنفسهم بقدر ما يستطيعون بالنباييت والعصى والحجارة وأصبحت الطرق مجفرة من عدم الكنس والرش وسدتها أكوام القاذورات، وبدأ انتهاك الحرمات من كل الأنواع يحدث، وارتفعت صيحات مخيفة وسريعة تسمع: " الموت للنصارى " وانتهكت حرمت الكنائس ونهبت بيوت الأجانب، لو لا تدخل إبراهيم بك بنفسه لدمر الحى الأفرنجى بأكمله، وبناء على أوامره سيق المسيحيون فى حراسة مشددة إلى القلعة ليجدوا الأمان، بل نقل بعض منهم إلى قصره الخاص حيث راحت زوجته تسهر على راحتهم بلطف النبلاء حتى انجلى عنهم الخطر.

وساعة تلو ساعة كانت الشائعات المتضاربة تغمر الأسواق، وتزايدت التوقعات عن قرب وصول: " الفرنسيين إلى مصر "، واختلف الناس فى الجهة التى ينوون المجيء منها، فمنهم من يقول أنهم واصلون من البر الغربى، ومنهم من يقول بل يأتون من الشرقى، ومنهم من يقول بل يأتون من الجهتين وليس لأحد من أمراء العساكر همة أن يبعث جاسوساً أو طليعة

(هـ) النشيد الوطنى للثورة الفرنسية، ولا يزال حتى الآن النشيد الوطنى الفرنسى (المترجم).

تتأوشهم فى القتال قبل دخولهم وقربهم ووصولهم إلى قناء مصر، بل قام كل من إبراهيم بك ومراد بك بجمع عسكره، ومكث مكانه لا ينتقل عنه، ينتظر ما يفعل بهم، وليس ثمة قلعة ولا حصن، ولا معقل، وهذا من سوء التدبير وإهمال أمر العدو»(*) . فقد سجل عبد الرحمن الجبرتي الذى أرخ لهذه الأحداث ملاحظة حزينة استهل بها كتابه، فبالرغم من التجربة العملية التى مروا بها فى شبراخيت، فقد ظل كل من مراد بك وإبراهيم بك ينظرون إلى العدو نظرة احتقار، كما أن الوسائل التى أمروا بها لتحسين المدينة كانت غير كافية.

حتى الفرنسيين لم يكونوا خاليين من مشاكلهم الخاصة، فبعد سنوات تلت استرجع نابليون وهو (سجين) فى سانت هيلانة ذاكرته التى كانت لا تزال حية عن مسيرته المحرقة عبر سهول البحيرة بقوله كان الاكتئاب والحزن يسودان الجيش فقد أراد بهذه العبارة أن يصف معاناة رجاله خلال المصاعب المذهلة وهم يقتربون من القاهرة: ومثل العبرانيون وهم يتيهون فى البرية اشتكوا ثم سألوا موسى وهم غاضبون عن بصل مصر وترفها، فقد كان الجنود الفرنسيون يتحسرون دائماً على خيارات إيطاليا أنهم لن يكونوا بشراً لو لم يفعلوا ذلك ففى صيف يوليو المحرق كانت هناك عواصف ترابية ودرجة الحرارة تقارب ١١٥ (درجة فهرنهايت) وهم يسرون مرهقين بلا نهاية على طول قاع القنوات التى جفت منها المياه، وكادوا يسلقون أحياء وهم يرتدون بزاتهم العسكرية، ويحملون أسلحتهم الثقيلة، وقد جفت حلوقهم بفعل الحرارة والأتربة والذباب، ولم يكن لديهم نقطة ماء واحدة صالحة للشرب، ففى كل قرية يدخلوها كانوا يجدون الآبار وقد خربت، كما أن جرايتهم التى كانت تتكون غالباً من البسكويت المملح جعلتهم أكثر ميلاً للعطش، أما الماء الذى بدا لأعينهم فقد كان السراب، ولى ذلك خطورة أن البدو كانوا يغيرون عليهم من مسافات بعيدة طوال مسيرتهم إلى القاهرة، فقد كانوا يأسرون أو يمثلون بأى جندي شارد أو تائه. وبالرغم من ذلك خلف

(٥) عبد الرحمن الجبرتي - المصدر السابق - ص ٩.

الفرنسيون وراءهم كثيرين سقطوا موتى بسبب شدة الحرارة. فقد ذكر الملازم نيكولاس دسفرنوا Nicolas Desvernois : لقد تركنا من خلفنا ذيلاً من الجثث ولولا محصول البطيخ في الحقول لفقدنا عددًا أكبر من الرجال .»

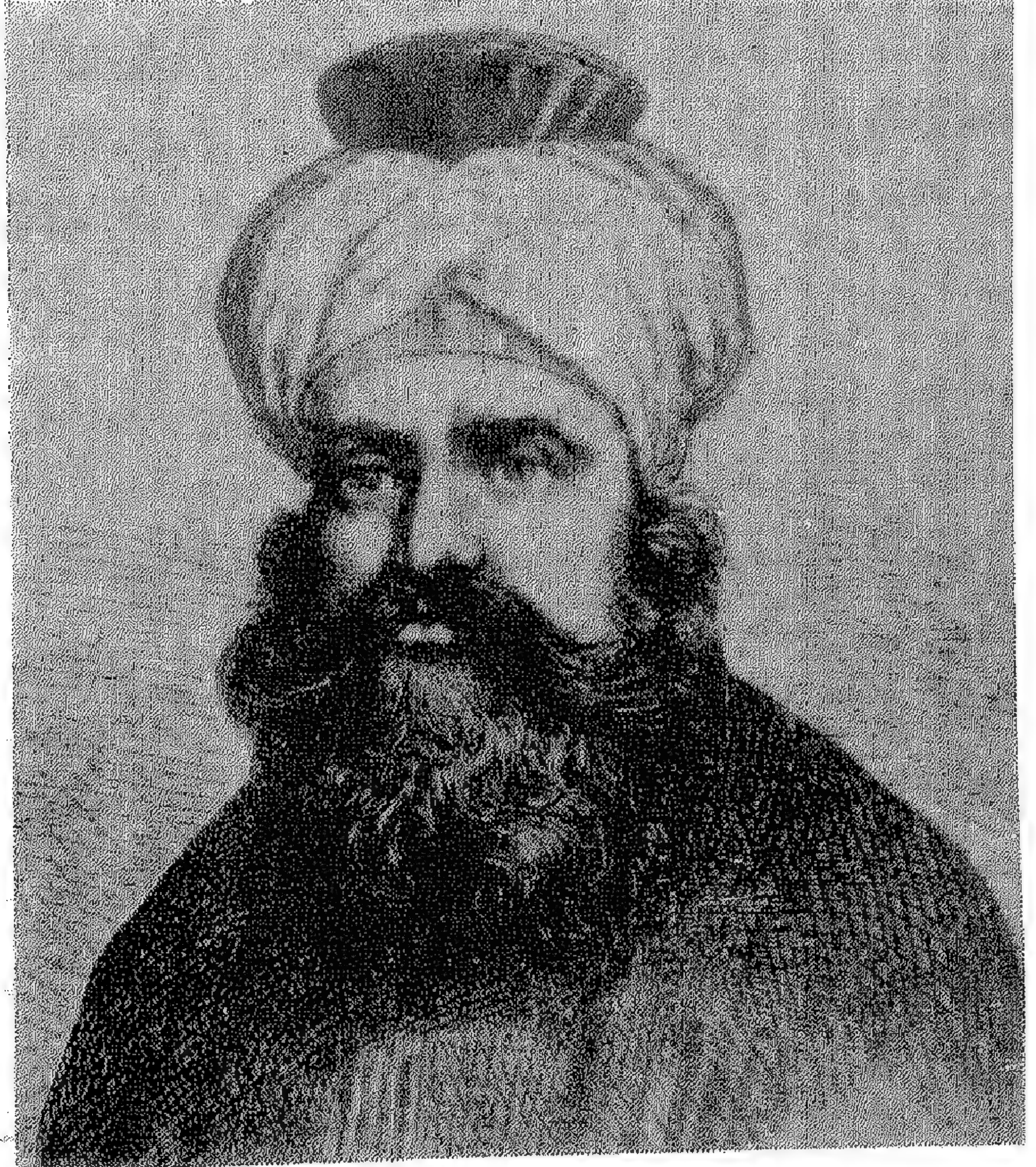
وفجأة بعد مسيرة أسبوعين لاحت الأهرامات لا عينهم، ومعها وردت الأنباء أن المماليك تجمعوا في حشود بجوار النيل، وكان أمراً بعيداً عن الحكمة أن يقسم البكوات قواتهم: فبينما ظل إبراهيم معسكراً على الضفة النيل الشرقية في مواجهة القاهرة ليندفع من ذلك الاتجاه إذا ما جاء الفرنسيون، عبر مراد بك ومعهم معظم قوات جيشه إلى الضفة الغربية. وكان واقعاً أن فرسانه سوف يفرمون الغزاة، ولو أنه أجبر الفرنسيين على أن يهاجموا عبر النهر لكان لذلك حكاية أخرى.

وكعادته لم يضيع نابليون الوقت، فانتهاز الفرصة، ففي تقييمه الشخصي لمعركة الأهرامات كتب قائلاً: لما رأينا أن مدافعهم ليست منصوبة فوق عربات الميدان، وما أن اقتنعت أن مدفعيتهم ليست متحركة، وأنها ومشاتهم غير قادرين على مغادرة معسكرهم المخندق، كما أنهم لو كانوا قد اندفعوا فلن يجدوا الحماية من المدفعية... فقررنا أن نمد ميمنتنا ونسير في ظلها بكل قوتنا وبذلك نمر بعيداً عن مرمى بنادقهم .

وعندما أدرك مراد ما يحدث، وهو أن الفرنسيين يحاولون الالتفاف حوله، ويحولون بين سلاح فرسانه وسلاح مشاته، أعطى أوامره بالهجوم وفي مشهد لا يمكن المقارنة بين أطرافه: كان آخر هجوم كبير لفرسان العصور الوسطى كما سماه المؤرخون. لقد كان منظراً يأخذ بالآباب، فمن جهة فيما وراء النيل بدت الحقول الخضراء المزروعة، ومن ورائها تلالاً طيف القاهرة الكبرى يعلوها القلعة، ومن جهة ثانية، وعلى بعد أميال قليلة لاح في الأفق منظر الأهرامات بلونها الكلاسيكي المصبوغ بلون الشمس، وعند ما يعرف الآن بكورنيش النيل الواقع بين أمبابة وأهرامات الجيزة اندفع إلى الأمام في جراحة مذهلة طابور يتكون من ستة آلاف فارس، ولكل فارس أتباعه الخصوصيون يلهثون من ورائه. وعندما كتب الملازم فرترى



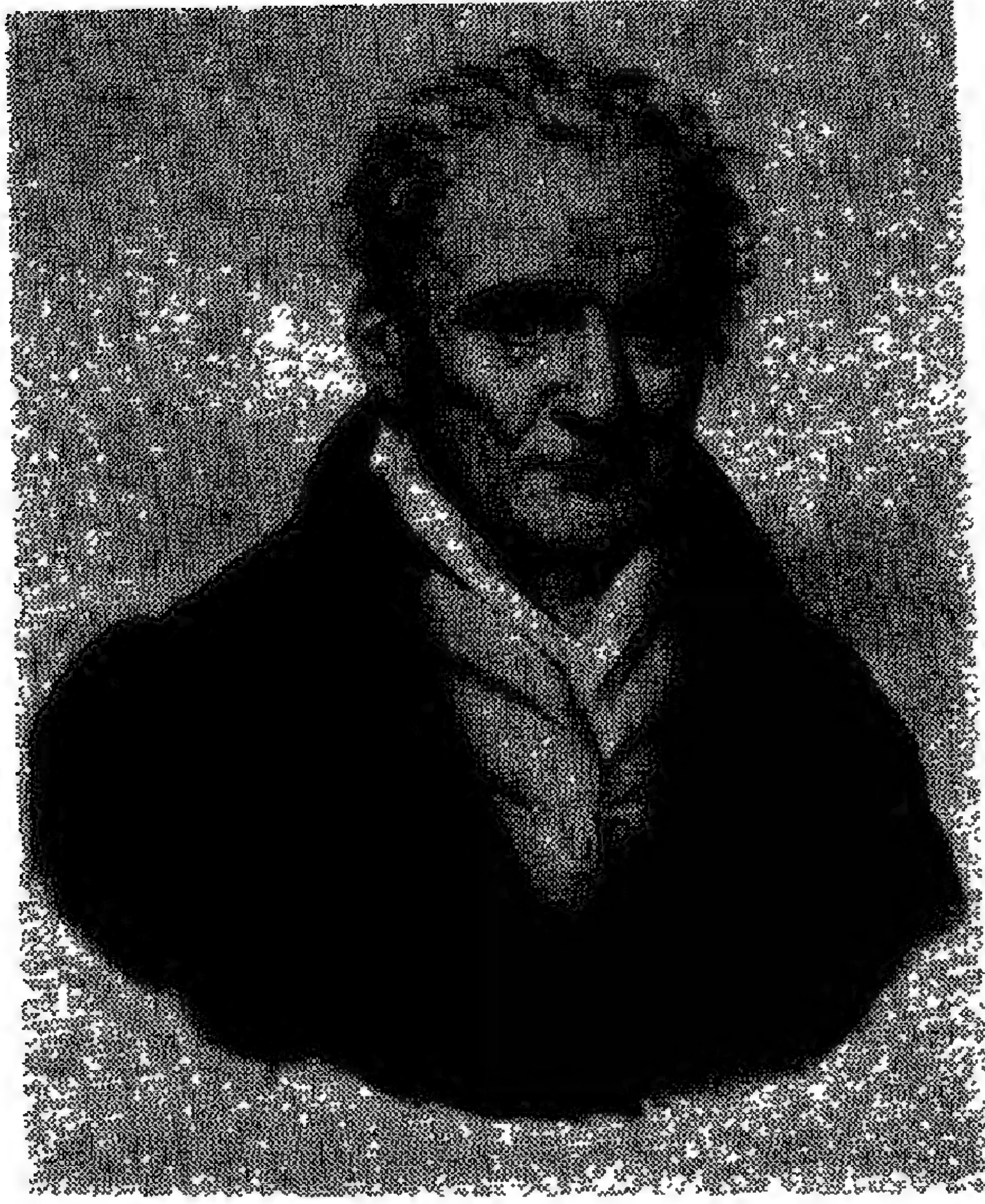
صور نادرة لمراد بك زعيم
المماليك الذي قاوم جيش
نابليون حتى النهاية



Vertrey الذى كان فى طبيعة الفليق الفرنسى مصوراً لنا انطباعاً مشوشاً، لكنه ينطق بالحياة عن سحب التراب المتصاعد من قدح حوافر الخيل التى تدوى كالرعد وهى تعدو، وعن البيارق التى ترفرف فوق رءوس الخيل، وعلى ظهورها الفرسان بأرديتهم الفاخرة، وعمائمهم الخضراء الكبيرة، وقد أحنو ظهورهم فوق السروج بينما أمسكوا فى أيديهم بسيوفهم المحدبة، ولم يكن لدى الفرنسيين الوقت الكافى لأخذ وضع الهجوم قبل أن تقبل جحافل الخيل: «وفى لحظة اتخذنا وضع القتال، عشرة رجال فى العمق لتلقى الضربة الأولى... وبرباطة جاش أطلق جنودنا النار ولم تطش حتى رصاصة واحدة.

ففى تشكيل عسكري منظم، أطلقت المشاة نيرانها، ثم أعادت حشو بنادقها ثم أطلقت النار مرة أخرى. وكانت النتيجة قاتلة. فأول موجة مهاجمة من المالك فنيّت تقريباً عن آخرها، أما هؤلاء الذين داروا حول التشكيلات فقد وقعوا فى مصيدة النيران التى انطلقت من كل موقع وجاءت من كل اتجاه، وكتب فرترى Vertrey متذكراً: وكانت القذائف المشتعلة من بنادقنا تخرق فى نفس الوقت مع الرصاص الذى نطلقه بزاتهم العسكرية الرسمية الثمينة المطرزة بخيوط الذهب والفضة، فكانت تتطاير بخفة مثل العهن المنفوش، ويضيف ميه Millet - وهو جندى نفر - «وكانت جثث الرجال والخيول تشكل منظراً يثير الرعب، لقد كانت مذبحة سالت فيها الدماء بغزارة ولأكثر من ساعة استمر الممالك الذين كان الفرنسيون يفوقونهم عدداً على الأقل بنسبة ثلاثة إلى واحد، يبرزون بطولاتهم الفردية الشجاعة بأقدام المقبلين على الموت وهم يواجهون التشكيلات الفرنسية الأربع، ذات النظام والانضباط الصارم. إلى أن أدرك مراد بك أن اللعبة قد انتهت فولى هارباً فى اتجاه الأهرامات.

أما الرسام فيفان دينون Vivant Denon والذى سجل كل شىء بريشته فى اسكتشات تتوقد هياجاً متخذاً من نخلة ساتراً، فقد كتب يقول: إنها لم تكن معركة، بل كانت مذبحة وبعد لحظات كأن الفرنسيون يقفون فوق خنادق إمبابة، يمزقون كل شىء تقع عليهم عيونهم بوحشية. ثم بدأت عاصفة رملية



الرسام الشهير فيفان دينون Vivian Denon الذي صاحب
حملة نابليون إلى مصر وسجل بريشته أحداثها

جعلت النهر تتلاطم أمواجه بشدة من خلال " العفار " والضجيج، وكان عبد الرحمن الجبرتي يشهد المنظر من مكان بعيد وقد اعتلاه الرعب أن يرى أمبابة وقد غطتها ألسنة النيران. شاهد الآلاف من الناس والفرسان والمشاة وأتباع المعسكرات يلتقون بأنفسهم هرباً في مياه النيل، مذعورين في محاولة يائسة للنجاة وكثير من المماليك قفزوا بكل ثيابهم وسلاحهم إلى الماء حيث جرفهم التيار إلى الأعماق بسبب ثقل سلاحهم، ويقول الجبرتي: فلما عاين وسمع عسكر البر الشرقي القتال، ضج العامة والغوغاء من الرعية، وأخلط الناس بالصياح، ورفع الأصوات فكان القلاء (العقلاء) من الناس يصرخون عليهم ويأمرونهم بترك ذلك ويقولون لهم إن الرسول والصحابة والمجاهدين إنما كانوا يقاتلون بالسيف والحراب وضرب الرقاب، لا برفع الأصوات والصراخ والنباح، فلا يستمعون ولا يرجعون عما هم فيه ومن يقرأ ومن يسمع^(*) وفي ذلك الوقت كان المتفرجون وأولهم إبراهيم بك يولون الأدبار هاربين إلى الصحراء حاملين معهم ممتلكاتهم التي قدروا على حملها، وقبل أن يرحلوا قام البكوات بإشعال النيران في المئات من القوارب النيلية، وبينما كان بونابرت يتحرك نحو بيت مراد بك في ريف الجزيرة، ومعه هيئة أركان حربه، كانت قباب ومآذن القاهرة تبدو كما لو كانت مضاعة بفعل الصوت والضوء Son et Lumiere المرعب والذي أضاء عن طيف الأهرامات البعيدة، بينما اندفعت الغوغاء تسرق وتحرق أى شيء تقع في أيديها. وخطب بونابرت في جنوده الذين كانوا يحيطون به عندما كانت المعركة على وشك الحدوث قائلاً: إن أربعين قرناً من الزمان تنتظر إليكم من قمة هذه الأهرامات . ومن خلال توهج النيران الخفاق، كشف المنظر عن واحد من أعنى عمليات السلب التي تصادف حدوثها (على مر التاريخ) فهناك أسلحة مرصعة بالجواهر، والسلاح الدمشقي، والسجاد نادر الثمن، والحريير والتحف المصنوعة من الفضة وكذلك الذهب، الذي اعتاد المماليك على حمله معهم مع متاعهم، إذا ما فرضت عليهم الظروف المفاجئة

(*) عبد الرحمن الجبرتي - المصدر السابق - ص: ١٠.

الهروب، وكانت هذه الغنائم تصطاد بالمعنى الحرفى من قاع النيل، ويقول الجبرتى: وكانت ليلة وصباحها فى غاية الشناعة، جرى فيها ما لم يتفق مثله فى مصر، ولا سمعنا بما شابه بعضه فى تواريخ المتقدمين، فمن راء كمن سمع(*)).

وفى ٢٣ يوليو عام ١٧٩٨ تحركت الفرق العسكرية الفرنسية بحرص نحو المدينة، أما الجماهير التى كانت قبل ساعات فقط تنتحب، وتلطم على الوجوه صائحين: وأسفاه لقد أصبحنا عبيداً للفرنسيين فقد تحولوا إلى مراقبة ما يحدث من جنود الفرنجة (Poilus) فى خلال النهار، وهم يتسكعون فى الأسواق بدون سلاح، وصاروا يضاحكون الناس الذين ابتلعوا دهشتهم. ولم يضيعوا الوقت فى إيتياع كل ما يحتاجونه بأعلى ثمن(**) وسرعان ما أخذت الأسواق تتاجر بفرح، وأعيد فتح المقاهي، وفى الساعة الرابعة من بعد ظهر ٢٦ يوليو، دخل بطل فرنسا الثورة إلى القاهرة الكبرى وسط عزف الأبواق وقصرع الطبول، ونزل فى أكثر قصور الممالك فخامة وترفاً وهو قصر الألفى بك فى الأزبكية والذى، أصبح مكانه الآن فندق شبرد(***)، وبالنسبة لنابليون بونابرت فإن أحلامه عن الإمبراطورية الشرقية بدأت تتشكل، أما بالنسبة لمصر نفسها فقد دفعت فجأة إلى عالم القرن التاسع عشر الوليد، وبدأ فصل جديد فى تاريخها... فصل تسيد فيه الأوربيون. وقد وصل هذا السيد إلى قمته بعد ١٥٤ عاماً، إلى أن جاء نفس اليوم، بل جاءت نفس الساعة التى قادت مصرفيها ثورتها وظهر فيها بطلها.

وفى عشرة مجلدات هامة تعتبر أثمن إنجازات الحملة كلها، جمع العلماء الفرنسيون صورة مفصلة كاملة وهائلة عن مصر فى هذه الفترة، كذلك سجل بونابرت انطباعاته، إنه لمن المثير أن نرى القاهرة كما كانت تبدو فى القرن

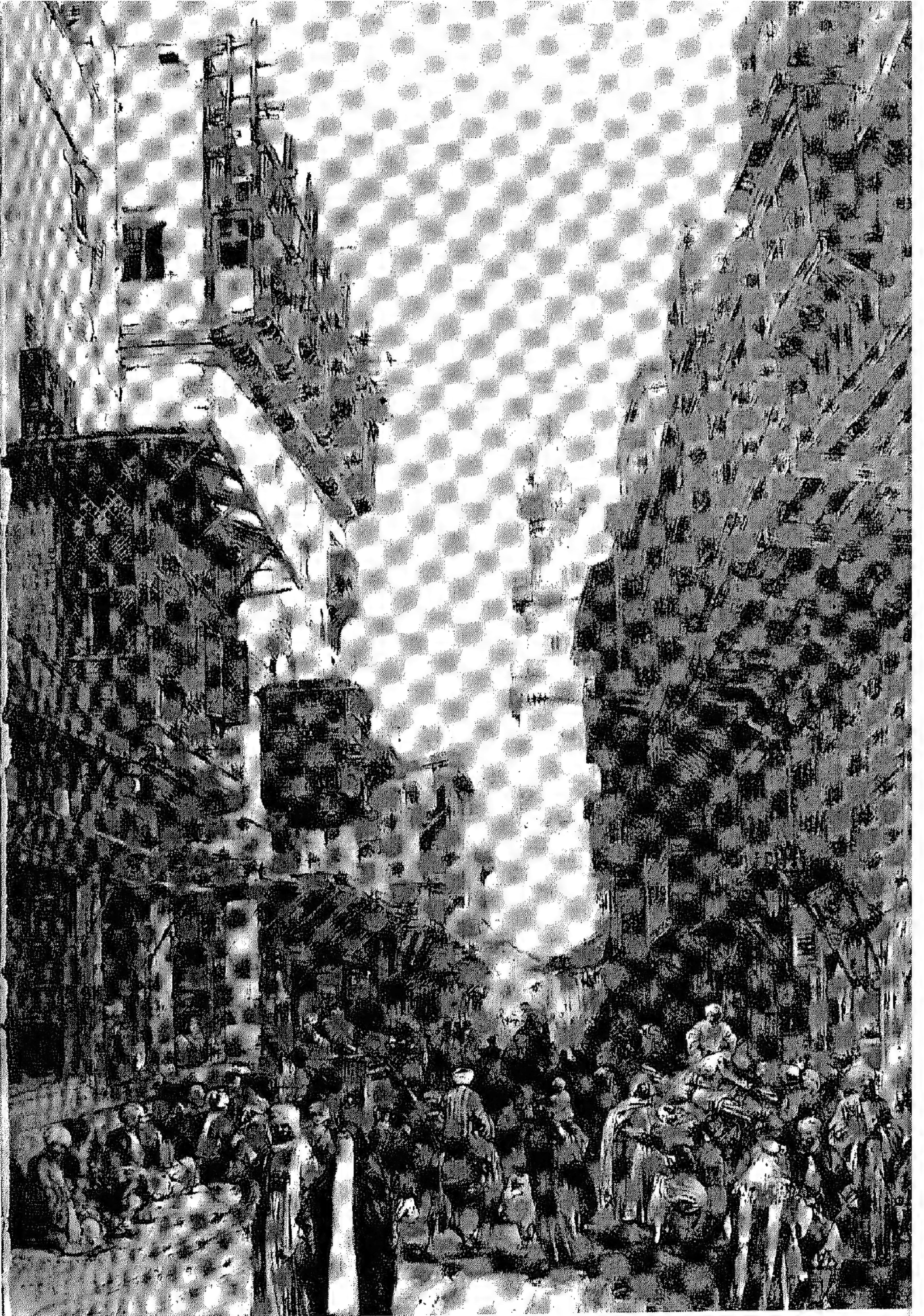
(*) نفس المرجع ص: ١٢. (المترجم).

(**) نفس المرجع السابق ص: ١٤.

(***) يقصد شبرد القديم الذى احترق فى ٢٦ يناير ١٩٥٢ (المراجع).

الثامن عشر من خلال عيون ذلك القاهر الحادة، والبالغ من العمر تسعة وعشرين ربيعاً، وقد استهلها كما يفعل الجندي الحقيقي بإلقاء نظرة على المشكلات الأساسية مثل مياه الشرب والتحسينات. فالقاهرة تقع على بعد نصف فرسخ من النيل، مصر القديمة وبولاق هما مينائيهما. وهناك قناة تشق المدينة، غير أنها على الدوام جافة ولا تمتلئ إلا أثناء الفيضان، وفي اللحظة التي يفتح فيها السد وهي عملية لا تتم إلا إذا بلغ فيضان النيل منسوباً معيناً تكون مناسبة لاحتفال عام، عندئذ تقوم هذه القناة بتصريف مياهها على مصارف عديدة، ويصبح ميناء البكير (الأزبكية) وكذلك معظم ميادين وحدائق القاهرة مغمورة تحت الماء، ويتم التنقل بين هذه الأماكن عن طريق القوارب خلال موسم الفيضان، وتهيمن على القاهرة القلعة القائمة فوق تل والتي تشرف على المدينة كلها، ويفصلها عن تلال المقطم وادي ولهذا السبب يوجد في مصر القديمة برج هائل وعال مئمن الشكل، يحتوى على خزان ترفع إليه مياه النيل عن طريق آلة هيدروليكية ومنها تصعد المياه إلى مجرى العيون. وكذلك كانت القلعة تستمد مياهها من بئر يوسف، لكن ماءها لم يكن في عذوبة ماء النيل، أما القلعة فلم تكن مؤهلة للدفاع عن المدينة، بل كانت مهملة وأيلة للسقوط. والقاهرة محاطة بأسوار عالية بناها العرب يعلوها عدد من الأبراج الكثيرة، حتى أن هذه الأسوار كانت في حالة سيئة وتتهاوى على مر العصور وذلك لأن المماليك لم يرمموا شيئاً منها، والمدينة كبيرة ونصف أسوارها تتأخم الصحراء لدرجة أننا نواجه الرمل عندما نخرج من بوابة السويس أو تلك التي تتجه إلى بلاد العرب .

وبعد أن دبر المتطلبات الأساسية للجنود، كان لدى بونايرت الوقت لإلقاء نظرة عامة على المدينة كما كان في مقدرة أى سائح أن يفعل: إن سكان القاهرة كثيرون جداً فهم يقدرون بنحو ٢١٠,٠٠٠ نسمة، ومنازلها عالية الارتفاع وشوارعها ضيقة، لكي تحقق لهم الحماية من الشمس المحرقة، ولنفس السبب فإن البازارات أو الأسواق العامة مغطاة بالقماش أو الحصر، وللبكوات قصور فارهة على الطراز الشرقى تشبه قصور الهند أكثر مما تشبه قصورنا. وللشيوخ أيضاً منازل أنيقة، أما الوكالات فهي مباني مربعة



أحد أسواق القاهرة المملوكية العثمانية كما وحدها نابليون

الشكل، شاسعة المساحة بها صحون داخلية كبيرة تشمل نقابات التجار، فهناك وكالة لتجار الأرز السيورى Seur ووكالة لتجار السويس، وأخرى خاصة بالشوام، كما كان لكل واحد منهم حانوت ضيق يطل على الشارع، مساحته عشرة أو اثنا عشرة قدماً مربعاً، يعرض فيه التاجر عينات من بضاعته، وفي القاهرة عدد كبير من أجمل مساجد العالم، مآذنها أنيقة وعديدة، والمساجد عادة تستخدم كمأوى للحجاج وينامون فيها، وبعضها كان يتسع لقدر كبير من الحجاج قد يبلغ ثلاثة آلاف من بينها الجامع الأزهر (أى جامع جامعة الأزهر)، والذي يقال أنه أكبر مسجد فى الشرق، وهذه المساجد عادة عبارة عن صحون (ساحات) محاطة بعدد كبير من الأعمدة تحمل السقف، وفي داخلها يوجد عدد من الأحواض وخزانات المياه للشرب وللإغتسال. وفي أحد الأحياء الهامة وهو الحى الأفرنجى يعيش عدد قليل من الأسر الأوروبية وفيها نشاهد عدداً من البيوت مثل تلك التى قد يملكها تاجر فى أوروبا دخله ما بين ٣٠,٠٠٠ ٤٠,٠٠٠ جنيه سنوياً، وهى مؤثثة على الطراز الأوروبى، وبها كراسى وأسرّة، وهناك كنائس للأقباط، وبعض الأديرة للسوريان الكاثوليك. وهناك عدد كبير من المقاهى يستطيع الناس فيها احتساء القهوة أو الشربات أو حتى الأفيون، ويتناقشون فى شتى الشئون العامة.

ثم عرج بعد ذلك إلى بحث موضوع الرق. ولاحظ أن كل من مراد وعلى كانا قد بيعا إلى بعض البكوات فى سن مبكرة بعد أن جلبهما نخاسون من بلاد الشركس، ونفس الشيء حدث مع الباشوات والوزراء والسلطين. وأضاف ساخراً دون أن يقصد ليس قبل أن يمر وقت طويل حتى يدرك المصريون أن كل الفرنسيين ليسوا عبيداً لى .

كما كان هناك أشياء أخرى وجدوا من الصعب عليهم فهمها. وبالنسبة للمصريين فإن كثير من مظاهر الاحتلال الفرنسى بدت غير بعيدة عن إدراكهم، فوسط طوفان من البيانات التى تلفت النظر باستخدامها اسم الله القادر بشكل صريح، علم هؤلاء المواطنون الذين عاشوا كل حياتهم فى ظلال القلعة، متعودين بشكل جيد على القرارات ذات الطبيعة الاستبدادية - علموا مندهشين أن مزايا حقوق الإنسان - كما يفسرها ابن حقيقى للثورة -

سوف تنهال عليهم. أن هيئة بونابرت وقد ارتدى زى إمام الشيوخ، وهو يشارك فى المناسبات الدينية كان يلقي منهم السرور والابتهاج، غير أن مسلك جنوده بالرغم من أنه سلوك متوقع بالنسبة لجيش احتلال - كانت كافية لإثارة حساسيتهم الإسلامية. فقد شاهدوا الفرنسيين وهم يشربون الخمر، ويتبادلون الشتائم، ويمارسون الحب علناً، كما لفت نظرهم بمقت شديد تصرفهم غير الملتزم ليس مع النساء الأوروبيات فحسب، بل مع الحريم الذين شجعوهن على الظهور سافرات، وكان يثير تأثرتهم أن يروا الأقباط والشوام واليهود وقد بدأوا يتصرفون فى خيلاء. كما أنهم استشاطوا غضباً عندما أمر قائد سارى العسكر بهدم بعض المساجد والمقابر فى مشروعه لتنظيف المدينة، وقد بدى لكثير منهم أن كل شئ كما لو كان قد تحطم إلا إيمان الإنسان بالإسلام وبالله الذى أنزل بهم هذا العقاب جزاءً للذنوب التى ارتكبوها فجعل الكفار ينتصرون عليهم.

وفى هذه الأيام الأولى القليلة التى كان فيها متهوراً، شعر نابليون - مهما كانت نيته حسنة، ومهما كان جاهلاً بأساليب الشرق - بثقة كاملة أن سياسته الخاصة بالتعايش السلمى قد بدأت تعطى ثمارها صحيح - كما جاء فى خطابه إلى مينو - أنه وجد من الضرورى قطع رقاب خمس أو ستة رجال كل يوم فى شوارع القاهرة، لكن على الجانب الآخر اختار ديوانين للشيوخ لكى يتولى الحكم تحت سلطته التشريعية. وكانا يثبتان تعاونهما معه بشكل يدعو للسرور، كما أن مغازلته للإسلام التى ذهبت إلى حد إقامة الصلاة الإسلامية، وأن يظهر بالرغم من غرابة منظره، مرتدياً الجلابيب المصرية الفضفاضة، كانت عملاً يدل على أنه داهية سياسى، وأيضاً صورة مغرية من صور الانغماس فى الذات، غير أنه لم يكن هناك أى مشروع يمكن أن يثير الحماس أكثر من مشروع الإحياء الحقيقى لمصر، وهو ما خطط له المعهد العلمى للقاهرة، الذى أسسه حديثاً.

ولو كان هناك طيف يقلقه، فهو مسلك جوزيفين، إذ أن حماقاتها لم تعد سراً على أحد حتى فى القاهرة. وأيضاً وبالطبع نيلسون، لكن لم تكن لديه أنباء كلية عن نشاطاته.

الفصل الثالث

نهاية حلم

بالمثل كان نيلسون فى جهل تام عما يحدث، فقد كان لا يزال يتجول بلا هدف فى البحر المتوسط دون أن تكون لديه أدنى فكرة عن الأحداث الجسام التى كانت تحدث فى مصر. وحتى أقرب ضباطه إليه كان يدرك بصعوبة كم جعله البحث العقيم يشعر بمرارة اليأس، فقد اشتكى لمستشاره الطبى من متاعب فى قلبه، وقد شخص هذا السيد المبجل حالته بأنها عسر هضم ناتج من القلق. وقد أصر الأميرال أن انعدام الأنباء عن العدو قد حطم قلبه، ثم أضاف بانفعال غريب على رجل البحرية: " ربما يموت أناس بسبب القلب المحطم أكثر ما تعتقد".

ثم جاءت الأنباء فجأة، ففي ٢٨ يوليو عام ١٧٩٨ علم من قائد جناح فرنسى ثم أسره أن هدف نابوليون هو مصر، تماماً مثلما كان هو نفسه يشك منذ البداية. وفى مساء نفس اليوم جاء تأكيد ذلك من المصادر التركية، وهنا اختفت أعراض مرض القلب، حيث استغرقت رحلة عودته إلى الإسكندرية أقل من أربعة أيام. وسرعان ما لمح أسطول نيلسون جزيرة فاروس وعمود بومبى (عمود السوارى) وقد رفرفت عليه الراية ذات الألوان الثلاث (علم الثورة الفرنسية) بالرغم من خلو الميناء من أى سفينة فرنسية، وبعد مرور ساعة هرول صف ضابط بحرى يحمل الأنباء حتى أنه فى غمرة انفعاله نسي أن يؤدى التحية لجناح الضباط قائلاً: " أشرعة العدو على مرمى البصر! ".

وقبل أن يخفى داخل عمق مصر، كان نابليون قد أصدر أوامره إلى الأميرال دى بروى De Breuys، بأنه إن لم يستطيع البقاء فى الإسكندرية نفسها، فعليه أن يبحر إلى جزيرة كورفو Corfu (*) التى كان الفرنسيون قد احتلوها، أو

(*) جزيرة تقع على الساحل الغربى لبلاد اليونان.

أن يجد لنفسه مكاناً مناسباً ليلقى مراسيه على طول الساحل، ولما كانت المؤن غير كافية للقيام برحلة إلى كورفو، وأن معظم مخازن عتاد الحملة لا يزال على ظهر السفن، فقد اختار دي بروي خليج أبي قير حيث احتمى في هذا المنحنى نصف الدائري في الغرب من وراء لسان منخفض من الأرض يتصل بجزيرة صغيرة محصنة بسلسلة من الصخور المحفوفة بالمخاطر. وبالرغم من أنه ألقى مراسيه على بعد ميلين تقريباً من الساحل لأن الماء كان ضحلاً، إلا أن دي بروي شعر بأنه على ثقة بأن اصطفاًف سفنه في خط واحد، ووجود خمسمائه مدفع تغطي المنطقة القريبة من البحر، فأن خطورة أن يؤخذ أسطوله على غرة كان نادر الاحتمال. ولقد كان من باب الحظ التمس في يوم الأول من أغسطس أن ينزل عدد كبير من البحارة إلى الشاطئ لكي يملأوا البراميل بالماء، ولكي يحفروا الآبار (بينما تقوم الوحدات الأخرى بحمايتهم من البدو)، كما كان نظيره الأدميرال المترصد به في مزاج نفسه يصل به إلى حالة عدم المبالاة أو التهور.

حقاً إن نيلسون الذي كان يكرر مقولته: « سوف أجر الأسطول الفرنسي إلى المعركة في اللحظة التي استطيع وضع يداي عليه » لم يكن في مزاج أن يدع العدو أن يأخذ وضع القتال تحت ستار الليل الدامس. ومهما كان الهجوم الفوري خطراً، كان تأجيله أشد خطراً. وبللمسة العبقرية التي كانت تميزه كأعظم بحار في إنجلترا فقد لاحظ في حينه أنه " ما دام هناك مكان لسفينة بحرية فرنسية من طراز ٧٤ لكي تدور على عقبيها فأن هناك مكاناً لسفينة بريطانية من طراز ٧٤ لكي تلقى مراسيها " وشرع على الفور في مهاجمة المقدمة والوسط من كلا الجانبين. ولقد كان قراراً رائعاً وشجاعاً شهدته ذلك اليوم. وعندما كانت الشمس المحرقة تغيب في وراء الأفق كانت عشر سفن من طراز ٧٤ تتدفع بشدة نحو الريح متمشية مع سلسلة الصخور ملتفة حول المخاطر في اندفاع مثير، وما أن مرت دقائق حتى كانت تطلق نيران مدافعها على الأسطول الفرنسي من ناحية البر والبحر، وأكثر من ذلك كانت النيران بزاوية مائلة حتى أن سفن دي بروي لم تسطع توجيه بطاريات مدافعها الجانبية نحوها بشكل مباشر في حين كان في استطاعة سفن نيلسون إطلاق النيران على سفينتين فرنسيتين في آن واحد، ومما زاد من كارثة

الفرنسيين أن كانت مدافع الميمنة مفككة، ومكومة بكل أجزائها لأنهم لم يكونوا يتوقعون قط أن يهاجموا من هذا الجانب، وكان ذلك في حد ذاته سبباً في تمزقه شر ممزق.

وطوال الليل لم تتوقف توهجات المدافع الجانبية وهي تخرق الظلمة التي سادها الضباب، غير أن المراقبين على الشاطئ لم يكن في مقدورهم أن يتبينوا شيئاً سوى وميض الفوانيس التي أمر نيلسون بتعليقها على أشعة السفن البريطانية لتمييزها عن سفن العدو، وبالرغم من ذلك فإن الطرفين في بعض الأحيان كانا يطلقان النيران على سفن بعضهم البعض. إن استرجاع هؤلاء الذين شاركوا في تلك الليلة الليلية ذكرى ما حدث يصور دراماً مشته في فوضى أمكن بالكاد السيطرة عليها. وفي بداية القتال لقي دي بروي مصرعه، فقد قصمته دانة مدفع إلى نصفين وهو يقف في منتصف منصبه الربان لسفينة القيادة لوريان L Orient، وبعدها بقليل تلقى نيلسون جرحاً لكنه لم يكن مميتاً. وقبل الساعة العاشرة شبت النيران في سفينة القيادة "لوريان" وسرعان ما انتشرت ألسنة اللهب التي ساعد على انتشارها مواد الطلاء والجرادل المعبأة بالزيوت الموجودة على ظهر السفينة لتشتعل جوانبها التي كانت قد طليت حديثاً، وخلال نصف ساعة هجرت السفينة، وقد سجلت السيدة همنز Mrs. Hemens فوضى اللحظات الأخيرة بطريقة مشوشة إلى حد ما في قصيدة لها عن الصبي الواقف على ظهر سفينة تحترق. ثم فجأة دوى انفجار يعمى البصر، أحدث دوامة قطرها عشرون ميلاً تمتد من الإسكندرية حتى رشيد، وتساقط وابل من حطامها شديد الاحمرار مختلطاً بالجنث، وخلال الصمت المذهل الذي تلا ذلك عاد الظلام ليغمر كل شيء لمدة عشر دقائق كاملة، قبل أن يستأنف إطلاق النيران.

وانجلى نور الفجر عن منظر مثير للأسطول الفرنسي وقد تحطم تماماً، فمن بين الثلاث عشر سفينة من سفن القتال ذات الأشرعة تم الاستيلاء على تسع منها بينما احترقت اثنتان تماماً، ومن بين الفرقاطات كانت الأربعة أحرقت واحدة والأخرى أغرقت، ولم تنجو من المعركة سوى واحدة من طراز ٧٤، وكذلك فرقاطتان لتشارك في القتال في يوم آخر.

لقد أخذت " لوريان " معها إلى قاع خليج أبي قير جثة الأميرال دى بروى، ومعها كنوز القديس يوحنا المقدسى التى تم نهبها من أهل مالطة، وكذلك ما يزيد على مليون جنيه ذهبى، وكذلك الماس التى كان قد نهب من جمهورية سويسرا للإنفاق على الحملة فى مصر، وبذلك أصبح نابليون معزولاً عن وطنه، بل أصبح مفلساً أيضاً.

ولقد استغرق وصول رسالة نيلسون إلى لندن التى تعلن انتصاره فى أبي قير مدة شهرين ويوم واحد، ولقد كان انفعال كبير اللوردات وهو يقرأها مثيراً لدرجة أنه أغمى عليه وسقط على أرضية مكتبه.

وفى الثامن من أغسطس، سمع نابليون بالأنباء عندما كان فى طريق عودته إلى القاهرة بعد أن قام ببعض عمليات المطاردة والتطهير فى شرق الدلتا، ويسترجع المهندس المعماري " نورى " Norry والذي تصادف أنه كان بصحبته وهو يركب جواده كيف أن نابليون ترجل ببطئ من فوق ظهر جواده، وسار عدة خطوات بعيداً، وسمعه وهو يحدث نفسه: " هل هذه هى النهاية؟ " ثم استدار عائداً وهو يقول بلهجة واقعية: " حسناً إن هذه الحادثة سوف تحفزنا للقيام بأعمال كبرى فى مصر، لقد كانت مصر دائماً مركز الحضارة. وعلينا إحياء الإمبراطورية المصرية".

ولتحقيق ذلك كان أول متطلباته قاهرة نظيفة وقائعة، وكما يقول: المثل العربى " قبل اليد التى لا تستطيع قطعها "، كان المصريون يفعلون الشيء نفسه منذ قرون طويلة، إلا أنهم كانوا فى تزايد أقل ميلاً لقبول الشروط التى وضعها الفرنسيون، وأساساً كانت المشكلة القديمة قدم الزمن وهى عدم التقاء الشرق والغرب. فخلال وسائله المندفعة لتنظيف (العاصمة) رغم أنها ذات نية حسنة ومفيدة، إلا أنها لم تؤد إلا لتفاقم الموقف، حتى عندما شدد بونابرت قبضته على مدينة القاهرة ليطور نظرياته عن الطريقة التى يجب أن تظهر بها الحكومة المنظمة الشعبية، كما أصبح من الواضح أن نظرياته عن حقوق الإنسان وغيرها من شعارات الثورة الفرنسية لم يكن لها سوى تأثير قليل على المصريين نوى الاتجاه التواكلى. فمن ناحية لم يكونوا قادرين



صورة كاريكاتورية في المتحف البريطاني رسمتها الصحف
البريطانية لنابليون وهو يخطب في جنوده في القاهرة بعد أن
سمع بتدمير الأميرال نيلسون لاسطولته في أبي قير عام ١٧٩٨
، وهو يرفع سيفه ويقسم بأنه سوف يفنى الإنجليز من
على ظهر الأرض

على فهم ما تهدف إليه، ومن ناحية أخرى فقد كانوا غير ميالين لقبول أى تغيير، ومهما كان الجو العام قد يبدو كريهاً فى حوارى القاهرة لدرجة أن الإنسان قد يسترجع ما فى معدته، وكذلك أزقتها التى تفوح بخليط من روائح التوابل والتبول وهراء البشر، لكنه كان ذلك الجو العام الذى عرفوه دائماً وتعودوا عليه، ومهما عاملهم المماليك بقسوة، لكن ذلك كان ما فهموه.

وفى الأساس فإن إيمانهم عميق الجذور بالإسلام، وبالتالي كان ولاؤهم للسلطان، والذى كان بالنسبة لهم أعظم وأقوى حاكم فى العالم. لم يعزو رجال مصر ونساؤها متاعبهم إلى أى عامل آخر أبعد من " بلطجة " حكامهم المحليين، إذ لم يكن هناك فلاح واحد فى أرضه لا يعتقد أنه لو قدر له مقابلة السلطان شخصياً، فإن ما حاق به من ظلم سوف يتبدد فى الحال، وبمعجزة تعود إليه حقوقه. والأكثر من هذا أساء الفرنسيون فهم نظرة المصريين عامة إلى الحكومة.

وبالرغم من أن الإدارة المحلية لمصر كانت سيئة، والفوائد التى تجبى من ورائها هزيلة للغاية، إلا أن المصريين كانوا يشعرون دائماً بأنهم معتمدون على الحكومة، وهو شر ضرورى لأبد منه، لكنه يحقق لهم نوعاً من الرعاية الأبوية، والتى كان من حقها طبقاً للتقاليد العتيقة أن تفرض عليهم الضرائب لآخر ملهم إن استطاعت، لجأوا إلى الذكاء، فإن هذه النسبة قد تصبح أقل. وبالرغم من كل شيء فقد كان يمكن دائماً تدبير ذلك عن طريق الرشوة. وخلال حكم المماليك، كثيراً ما كانت الضرائب تفرض عليهم بقسوة، وكانوا يعانون من تصرفات قاسية وجشعة، لكنهم كانوا يشعرون بأنهم غير مقيدين بأى نظام، ففى استطاعتهم إذا أرادوا العمل، أو إذا أرادوا الجلوس تحت أشعة الشمس دون أن يفعلوا شيئاً. ففى حياتهم اليومية لا أحد يضايقهم.

أما الآن، وفجأة، بدأ بونابرت يتعدى على هذه الحرية، وإن المدينة الحديثة لا تبدو أكثر من وابل من اللوائح المزعجة، فقد اكتشف رجل الشارع أن عليه أن يدفع رسوماً فى بعض الحالات مثل المواليد، والزواج، والوفيات، وإنه إذا أراد أن يسافر مهما كان مكان السفر عليه أن يحصل على

إذن مسبق، وأنه مسئول عن تصرفات أى شخص يدعو إلى بيته، وأنه قد يستدعى للسؤال إذ تقاعس عن تسليم بغلته إلى الفرنسيين، وأنه مسئول عن رش الطريق أمام بيته بالماء أثناء النهار، وأن يحرص على أن يكون مضاءً بالليل، أما الإهانة المتمثلة فى جعله ملزماً بوضع شريط مثلث الألوان فوق عمامته كرمز للخضوع، فقد كان أمراً يمكن تحمله (لأن ذلك لن يكلفه شيئاً على أى حال)، لكن شد الحزام على بطنه من أجل الاستنزاف المنظم الذى هدفت إليه الإدارة الفرنسية من أجل تعويض خسائر الكنوز التى غرقت مع سفينة القيادة كان صعباً على معدته. فكبار ملاك الأراضى كان عليهم أن يقدموا صكوك الملكية . أما إذا فشلوا - كما - كان يحدث كثيراً - فى الحصول على اعتماد الصك، فإن الأرض تباع، ويؤول ثمنها لصالح الجمهورية الفرنسية.

ومما زاد الطين بلة أن هذه اللوائح فرضت بنفس القسوة والصرامة التى فرضها المماليك، بل زاد على نهم المماليك ما فعله الأقباط واليهود الذين كان فى استطاعتهم اقتحام بيوت المسلمين تحت سبب أو آخر، بل وانتهاك حرمة الحريم، عندئذ أدرك المصريون أن حكم الفرنسيين أسوأ من حكم البكوات، فقد أحلوا البيروقراطية محل الحرية، وإذا كان المماليك يتصرفون أحياناً كالمجانين فإنهم كانوا على الأقل يتوقعون جنونهم.

وقبلى يوم العاشر من شهر أكتوبر(*) قضى الشيخ عبد الرحمن الجبرتى صباحاً طيباً فى مكتبة معهد القاهرة حديث التأسيس، ولم تكن هذه هى زيارته الأولى وكان دائماً مبهوراً بالطريقة الودية التى كان الأساتذة الفرنسيون يستقبلونه بها، وهو ترحيب لاحظ بقناعة أنه امتد إلى كل المصريين الذين كانوا يبدون اهتماماً بالأداب، وبهذه المناسبة أبدى إعجابه ببعض كتب التاريخ القديم التى تصور سيرة الحواريين والمعجزات التى قاموا بها، وأبدى دهشة خاصة لمجلد كبير يتناول سيرة الرسول الذى صور وهو يمسك

(*) الجبرتى ص: ٤٦، ٤٧.

بالسيف فى يده اليمنى، وفى يده اليسرى كتاب، ويحيط به صحابته، وعندما صعد إلى الطابق الأول شاهد قطعة من آلة أثارت فضوله وهو تيلسكوب يمكن فكه إلى قطع صغيرة توضع فى صندوق صغير، كما قام عالم الكيمياء بتسليته بعرض تجربة غريبة، فقد قام بصب سائل فى أنبوبة اختبار ثم أضاف إليه سائل آخر، فتكون دخان ملون، وعندما اختفى هذا الدخان تحولت السوائل إلى مادة صلبة صفراء اللون بدت كالحجر عند لمسها، ثم كرر الكيميائي التجربة مستخدماً عدة سوائل مختلفة، ونتج عنها حجر أزرق وآخر أحمر، ثم قال بعد ذلك بتناول مسحوق أبيض، دق عليه بمطرقة فأحدث انفجاراً كأنفجار البندقية المنطلقة، جعل كل واحد يقفز مثل الأرنب بينما قهقهه الكيميائي ضاحكاً(*) .

وعندما غادر المبنى، شاهد الشيخ عبد الرحمن الجبرتي أن الأزقة والحواري عليها بيانات معلقة، لقد كان فى نية الفرنسيين أن يفعلوا شيئاً جديداً هكذا اعتقد وهو يقرأها، فهم لم يكتفوا بالاستيلاء على البيوت التى كانت صكوك ملكيتها غير مكتملة، بل إنهم كانوا على وشك تقديم اقتراح بفرض ضريبة على جميع العقارات الباقية والخاصة بالأهالى، وبينما وهو يسير فى الشوارع المكتظة بالناس لاحظ وجود توتر ينبأ بشر فى المناخ العام، فقد كانت الجماهير قد بدأت فى التجمع كما لو أن الاضطرابات بدأت تختمر، وعندما أرخى الليل سدوله، استخرجت الأسلحة التى كانت مخبأة، وفجأة اندفع حشد كبير على رأسها السيد البدري وهم يتصايحون على طول الشوارع. لقد اندلعت الثورة!

وبطريقة ما كان الوضع كما لو أن أحداً تأمل كرة الكريستال (التى يستخدمها من يقرأون المستقبل) التى تعكس بصورة مصغرة جداً كل الثورات المضادة للاستعمار التى سوف تتفجر خلال القرن والنصف قرن التالى، ليس فى مصر وحدها بل فى بلاد كثيرة حيث كانت أوروبا تلقى بيدها

(٠) الجبرتي ص: ٤٦، ٣٥.

بثقل كبير، الجمهور المتصايح والمسلح بالحجارة والحرايب والسكاكين ذات الحد القاطع مثل موس الحلاقة، تتدفع عبر الشوارع، قائد المنطقة الفرنسي وحراسة يقومون بأعمال وحشية، تلاها عمليات السلب والنهب بلا تمييز، وإقامة المتاريس بطريقة جنونية عندما صدرت الأوامر باستدعاء القوات، واستمر القتال طوال اليوم حتى فقد بونايرت صبره فأصدر أوامره بقصف المدينة من بطاريات المدافع المنصوبة أعلى القلعة، وأخيراً صوبت النيران نحو الجامع الأزهر الكبير ذاته(*)، وكان الجبرتي يشاهد ما يحدث وهو غير مصدق وهو يحتذى خلف أحد المتاريس، بينما راحت المدينة تنهار بفعل وابل من قذائف المدافع وسجل وهو حزين قوله: « فلما سقط عليهم ورأوه، لم يكونوا في عمرهم عاينوه، نادوا يا سلام من هذه الآلام يا خفي الألفاف نجنا مما نخاف(**) أما الشيوخ الأكثر واقعية فقد ركبوا إلى بونايرت يطلبون شروطه فرد عليهم باختصار قائلاً: « أنتم قد بدأت الثورة وأنا سوف أنهيها» ولم يأمر بوقف إطلاق النيران إلا بعد أن رجاء الشيوخ طالين الرحمة ».

وبعد ذلك أخذت القوات الفرنسية مواقعها فوق كل أجزاء المدينة وسمعت قعقة الخيول في ساحة الأزهر الشريف حيث اندفعت في وضع القتال، وقيدت الخيول ناحية القبلة، وألقى بالآثاث هنا وهناك، وداسوا بأقدامهم على القرآن الكريم في الأرض، ولقد شاهد الجبرتي وهو مذعور الجنود وهي تبصق على السجاد ويتبولون على الحوائط، وملئوا المسجد بقوارير الخمر المحطمة. وكان هذا كثيراً بالنسبة للثورة. لقد فرضت غرامات باهظة على الجميع، ونزعت ثياب عشرة شيوخ، اعتقدوا أنهم تورطوا في الثورة، حتى أصبحوا عرايا ثم أطلقوا عليهم النار في القلعة، وحذر بونايرت الآخرين بقوله: « لقد ماتت الفتنة لعن الله من أيقظها. فخذوا حذرکم ألا تورطوا أنفسكم في كوارث جديدة ».

(٥) الجبرتي ص: ٤٨.

(٥٥) الجبرتي ص: ٢٥.

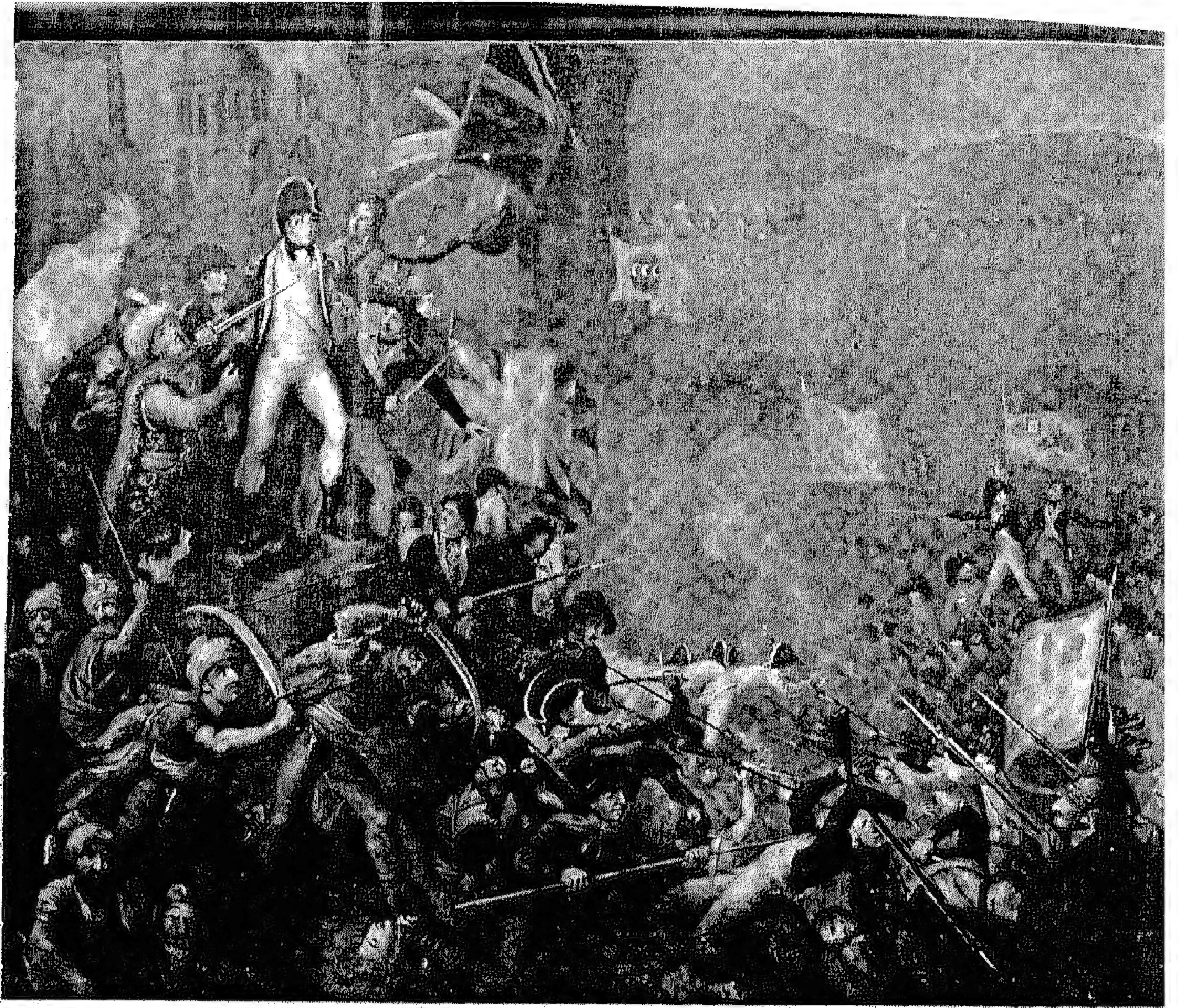
ومنذ تلك اللحظة لم يعد يغازل الإسلام، ولم يعد مواطنو القاهرة يشيرون إليه بإعجاب باسم السلطان الكبير بونايرت، ما أن استقر التراب في الأسواق حتى كان المارة يتوقفون عند نواصي الطرق ليستمعوا إلى آخر الأنباء عن الباب العالي، ووزعت نسخة من فرمان السلطانى الذى وصف الفرنسيين « بأنهم كفار وكذابين ووحوش بكل ما تعنيه الكلمة ». وسرعان ما أصبح معروفاً أن تركيا أعلنت الحرب على فرنسا.

وقف برتية Berthier يتصبب عرقاً، وقد حل رباط بزته العسكرية الرسمية الذهبى التى كانت تصل حتى أذنيه، إذ أن شعارات الثورة: الحرية والمساواة والمواخاة *Liberte, egalite et Fraternite* لم تقل بأى حال من الأحوال تذوقه للثياب المبهجة *Constumes de Fantaisie* لقد كان «برتية» ضئيل الحجم شديد الإخلاص، مشهود له بالكفاءة، وقف يستمع غير مصدق إلى خطط رئيسه بخصوص الحملة على الشام، إذ لم يكن بونايرت الرجل الذى يدع للأتراك أن يباغثوه بالسير ضده، وبالرغم من أنه لم يكن من المناسب أن يترك القاهرة فى مثل هذه الظروف التى كانت الحالة فيها تستدعى وضع اليد على الزناد، ناهيك عن انتشار القلق فى الأقاليم، بل أنه يكاد أن يتجاهل جيش الأعدى الذى كان يتجمع فى روس ولا حتى احتلال حاكم عكا التركى للعريش (قرية ساحلية داخل الأراضى المصرية) ثم أخبر برتية إذا كان الأتراك يتوقعون للدخول فى معركة فلنعطيهم معركة!! فقد استولى على عكا، ويشير مسيحي الشام وأرمينيا ضد الباب العالي ويقلب الإمبراطورية التركية رأساً على عقب، وسرعان ما ترجمت هذه التعليمات إلى أوامر عسكرية، وفى ١١ فبراير عام ١٧٩٩ تحركت قوة يبلغ تعدادها ١٣,٠٠٠ رجل مختربة رمال سيناء على أنغام نشيد ألف ولحن على عجل تقول كلماته: « إننا نرحل تجاه الشام » *Partant pour la Syrie*.

وقف رجلان فى طريق بونايرت هما: أحمد الجزار حاكم عكا من قبل الأتراك، والسير " سنى سميث " قائد الفليق البحرى البريطانى فى شرق البحر المتوسط. لقد قيل عن الجزار (وهو جزار فعلاً لأنه بدأ حياته فى

سلخانة القاهرة)، أنه طبق مهنته عندما مارس السياسة، فأصبح أشد الشخصيات قسوة وإثارة للرعب في منطقة جنوب القسطنطينية، أما عن سدنى سميث الذى كان قد انضم إلى سلاح البحرية، وهو فى سن الثانية عشر، ورقى إلى رتبة كابتن (ملازم) وهو فى سن التاسعة عشرة، ورسم فارساً Knight (لتطوعه فى الحرب ضد السويديين) وهو فى سن السادسة والعشرين، فقد سجل ملفه الشخصى فى قيادة البحرية بموافقة شبه مقنعة: « أنه متهور فى اندفاعه نحو الخطر، غير أن له قدرات ذهنية كبيرة، فى الخروج منه بآفة ». وكان قد هرب لتوه من سجن لوتمبل Le Temple ذى السمعة السيئة فى باريس، حيث زج به بعد تصرفاته فى طولون. فقد كان له حساب خاص يريد تصفيته مع الفرنسيين، « هذا المزيج غير المتشابه، وهذه الحفرة التعسة هى التى جعلتلى أخفق فى قدرى » هكذا دمدم بونايرت فى سجنه فى سانت هيلينا.

كانت عكا تقوم على لسان من الأرض ناتئ داخل البحر، ويحميها من ناحية البر متاريس ضخمة، ولقد لعبت عكا دوراً بارزاً فى أقدار شخصيات كبيرة مثل نيشو المصرى Nesho، وسولون Solon الإغريقى، وريتشارد قلب الأسد (الإنجليزى). وعند سماعه بأن بونايرت يسير نحو الشمال، خمن السير سدنى على الفور أن هذا هو هدفه، وقبل وصول الفرنسيين، كان قد استولى على سبع قوارب مزودة بالمدافع تتقل الذخيرة والمؤن، وقبل كل شىء وأكثرها أهمية استيلائه على مدفعية الحصار، حتى أن نابليون عندما وصل إلى عكا وجد أن المدافع مصوبة نحوه من الخنادق التى كان ينتوى الوصول إليها. ولذا تم بسهولة صد أول هجوم مباغت، أما الثانى فقد كان مكلفاً فى الخسائر، وأقل نجاحاً من الأول. وهنا لجأ بونايرت إلى آلات الحصار البطيء المرهق، وبالرغم من قيام الفرنسيين بحفر الخنادق العميقة، وزرع الألغام، فقد قامت القوة البريطانية بغارات لم تتوقف، ويصف شاهد عيان من داخل الأسوار: « الحماس المستعر من جانب النساء المسلمات اللاتى كن يدرن فى حلقة وهن فى حالة من الجنون ويلقن بالتراب فى الهواء لحث رجالهم ببذل مجهود أكبر وإظهار شجاعة أبرع خلال قيامهم



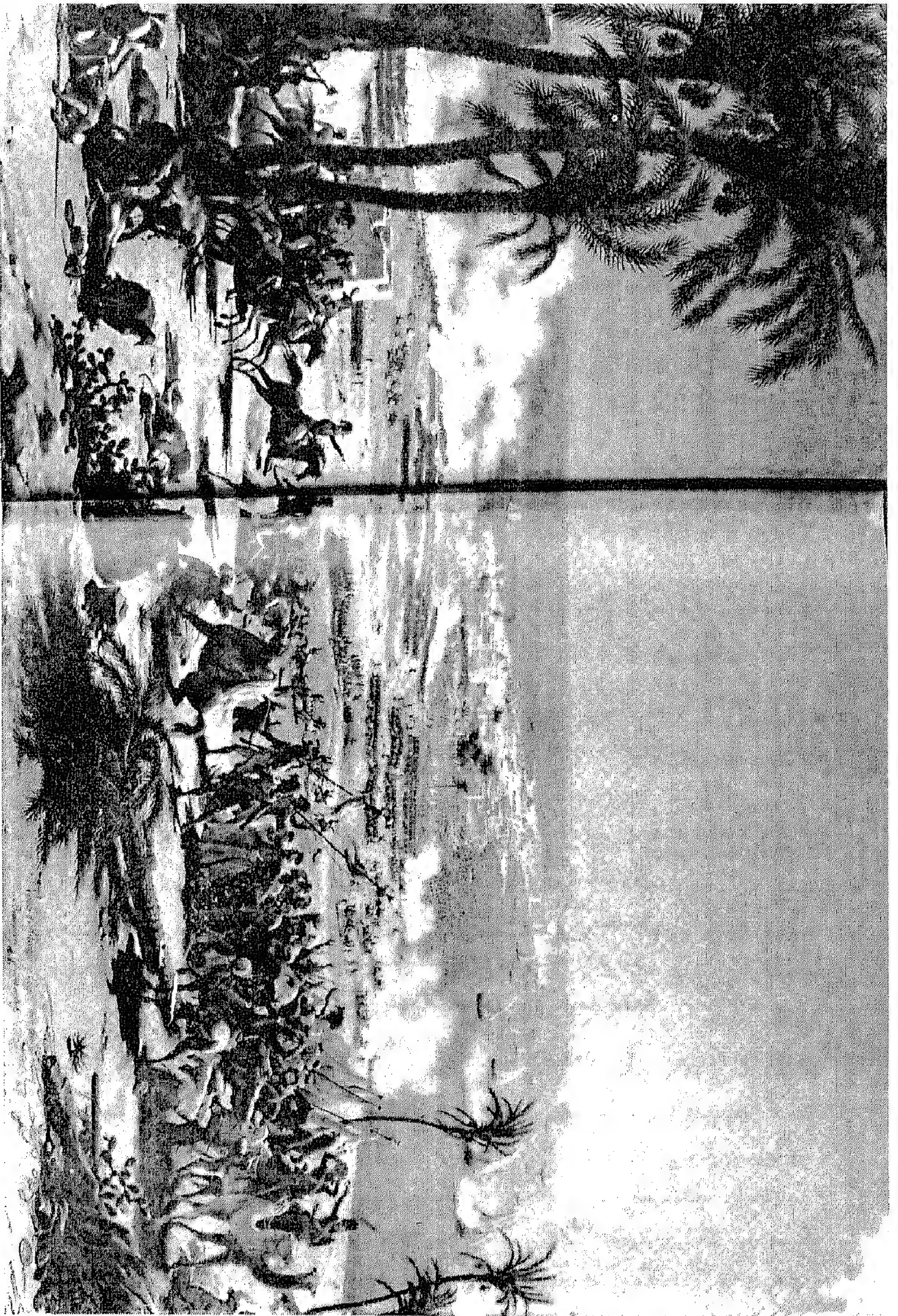
لوحة رسمها الفنان الشهيد توماس ساتون Thomas
Sutton تصور كيف دحر القائد الإنجليزي سدني سميث
Sidney Smith هجوم نابليون الخاطف على عكا عام
١٧٩٩ في محاولته الفاشلة للاستيلاء على فلسطين

بغارات ليلية التي استمتع بها السير سدنى سميث استمتاعاً كبيراً في تولى قيادتها بينما جلس أحمد الجزار عند بوابة قصره يمنح ديناراً فضياً لكل من يأتي له برأس رجل فرنسي ويلقيها تحت قدميه .»

أما بالنسبة لنابليون الذي كان يعتمد دائماً على التحرك لتحقيق نجاحه، فإن هذه الورطة كانت لا تطاق، فكأنه يضرب بقدميه بشدة في صخرة محاولاً رفسها بعيداً مسبباً جروحاً في مقدمة ساقه. وليلة بعد ليلة راح يذرع التل الصغير المواجه لعكا: والذي لا يزال حتى الآن يعرف بقلب الأسد: نزولاً وصعوداً وقد اعتلاه النكد، وقال وهو يشير إليها بغضب: «إن قدر الشرق يتوقف على هذه المدينة الصغيرة... لاحظوا إنها المفتاح إلى القسطنطينية وإلى الهند».

لقد كانت مفتاحاً شاء له القدر ألا يستولى عليه أبداً مهما حاول أن يلطف من حالة الإحباط التي انتابته بأحلام كبرى « إننى سوف اجتاح الإمبراطورية التركية، أقام في الشرق إمبراطورية كبرى سوف تخلد اسمى للأجيال القادمة ربما سوف أعود إلى باريس عن طريق أدريانوبل أو عن طريق فيينا بعد أن أبعد الأسرة المالكة في النمسا ». أنه لمن الواضح أن مغامراته في الشرق قد تحولت إلى كارثة ذات مذاق كرهه بالنسبة له، وأكثر من ذلك أنه بعد مضي شهرين من حفر الخنادق، وزرع الألغام، والقيام بغارات مباغتة وقصف المدفعية المتبادل، واجه الفرنسيون خطراً مهلكاً من جانب العدو يحاربهم بقدر ما يستطيع. فطبقاً للإحصائيات لقي ما يزيد عن ألف رجل حتفه بسبب وباء الطاعون (مقابل ١٢٠٠ لقوا حتفهم على أيدي العدو) أما عدد المرضى والمصابين فقد بلغ ٢٣٠٠ رجل.

وجاءت اللحظة الحاسمة في اليوم الواحد والخمسين من الحصار عندما ظهر في الأفق أسطول كبير من العتاد التركي، وفي هذه الليلة قام نابليون في بدمج رماة القنابل من كل الكتائب في حائط بشرى سميكة من جنود العاصفة Sturm Truppen، وقام بشن آخر هجوم عاصف، إلا أن هذه المحرقة التي استغرقت عشر ساعات لم تجد من الأمر شيئاً بالرغم من أنه تمكن من رفع



لوحة تسجيلية رسمها الرسام بولوز Bulloz تصور
جانباً من معركة أبو قير (١٧٩٩) التي نجح فيها
نابليون في إرغام الجيش التركي على الانسحاب إلى
البحر المتوسط



رسم للفنان آلكين Alken أحد الرسامين المعاصرين
للأحداث يبين الطريقة التي كان يقاتل بها فرسان
المماليك وقد هزمهم نابليون في معركة الأهرامات
(١٧٩٨)، ثم تخلص منهم محمد علي في مذبحة القلعة
عام ١٨١١

علم الثورة الفرنسية مثلث الألوان لوقت قصير فوق أحد الأبراج، وما أن بدأت الإمدادات التركية في النزول إلى البر، حتى بدأ يتضح أن هجومه باء بالفشل بشكل كامل حتى إنه لم يكن لديه خيار سوى أن يجمع شتات ما تبقى له من قواته الضاربة ويعود أدراجه عبر السهل إلى مصر.

بعد ذلك بدأ العدوان اللودان في استخدام أقلامهما كل على نحو يميزه، فقد كتب البحار (ويقصد سدننى سميث) وهو يلوى سكينه برشاقة في الجرح يقول: «أيها الجنرال إن الظروف تذكرنى لو أنك تأملت في تقلب أمور البشر. هل حقاً مر على خاطرك أن سجيناً مسكيناً في زنزانة في سجل التمليل قدر له أن يرغمك على أن ترفع حصارك الذى ضربته حول نجع بائس يكاد أن يكون بلا حماية أو خط دفاع. وأنت وسط رمال الشام، يجب أن تقر وتعترف أن هذه الأحداث تفوق حسابات البشر صدقتى أيها الجنرال إن آسيا ليست مسرحاً لمجدك.. هذه رسالة تشفى القليل الذى أراضى به نفسى.»

أما نابليون الذى قيل أنه لم يغفر له ذلك فقد ذكر أنه كان مدركاً إدراكاً شديداً مدى تقلب أمور البشر وكذلك مدى أساليب التلاعب بالناس، فالبيان الذى أرسله إلى القاهرة كان محرفاً مثله كمثل أى بيان يصدر فى القرن العشرين، فقد أعلن للمصريين: «أننى خلال أيام سوف نبدأ المسيرة إلى القاهرة، وسوف أجلب معى عدداً كبيراً من السجناء والبيارق التى استولت عليها. لقد أطحت بقصر الجزار وأسوار عكا، وقصفت المدينة بالقنابل، حتى أن حجراً واحداً لم يبق فى مكانه.. وولى السكان الهرب عن طريق البحر... أما الجزار فقد تلقى جرحاً قاتلاً.»

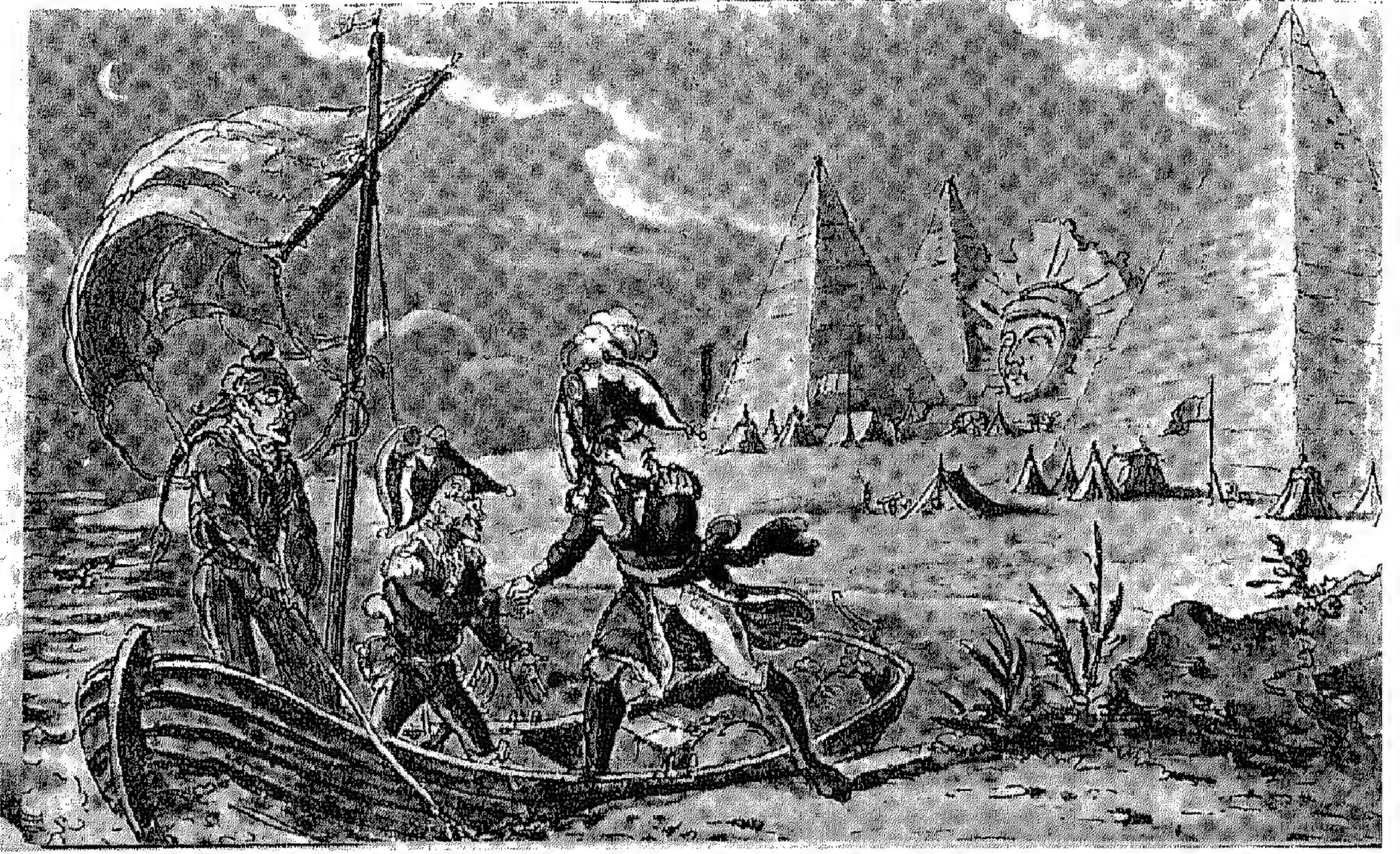
لقد كان الانسحاب الفرنسى إلى مصر كارثة محققة، فقد تركوا من ورائهم ذيلاً متعرجاً من المرضى والعاجزين خلال سيرهم فى الصحراء، غير أن دخولهم إلى القاهرة لم يكن كذلك، بل كان موكب نصر كما يتمناه أى من الغوغاء، فالبيارق مرفوعة، والطبول تدوى مما جعل بقايا جيشه المنهك تقضى خمس ساعات لكى تشق طريقها عبر الشوارع التى تظللها أشجار النخيل، إلا أن الأمر لم ينطلى على المصريين تماماً، فقد أثار فضولهم بشكل

واضح أن يلاحظوا مدى الشحوب والإرهاق الذي بدا على الجنود بعد تجربتهم في الشام. وفي الشهر الثاني وجد بونايرت عذراً حقيقياً لكي يقوم بإجراء استعراض موكب نصر.

وأخيراً ظهر في الصورة في أبي قير جيش الأتراك الذي كان يجمعه حسن بك مصطفى في رودس. وقام بالاستيلاء على القلعة التي كانت تحتلها فصيلة فرنسية واحدة، وكانت ساعتها تحتل الشريط الضيق من الأرض الذي يشكل اللسان الغربي للخليج بطريقة غير واضحة. وبشكل غير حاسم كان هجوم بونايرت وهو الهجوم المثير الذي كان لا يزال يتذكره بالحسرة والندم عن عكا، ولهذا شن هجوماً عنيفاً على مواقعهم المخندقة. وفي هذه المرة نجح في تحقيق نصر في ذلك اليوم.

ويقول السير سدني سميث الذي وجد نفسه مرة أخرى في خضم المعركة: «وعندما كان الطابور الأزرق يتقدم للهجوم، رد على أعقابه خاسراً مرتين، غير أن عادة الأتراك البربرية في قطع رؤوس أعدائهم القتلى جعلهم يندفعون إلى الأمام غير مباليين وبطريقة غير منظمة، مما ساعد على انفجار بركان الغضب بين مشاهير الفرنسيين الذين جمعوا شتاتهم، وقد تسببت عودتهم المفاجئة لمهاجمة المدافعين عن هذه الخطوط غير المتناسقة وغير المترابطة قلقاً لهم، وسرعان ما امتلأ البحر بمئات الهاربين الذين كانوا يسبحون نحونا، وكان من بين هؤلاء ضابط ألباني شاب اسمه محمد علي، وهو الذي أصبح فيما بعد حاكماً على مصر».

ومرة أخرى سار نابليون في موكب النصر عبر شوارع القاهرة غير أنه في هذه المرة كان يسير إلى جانبه مصطفى بك ذليلاً وأسيراً. غير أن ذهنه لم يكن في القاهرة بل كان بعيداً عنها، ففي أثناء الإجراءات الشكالية بعد المعركة سلم السير سدني كنوع من المجاملة المدروسة، أو ربما كنوع من الدهاء والخبث، لفافة من الصحف التي كان قد مر على صدورها شهران، ومنها عرف أن لعنة الله Gottendammerung والتي كان يتوقعها على الدوام، قد نزلت على الحكومة العاجزة في باريس، فمقترحاته في إيطاليا ربت على



رسم كاريكاتورى ظهر فى الصحف البريطانية فى ذلك
الوقت يسخر من خروج نابليون مذعوراً من مصر من
منظر الأهرامات وأبى الهول رداً على خطبته إثر مروره
عند الأهرامات والتي قال فيها لجنوده: "إن أربعين قرناً
من الزمان تنظر إليكم" الصورة من كتاب الدكتور
سينتاكس Syntax عن نابليون، وهى ضمن مجموعة
ما نسل Mansell Collection فى لندن

أعقابها. ومن خلال الخريطة بدت الجيوش الفرنسية وهي تتقهقر من كل جهة، بل أن فرنسا ذاتها كانت في قلب المعاناة بسبب الصراع الأهلي، وأن الوطن La Patrie ذاته كان معرضاً لغزو خطير حقيقى.

وفى مصر بدا المستقبل مظلماً، وعلى أى حل ماذا كانت تساوى انتصاراته على ضفاف النيل إذ ما قورنت بالسلطة والبريق الاستعماري الذي يتوهج باللونين اللازوردي والقرمزي والذي يستطيع أن يستشفه في باريس. إن هجر جيشه يبدو أمراً بسيطاً في مواجهة الخطر الشامل. فبعد ليلة واحدة قضائها في قراءة الصحف اتخذ قراره: فقد تظاهر بأنه يقوم بجولة روتينية لزيارة الأقاليم، وانسحب في هدوء خارج القاهرة حيث أبحر تجاه فرنسا بصحبة مجموعة قليلة من المساعدين انتقاها بحرص. وقد ظل رحيله سراً مغلقاً حتى أن كليبر الذي عينه خليفة له - علم بأمرها من خلال رسالة تسلمها في وقت متأخر بحيث لا يستطيع طلب تفسير وعلى نحو مميز كتب بوناپرت: « عندما أصل إلى باريس سوف أطارده هذه العصابة من المحامين الذين خدعونا وسوف أدمم هذه المستعمرة الرائعة » ولكن في الحقيقة لم يكن هناك أحد يعلم الحقيقة خير منه بأن حملته كانت عملاً فاشلاً.

وسرعان ما امتلأت قاعات الاستقبال في باريس بالاسكتشات المثيرة التي تصور انتصارات جيش النيل، وبدأ رسامو القصور ينجزون لوحات كبيرة على القماش الناعم تصور القاهر فوق صهوة جواده تحت سماء صافية وهو يتأمل أبا الهول، أو تصوره وهو يبث الحمية في قلوب رجاله الشجعان لكي يدوسوا بأقدامهم الأعداء من البشرة العاجية وهم يلتوون من الألم. غير أن الرسائل التي كان يرسلها هؤلاء المحاربون إلى نوابهم في الوطن والتي اعترضها الأسطول البريطاني في البحر كانت تصور جانب مخالفاً للرواية. فقد كتب ضابط إعتلاه اليأس يقول: « إن مصر الجهنمية ليست سوى أرض قفر تغطيها الرمال. فمنذ وجودنا هنا لم نفعل شيئاً »، بينما نوح آخر « باسمك اللهم Nom de Dieu أجلب لنا متاعنا والبراندي الخاص بنا، فالجيش كله قد أصيب بالدوسنتاريا من شرب المياه المحلية باسمك اللهم نريد النبيذ والبراندي والروم » ونوح عقيد آخر قائلاً: « أننى أخشى أننا قد خدعنا

إلى أقصى حد بهذه الحملة التي يتباهون بها. إن أى منطقة مهجورة وغير مزروعة فى فرنسا أجمل ألف مرة من هذه الأرض الموعودة تخيل مجموعة من أبراج الحمام القذرة سيئة البناء إذا أردت أخذ فكرة عن الإسكندرية أما عن القاهرة أعلى وأكبر وأفخم مدينة فى العالم فهى أيضاً أكثر المدن ازدياء وأكثر حظائر الكلاب تعاسة على وجه الأرض».

والذى لا شك فيه فأن الحملة يجب أن تسجل كعملية فاشلة. فبالنسبة للمصريين فهى ليست سوى مرحلة منقضية من مراحل تاريخهم سوف تصبح فى طى النسيان خلال سنوات قليلة، غير أن نتائجها كانت طويلة المدى، فقد ألقت بمصر فى حجر أوربا القرن التاسع عشر، فهى تشكل بداية النهاية بالنسبة للمماليك. ويفضل معهد القاهرة I institut du Caire وموسوعتهم الرائعة Description de L'Egypte حدث انطلاق لمشروعات كبيرة. كما يعزى إليها الكثيرة من التأثير الثقافى الفرنسى الذى هو باق حتى اليوم. أما دارسو ظاهرة صعود الاستعمار سوف يلاحظون أنها كانت أولى المحاولات الصريحة التى قام بها بلد أوربي لاستعمار هذه المنطقة. أما أولئك المعجبون بشخصية نابليون فسوف يعترفون أن مغامراته فى مصر كانت بمثابة رفع الستار عن النشاط المتوهج الذى تلا ذلك.

إن المترحم على نابليون فى مصر عبر عنه كليبر بإيجاز بليغ، إن لم يكن بطريقة رائعة أيضاً عندما وقف يقرأ رسالة الرجل الذى كان رئيسه: إذ انفجر غاضباً: «ابن الحرام التافه هذا قد غادر المعسكر وسرواله ملئ بهرائه: Ce petit Salaud foutu le camp avec ses culottes pleines de merde».

وفى السابع من شهر مارس عام ١٨٠١ بعد مرور ثمانية عشر عاماً بالكاد انحنى شاب إنجليزى ذو وجه أحمر على جانب سفينة مبحرة فى خليج أبى قير، وانتهى به خياله المترقب إلى تلهف شديد الرعب، إذ شاهد طلائع قوة حملة السير رالف أبركرومبى Ralf Abercromby وهى تهم بالنزول ومهاجمة المواقع الفرنسية على الساحل.

وقد كتب مورجان مورجان كليفورد Morgan Morgan Clifford من الكتيبة الثانية عشرة من سلاح الفرسان خفيفة الحركة light Dragoons في صحيفته يقول: « لقد شاهدنا قواتنا تتزاحم في قوارب مفلطحة، وهم يجلسون وبنادقهم غير محشوة، وغير قادرين على الرد على أى من النيران الكثيفة التى كانوا يتعرضون لها، وشاهدنا عدداً كبيراً من القوارب وهى تغرق أو تتمزق إرباً إرباً من فعل القذائف بينما كان الرجال يصارعون فى الماء، وما أن وصلوا إلى طلائع العدو المتموج والذي كان آنذاك مختلف حتى اندفعوا كالعاصفة نحو الساحل: « لقد سمعنا ثلاث هتافات للجنود الإنجليز، ورأينا قواربهم تصل إلى الشاطئ ثم رأينا الجنود وهم يقفزون منها إلى البر، واندفع العدو نحوهم، بينما كانت جماعة من فرسانهم تهاجم بعنف طلائعنا التى كانت على الجانب الأيسر وسرعان ما تحول الموقف إلى دخان وفوضى ».

وبعد مرور ربع ساعة، انجلى الموقف إذ ظهر الإنجليز على المرتفعات فى الخلف وهم يتعقبون عدوا يتقهقر « الآن ساد الجميع المرح والسرور وبقدوم الساعة العاشرة كانت قوة الحملة بكاملها قد نزلت إلى البر، وزحف أبركرومبى Abercromby بعد أن ضمن لنفسه موقعاً على الساحل نحو الإسكندرية. وبالقرب من المكان الذى يقع فيه الآن نادى سبورتنج وقع التحامان دمويان، (وقد أبلغ القائد البريطانى عنهما بقوله « لم أرى فى حياتى ميداناً وقد اقتشر بالجثث بمثل هذه الدرجة » وتتأ مورجان كليفورد بأنهما سوف يقرران مصير مصر، والذي لم تستطع الكرة البلورية لقراءة المستقبل أن تتبى عنه وهو أن ظهور العلم البريطانى Union Jack فوق الأرض المصرية سوف يبدأ قرناً ونصف قرن من العلاقات الأنجلو مصرية حتى تلقى هذا الرمز - والذي كان حيناً محبوباً وأحياناً كثيرة مكروهاً - فى النهاية ضربه قاضية فى بورسعيد قبل يومين من عيد الميلاد بعد مرور ١٥٥ عاماً.

ومن سخرية القدر إنه إذا كان الإنجليز قد وصلوا إلى مصر فى النهاية فإن ذلك كان نتيجة لحالة من التشوش سادت مبنى الهوايتهول، فما أن هجر

بونابرت جيشه في القاهرة لكي يصبح القنصل الأول في حكومة باريس حتى كتب السير سدنى سميث من موقعه المؤثر في الميدان، يصف الموقف كما بدا له وهو على ظهر Le Tigre (أى النمرة) كتب إلى قائده البحرى يقول: «إن لديه الأدلة الإيجابية للقول بأن كليبر هو أشد أعداء بونابرت مقتاً وكرهاً، وفى رؤية أن آخر شيء يتمناه نابليون هو أن يرى كليبر وجيشه يعودان إدراجهما إلى فرنسا وأنه لو أمكن تسهيل خروج الفرنسيين من مصر فإن ذلك سوف ينقذ الجيش التركى من إبادة محتملة » إذ أنه لا أحد غيره يعرف إلى أى حد كانت حالة الفوضى التى هم عليها بل سيكون ذلك بمثابة إطلاق قط جائع بين الحمام فى فرنسا.

كان الجنرال كليبر رجلاً متغطرساً من أبناء إقليم الألزاس وينتمى إلى المدرسة القديمة، تصالح مع الحكومة الثورية التى كانت يحتقرها فى قرارة نفسه، ويمثل القوة المضادة لنظرياتها الثورية، إذ لم يكن لديه الأحلام الكبرى التى كانت لدى سلفه، ولهذا كان دائماً فائر الحماس إزاء الحملة على مصر، ولما تزايدت المصاعب أمام الاحتلال، زادت نظريته التشاؤمية، وسرعان ما أصبح تفكيره هو إخراج الفرنسيين من مصر بأقل الخسائر.

وفى ضوء هذه الظروف لم يكن من العسير التفاوض لعقد اتفاق بين الأتراك والفرنسيين والذى بمقتضاه يمنح الفرنسيون فرصة للانسحاب الأمن وبكرامة من مصر فى غضون ثلاثة أشهر. وفى مطلع عام ١٨٠٠ ذكر السير سدنى الذى كان قد حقق نجاحاً فى الاستتباط عن طريق قلمه ما عجز عنه بتهوره عن طريق سيفه فى تقرير له رفعه إلى لندن يستهل بالسعادة بأن الفرنسيين يقومون بالجلاء عن مصر.

غير أن الرد جاء من قيادة البحرية كصدمة غير سارة، فبينما كان الفرنسيون مشغولين فى الاستعداد لتسليم القاهرة إلى الأتراك، كانت فرقاطه فى طريقها إلى البحر المتوسط تحمل تعليمات صارمة من الهوايتهول بأنه يجب ألا يسمح للفرنسيين تحت أى شروط من الشروط بمغادرة مصر ما لم يسلموا أسلحتهم ويستسلموا كأسرى حرب.

كان سكان القاهرة يراقبون رحيل الفرنسيين بفرح يصعب كتمانها وكانوا في حيرة من أن استئناف النشاط العسكرى المفاجئ والمحموم في عاصمتهم. وأعلن كليبر - ذو الوجه الأحمر - لقواته شروط البريطانيين، وقال وهو يزار من فوق منصة تغطيها الأعلام مثلثته الألوان: « أيها الرفاق ليس عند الجندي الفرنسى غير رد واحد على هذه الاتصالات الوقحة... النصر » وقبل أن تهدأ أعصابه كان الفرنسيون قد أبادوا جيش الصدر الأعظم عند المطرية، وبذلك أصبحوا مرة أخرى وبحزم سادة على مصر.

ولما وصلت أنباء هذا الكارثة غير المتوقعة إلى قيادة البحرية في لندن بعد ثلاثة أشهر لم يملكوا أنفسهم من الإحساس بالأسى، بأن السير سدنى سميث كان مسئولاً عن هذه الحالة من الأمور غير المقنعة. إذ قال مستر فوكس Fox وقد ملأه الغيظ: « لماذا تشغل مصر هذه الأهمية بالنسبة للفرنسيين؟»، وهو أمر لم يكن قادراً على اكتشافه، وبالرغم من ذلك شعر: «أن شيئاً ينبغي عمله » وأعدت عدة مذكرات لتوضيح الأمر للوزراء المعنيين بالأمر. وفي الوقت المناسب اتخذ القرار بإرسال قوة سريعة تحت قيادة السير رالف أيركرومبى للتعامل مع الفرنسيين.

وفى أثناء ذلك اشتعلت ثورة أخرى فى القاهرة، فقد راح ما يقرب من ٦٠٠٠ تركى كانوا قد هربوا من المطرية وتسللوا إلى العاصمة يحرضون المواطنين على القيام بانتفاضة عامة ضد قوات الاحتلال، لكن بالرغم من أن الفرنسيين كانوا يستعيدون سيطرتهم بعد شهر من الاشتباكات، سويت خلالها ضاحية بولاق بالأرض، فقد وقع حادث أثارهم لدرجة أن كانوا على وشك من تدمير بالقاهرة بأكملها.

ففى عصر أحد أيام شهر يونيو المشجعة على النعاس، وبينما كان كليبر يتمشى بدون حراسة فى حديقة قصر الألفى، وقعت حادثة اغتياله. فقد استؤجر شاب عربى مسلم من حلب للقيام بهذه المهمة التى حرصه عليها ضباط أتراك فى فلسطين، إذ تسلل إلى الجنرال كما لو كان يطلب منه صدقة، ثم طعنه بالسكين أربع مرات مات كليبر على أثرها. وعندما شاع

الخبر، اندفعت القوات الفرنسية مسعورة، فقد كتب سارجنت (رقيب) لأسرته متشفياً يقول: «لقد مزقنا بسيفنا كل من صادفنا من الرجال والأطفال». أما الجبرتي الذي كان مرعوباً مثل أي فرد آخر من الانتقام الذي يتلو ذلك، فقد اعتلته الدهشة أن سليمان الذي اعترف بجريمته قدم لمحاكمة رسمية بدلاً من قتله على الفور، غير أن النتيجة كانت واحدة، فقد نفذ حكم الإعدام في سليمان (ومعه عدد قليل من المشايخ لأسباب معقولة) بطريقة شملت كل أنواع التعذيب التي قدرت المحكمة على التوصية بها - لقد ظن (سليمان) أنه ضرب ضربته من أجل الحرية، ولكن من باب السخرية أن العمل الذي قام به لم ينتج عنه سوى شيء معاكس وهو مد فترة الاحتلال. إذ خلف كليبر الذي كان كل همه إخراج جيش بلاده والعودة إلى فرنسا - مينو Menou وهو رجل قصير القامة، سمين، يبدو من هيئته أنه أقرب إلى هيئة "القطايطري" منه إلى هيئة جنرال. وكان مفتوناً بالبقاء في مصر لدرجة كبيرة حتى أنه اعتنق الإسلام رسمياً، وغير اسمه إلى عبد الله مينو بل وتزوج من فتاة مصرية(*).

لم تسفر الخمسة عشر شهراً من الاشتباكات التي كان من أهم معالمها المعارك الدامية خاصة حول الإسكندرية عن شيء سوى تأكيد الوقوع في ورطة. وما أن اقترب عام ١٨٠٢ حتى خارت قوى الطرفين لدرجة أن مينو كان مستعداً للترحيب بقبول معاهدة أميان Amiens والتي بمقتضاها يجلو عن مصر كل من البريطانيين والفرنسيين على طول الخطوط التي كان السير سدني سميث قد أعدها من قبل إلى حد كبير. إن الحقيقة العارية هي أن الحملة على مصر بعد مغادرة نابليون، كانت قد تضاعلت إلى ما يشبه الاستعراض الجانبى. لكن ابن الحرام التافه Petit Salaud كان قد أعطى للحملة وضع النجومية ولا شيء غير ذلك.

وبالتالى كان قد مهد الطريق - وهو لا يدري - لخليفته محمد على الذي أصبحت سيرته هي سيرة مصر طوال نصف القرن التالى.

(*) هي زبيدة بنت محمد البواب، (صورة عقد الزواج معروضة في متحف رشيد).

الفصل الرابع

مؤسس الأسرة العلوية

وبينما كان الفرنسيون يطاردون جنود الحملة التركية ناحية البحر في أبي قسير ١٧٩٩ تمكن السير سدنى سميث الذى كان قد نجا بالكاد من الموت من أن ينقذ جنديا كان على وشك الغرق بسحبه إلى قاربه الصغير، وقام بعمل تنفس صناعي لذلك الشاب الألبانى ذى اللحية الكثة والعينين الرماديتين الخارجيتين، ثم نقله فى أمان إلى سفينة القيادة معتقدا أن هذا الشخص القصير المزرى النظر سوف يسلم الروح خلال خمس دقائق على الأكثر.

هكذا دخل إلى المسرح المصرى ذلك الرجل الذى قدر له أن ينجح فيما فشل فيه نابليون، فعن طريق سلسلة الإنجازات الصارمة والحاسمة تمكن هذا الجندى الألبانى غير النظامى من أن يفرض نفسه سيدا على البلاد، وأن يكون المؤسس لمصر القرن التاسع عشر بكل النوايا والأهداف. فبينما تفاخر الإمبراطور أغسطس أنه تسلم روما مدينة من الطوب وتركها مبنية من الرخام، كان فى مقدور محمد على أن يقول أنه وجد مصر فى حالة من الفوضى وتركها بلدا مستقرا. لقد كان دكتاتورا من الطراز الشرقى القديم امتد نفوذه بعيدا خارج حدود الدلتا. فقد ضم الأماكن المقدسة فى بلاد العرب، ونشر الذعر فى السودان، وأحدث الخراب ببلاد اليونان، ومد سلطانه إلى حدود تركيا ذاتها، حتى أنه فى ذروة انتصاراته كان ملكا بكل صفاته لا ينقصه سوى القلب، ويمتلك إمبراطورية توازى امتدادها إمبراطورية البطالمة. فقبل ظهور لينين و ماو بقرن كامل، حول محمد على مصر إلى الدولة المزرعة الواحدة Single State Farm; جاعلا من نفسه أكبر ملاك الأراضى والتاجر الأوحد. وعلى طول خمسة عقود من الزمان غطت سيرته أحداث الشرق الأوسط. خالقا ما اصطلح على تسميته بالمسألة المصرية التى سببت خلقا لحكومات أوروبا.

ولكن بطريقة غريبة شاء القدر أن يمكن هذا الصبى المتمتر الذى جاء من

مقدونيا ليؤسس أسرة حاكمة استمرت تتوارث العرش حتى عام ١٩٥٢، كما آل على نفسه بالرغم من نفوذه ومهارته الدبلوماسية ألا يأخذ الخطوة الأخيرة بإعلان استقلال مصر الكامل، إذ ظل حتى النهاية حاكما تابعا لمولاه التركي، وبوضعه العربية أمام الحصان، حول محمد علي مصر إلى إمبراطورية قبل أن يجعلها أمة فعلا.

وكما اعتاد أن يروى لزواره أنه ولد في نفس العام الذي ولد فيه نابليون (عام ١٧٦٩) وفي نفس المكان الذي ولد فيه الإسكندر وهو ميناء كافالا الصغير Cavalla في مقدونيا لكننا لا نعرف سوى القليل عن أصوله، لكن يتضح أنه عانى مرارة اليتيم منذ نعومة أظفاره، وتولى رعايته عمدة المدينة، الذى زوجه وهو في سن الثامنة عشرة من إحدى قريباته الثريات. وبعد أن أثبت جدارته كعامل ضرائب ومكوس، وأظهر كفاءة أكبر كتاجر تبغ، شعر أنه قد ضاق ذرعا بالبقاء في كافالا، فتقدم للتطوع كضابط في الكتيبة التي أرسلتها تركيا للانضمام إلى البريطانيين لطرد الفرنسيين خارج مصر وعندما غادر الإنجليز والفرنسيون مصر عام ١٨٠٢ بعد توقيع اتفاق أميان Amiens استمر محمد علي في خدمة الباشا الذى عينته تركيا لحكم البلاد.

وما أن اختفى البريطانيون والفرنسيون حتى انفجر بركان الفوضى، وذلك عندما بدأت الأحزاب السياسية المتنوعة في الدخول في صراع مسعور من أجل السلطة. ومن بعيد وبقدر ما استطاعت حاولت القوى أن تأخذ جانبا معينا، فقد ساندت فرنسا الألبان، بينما ساندت بريطانيا المماليك الذين كانوا قد فقدوا بطشهم العسكرى الحقيقى منذ معركة الأهرامات، بالرغم من أنهم كانوا من الناحية الفعلية يسيطرون على البلاد، ولقد كان جليا بالهوايتهول أن تناصر بشدة هذه الطبقة الأرستقراطية المثيرة بالرغم من أنها كانت في مرحلة الاحتضار. وكان الألفى بك الذى لفت بأبهته أنظار لندن حيث كان يروح لإنشاء شركة تتولى الإشراف المالى على ثروته في مصر هو مرشح بريطانيا لمنصب الباشا.

وفى نظر محمد علي - الذى أصبح الآن الرجل الثانى في قيادة الفرقة

الألبانية - أن هذه التحزبات كانت تتقاتل من أجل هدف واحد لا يزيد عن السلطة لكي ينغموا في أعمال اللصوصية المشروعة. ولكونه يدرك أهمية موقع مصر الاستراتيجي والتجاري ودورها كمر حيوى لبلاد العالم، ويرسم البحر والصحارى حدودها الطبيعية وعلى وعى بخصوبة أرضها، وسهولة انقياد شعبها، فقد كان مفتونا بالمجال الشاسع للقوة التى تعطيه مصر. ولم يمر وقت طويل حتى بدأ يخطط للإمساك بفرصة العمر.

لا تذكر السجلات اسم صاحب الخنجر الذى تم به هذا الحدث، لكنها تذكر أنه فى فجر أحد الأيام، ألقى برأس تحرير صديقه وقائده من إحدى نوافذ القاهرة وبالتالي أصبح محمد على الذى يليه فى المرتبة - على رأس قيادة القوات الألبانية - وكما يشرح ألان مورهد Alan Moorehead فى كتابه النيل الأزرق The Blue Nile وعن طريق هؤلاء الجنود الأجلاف، الذين سرعان ما أصبحوا حراسة الشخصين أمكن إعطاء تأييده ومناصرته لكل من الأتراك والمماليك خلال الحرب الأهلية، وفى نفس الوقت كان يتظاهر بأنه ليس سوى رئيس الشرطة يتولى حفظ النظام فى العاصمة وأنه صديق حميم للمصريين. ولا يفوت على أى دارس لسير المغامرين وزعماء التحزبات أن يلحظ مدى براعة وقوة مناورات هذا الرجل الماكر. فهو يرقب من على جانب الملعب بعين لا تبالى ولا تغفل كعين السحالى حتى يضرب ضربه فى الوقت المناسب ففى بادئ الأمر كان يؤيد المماليك ضد الأتراك، ثم بعد ذلك لما وطد المماليك أنفسهم مرة أخرى فى السلطة، قام بإجبار زعيمهم البرديسى على جمع ضرائب باهظة لدفع رواتب جنوده الألبان لدرجة أن القاهرة انفجرت مرة أخرى فى ثورة، عندئذ قام هو بتهدئة أعمال الشغب عن طريق إجبار البرديسى على تخفيف الضرائب بطريقة فيها شئ من التباهى، ثم قام بمطاردة وجود المماليك إلى خارج القاهرة، كما قام بمصادرة ممتلكاتهم.

كل ذلك أنجز ببراعة باسم السلطان، فقد كان محمد على حريصاً كل الحرص فى جميع تصرفاته أن ينافق الباشا التركى خورشيد الذى كان فى السلطة من الناحية الاسمية فقط، غير أنه فى نفس الوقت بقيامه بفرض

النظام فى الشوارع فقد قدم نفسه للجماهير كزعيم لها، وفى هدوء كون لنفسه أتباعا من بين الشيوخ ومن الطبقة الوسطى شبه المتدينة ومن صغار تجار السوق. وهؤلاء هم المصريون الحقيقيون الذى كانت عواطفهم الوطنية تتأجج، وهم الذين سوف يأتون فيما بعد بعرايى وزغلول وناصر إلى السلطة. لقد كانت مساندتهم أمرا ضروريا فى صراع القوة الأخير الذى لم يعد هناك وقت لتأجيله. فى المحافظات كان قطاع الطرق وعصابات اللصوص تنهب الفلاحين حتى أنهم هجروا قراهم. وفى القاهرة نفسها كانت جنود الأنكشارية والمماليك والباشيبا زوق Bashiba Zouk، ورعاع الجند من كل صنف ونوع تقوم بنهب المتاجر وانتهاك حرمة الحرم. وهو أمر يفوق طاقة التحمل لدى المصريين الذين طالما عانوا من الظلم والاضطهاد.

وفى صباح أحد أيام شهر مايو عام ١٨٠٥ جاءت الضربة الساحقة عندما فاض الوعاء بما فيه، بحيث لم يعد فى مقدورهم التحمل أكثر مما كانوا فيه، فقد تجمع شغب القاهرة يقودهم المشايخ، ورؤساء الحرف المختلفة فى جمع غفير أمام بيت القاضى مقر المحكمة وقدموا شكوى ذات ضجيج وصياح للعرض على الحاكم وطوال اليوم كانت الأسواق تغلى وتزيد كلما اشتدت المظاهرات، ولما لم يرد الحاكم على شكواهم، اتجهت الجماهير إلى بيت محمد على، وراحوا يتصايحون مطالبين بأن يكون الباشا عليهم. وباسم الشعب قام الشيخ الشرقاوى إمام الأزهر والسيد عمر مكرم نقيب الأشراف بالقيام فيما يشبه بأول مظاهرة حقيقية للضمير الوطنى المصرى، تتادى بعزل الحاكم التركى وإلباس محمد على عباءة من الفرو وقفطان الباشا^(١) استنادا إلى استقامته وأريحته وطبقا للشروط التى وضعها الناس وقد تم بطريقة أثارت دورفيتى Dorvitti القنصل الفرنسى حتى أنه أرسل تقريرا حاد إلى باريس عن ذلك الشعب الذى لم يسمع حكاية الضفادع التى طالبت بأن يكون لها ملك.

(١) عبد الرحمن الجبرتى - نفس المصدر - ص: ٤٧٩ - ٤٨٠.

أما بالنسبة للحاكم التركي فقد كان ما حدث إهانة لم يسمع بها أحد من قبل فقد أثارت ثائسرتة أن يرى الفلاحين وهم يخذلون قوة الباب العالي، فوجه مدافعه من أعلى القلعة نحو الجماهير القابعة عند سفحها، غير أن محمد على لم يكن يسمح أن يوقع به بمثل هذه الطريقة السهلة، فوجه هو الآخر مدافعه إلى أعلى تلال المقطم ثم قام بمحاصرة الباشا التعس في القلعة ذاتها، وفي اللحظة المناسبة قام الباب العالي بطريقته المترفعة البرجماتية المعتادة بتثبيت تعيين محمد على خليفة للباشا وبذلك سمح أم يتخذ الفلاحون الأميون، ذوى الطبيعة سهلة الانقياد، والذي طالما احتقروهم بعد قرون من الخضوع والخنوع خطوة إيجابية لتوكيد حقوقهم هكذا بالرغم من أنه كان تابعا للقسطنطينية إلا أن محمد على أصبح حاكما بناء على اختيارهم الشعب - .

فى الإمبراطورية العثمانية، كان حصول شاب غامض يعمل تاجراً للتبغ على السلطة أمر، والاحتفاظ بها أمر آخر، فبعد شهور قليلة ظهر أسطول صغير قبالة الإسكندرية يحمل فرمانا إمبراطوريا بنقل محمد على إلى سالونيك باليونان ولم يتم التغلب على هذا الموقف الكريه إلا عن طريق قبول الأدميرال التركى رشوة مقدارها ٤٠٠ كيس وهى تمثل ثروة شخصية لمرابى قبطى صادرها محمد على على عجل لإغراء السلطان الذى كان اهتمامه بمصر فى المقام الأول اهتمام المرتزق منها، وأنه يمكنه توقع المزيد من الأموال من جانب محمد على أكثر مما يتوقع من جانب المماليك. وبالفعل تم فى نوفمبر عام ١٨٠٦ تثبيت محمد على مرة أخرى كباشا على مصر .

لكن لم يكد تمر أربعة شهور حتى واجه تحديا خطيرا.

فبعد محاولة فاشلة لإغراء السلطان للانضمام إلى جانب الروس ضد فرنسا والتي بلغت ذروتها فى ضربة مباغتة فى الدردنيل تم إحباطها، قرر الإنجليز الذين عادوا مرة أخرى للخصام مع تركيا أنه من المفيد لهم أن يضعوا أيديهم على مصر. وكانت حجتهم أنه لم تم إعادة الألفى بك ومماليكه إلى الحكم، فإن بريطانيا لن تصبح صاحبة السيادة على السواحل المصرية

فحسب، بل يضاف إلى ذلك المزايا التجارية البحتة. وعلى ذلك فقد أرسل الجنرال فريزر على رأس حملة تحمل ما اتفق عليه في المصطلح الرسمي حملة استطلاع A. Re-Connoiterring Expedition لكي يرى ما يمكن القيام به. لقد كان يدرك تماماً أنه من الصعب عليه أن يتوقع من جانبه فتح بلد بقوة محدودة تعدادها ٧٠٠٠ رجل في حين فشل نابليون في تحقيق ذلك بقوة تربو على خمسين ألف رجل لكنه كان يمتلك تعاوناً نشطاً من جانب المماليك لتمهيد الطريق أمامه.

لم يخف محمد علي - الذي كان في صراع مع المماليك في صعيد مصر فزعه فقد وضعت السروج على الخيول للهرب شرقاً إلى فلسطين في حالة الضرورة ، إلا أنه كان يحتفظ بخدعة أخرى في جعبته. إذ تصادف أن مات الألفى والبرديسى فجأة في وقت واحد من جراء عسر الهضم بعد احتساء القهوة^(١)، وعلى أثر ذلك قام وفد من المشايخ والعلماء من القاهرة بمساعدة محمد عليّ على تسوية خلافاته مع ما تبقى من المماليك، ودوت فتوى العلماء في المساجد أنه ليس للفرنسيين ملة أو دين في حين أن الإنجليز مسيحيين أنقياء يكرهون الديانات الأخرى، وليس من العدل أن تقتلوا إلى جانب الكفار ضد المسلمين وقد تبسم المرء لهذا المنطق، إلا أنه كان المنطق السائد. ومن ثم كان على البريطانيين أن يخوضوا المعركة وحدهم.

وكما فعل بونابرت، رست سفنهم عند شاطئ العجمي، وبعد أن تم احتلال الإسكندرية دون أى مقاومة، أرسلت وحدة إلى رشيد، ويروى مصري عاصر الحدث بأنهم دخلوا في الصباح الباكر دون طلقة نار واحدة، وراحوا يمشون الهويناً في الشوارع الضيقة كما لو كانوا يقضون أجازة .

وما أن بلغت حرارة الشمس ذروتها، حيث راحت القوات في زيها الأحمر الخانق تتساند على الحوائط المتشابكة من فرط الإعياء وليتفادوا حرارة القيلولة. حتى أعطى القائد المصري الإشارة، عندئذ انهال وابل من النيران القاتلة من كل نافذة ومن كل عتبة بيت أو ناصية شارع. ثم واجهت الوحدة التعسة فجأة أشخاصاً معممين يلوحون بسيوفهم البتارة، حيث أخذوا

على غرة، ولقى الضابط القائد الجنرال وشوب Wauchope وبضع مئات من رجاله مصرعهم قبل أن تتدحر الوحدة في حالة من القوضى العارمة بقدر ما استطاعت عائدة إلى الإسكندرية.

وفى القاهرة، سرت أنباء هزيمة الكفار سرى الكهرياء، مما أتاح لمحمد على الفرصة التي كان في حاجة إليها ليعاود الظهور على مسرح الأحداث، فقد انضم إليه حتى أشد المماليك تشككا فيه، وسار كل من كان في مقدرته أن يسلم نفسه وراء الجيش النظامي إلى رشيد، تحثهم خطب عمر مكرم والعلماء. وهنا قام الجنرال ستيورات Stewart ومعه الفصائل ٣١، ٣٥، ٧٨ من المشاة بأخذ مواقعهم في منطقة الحماد وفرضوا حصاراً على المدينة. ولم يكن في استطاعة الجنرال الحصول على الخيول من الإسكندرية، ولم تكن انفعاالاته - وهو يراقب قوات محمد الحربية المتدفقة حماساً - وهي تتدفق أمامه تحمل أدنى قدر من السرور بأى حال من الأحوال. وشن الفرسان المصريون هجومهم تملأهم الثقة بالنفس، وخلال معركة استمرت ثلاث ساعات أوقعوا بهم واحدة من أكبر الهزائم المهينة التي خبرتها القوات البريطانية في الشرق.

لقد نجحت القوة البحرية البريطانية من منع وصول أنباء الهزيمة إلى أوروبا. غير أن الرأي العام في إنجلترا الذي كان قد أبلغ كثيراً من الأخبار غير السارة القادمة من قارة أوروبا كلما استمر نابليون في طريقه الذي لا يرجح أصيب بصدمة عنيفة عندما علم أن خمسمائة جندي بريطاني قد سيقوا كأسرى في أسواق الرقيق بالقاهرة يحفهم من الجانبين رعوس عدد كبير من رفاقهم القتلى محمولة على أسياخ. ولما وجد أنه عاجز عن شن هجوم شامل لم يكن أمام فريزر من فرصة سوى أن يطلب التفاوض، وكان محمد على سعيداً جداً بقبولها لأنه كان يتوقع فعل عنيف من جانب بريطانيا. وفي سبتمبر أبحرت القوة الاستطلاعية عائدة. وكان الأثر الوحيد الذي تركته من ورائها هو شاهد قبر جندي من الفصيلة ٧٨ وهو موجود حالياً في فناء البطركية اليونانية بالإسكندرية. أما بالنسبة لمحمد على الذي كان قد قاتل جنباً إلى جنب منذ ست سنوات سبقت - مع أبروكرومبي - فقد اعتبر ذلك نصراً ذا قيمة لا

حد لها. فخلال أسبوعين توقف وصف الباشا بالمغامر أو قائد الباشيبازوق بعد أن أصبح قوة يعمل لها ألف حساب، إذ لم يعد ينظر إليه كألبانى أجنبى، بل بطلا مصريا خالصا ومدافعا عن مصر الإسلامية ضد الكفار. وعلى الجانب الآخر كان بكوات الممالك يتآمرون مع البريطانيين ضد الباشا قد أحرقوا مراكبهم. وإلى أن يحين موعد حسابهم تركهم محمد على لفترة من الزمن، بينما راح يخطط لضربة قاضية Coupe de grace لتصفيتهم كلية وللأبد. لقد كان يوم تصفية الحساب مع الممالك آت لا ريب فيه.

ثم حل يوم الانتقام، ولقد علق الدكتور برونج Dr. Bowring - عضو مجلس العموم الإنجليزى والذى جاء فى بعثة إلى مصر - على هذه الحادثة فى تقريره على ما حدث فى عصر يوم الجمعة الموافق الأول من مارس عام ١٨١١ بقوله: إن كل نقطة دم سفكها محمد على فى ذلك اليوم أنقذت أكثر من إنسان برئ كما ذكر أيضاً فى تقريره الذى رفعه إلى مرعوسيه فى لندن أنه نادراً ما شهد شعب القاهرة مثل هذا المنظر المبهر، فقد كانوا يتزاحمون فى الساحة الكبرى أسفل القلعة، ويتدفقون نحو الأسواق، أما المتفرجون فقد كان يدفعون بعضهم بعضاً على طول الطريق الذى سوف يسير فيه الاستعراض العسكرى. أما المناسبة فهى الألغام على طوسون بن محمد على وكان صبياً فى مرحلة ما قبل العشرين من العمر ببدة التشريف وهو فى طريقه إلى الجزيرة العربية على رأس حملة للاستيلاء على المدينتين المقدستين مكة والمدينة، ووجهت الدعوة إلى كل بكوات الممالك وأتباعهم. وما أن انتصف النهار حتى شرع ركبهم الذى يتكون من خمسمائة راكب يصحبهم أتباعهم فوق خيولهم المطعمة بكل ثمين وغال. ثم صعدوا المدخل المنحدر، وعبروا بوابات القلعة المحظور دخولها، والمزينة بالرايات والشعارات الدينية. ولم يتخلف عن الحضور سوى إبراهيم بك ذلك العجوز الحذر مثل الثعلب فى الحكايات الشعبية، فقد بلغ به الحرص على ألا يغادر حصنه فى بنى سويف وبعث برد غامض معددا أولئك الذين قادتهم أقدامهم إلى عرين الأسد. أما بالنسبة للآخرين فقد كانت مناسبة مرحلة تعيدهم إلى مباحج القاهرة، وأشار إلى أن الباشا كان يظهر حتى وقت ليس بالقصير

سلوكا يميل نحو المصالحة مع المماليك الذين كانوا قد انسحبوا إلى أقاليم مصر العليا منذ عام ١٨٠٧، وشغلوا أنفسهم بضم المزيد من الأقدنة إلى أراضيهم أكثر من اهتمامهم بإثارة المشاكل السياسية. بالإضافة إلى ذلك فإن تقاليد الضيافة تؤمن لهم الحماية وأن الباشا إذ كان يدور في ذهنه أمر فهو على الأرجح أن يقدم لهم غصن الزيتون.

وأكد حدسهم ذلك الترحيب الحار الذي لاقاهم في القلعة، إذ استقبل محمد على باحتفاء غامر ضيوفه في بهو الاستقبال الكبير، مصافحا كل واحد بدوره. ثم قدمت القهوة والحلوى، ومررت النرجيلة عليهم، وتم القيام بأداء الواجبات التقليدية، لكن ما أن انسحب الباشا وفي صحبته المشايخ والقضاة وغيرهم من كبار المستخدمين ليفسحوا الطريق أمام الاستعراض العسكري، حتي لاحظ بعض الناس أن وجه الباشا الذي كان في العادة متورداً بدا أكثر شحوباً.

وفي الوقت المحدد بدأ الاستعراض يتهاى بحيث كان المماليك في مكان الشرف في الوسط، وتحرك موكب الفرسان على خيولهم المبهرجة ببطيء نحو الممر المتعرج المنحدر والمتجه إلى بوابات المدينة القلعة كان يتقدم الموكب فرقة من الأكراد ومن خلفهم بعض الأنكشارية، يليهم الألبان، يتبعهم المماليك فوق جيادهم وقد راحت أريدتهم المطعمة بالجواهر النفيسة وأسلحتهم تتلألأ في ضوء الشمس ويأتى في مؤخرة الموكب السرايا التركية. ولقد كان من السهل أن يلاحظ أى فرد أن الجنود الألبان كانوا متميزين بشغلهم المواقع الهامة على طول الطريق الذي يمر به الموكب، لكن المماليك لم يشموا رائحة الغدر إلى عندما أغلقت بوابة الغرب فجأة، وفي نفس اللحظة فتح الألبان النار، ثم شرعت الفرقتان التي في المقدمة وتلك التي في المؤخرة بالهجوم، ووجد المماليك أنفسهم وقد وقعوا في كمين من النيران القاتلة التي انتهالت عليهم من كل جانب، لقد كانت سيوفهم البتارة عديمة الجدوى في مواجهة البنادق، وتحول الممر الضيق إلى جحيم من الخيول المضطربة والرجال الذين يتصارعون من أجل النجاة ولم يستغرق ذلك الحادث أكثر من

خمس عشر دقيقة، غير أنه من خلال هذه الدقائق الخمسة عشر تم استئصال الطبقة العسكرية التي أمسكت بقبضتها هذا البلد لقرون طويلة وبطريقة لا تعرف الرحمة إلى قلبها سبيلا.

وعندما صفا الجو من الغبار، انتشر جنود الباشا في المدينة بوجه عابس بعد أن خلفوا وراءهم منظراً يشبه سلخانات الجزارين، وراحوا يعملون قتلاً ونهباً، وسرت شائعة في الأسواق التي سادها الذعر أن المماليك قد هلكوا عن آخرهم، ودار الهمس أن واحداً من البكوات - واسمه أمين - نجا بمفرده من المذبحة إذ تسلق المتاريس وهو فوق صهوة جواده، ثم قفز في الهواء خمسين قدماً ليستقر على الصخور القائمة أسفل المكان ثم توجه هارباً إلى الصحراء، وبذلك وضع النهاية الأخيرة لملحمة المماليك.

وفيما بعد روى الطبيب الخاص بالباشا - وهو من جنوة - لأسرته جانباً مما حدث أن محمد على كان يقطع مجرته الصغيرة على قدميه جيئة وذهاباً، وعندما جاء له بالأخبار وهو يتمتم بتدل: ياله من يوم عظيم لجلالتك لم يرد عليه الباشا إنما كل ما نطق به هو: ماء.. ماء.

ولقد سجل شاب إيطالي من قرية زيلو Zello القريبة من فيرار Ferrar والذي كان في القلعة من بين أفراد الفرقة الألبانية. سجل وصفاً لتلك المجزرة الأسطورية من موقعه فقد كتب يقول: بدأ قرع الطبول قبيل الفجر على طول المدينة وعرضها، تدعو القوات للتجمع من أجل القيام باستعراض كبير، قليل منا كانوا قد تلقوا إفطاراً مسبقاً عن ذلك. ومن ثم فقد هرول الجميع من كل جانب للاستفسار عما يحدث، ثم صدرت الأوامر لهم بالتوجه إلى القلعة، ولما وصلوا إليها وضعوا في مواقعهم هناك.

ولم يكن هناك أي أوامر قد صدرت، غير أن كل فرد كلف بمهمة بشكل صارم بعد فحص سلاحه، وأمر ألا يغادر موقعه تحت أي ظرف من الظروف وأن يظل فيه حتى صدور تعليمات أخرى.

ثم اقتربت ساعة الاستعراض، وقد اصطف ما يقرب من خمسمائة ضابط

من المماليك من ذوى الرتب العليا والصغرى فى طابور وهم يقدمون أنفسهم عند بوابة القلعة ثم سمح لهم بالدخول. وقد قاموا باستعراض رائع، وكان يتقدمهم ثلاثة من كبار قادتهم من بينهم صايم بك Saim Bey هكذا دون اسمه الذى كان متميزاً عن الآخرين فعندما دخلوا مباشرة نحو القصر الذى يشغل أعلى موقع، وما أن أعلن عن وصولهم لمحمد على وحسون باشا اللذين كانا معاً فى حجرة المداولة، حتى صدر على الفور أمر بإدخال الزعماء الثلاثة حيث استقبلوا بالحفاوة والترحاب الفياض. ودخل معهما الباشا وصاحبه فى حوار لوقت ليس بالقصير تبودلت خلالها الكثير من المجاملات والرقعة.

"وبعد وهلة وطبقاً للتقاليد الشرقية، أحضرت القهوة، وأخيراً النرجيلة، وفى اللحظة التى كانت تقدم فيها هذه الأشياء، وقف محمد على وانسحب، كما لو كان ذلك جزءاً من الأيتيكيت أو لإعطاء ضيوفه الإيحاء بالاسترخاء، ثم استدعى على أفراد قائد حرسه. وأعطى أوامره بإغلاق بوابات القلعة، مضيفاً بأن تطلق النيران بمجرد أن يخرج صايم بك ورفاقه ليركبوا جيادهم حتى يسقطوا صرعى، وفى نفس الوقت تعطى الإشارة للقوات فى مواقعها فى كافة أنحاء القلعة بتوجيه بنادقها نحو أى مملوك يأتى فى نطاق نيرانهم. وفى نفس الوقت أرسل الأوامر إلى ما كانوا فى المدينة أسفل القلعة، حتى هؤلاء الذين كانوا يعسكرون خارجها حول سفح الحصن، أن يتابعوا أعمال التصفية لجميع الشاردين منهم أينما وجدوا حتى لا يهرب أحد من العدو الذين أبيحت دماؤهم وأموالهم. ويصنف جيوفانى Giovanni بلمسة من الاستقامة والتقوى: ولدى مبرراتى أن أكون شاكراً فالبرغم من أننى كنت جندياً أعسكر فى القلعة فى ذلك الصباح إلا أننى لم أسفك دماء أى من هؤلاء الرجال التعساء، فقد كان لحسن حظى أننى وضعت عند حارة لم يحاول أحد منهم المرور عبرها أو حتى اقترب منى، لهذا فإن مسدسى وغدارتى لم تطلقا أبداً. ولقد استمرت أعمال السلب والنهب طوال ستة أيام وبالرغم من أننى كنت حاضراً عندما حدث الكثير من هذه المناظر ومعى زميل لى، إلا أننى لم أشارك فيها إلا بالقليل، أنه من الصعب أن يوجه إلى اتهام بأننى نهبت

قدراً كبيراً من الغنائم، يقدر ما أتذكر باستثناء سرج مزين بطبقة كثيفة من الفضة، وجارية من الرقيق كانت من ممتلكات أحدهم وبذلك لم أستفد من الآن الصادر بأن أى شيء نجده فى منازلهم هو مكافأة لنا .

منذ ذلك الوقت أصبح مؤكداً أن طبقة المماليك لم يعد لها وجود أما ما تبقى منهم أو تخلف مع إبراهيم فى الصعيد فقد فروا جنوباً إلى السودان، أما نساؤهم فقد تزوجن بضباط من جيش محمد على، أما صبيانهم الذين أبقي على حياتهم فقد قيدت أسماؤهم كمتطوعين فى المؤسسات العسكرية والبحرية الجديدة. ولقد كتب القنصل البريطانى يقول: إن مذبحه المماليك كانت جريمة بشعة، لكنها كانت مقدمة ضرورية لكل الإصلاحات اللاحقة ومن يا ترى سوف يستفيد من هذه الإصلاحات فذلك موضع آخر.

والآن وبعد أن أزيح الفرنسيون والبريطانيون عن طريقه، وبعد أن سحقت المعارضة الداخلية، أصبح ذلك الألبانى، ضئيل البنية، شرس الطباع من الناحية الفعلية دكتاتوراً، أما الحقيقة التى لا لبث فيها، فهى أن الناس لم يغيروا شيئاً سوى سادتهم فقط، إذ أن لصاً بدرجة باشا حل محل مائة لص بدرجة بك. فمثل المماليك نظر محمد على إلى المصريين كجنس مستعبد، تنحصر فائدتهم فى تحقيق مطامعه الشخصية، لكن لم يكن يعينه رخاؤهم. وكما وضح ذلك مرسى سعد الدين: لقد أصبحت مصر فردوساً للأتراك والألبان وكل سائر المأجورين والمرترقة. وفى الحقيقة كان سكان مصر الأصليون فى ذلك الوقت مجرد لفظ: الفلاحون أو القرويون.

إن الفارق الوحيد هو أن محمد على عرف كيف يستغلهم بذكاء ونجاح يفوق من سبقوه بكثير، وفى أثناء ذلك أخرج البلاد من ظلام العصور الوسطى، وحقق لها كل أنواع الاستقرار.

وبغريزة الدكتاتور الحقيقة، كان الاهتمام الأول عنده هو التأكد أن لديه جيشاً لا يقهر للحفاظ على وضعه، وأن يكون لديه خزانة مليئة بشكل جيد للإنفاق منها، ولكى يهتم بهذا الجانب الأخير، فقد استخدم منطق النبى يوسف

الذى جاء فى سفر التكوين «أن الأرض أرض الفرعون(*)» وقياساً على النظام الإسلامى «العتيق» والذى كان يرسم خطاً غير واضح للتمييز بين الملكية الخاصة والملكية العامة، فقد أصدر قراراً بنزع ملكية كل الملاك بما فى ذلك ملكيات المؤسسات الدينية وأراضى الأوقاف وبذلك ركز كافة المصادر الزراعية للبلاد فى يده وبعد الحصول على المحاصيل من مصادرها. لم يكن من العصب أن يبيعها بالربح الذى يبغيه.

وبعد احتكار الإنتاج الزراعى، كانت الخطوة التالية خطوة نسبياً قصيرة وهى أن يجعل نفسه المالك الأوحد للسلع المصنعة والمستورد والمصدر الوحيد. وسرعان كل منتجات وممتلكات البلاد تحت سيطرته المباشرة. أما بالنسبة لعمليات الاستيراد والتصدير فقد كون شراكة مع قناصل القوى الأجنبية التجاريين مما حقق له ميزة وهى وضع الدبلوماسيين المحليين فى جيبه. من الناحية الأساسية كان رجل عمل أكثر من صاحب نظرية بالرغم من أنه النقط القليل من الفلسفة السياسية خلال مراسلاته المطولة مع جرمى بنتهام Jeremy Benthan (**). كانت الفكرة الاقتصادية التى استولت على خياله والتى شجع عليها المستشارون الأجانب الذين اشتتموا رائحة العملات

(*) سفر التكوين: ٤٧: ٢٠ - ٢١ والمقصود هو الأرض مقابل الفتح، كما ورد فى القرآن الكريم قوله تعالى { ونادى فرعون فى قومه أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى أفلا تبصرون } الزخرف: ٥٠ «المترجم».

(**) جرمى بنتهام: فيلسوف وعالم فى الاقتصاد وفقه فى القانون وأحد المدافعين عن نظرية المنفعة وأن السعادة القصوى فى إسعاد العدد الأكبر، ولد فى لندن عام ١٧٤٨ وتوفى فيها عام ١٨٣٢. تأثر بأدم سميث صاحب نظرية دعه يعمل Laissez Faire وبالرغم من أنه ولد محققاً حيث تخرج فى جامعة أكسفورد عام ١٧٦٣ حتى درس القانون والفلسفة والاقتصاد، إلا أن عشقه للنظرية السياسية للتطوير جعلته أقرب إلى الديمقراطية. غطت شهرته كناقذ للقانون والتشريع وبناء المؤسسات السياسية للدولة على شهرته كفيلسوف (المترجم).

المالية هي أنه ما دامت المواد الأولية متوافرة والأيدى العاملة رخيصة، فإن المشكلة تنحصر فقط في استيراد الآلات والمساعدات الفنية من أوروبا لتحويل البلاد إلى بلاد صناعية، ولوضع أساس ثورة صناعية موازية لتلك التي شهدتها بريطانيا وفرنسا. كان ذلك تفكيراً حالماً بالنسبة للظروف التي كانت سائدة في مصر منذ قرن ونصف قرن، ولذا تطلب ذلك بعض الوقت لتتضح معالمه. وبينما انطلق الباشا بحماس شديد نحو التصنيع على غرار أى دولة نامية في عصرنا هذا دون أن ينتظر أى مساعدة من الخارج لدعم مشروعاته.

ففي عام ١٨١٨ افتتح في القاهرة ٥ مصانع لصناعة الصوف الخشن (صوف العسكرى) للجيش، وبعد ذلك بعام عندما لفت خبير ميكانيكي نظره، لم يضيع وقتاً في بناء مصانع لحج وغزل ونسج القطن: ولم يمض وقت طويل حتى كان هناك تسع وعشرون مصنعاً تعمل في هذا المجال؟ وخلال عشر سنوات فقط تكاثرت المصانع على طول البلاد، والتي كانت تنتج سلعاً متنوعة مثل السكر، والسلاح، والبارود، والدوبارة (الحبال) والطرابيش، وكانت مسابك الحديد وأعمال الصلب والنحاس وحوانيت الآلات يدعمها سلسلة متكاملة من الغزاليين والنساجين، والحدادين والحفارين على الخشب واللحامين وأصحاب المسابك كل كانت تحت إدارة الباشا كمالك لها. ولقد كان أسلوبه في الإدارة يثير في بعض الأحيان الدهشة، ولنضرب على ذلك مثلاً. فعندما كانت ترعة المحمودية المعروفة بكثرة إنحناءاتها والتواءاتها تحت الإنجاز، سأل محمد على مهندس فرنسي عن رأيه في تصميماتها فرد الخبير قائلاً:

- عفواً يا صاحب السمو إن ملاحظتي أن قناتك سوف تكون متعرجة فاستفسر الباشا بلطف واضح.
- هل الأنهار عندكم في فرنسا تجرى في خطوط مستقيمة؟
- بالطبع لا.
- من الذى صنعها أليس هو الله؟
- نعم وبكل تأكيد يا صاحب الجلالة.

- عندئذ رد الباشا بلهجة المنتصر.
- حسناً، إذن هل تعتقد أنا أو أنت أننا نعرف أفضل من الله كيف يسير الماء؟ لقد قلدته في قناتي، وإلا فإنها سوف تصبح مصرف مجرد مصرف جاف وليس ترعة!!

كانت العضلة أمام مثل هذه الإدارة المركزية والتي لقيت في البداية اهتماماً من الصحافة في أوروبا كعمل من أعمال المشروعات الحرة ذات النفوذ هي العثور على أناس مناسبين لكي تبقى عجلات المصانع تدور. ولم يكن غريباً أن مشروعاته في مثل هذه الظروف كان يعوزها بشدة من الناحية الفعلية ذلك التفوق الذي ربما كانت تتضمنه نظرياً. فمنذ بدايتها كان طراز المصانع بخسارة، وبدون جهاز محاسبين يأخذ في الاعتبار الأسس والحقائق الاقتصادية في الحياة موضع الاعتبار وسرعان ما تورط الباشا في سباق لا نهاية له لمواجهة العجز المالي في سياسته الداخلية، بل أيضاً لمواجهة العجز المالي لتلبية نفقات الحروب الممتدة والتي كان يخوضها دون توقف. وبالتالي عادت الضرائب تقصم ظهور الناس كما كانت زمن المماليك وعاد عمال الضرائب المحليون إلى وسائلهم البربرية لاعتصار آخر قرش من دم الفلاح التعس، وكما قال وليام لين William Lane ابن شقيق الرسام الشهير جينزبارة Gainsbarough - والذي ارتدى الزي العربي، ووضع على رأسه طربوشاً حوله عمامة، وحرث بقدر الإمكان أن يظهر في مظهر العربي حتى أن جيرانه ظنوه بالفعل من العربية (السعودية) (*). وكان يقطن في بيت يقع بالقرب من خان الخليلي، حيث كان يدعو أصدقاءه من المسلمين لتدخين الترجيلة وشرب القهوة. ومن خلال بعض الشخصيات مثل الشيخ أحمد وهو درويشي من طائفة السعدية، والذي كان ولوعاً بمضغ الأقاعي الحية وزجاج الشمعدانات، وكذلك إلى ما يسمعه يوماً بعد يوم من الأسواق، تمكن من جمع

(*) تلك إحدى هفوات المؤلف، إذ لم تكن المملكة العربية السعودية قد قامت فعلاً في ذلك الوقت، إنما الذي أسسها وأعطاه اسم السعودية هو جلالة الملك عبد العزيز آل سعود.

مادة كافية لكتابة عمله المبهج والذي أصبح مصدراً كلاسيكياً عن أحوال القاهرة في مطلع القرن التاسع عشر (*). وبالرغم من ذلك فقد أقر أنه لمن الصعب عليه أن يكون فكرة محدودة عن الباشا، ويرجع سبب ذلك في المقام الأول إلى السرية التامة غير العادية التي كانت تحيط بكل ما كان يحدث في القلعة خاصة في الأمور السياسية، وبينما كان " لين " قادراً على أن يلاحظ أن رجل الشارع أصبح في فقر متزايد، كذلك استتبعت حقيقة أخرى وهي أن الفوضى أدت إلى السكينة، والتطرف غير المقنع أدى على الأقل إلى نوع من التسامح . لقد كانت سلطة الباشا استبدادية لدرجة تثير الأعصاب فمجرد إشارة أفقية بسيطة من يده كانت كافية لتنفيذ حكم الإعدام في أي من رعاياه في نفس الموقع دون ضجة، غير أنه - كما يعتقد (لين) - لم يكن ميالاً للقسوة أو الاستبداد، بل كان له لحظات الطريفة، فمثلاً - عندما تمكن رجل عجوز من الجرى نحوه وأمسك بتلابيب أكامه رافاً شكواه بأن حاله قد تحول إلى العوز رافعاً بعد تجنيد كل أبنائه في الجيش، لم يحاول الباشا التخلص منه وصرفه، إنما أصدر أوامره أن يقدم له أغنى رجل قريته بقرة.

وبالإضافة إلى ذلك فإن العقوبات وضعت بحيث تناسب الجريمة فمثلاً عقوبة الجزار الذي يبيع اللحم ناقص الوزن كانت الأوقيات الناقصة تعوض لحم من ظهره، والمستول الذي يسئ معاملة الخباز كان يخبز حياً في فرن مخيته. فالعدل على الطريقة الشرقية - كما لاحظ " لين " كان له سحر جارف ساذج كذلك الذي نراه في ألعاب رياض الأطفال.

وقد روى (لين) حكاية فلاح استدعى أمام الناظر المحلي لكي يسدد ١٣٥

(٥) وليام إدوارد لين (١٨٠١ - ١٤٧٦) الكاتب البريطاني ومؤلف العمل العظيم «تقرير عن أخلاق وعادات المصريين المحدثين».

An Account of the Manners and Customs of the Modern Egyptians.

والذي صدرت طبعته الأولى عام ١٨٣٦ ومن مؤلفاته الأخرى حول اللغة العربية والإسلام.

قرشاً قيمة الضرائب. وكان كل ما يملكه الرجل هو بقرة، ومن ثم فقد عرضت في مزاد غير أنه لم يكن لدى أحد من سكان القرية كاف لشراء البقرة، عندئذ أسر الناظر جزاراً بأن يذبح البقرة وأجبر ستين فرحاً على شراء حصة (لكل واحد) مقابل قرش لكل حصة، أما الجزار فقد حصل على رأس البقرة مقابل ما قام به من عمل.

أما الفلاح فقد تمكن من تقديم شكوى استدعى على أثرها كل من الناظر والجزار والستون فلاحاً وكذلك شيخ القرية للمثول أمام القاضي. وسأل القاضي: هل كانت قيمة البقرة تساوي ستين قرشاً فرد الفلاحين: لا يا سيدنا إن قيمتها في الحقيقة كانت أكثر من ذلك عندئذ أعلن الشيخ أن الناظر يوقع الظلم على أي فرد يقع تحت طائلته. وهل كانت البقرة لا تساوي على الأقل مائة وعشرين قرشاً، لكنه باعها مقابل ستين قرشاً وهذا ظلم ألحقه بمالكها. عندئذ أمر القاضي بتجريد الناظر من ثيابه ثم يقيد بالأغلال، وبعدها التفت إلى الجزار قائلاً:

- أيها الجزار لا تخاف الله لقد ذبحت بقرة بدون حق.

عندئذ احتج الجزار أنه كان مجبراً على طاعة أوامر الناظر وإن لم يمثل لأوامره فإنه كان سيضرب وبيته يخرب، ثم سأله القاضي: أننى سوف أمرك أن تفعل شيئاً فهل ستفذه؟ فرد الجزار وهو يرتعش من الخوف: على السمع والطاعة.

فقال القاضي: اذبح الناظر وعلى الفور قطع الجزار رقبتة، ثم قال له: والآن قسمه إلى ستين حصة! ثم استدعى الستين فلاحاً الذين كانوا قد اشتروا لحم البقرة لكي يتقدموا، وأجبر كل واحد منهم على دفع قرشين مقابل كل حصة من لحم الناظر أما الجزار فقد منح الرأس، وأما المائة والعشرين قرشاً التي جمعت فقد أعطيت لصاحب البقرة.

الفصل الخامس
إمبراطورية لا أمة

«طاخ!! وانطلقت رصاصة محدثة صغيراً مرت بالكاد بالقرب من أذن ضابط فرنسي كان يقوم بتدريب المجندين في صحراء أسوان المحرقة، ولم يكن ذلك أول حالة يقوم فيها مجند بإطلاق الرصاص تجاه الكولونيل سيف Colonel Seve الذى أصدر أوامره بأن تصطف السرية، وأمسك بكراباج فرسه، وبعد أن اتهمهم بالغباء والإهمال، والأسوأ من هذا كله سوء التشيّن، وبطريقة غير رسمية أخذ يجلد كل متطوع واحداً بعد الآخر، ثم ألقى بالكرباج بعيداً، ووقف أمامهم فى حالة انتباه وأمرهم بحشو بنادقهم وإطلاق النار عليه إن شاءوا. عندئذ شعر هؤلاء الشباب بالخجل فألقوا بأسلحتهم واندفعوا ليكون عند قدميه.

وبهذه الوسيلة الغربية كسب ذلك الجندى السابق الذى حارب فى ووترلو Waterloo وأصبح فيما بعد يعرف باسم سليمان باشا (والذى كان يطلق اسمه على أحد شوارع القاهرة الراقية حتى وقت قريب) احترام تلك العناصر صعبة المراس، والذى كلف بتدريبها ليصنع منها هيئة منظمة من الضباط، فوضع بذلك اللبنة الأولى لبناء جيش نموذجى على الطراز الحديث.

كان الحب الأول لمحمد على هو "الجنديّة: لأنه كان فى الأصل جندياً، ولما كانت سياسته الخارجية شاملة تقوم على أساس إما تقديم الرشاوى أو تخويف السلطان لمنحه السلطة الوراثية على مصر (وأن يحصل على الاستقلال بإثارة القوى المختلفة ضد الباب العالى) فقد كانت ضرورة أن يكون تحت يده جيش جاهز أمراً ذا أهمية قصوى. ولقد أدت محاولته الأولى فى تدريب بنى جلده من الألبان - الذين ساعدوه فى الوصول إلى السلطة - ليصبحوا قوات منضبطة - إلى اندلاع حركة تمرد ضده كادت أن تودى به إلى نفس المصير الذى لقيه المماليك (والتي أفلت منها بقيامه بفتح الأهوسة وإغراق القاهرة). وكانت تجربته التالية استخدام الرقيق الذين جلبهم من

السودان بالمثل مخيبة لآماله فقد قيل أن من بين العشرين ألف سوداني الذين ساقهم في قطعان إلى ثكناته في مصر لم يتبق منهم على قيد الحياة سوى ثلاثة آلاف، بينما مات الباقون من الاكتئاب كما تموت الحيوانات في أقفاصها. فقد كانت حياة الجندي تفوق قدرتهم^(٧). ومن ثم لم يكن هناك ملاذ آخر أمامه سوى أن يلتفت إلى المصريين السكان الوطنيين..

وإذا كانت مصر قد رزحت تحت الهيمنة الأجنبية لقرون عديدة، فإن ذلك يرجع في المقام الأول إلى أن الفلاح لم يحارب أبداً، بل وفي نظر الكثير من الناس أنه لن يفعل ذلك أبداً، فعلى رأس كل المحن التي عاناها المصريون تحت حكم محمد علي كان التجنيد أشدها كرها بالنسبة لهم، وحتى لا يدعون أبناءهم ليؤخذوا منهم ليدخلوا الجيش، فقد كانوا يفضلون إحداث العاهات بهم. ويصف كاتب مصري من هذه الفترة أن الفلاحات كن يتلفن إحدى عيني أولادهن باستخدام سم الفئران. ولما كان الأقباط معفيين من الخدمة العسكرية، فإن بعض الشباب من المسلمين كانوا يرسمون وشم الصليب على معصم أيديهم، والبعض الآخر من الفلاحين كان يخلعون أسنانهم لأنهم كانوا يعرفون أن الجندي يحتاج أن تكون كل أسنانه سليمة لنزع فتيل القنابل.

أما القرويون الفقراء الذين لم يكن في استطاعتهم دفع رشوة لشيخ البلد، فقد كانوا يساقون كالأنعام إلى الثكنات مقيدون بسلسلة واحدة، وبالرغم من أن أعداداً كبيرة منهم كانت تموت، إلا أن محمد علي تمكن بقدوم عام ١٨٢٠ من بناء جيش وطني على درجة عالية من الكفاءة والتدريب، استطاع بواسطته أن يغير ميزان القوى في شرق البحر المتوسط خلال عشرين عاماً بشكل كبير. بل وتحدى الباب العالي ذاته إلى الحد الذي جعله يحول مصر بمساعدة هذه الفرق من الفلاحين الفقراء من ولاية ينظر إليها بازدراء في إمبراطورية متصدعة إلى قوة عسكرية ينظر إليها بإعجاب. ويمكن القول أن محمد علي قد تم على يديه عودة الروح إلى المصريين الخالصين، فمهد بذلك الطريق لظهور أول قادة للحركة الوطنية المصرية وهما عرابي وعلى فهمي.

لقد خاض أربعة حروب: في شبه الجزيرة العربية، وفي السودان، وفي

اليونان، وفي الشام. كانت أولى هذه الحملات من أجل أن يفوز بالخطوة لدى السلطان. فوقتها كان الوهابيون - وهم إحدى الفرق الإسلامية شديدة التزمّت قد استولوا على المدينتين المقدستين مكة والمدينة، ولأن باشا دمشق وباشا بغداد كانا لا يميلان لعمل أى شئ حول ذلك الموضوع، فقد انتهز محمد علي الفرصة ليطوق عنق السلطان بدين، ولكي ينصب من نفسه بشكل علني زعيماً جديداً في العالم العربي. ولذا فقد بعث بابنه طوسون على رأس حملة عسكرية إلى الجزيرة العربية. وما كاد طوسون يرسو عند "ينبع" على ساحل الجزيرة العربية الغربية، حتى التحم على الفور مع الوهابيين في منطقة البوغاز الجديد ذات التلال الرملية والتي تبعد عدة أميال في العمق. كان قائد الحملة الذي يبلغ السابعة عشرة ربيعاً يحظى بشعبية عارمة بين قواته، غير أنه لم تكن لديه الخبرة والتجربة في فن الحروب. ومرة أخرى ترك لنا جيوفاني فيناتي Giovanni Finati وصفاً للحدث الذي شارك فيه. إذ يتذكر ذلك الجندي المرتزق الشاب الذي جاء من فيراراً(*) : تقدم طوسون بنفسه ليبيت الحمية في قلوب رجاله ويشد من أزرهم: منادياً على الكثير منهم باسمه الشخصي، مستحلفاً إياهم بالدين والوطن، غير أن الوهابيين من نقطة تجمعهم أعلى التلال كان في استطاعتهم أن ينهالوا علينا بالرصاص ونحن أسفل منهم دون أن نتمكن من الإفلات. وقد تسبب عن ذلك مذبحة مروعة جداً».

وعند الظهيرة وحرارة الشمس كانت تتعكس بشدة من الأرض القفر. فإن درجة الحرارة أصبحت لا تطاق حتى أن القتال لم يعد ممكناً، وعن طريق ثمة اتفاق متبادل بين الطرفين توقف القتال في هدنة لعدة ساعات، وراح الجنود يترنحون ليرتموا في ظل أى نخلة تصادف وجودها وهم يقرشون التمر بصوت مسموع. وبعد حين أصبح الإحساس بالعطش شديداً لدرجة لا تحتمل " لدرجة أن إشارة استئناف الاشتباك التي أعطيت في الساعة الرابعة عصراً، استقبلت بحالة من اليأس أشبه بالسرور.. إن الشراسة وسفك الدماء

(*) مدينة في سهل البو شمال إيطاليا بالقرب من نابولي.

الذى تلقى ذلك لا يمكن وصفهما فقد استمرت إلى وقت طويل بعد غياب الشمس عندما حول بعض الذعر أو الكارثة فجأة مسار المعركة، ولقينا جميعاً أشد الهزائم، كان هناك فر وكر غير أنه: فى جو من الفوضى والارتباك حتى أن البقية التعسة التى تمكنت من الوصول إلى المعسكر فى صحبة طوسون أدركت أنه من المتعذر عليهم مواجهة عدو يملك السيطرة على ميدان القتال » وبعد أن بقوا وقتاً كافياً قاموا بإشعال النيران فى معدات المعسكر وفى الخيام، تاركين فى عجالتهم خزانة الصراف وفروا عائدين إلى السفن».

أما جيوفانى ومعه فتى آخر - بعد أن بلغ بهما الإرهاق والعطش حداً لا يمكن احتمالاه - فقد تمكنا من الزحف إلى قمة بعض الكثبان الرملية، حيث دفنا نفسيهما فى الرمال، وأصبح أمامها بانوراما شاملة لما يحدث. وما إن انتصف الليل حتى زحفا على أيديهم وأرجلهم هابطين، وشقاً طريقهم بحذر عبر حطام المعسكر، متجنبين الوقوع فى طريق أولئك الذين كانوا ينزعون الثياب عن الجثث بحثاً عن الأسلاب: ولقد كان جلياً أن الآلهة (?) تقف إلى جانبهما، فقد وقعت عيونهما على بعض المؤن، وبعد أن أكلا وشربا، عثرا مصادفة على ٤٠٠ كروان(*) ذهبى مبعثرة على الأرض (وآخر مرة سمعنا فيها عن جيوفانى أنه ترك الجيش وعمل مرشداً سياحياً فى القاهرة).

وفيما بعد، بعد أن تلقى إمدادات وفيرة من ميناء القورصير Korsier(**) (القصير) أصبح فى إمكان طوسون أن يتقدم إلى المدينة ثم مكة، وللهشة كان أول من وصل إلى قبر النبی رجل اسكتلندى اسمه كيث Keith الذى أشهر إسلامه وبالتالي عين حاكماً على المدينة المنورة، غير أن الوهابيين كانوا أكثر من ند لطوسون فى صحارى بلاد العرب الشاسعة،

(*) عملة إنجليزية تساوى شلنان وست بنسات.

(**) كانت القصير تعرف عند التجار الأوربيين منذ القرن الثامن عشر الميلادى باسم

القورصير (المترجم).

وبالتالى لم يتمكن من إحراز النصر عليهم إلا بعد أن تولى محمد على نفسه ومعه ابنه إبراهيم قيادة الحملة. وأخيراً فى شهر سبتمبر عام ١٨١٨ وبعد سبع سنوات كثيبات من القتال الضارى، نجح محمد على فى سحق الوهابيين فى الدرعية، وألقى القبض على قائدهم عبد الله بن سعود، وأرسله إلى القسطنطينية لينال العقاب التقليدى الذى يلقاه الثوار.

وبالرغم من ذلك فإن " الوهابية " التى تُلزم الفرد على أداء كل طقس من الطقوس وكل شعيرة من الشعائر كما جاءت فى السنة النبوية بطريقة صارمة، والتى كانت تحرم تدخين التبغ واستخدام العطور، وكل مظاهر الترف، لم تمت وتندثر. فالיום يتحدى واحد من سلالة ابن سعود ادعاءات القومية العربية التى يرتطم تيارها بسواحل العربية السعودية(*).

وعلى أى حال تركت حملة الجزيرة العربية محمد على وهو يعانى نقصاً مدمراً فى المال والرجال، ولكى يجد ترياقاً يشفيه من هاتين المعضلتين، فقد ولى وجهه جنوباً نحو السودان، وكان هناك دافعان يحضانه على التوغل فى الأدغال جنوب أسوان وهما: الذهب والرقيق، فقد كان ثمن الفتى السودانى البالغ فى أسواق القاهرة أربعين جنيهاً، كما أن الرحالة السويسرى بوركهارت أثار شهية الباشا بما كان يرويه عن الثراء الكثير الذى تحويه جبال النوبة Ethiopia. وفى شهر يونيو عام ١٨٢٠ بلغ السيل الزبى، وبدأ موكب من القوارب يشق طريقه الوعر من بولاق إلى أعالي النيل. وكانت الحملة تتكون من ٣٤٠٠ رجل و ١٥٠٠ فارس، وبعض المدافع وكتيبة من عرب العباددة، وتولى القيادة إسماعيل بن محمد على الأصغر.

كان العامان اللذان استغرقتهما الحملة يتصفان بسلوك رتيب من الوحشية ويتناوبان القسوة لدرجة تدعو للتقرز، إذ لم تلق أى مقاومة تذكر حتى وصلت إلى انحناء النيل الكبيرة عند كوستى. وهناك سحق إسماعيل بسهولة

(٥) يقصد جلالة الملك فيصل بن عبد العزيز آل سعود.

قبيلة الشايقية Shagiyeه واحسئل بربرة، وبعدها بقليل استسلمت شندى، وشق جيش إسماعيل طريقه مكافحاً متقدماً نحو رأس الخرطوم (*) عند التقاء النيل الأبيض بالأزرق، وقد أطلقت عليها هذه التسمية لأنها كانت تشبه خرطوم الفيل (وفى هذا المكان ذاته أسست مدينة الخرطوم بعد ثلاث سنوات) وعند هذه النقطة اتجه أحمد الدفتردار (زوج أخته) تجاه الغرب بحثاً عن العبيد الزنوج بينما كان بريق الذهب يجذب إسماعيل للتوغل جنوباً. وقد كتب رجل فرنسى كان يسافر فى ركابه يقول: كان التعطش للحصول على الذهب هو الدافع الأول الذى حدا بهذا الأمير إلى هذه الدرجة للتقدم نحو الأعماق وحتى الآن - ومن وجهة النظر العسكرية البحتة، فإن هذه العملية العسكرية كانت سهلة سهولة سرقة الحلوى من الأطفال. فكان الذهول قد استولى على مشاعر القبائل المحلية لدرجة عدم إبداء ثمة مقاومة تذكر، غير أن منذ تلك اللحظة أصبح الطقس، وليس السكان - هو العامل الذى تصدى لإسماعيل وأجبره على التباطؤ ثم بعد ذلك على التوقف، فبعد مسيرة ألفى ميل جنوباً إلى أعماق ما هو بالفعل "أمعاء أفريقيا المجهولة" وجد نفسه وقد خاض فى مستنقع من الأمطار، حيث اكتسحت الملاريا والدوسنتاريا الصفوف. وبالرغم من ذلك فقد اضطر أن يعود أدراجه خالى الوفاض وبدون ذهب باستثناء عدد هزيل من الرقيق الذين أرسلهم إلى القاهرة.

وفيما عدا بث الرعب فى السودان، لم يحقق شيئاً يذكر، بل الأدهى من ذلك أنه أوقد ناراً لكرائية ضده وضد الأتراك على طول امتداد النهر، والتي أصبحت أشد تأججاً فى ذلك الوقت، واشتد غليانها عند شندى فى طريق عودته.

ربما كان الإحباط والإرهاق من جراء حملة بلا ثمارهما العاملان اللذان حديا به أن يتجه إلى "مالك نمر" حاكم شندى - المعتر بنفسه - والذى كان قد أهانه منذ ثمانية عشر شهراً سبقت، عندما اتهمه بأنه قد أخفى الذهب فى

(٠) وهى الآن تعرف بالمقرن أى اقتران النيل الأبيض بالأزرق (المترجم).

دنقلا، فقد صرخ بغطرسة وبصوت أجش: " أمامك خمسة أيام لتملاً قاربي بالذهب وإلا فأنى سوف أدفع عصاى لتخترق قلبك " (ويروى شاهد عيان أنه أيضا ضرب الحاكم بعصاه على وجهه). وفى تلك الليلة، بينما كان إسماعيل يقيم وليمة فى خيمته المزينة بأغصان الشجر، زحف بعض رجال نمر، وأضرموا فيها النيران: ومات إسماعيل وبطانته داخلها.

و لقد كان انتقام محمد على لموت ابنه فوريا ومروعاً، فقد أخذ أحمد الدفتردار وقد جن جنونه ينشر الخراب أعالي النيل وأسفله، يحرق كل مدينة أو قرية حتى يسويها بالأرض، مخلفاً من ورائه سلسلة من الأعمال الوحشية التى ترتعد لها الفرائص.

فحتى عام ١٨٢٣ كان ما يقرب من خمسين ألف سودانى قد سفكت دماؤهم، ومن الناحية الفعلية كان وادى النهر كله من أسوان جنوباً - يبابا وخرابا، وأضيف إلى حدود مصر أكثر من ٢٠٠٠ ميل من الأرض المحروقة حتى حدود الحبشة.

والآن أصبح المغامر الألبانى فى الخمسينات من عمره، وقد ترك لنا وليم تيرنر Wiliam Turner من وزارة الخارجية (البريطانية) الذى مر بالقاهرة أثناء خدمته كعضو فى هيئة مساعدى السفير البريطانى فى القسطنطينية وصفا له: " وفى الساعة الثامنة، ركبت مع المستر عزيز لزيارة الباشا الذى كان يقيم فى قصر صغير يقع مباشرة خارج بوابة مدينة القاهرة فى الطريق إلى بولاق وجدنا الباشا يجلس فى أحد أركان حجرة صغيرة، ثم أومأ لى بالجلوس، وقد فعلت ذلك على الفور دون أن أخلع قبعتى، كان يرتدى قفطانا ((Pelisse ذا لون قرمزي داكن وفوقه صديرى مقلم بالذهب، ويضع على رأسه عمامة كبيرة بارزه، ويتمنطق بسيف وخنجر مزينين بعدد كبير من الجواهر البارزة، كان رجلا نحيفا ذا ملامح داكنة وماكرة وعينان نافذتان، وكانت نظراته توحى بشيء من الشراسة، حتى ابتسامته تذكرنا بقوة الملك ريتشارد الثالث Richard III : « أن يبتسم ويبتسم

ثم يغتال وهو يبتسم(*)».

لقد كانت ابتسامة القاتل هي التي أصبحت الآن تلقى الاحترام: "بلطجي" القرية الذي أصبح طاغية قوى الشكيمة، والذي كان قد ركز طموحاته على آفاق أبعد من وطنه مسقط رأسه. فلقد اثار كفاح اليونانيين البطولي من أجل الاستقلال الذي ألهم خيال اللورد بيرون Byron والشعوب ذات العقلية الليبرالية في كافة أنحاء أوروبا - محمد علي بالمثل ولكن لسبب آخر مختلف. فكما فكر نابليون رأى محمد علي أن الفرصة متاحة لاستخدام مصر كرأس حربة في مواجهة الإمبراطورية العثمانية ذاتها: وأن هناك طريقين يؤديان إلى القسطنطينية:

طريق بحري عبر بحر إيجه، وطريق برى عبر مقدونيا. وكانت القوات المصرية سواء البحرية أو البرية أشد قوة من الجيش والأسطول التركي الذي لا يمكن الاعتماد عليهما.

وكخطوة أولى استولى على كريت عام ١٨٢٢ وأرسل حقيبة مملوءة بالأذان البشرية إلى السلطان كدليل على ما قام به، وكانت مكافأته أن حصل على اللقب الشرفي "باشا الجزيرة" وبعد عامين آخرين توجه السلطان مباشرة إليه يطلب المساعدة:

ولأن الأمور كانت تسير إلى وضع يائس بالنسبة للأتراك في بلاد اليونان؛ فقد وعده الباب العالي إن هو أثبت جدارته بقوة السلاح ليستحق

(٥) رتشارد الثالث. ملك إنجلترا من عام ١٤٨٣-١٤٨٥ وهو آخر سلالة ملوك يورك اكتسب شهرة على أنه قاتل ومقامر وشرير وصل إلى العرش بطرق ملتوية، ويدافع بعض المؤرخين عنه بأن التشهير بسمعته جاء في عصر الأسرة التيودورية في القرن السادس عشر، وكان شكسبير معاديا له عندما كتب مسرحيته رتشارد الثالث وهذه الأبيات مختارة من هذه المسرحية.

اللقب فسوف يعين باشا على المورة كلها. لقد أدهشت الحملة التي قادها إبراهيم باشا عبر البحر المتوسط (٦٠ سفينة حربية، ١٦,٠٠٠ من القوات محمولة في مائة سفينة نقل) كل فرد في أوروبا، فقد كان أمرا لا يصدق أن يتمكن محمد علي من بناء مثل ذلك الجيش والأسطول القويين في مصر خلال سنوات قليلة ومن لاشيء. لقد أدى الكولونيل سيف مهمته التي كلفه بها سيده على خير وجه.

لقد قصمت حملة إبراهيم ظهر الثورة اليونانية، فقد سقطت أثينا ثم تلاها (وبعد حصار طويل) ميسولونجي Messolongi ، غير أن نجاحه أو بالأحرى قسوته البشعة التي لازمته، كانت بداية لأفوله. فمحو بعض المدن من علي وجه الأرض، وبيع سكان البعض الآخر في أسواق الرقيق قد يكون مقبولا في مجاهل بلاد العرب أو أواسط أفريقيا، ولكن ليس في بلاد اليونان ذاتها، وذلك تحت تأثير النظرات المركزة لقارة أعطى التعليم فيها لبلاد اليونان مكانة عاطفية. ولذا فقد كان الرأي لعام في أوروبا يتوقد غيظا بشدة من مسلك إبراهيم. ودعى إلى عقد مؤتمر في لندن (١٨٢٦)، وأرسلت كل من بريطانيا وفرنسا (تلك الدول التي بدأت تتخوف من احتمال أن تؤدي الأحداث إلى اندلاع حرب أوربية شاملة) أساطيلها مجتمعة لمراقبة التطورات. وربما كان مجرد سوء حظ (لمحمد علي) أنها دخلت ميناء نافارينو Navarino في عصر أحد أيام عام ١٨٢٧ حيث كان يرسو الأسطول التركي المصري ولأن جندي تركي مضجر، يعشق إطلاق النيران، اختار طاقم قارب بريطاني هدفا للتمرين على الرماية. وكمن قرب عود تقاب من البترول اندلعت معركة. وما أن أتى المساء حتى كان أسطول مصر وتركيا مجتمعين قد دمرأ تماما، وحتى قبل أن يظهر الأميرال كادرنجتون Cadrington قبالة الإسكندرية يحمل إنذارا، وقبل أن ترسو حملة فرنسية في المورة، أدرك محمد علي أن اللعبة قد انتهت، فقد فقد أسطوله، وعاد إبراهيم إلى الإسكندرية ومعه أقل من نصف عدد الجيش الذي كان قد خرج به، بالإضافة إلى ذلك أوقف السلطان دفع المكافآت التي كان قد وعد بها على أساس أن المصريين فشلوا في تنفيذ المطلوب.

لقد كان شيشيرون هو الذى وصف معاصريه بأنهم رجال ثقّال graves(*)، وقد ظهر محمد على فى عيون الأتراك على الأقل بمثل هذا الوصف تماماً، فقد تحول هذا الزعيم المحلى، والشريك المفيد، إلى عبء ثقيل يشكل خطراً داهماً. غير أن عينيه اللتين كانتا كالخرز لم تغمضا، فمن قصره الذى بناه حديثاً فى رأس التين والذى يشرف على ميناء الإسكندرية كانتا تفحصان البحر المتوسط بدقة، وكانتا مدركتين دون أن تغمض لهما جفن — أن المجهودات التى بذلها نيابة عن مولاه فى جزيرة، العرب وبلاد اليونان لم تعود عليه بأى فائدة، فولاؤه للسلطان قد استنزفت تماماً أغراضه بشكل واضح، إلا أن اكتشاف مؤامرة دبرها السلطان لاغتياله هى التى دفعت الأمور إلى حد الصدام.

وفى عام ١٨٣١ ضرب ضربته، إذ أرسل ابنه إبراهيم (ولكن فى هذه المرة عبر سيناء (إلى فلسطين حيث انضم إليه أسطول عند يافا، ونجح المصريون فى اقتحام عكا والاستيلاء عليها: وكان نجاحاً باهراً (إذا ما تذكرنا إخفاق نابليون فى نفس الموقع) أعطى للحملة قوة دافعة جعلتها تسير من نصر إلى نصر عبر الشام والأناضول، ضاربة عرض الحائط بالفرمان السلطانى المذعور الصادر فى ٢ مايو عام ١٨٣٢ والذى يعلن أن محمد على خارج على القانون ويقرر عزله من باشوية مصر. وقرب نهاية العام كان إبراهيم قد سحق جيشاً تركيا عرمرماً داخل حدود آسيا الصغرى، واحتل قونية العاصمة القديمة لسلطين العثمانيين، وحيث كانت القسطنطينية ذاتها لا تبعد سوى مائة ميل فقط.

وكما لاحظ د.أ. كاميرون D.A Cameron فى دراسته عن محمد على أن "إبراهيم قد حقق المحال. وهذا تم على يد الفلاحين المصريين فى قلب الشتاء على جنس مسيطر كان يحكمهم كعبيد... لقد سحق المصريون

(*)Cicero: Republic, I,43.

شيشيرون: الجمهورية الكتاب الأول فقرة ٤٣.

العنصر التركى فى ثلاثة معارك ضارية رغم مزاياه، لقد تغلبوا عليه فى القتال، وتقدموا عليه فى الزحف، وتفوقوا عليه فى المناورات، وأخذوه أسيرا، هذا هو اللغز الموروث فى أرض مصر، فعلى طول الزمن الذى كان فيه ذلك الباشبوزق التركى ينتقل من قرية إلى قرية، يلهب ظهور الفلاحين بالسياط، ويسوقهم كقطعان الأغنام ليدربهم كيف يهزمون أبناء بلدته. وبمساعدة من جانب قدر قليل من الفتية والباشوات الأتراك، وبضع مئات من صغار الضباط، تمكن محمد على من جمع المال والرجال لى يحقق المصريون النصر على الإمبراطورية العثمانية.

كان كل من بالمرستون Palmerston وولنجتون Wellington عازمين على منع محمد على من الوصول إلى القسطنطينية، وعلى تجديد قوة الباب العالى (فقد كان جوهر السياسة البريطانية فى ذلك الوقت هو الإبقاء على الإمبراطورية العثمانية فى وجه الطموحات الروسية)، فقد كان أولهما وزيرا للحرب، والآخر قائدا عسكريا عندما نجحا فى الإطاحة بنابليون، وكان لا يطيقان وجود أى مغامر عسكري خاصة إذا كان ذلك المغامر قد اكتسب شهرة بغیضة فى بلاد اليونان. وبدأ محمد على يتعرض لضغوط لى يسحب جيشه مقابل أن يلغى السلطان فرمان الذى أعلن فيه خروجه على القانون وأن يصدر فرمانا جديدا (٦ مايو ١٨٣٣) يمنحه بمقتضاه باشوية الشام.

لقد أصبح الآن يسيطر على أراضي تمتد من أفريقيا الاستوائية حتى جبال طوروس، ولكن عن طريق البراعة — الغربية فى حد ذاتها — التى مد بها حدود ولاية مصر لتصبح إمبراطورية شاسعة قبل أن تصبح أمة مستقلة، فإنه يكون قد بالغ فى مد ذراعيه عن آخرهما، وضغط على مصادر البلاد بما يفوق كل الحدود الممكنة. فسوريا القرن التاسع عشر التى شملت: فلسطين، ولبنان، ودمشق، وطرابلس، وحلب، وأطنة كانت مثل مساحة دلتا النيل خمس مرات، كما أن عناصرها السكانية المتنوعة لم تكن مثل الفلاحين سهلة الإنقياد، إنما ترفض الخضوع لأى شكل من أشكال الطغيان يأتى من خارج بلادهم، خاصة تلك الأساليب القاسية شديدة الوطأة التى اتبعها إبراهيم، ويزيد

على ذلك أن محمد على كان يتجه يوما بعد يوم نحو الإعلان الصريح للاستقلال. ومن وجهة نظر السلطان كان الموقف لا يطاق كما قد تبدو لنا ثورة ايان سميث Ian Smith (*) في روديسيا بعد قرن ونصف بعد قيامها. كما أن بالمرستون قام في مجلس العموم بمقارنة وضع محمد على بوضع اللورد قائم قام الملك في أيرلندا الذي يحاول أن يجعل من نفسه صاحب سيادة وراثية على أيرلندا وأسكتلندا.

أما محمد على فقد رأى الأمور من زاوية مختلفة، فقد اشتكى للفنصل العام البريطاني أنه لن يسمح أبداً أن يترك كل شيء قام به: الترسانة، الأساطيل، المصانع بالآلة الحديثة، العمال الذين تم تدريبهم في أوروبا، المدارس والمناجم، الطرق والترع، جميع إمبراطوريته الخاصة تضيع من بين يديه وتذهب إلى الباب العالي، بينما يصبح بقاء أسرته الحاكمة مهدداً. فقد كان ذعره ذعر رجل عصامي.

لكن ما أن عاد بالمرستون إلى إنجلترا حتى لم يعط مخاوف محمد على أي اعتبار. فقد كان جل اهتمامه هو الحفاظ على وحدة الإمبراطورية التركية، ولأن ذلك سيؤدي إلى قيام الصراع بينه وبين السلطان، والذي سينتهي بهزيمة الأتراك عندئذ سوف يسارع الروس لمساعدتهم وتقوم حامية روسية باحتلال القسطنطينية والدردينيل وما أن يصبحا في حوزتهم فلن يخرجوا منها أبداً.

(*) رئيس وزراء روديسيا الأبيض / (الآن زمبابوي بعد الاستقلال) وأحد مؤسسي سياسة الفصل العنصري بين الأفارقة والمستوطنين الأوربيين، تمرد على الحكومة الإنجليزية في مطالع الستينات، وتحت الضغط الدولي والمقاومة الوطنية الأفريقية، ألغى نظرية الفصل العنصري، وأجرى الانتخابات قياساً على أساس صوت واحد لكل رجل واحد، وكانت النتيجة نجاح الحزب الوطني الإفريقي في الوصول إلى الحكم واستبدال اسم روديسيا الاستعماري باسم زمبابوي (المترجم)

وعلى الجانب الآخر فإن الفرنسيين سيلعبون على الطرفين لوضع أقدامهم في المعسكرين فبينما يؤكدون علنا للسلطان تأييدهم، كانوا يشجعون سرا محمد علي على أمل أن يزيدوا من نفوذهم في مصر.

وصلت الأمور إلى حد الصدام في عام ١٨٣٨ عندما تم توقيع معاهدة تجارية بين بريطانيا وتركيا والتي بمقتضاها فتحت الإمبراطورية التركية أبوابها للتجارة مع بريطانيا(*)، وبالتالي هددت النموذج المميز الذي أوجده محمد علي وهو أن تكون التجارة حكرًا على الدولة، عندئذ طالب نائب الإمبراطور بالاستقلال عن الإمبراطورية في مجال التجارة، ورد الإمبراطور بإعلان أنه متمرّد وبدأ في غزو الشام^(٨)، وخاض الطرفان معركة بالقرب من نزيب Nezeb على الحدود بين تركيا والشام. ولمرة الثانية قام إبراهيم بسحق الأتراك.

ومن المحتمل أن تكون أنباء هذه الهزيمة هي التي قضت على السلطان العجوز محمود، بل الأكثر احتمالاً أن يكون ذلك قد تم بفعل السم الذي وضعه له وزيره، ولكن مما سبب إحراجاً أكثر للخليفة السلطان عبد المجيد البالغ من العمر ستة عشر عاماً هو هروب الإدميرال التركي، ومعه كل أسطوله الذي يتكون من سبع سفن حربية وعشر فرقاطات، فبدلاً من أن يقوم بقصف الإسكندرية كما كان متوقعا، سلم الأسطول ببساطة ووضع بين يدي محمد علي، ولو هلة بدأ الموقف كما كانت الإمبراطورية التركية بكاملها قد أضحت الجائزة التي حصل عليها باشا مصر.

كان في الإمكان أن يكون هو الرجل المناسب لتحمل مصير الإسلام والخلافة، ولكن بالمرستون لم يكن مستعداً أن يرى تركيا وقد طرحها أرضاً مغامر عسكري، فقد كان ينظر إلى محمد علي على أنه عنصر خطير، ومخرب يجب التخلص منه، إذا ما أريد للإمبراطورية العثمانية أن تبقى على

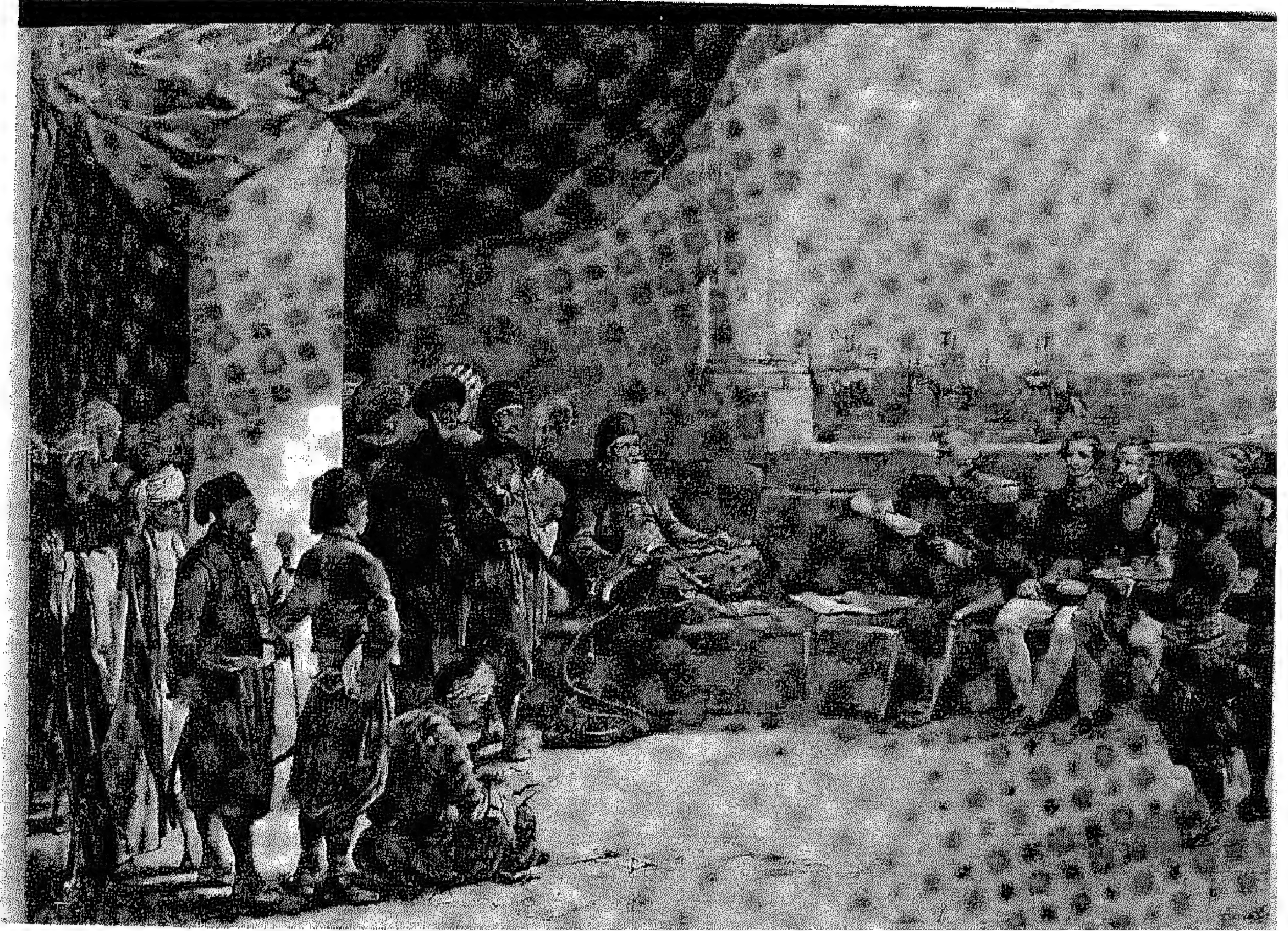
(٠) معاهدة بالطة ليان.

وجه الأرض، وإذا ما أريد كبح جماح الروس ووقفهم عند حدهم. وهناك آخرون - وفرنسا بالذات - قد يتحدثون عن "رجل أوروبا المريض" وعن موته الوشيك، ويضعون الخطط لتقسيم الإمبراطورية العثمانية، غير أن بالمرستون رفض ذلك فقد صرح: "أنها سوف تبقى إلى ما بعد عصرنا إذا ما حاولنا دعمها وليس هدمها" وكان اقتراحه الفوري هو إرسال الأسطولين البريطانى والفرنسى إلى الإسكندرية، وأخبر السفير البريطانى فى باريس: "علينا أن نساند السلطان بشدة بالتعاون مع فرنسا وذلك إذا ما تعاونت معنا وبدونها إذا رفضت" وكلما تناول الأمر بالتفكير كلما زاد اقتناعاً بأنه لن يكون هناك حل دائم بدون أن ينسحب محمد على إلى قوقعته فى مصر غير أن الفرنسيين لم يكونوا ميالين لهذا رأى، فقد كان لهم أسبابهم لمساندة الباشا، فقد كان يسعدهم أن يقرأوا بامتلاك محمد على وورثته كل الأراضى التى كان يسيطر عليها فى ذلك الوقت، فامتلاكه للشام بفضل التدخل الفرنسى - سوف يتركه سيداً على كلا الطريقين البريين فى شرق السويس والفرات، وهذا يعنى السيادة الفرنسية على كلا الطريقين وعلى المنطقة برمتها.

وفى خريف عام ١٨٤٠ وصل الخلاف إلى درجة الغليان لدرجة أن بالمرستون هدد بتقديم استقالته، فقد كانت بريطانيا وفرنسا على شفا الدخول فى حرب، وقد دوى صوت بالمرستون كالرعد وهو يقول: "أبلغوا المسيوتير Thiers(*) أنه لو أن فرنسا ألقت بالقفاز على الأرض فإننا لن نرفض التقاطه، وأنها إذا شرعت فى الحرب فإنها بكل تأكيد - سوف تفقد سفنها ومستعمراتها وتجارته، وسوف يتوقف جيشها فى الجزائر على أن يكون مصدر قلق لها، أما محمد على فإنه سوف يطرد إلى ضفاف النيل».

ولولا الخطوة الحازمة التى اتخذها الملك لويس فيليب باستبدال «تير» بأخر وهو جويزو Guizot لاشتعلت الحرب فى أوروبا بسبب محمد على

(*) رئيس وزراء فرنسا فى ذلك الوقت (المترجم).



محمد علي يستقبل ضباط الأسطول البريطاني في
الإسكندرية في مايو ١٨٣٩ وهو شعر بأن أحلامه قد
انهارت (الوحة من رسم دافيد روبرتس David
Roberts من مجموعة مانسيل بلندن)

وبذلك تركت حرية، التصرف لبريطانيا لإعادة الباشا لحجمه الطبيعي. فقد قام فيلق بريطاني بقصف عكا بالقنابل، وتفجير مخزن إبراهيم باشا للعتاد، وثار السوريون وحاصروا المصريين، واضطر إبراهيم - الذي كثيرا ما قاد الفلاحين من نصر إلى نصر - مثلما حدث لنابليون من قبل أن يقوم بانسحاب مكلف من سيناء عائدا إلى مصر، فمن بين الثمانين ألف مقاتل الذين تركوا دمشق لم يرجع منهم بالفعل سوى ١٥,٠٠٠ من بينهم ٥٠٠٠ حملوا إلى المستشفيات. وكتب القنصل الأمريكي في القاهرة تقريراً قال فيه: " كان هذا نتيجة بضع سفن أوروبية وحفنة من القوات البحرية النمساوية والبحرية بالتعاون مع الجيش التركي والانتقام المجنون للشعب السوري الغاضب "

وحتى الأسطول التركي الهارب لم يكن بذى فائدة كبيرة لمحمد على، ولذا كان عليه أن يستخدم أسطوله لمراقبة الأتراك الساخطين، ولا بد أنه قد تبين له أن اللعبة قد انتهت قبل أن يرسو العميد البحري نابيير Napier أمام الإسكندرية، ومعه ستة سفن، وجعله يذعن لإجراء بعض الحديث الصريح الذى يتصف به هذا البحار. فقد قال له باختصار: " لو لم يذعن جلالكم لمناشدتي لكم بأن تكفوا عن إيداء المزيد من المقاومة الحمقاء.. وأيم الله سوف أنهال عليك بالقنابل، وسوف أقذف بقنبلة فى نفس ذلك المكان الذى تجلس فيه ".

ولكن محمد على لم يفقد كل شيء، وكما حققت له سياسة البوارج المزودة بالمدافع النصر ذات مرة، بذل بالمرستون كل ما فى وسعه لطمأنة الباشا المنزعج، فبمقتضى فرمان المؤرخ فى ١٣ فبراير عام ١٨٤١ كذلك التوقيع على معاهدة لندن فى شهر يوليو التالى عام ١٨٤١ ترك لمحمد على السيطرة الفعلية على مصر تحت السيادة التركية الاسمية، مع حق أن يرث العرش أكبر الذكور من صلبه ومن داخل أسرته.

وهكذا بهذا الضمان الدولى، نال الرجل الذى استولى على بلد بأكمله الاحترام، فقد يكون فقد إمبراطورية، لكنه أسس أسرة حاكمة وراثية، وبالإضافة إلى ذلك فإنه وضع مصر تحت أضواء الشهرة. فما أن استرخى

التوتر، حتى بدأ الزوار يتدفقون عليها، وكان من أوائلهم ذلك الصبي المزارع المغامر الذي جاء من برستون كيبس Preston Capes فى إقليم نورث هامبرلاند North Humberland الذى تحول من الفلاحة إلى البحر. بدأ فى عام ١٨٤١ يساعد فى إدارة الفندق البريطانى بالقاهرة، والذى كان يقدم الطعام للمسافرين براً إلى الهند، وبعد خمس سنوات تلت شيد صمويل شبرد Samuel Shepherd فندقاً حمل اسمه وكان واحداً من أهم العلامات المميزة للقاهرة الحديثة التى كانت لا تزال تعيش فى مناخ العصور الوسطى، ولم يمض وقت طويل حتى أصبح فندق شبرد بحماماته الحجرية العميقة المشيدة على النمط الأوروبى لتحقيق وسائل الراحة، على رأس برنامج الرحلات لكل إنسان. وطبقاً لسجلات الفندق أقام فيه أو كنجليك Kinglake أثناء اندلاع وباء الكوليرا، وخلد زيارته لأبى الهول بوصف بهيج أعظم ما خطه قلمه، إلى جانب قطعة غراء من أدب الرؤيا، إذ كتب يقول: "إن تمثال أبى الهول الذى لايمت إلى عالم الأرض بصلة راح يراقب ويراقب بنفس العينين غير الهازلتين كالعناية الإلهية، وبنفس المسحة الحزينة الهادئة توالى الأسر القديمة الأثويين، والملوك المصريين، والإغريق، والرومان، والعرب، والعثمانيين ويرقب، المعارك والطواعين، والبؤس الذى لا ينتهى للعنصر المصرى، وكذلك الرحالة ذوى العيون المدققة: هيرودوت بالأمس: ووربورتون Warburton اليوم، على كل أولئك وأكثر كان (أبو الهول) شاهداً».

.. إننا سنموت والإسلام سوف يخبو نوره، وسوف يغرس الرجل الانجليزى وهو ينحنى بشدة ليمسك بحبيبتة الهند — ويضع أقدامه على ضفاف النيل فى ثبات. وسوف يجلس فى مقاعد المؤمنين.. أما تلك الصخرة التى لا تغفل ولا تنام، فستظل تراقب وتراقب إنجازات هذا العنصر البشرى الجديد كثير العمل، بنفس العينين الحادتين الحزینتين، وبنفس المسحة الحزينة الهادئة الأبدية"(*) .

(*) اسمه بالكامل ألكندر وليام كنجليك، مؤرخ وأديب بريطانى عرف عنه تعصبة الشديد ضد الإسلام والدولة العثمانية، ولد عام ١٨٠٩، وتوفى عام ١٨٩١. درس وتخرج فى

وفي غضون ذلك طال بقاء الباشبوزق العجوز في مقاعد المؤمنين لبضع سنوات أخرى وهو يحافظ على النظام القديمة للأشياء سليماً، ولكن منذ عام ١٨٤١ فصاعداً بدا واضحاً أن محمد علي قد أصبح رقماً ماضياً في حسابات العالم الخارجى. فقد انتهى تأثيره في الشؤون الدولية. ومع انتهاء سياسة الاحتكار الاقتصادى تدهور نفوذه التجارى الشخصى، وخيم التراب والرمال على مصانعه، وحتى ذاكرته بدأت تخونه في آخر الأمر. وفي أيامه الأخيرة، قام بزيارة يسودها الحنين إلى الماضى إلى القسطنطينية، كما شرع في بناء قناطر على النيل عند قليوب. وشيد مسجداً رائعاً في القلعة لا تزال مناراته العلمية الشكل تشرف على القاهرة الحديثة. وربما كان مسجده هذا رمزاً للرجل ذاته، هام أكثر منه جميل يستطيع المرء أن يتأمله من بعد أكبر بشكل أفضل، وتحت أضواء معينة.

كمبريدج، وبعد تخرجه قام بسياحة كبرى في ولايات الإمبراطورية العثمانية خاصة مصر التي زارها في عصر إسماعيل خلال وباء الطاعون حيث كانت بريطانيا تسعى لمد نفوذها المالى على مصر أملاً في احتلالها مستقبلاً. بلغ به التعصب ضد العرب الإسلام أن اشترك مع الفرنسيين في قمع ثورة الجزائر وكذلك في حرب القرم. سجل نبوءاته والتي تمثل الكراهية للإسلام والشرق في كتابه الذى أسماه «بالنبوءة» Eothen حيث نقل المؤلف هذا المقطع الأخير. انظر.

A.W. Kinglake: Eothen or Traces of Travel Brought Home From the East with introduction and notes by Robin Feden, Chapter XX, (The Sphinx) pp. 235 236 (المترجم). Methuen & Company LTD.

الفصل السادس
باشوات ونهايون
(خلفاء محمد علي)

يقال إن محمد علي وهو على فراش المرض همس قائلاً: « إن أحفادي سوف يحصدون ما بذرت » وقد علق السير جورج يونج على ذلك بقوله: « لقد حصدوا كل شيء بتهور شديد، ولم يبذروا حباً لمحاصيل أخرى غير الانغماس في الشهوات.

لقد جاء حفيده عباس في المقدمة(*)، كان رجلاً نكد المزاج، مصمت الشفاة، يعتريه مرض نفسي يجعله يكره أي شيء أجنبي أو مبتدع، كان حقاً منطوياً على نفسه، جاعلاً كل همه هو جمع المال وبناء سلسلة من القصور المشنومة في الصحارى، توارى فيها عن الأنظار كما توارى (الإمبراطور الروماني) تيبيريوس في جزيرة كابري، لا يحيط به شيء سوى حفنة من العبيد، وأقفاص من الوحوش الضارية. بالإضافة إلى ذلك كان سوداوى المزاج إذ كان يستهويه جلد الفلاحين، وجلد نسائه أيضاً. ففي إحدى المناسبات عندما أدينّت امرأة بارتكاب جريمة الزنا، ووضعت - وقد سادها الرعب - في جوال استعداداً لإلقائها في النيل (وهي العقوبة التقليدية للبنات اللائى ضللن الطريق)، اقترح عباس لتسليّة النظارة إضافة شيء جديد، إذا أمر أن يضم الجوال قطعة وأبنائها الصغار قبل أن أن يلقى بالضحية في الماء.

وبالمثل جاءت نهايته كنهاية «الأراجوز الكبير» «Grand Guinol»، ففي أحد قصوره النائبة في بنها، قام فتیان من العبيد أرسلهما أحد أقربائه من القسطنطينية بخنقه، وذلك في إحدى أمسيات شهر يوليو عام ١٨٥٤. ولقد حاول الباشوات الذين عقدت الدهشة ألسنتهم أن يخفوا خبر الجريمة، ربما لكي يعطوا لابنه إلهامى الفرصة حتى يعود من الخارج ويتولى منصب نائب

(٠) عباس الأول (١٨٤٨ - ١٨٥٤).

السلطان، فقاموا بوضع جثته في عربة مغلقة، وتجولوا للنزهة في صحبتها عبر الشوارع لإعطاء الإيحاء بأن عباس يقوم بجولته المسائية على عربته كما اعتاد أن يفعل. وبالرغم من ذلك تسرب الخبر، كما أن موجه الحر الخانق أقنعت المصريين أن أبواب جهنم قد فتحت لتستقبل حاكمهم الراحل.

ومنذ قرن مضى كانت القاعدة التي أعتاد المؤرخون وضع بصماتهم عليها أن يدمغ شخصياتهم بوصف: إما « طيب » أو « شرير »، وكان عباس يصور دائماً بمثل هذه الألوان الكئيبة، حتى أنه لم يكن هناك شك بأنه لا يستحق الحديث عنه. فبعد أن عين ولياً للعهد منذ أن بدأت ذاكرة جده محمد علي تخونه رفض حضور جنازة أبيه، وعلى الفور شرع في نقض وإعادة كل شيء فعله الباشا العجوز إلى ما كان عليه من قبل، فقد أغلق ما تبقى من مصانع، وصرف المستشارين الأوروبيين، وأنهى وجود الأسطول، وانسحب معتزلاً خلف ستار من دخان الغموض الإسلامي، لكن ربما لم يكن المؤرخون عادلين في الحكم عليه فقد شارك عباس في الحملة على الشام(*)، ورأى بنفسه عدم جدوى بناء الإمبراطورية الشخصية في مواجهة المعارضة الأوروبية، كما شاهد الانهيار الكامل لطموحات محمد علي، وبات مقتنعاً أن ما تحتاجه مصر في حينه هو التخلص من المشروعات الخيالية لطموحة، والاحتكارات التجارية غير المفيدة، وفترة من السلام والهدوء. لقد وجد نفسه محاطاً بحفنة من الأوروبيين النهمين والمتزلفين من أبناء البلد، الذي كان همهم الأول الإثراء على حساب البلاد(**) ولهذا لاذ إلى العزلة في مناخ العصور الوسطى، وإذا كان له أي اتصال فقد كان مع البريطانيين الذين كانوا أقل فساداً من الآخرين. وهناك نقطة واحدة بيضاء في سجل حكمة الأسود والذي بلغ خمس سنوات، وهو إنشاء أول خط حديد في الشرق

(*) وهي من ١٨١٢ - ١٨٤٠. وقد أغفل المؤلف أن عباس أرسل فرقة مصرية لكي تحارب

إلى جانب العثمانيين في حرب القرم Crimem war المترجم.

(**) كان على رأس مستشاريه نوبار باشا ويوسف حقي في ان بك (المترجم).

يربط بين القاهرة والإسكندرية(*)، وقد تم ذلك على يد ابن روبرت ستيفنسون
Robert Stevenson.

هناك حكايتان تعطيان لمحة عن الرجل، ففي إحدى المناسبات روى أن
حسن باشا المانسترلي (مستشاره) حاول إقناعه بتوقيع قرار يحظر بيع مخدر
الحشيش، لكن عباس رفض ذلك وهو يلقي بالطلب جانباً قائلاً: « لو أنني
حظرت تعاطي الحشيش فأنهم سوف يشترون مشروب العرقى بدلاً منه من
عند اليونانيين، الذين سوف يدخلون إلى رعوسهم أفكاراً ثورية. أن الحشيش
يسبب الغباء. والعرقى يفعل العكس ولهذا فأنا أفضل الحشيش! ».

أما الثانية فقد اشتكى لمهندس فرنسي قائلاً: « إنك دائماً تأتي وترعجني
بخصوص قناطرك. لقد خطر ببالي فكرة... هذه الأكوام الضخمة من
الحجارة التي تسمى الأهرامات تقف بلا فائدة. لماذا لا تنزع الحجارة منها
لإنجاز العمل. أليست تلك الفكرة جيدة؟ وهنا قال المهندس الفرنسي وقد علتة
الدهشة متلعثماً: « بهذه الأهرامات »؟ فكرر عباس مبتهجاً: « نعم ولم لا؟
هل أنت غبي لدرجة تبجيل هذه الأكوام القبيحة من الحجارة التي لا فائدة
ترجي منها؟ وإذ كنت لا تستطيع استخدامها في بناء القناطر. فقد استخدمته
من قبل في بناء القاهرة ».

لقد كان يعنى ما يقول، غير أن المهندس الفرنسي بعد أن قضى ليلة جافاه
فيها النوم، خطرت بباليه فكره أن يلعب على جشع عباس لكي ينقذ
الأهرامات. فقد حمل معه ورقة كبيرة مليئة بأرقام وحسابات، وعاد في اليوم
التالي إلى نائب السلطان. وسأله عباس متشككاً: « ما هذا كله؟ ما هذا الهراء

(*) بدأ تشغيل هذا الخط عام ١٨٤٥. وكان يستغرق ٤٢ ساعة لقطع المسافة بين القاهرة
والإسكندرية، لكن بناء كوبرى كفر الزيات في عام ١٨٥٩ اختزلت مدة الرحلة بين
العاصمة والثغر من ٤٢ ساعة إلى سبع ساعات فقط (يوانان لبیب: الأهرام ديوان
الحياة المعاصرة، الحلقة ٣٠٣ ص ١٦ سبتمبر ١٩٩٩).

الذى تحضره لى؟» فرد المهندس قائلاً: «يا صاحب السمو بعد تلقى أولمرك بخصوص خلع الحجارة من الأهرامات لبناء القناطر، رأيت أنه من واجبى أن أجرى حسابات تقديرية حول التكاليف.. وها هي.»

فقال عباس متعجباً: «حسناً كم سيكلف ذلك؟» عندئذ ذكر المهندس رقماً فلكياً كتكاليف لنزع الحجارة ثم نقلها. وأخيراً أقنع عباس بترك الفكرة.

ولقد أخبر القنصل الأمريكى فيما بعد أنه قال له: «تصور يا سيدى Figurez - vous Monsieur وتخيل احساساتك أن يشار إلى أبنائك فى كل مكان كأبناء الرجل الذى هدم الأهرامات!».

لقد حل محل عباس شخصية أكثر تفهماً(*)، فكل واحد تقريباً (حتى أولئك الذى لم يقرأوا عن هنرى الرابع قط) نظر إلى سعيد بنوع من الهيلمان الشرقى Oriental Falstaff رجل عملاق ذو وجه أحمر، ولحية وشارب كث، يأكل ويشرب، ويسب، ويلعن، ويضحك فى وقت واحد مبدياً فى ذلك استمتاعاً يفوق الوصف ويقول يونج Yong فى كتابه: «تاريخ مصر» «لقد كان هناك حاله مزاحية رابيلاسية Rabelaisian حول ذلك العملاق Gargantua الذى يزن خمسة وعشرين حجراً(**) والذى تتجسد فيه كل ما هو كوميدى فى نظرة الغرب عن الشرق، أوفى فى نظرة الشرق عن الغرب. لقد كان مثل السلطان فى ليالى ألف ليلة وليلة مع إضافة شخصية جابوتن الصعلوك Gabotin فى الحى اللاتينى، فقد كان يطيح برعوس الشيوخ الذين يسيئون التصرف وقد غمرته السعادة. كما أشعل ثيران مطالباته بالمتأخرات الضريبية فى القرى بشكل مرح، والبالغ مقدارها ثمانين مليون قرش. كما كان يسلى زواره من الحكام الأجانب بقصص فرنسية مضحكة،

(*) تولى سعيد من ١٨٥٤ - ١٨٦٣ بعد مصرع ابن أخيه عباس. وقد أعاد نشاط أبيه

محمد على فى تحديث مصر (المترجم).

(**) أى ١٥٨,٥ كيلو جرام، والحجر (Stone) وحدة وزن انجيزية تعادل ١٤ رطلاً

والرطل يعادل ٤٥٣ جرام (المترجم).

كما كان يجعل باشواته يخوضون معه فى مساحيق البارود السائب وفى أيديهم شمعاً مضاءة ليختبر قوة أعصابهم.. غير أن الحياة مع سعيد لم تكن أبداً مملة فكثير ما كان يصيح " أعطه مائتين " دون أن يوضح عما إذا كان المقصود هو ضربات الكرباج أو البقشيش!".

ومنذ اللحظة التى جلس فيها على العرش كنائب للسلطان، كان واضحاً أن سعيد ينوى الاستمتاع بشئون إدارة البلاد. إذ بدأ بتغيير زخرفة بهو الاستقبال فى قصره بتكاليف قدرها عشرة ملايين فرنك (مليون دولار حسب أسعار الصرف فى هذه الأيام)، تلى ذلك أنه متع نفسه بشئون الجيش، فقد ألبس الجنود زياً صممه بنفسه. ومن أكثر الأمور لفتاً للنظر تكوينه فرقة من النوبيين العمالقة وهم يرتدون من الرأس إلى أخمص القدم سلاسل الدروع على غرار الصليبيين القدامى، كما ظهرت فرقة أخرى مكسوة بالذهب ولها دروع صدر من النحاس اللامع على جانبي الخيل والرجال، وخوذات نحاسية تبرق. وكان يطيب له تدريبهم بنفسه فى ساحة استعراض خاصة مغطاة بصفائح الحديد لمنع تطاير الغبار حتى لا تلوث ملابسه الباريسية الصنع، كما كان يطيب له أيضاً أن يقوم بمناورات فى الصحارى يكسب فيها معارك وهمية، والى كانت بالنسبة له أكثر ملاءمة من الحملات الحقيقية الدامية. ولكى يسعد الجميع، فقد خفض مدة الخدمة العسكرية إلى عام واحد. وكان أولاد الذوات jeunesse dore فى البلاط يتباهون فرحين بأزيائهم، كما قام بمد توصيلات السكك الحديدية لى تصل إلى القصور حتى إذا ما شعر بالملل كان فى استطاعته أن يأوى إلى عربة خاصة مصممة على غرار البيت ويبقى فيها لحين من الوقت فى ناحية ما.

أما أيام الطيش فكان يقضيها فى باريس، وكان يتخيل نفسه كرجل حاضر البدية، فعندما كان فى لندن لحضور المعرض الكبير تصادف أن كان الجو مكفهرًا كما يحدث دائماً فى فصل الصيف، وفى يوم من الأيام عندما كان يتجول حول قصر الكريستال لاحظ سعيد أن شعاعاً من أشعة الشمس يخترق السطح الزجاجى للقصر، فالتفت إلى ذو الفقار باشا الذى كان بصحبته قائلاً: "انظر.. لأن الشمس نادرة فى هذا البلد.. ولذلك وضعوها للمعرض فى المعرض".

ذات مرة أبدى بسمارك ملحوظة عن فيلهلم الثانى قائلاً: " إن القيصر يود أن يحتفل بعيد ميلاده كل يوم « ولقد كان فى مقدور بسمارك أن يبدى نفس الملاحظة عن سعيد، فقد أصبح قصر نائب السلطان أكثر الأماكن فى العالم تقديماً لكرم الضيافة، فكل شخصية تلقى الترحيب الواجب، أيا من كانت ما دامت تنتمى إلى أبناء الأسر de famille من العائلات التركية أو الأجانب ومن ثم فقد كانوا زواراً مناسبين لاستعراض مظاهر الأبهة والعظمة. إن بعض الممارسات المحدودة والتي كانت لا تزال باقية منذ أيام محمد على فتحت لها الأبواب عن آخرها. فقد أعيدت الملكية الخاصة للأراضى، وتحررت التجارة، وبدأت الزراعة تزدهر وعلى رأسها محصول القطن، وبدأت الأشغال والمشروعات العامة تزدهر تنمو.

وفجأة بدت مصر كما لو كانت أرض الميعاد. وتحول عدد الزوار الهزيل إلى طوفان جارف، فقد ذكر قنصل فرنسا فى الإسكندرية فى تقرير له: " من كل ركن من أركان أوربا جاء الأفاقون، والباحثون عن الذهب فى شكل جماعات ليتساقطوا على مصر كما لو كانت كاليفورنيا" فقد كان متوسط الذين وصلوا إلى الإسكندرية ما بين أعوام ١٨٥٧ - ١٨٦١ حوالى ٣٠,٠٠٠ سنوياً، وكانوا جميعهم من الناحية الفعلية حثالة البحر المتوسط.. جمهور أشبه بالماфия لا يهتم سوى شىء واحد، وهو أسرع وأقصر الطرق لجمع المال.

لقد وجد سعيد نفسه محاطاً بزمرة من المضاربين الذين بلغ بهم الشره درجة لا تؤهلهم لتطوير أى خطة يحاول التفكير فيها، ومن ثم لم يكن لديه أدنى فرصة. وربما كان فى مقدوره فقط أن يتحكم فى مشروعاته الخاصة من خلال مصفاة الإدارة المركزية، لكنه على نحو مميز كان يفضل الصفقات الشخصية على مفاوضات السوق العامة. وعلاوة على ذلك فقد كان موضوعاً فى موقف صعب بسبب ذلك التنظيم الغريب والعتيق المعروف باسم " الامتيازات " الأجنبية التى كانت تعطى حصانة قانونية لأى شخص يحمل جوازاً أجنبياً ويقوم داخل حدود الإمبراطورية العثمانية. إن مبدأ الحصانة

يعود تاريخه إلى أيام سليمان القانوني(*) في القرن السادس عشر. وكان يقوم على أساس أن القانون التركي قانون شخصي أكثر منه قانون إقليمي، وبذلك فإن المسيحيين داخل الأراضي التي تخضع للسيادة العثمانية كانوا يمنحون الحماية من العنف المحتمل، أو الظلم الذي قد يقع عليهم من السلطات المحلية. وبناء على ذلك فإن شئون الأجانب القانونية كان ينظر فيها محاكم قنصلية خاصة بهم.

وطوال الفترة التي كان فيها عدد قليل من الأجانب يشملهم هذا النظام، فقد كان يعمل بهدوء تام، ولكن ما أن تدفق الصعاليك على البلاد حتى أصبحت الامتيازات الأجنبية مصدر إفساد وفساد مناف للمنطق. فباستثناء موافقة قنصل بلده. الذي كان يحميه ظالماً أو مظلوماً، كانت حرمة الأجنبي تقريباً لا تنتهك على الدوام، كما أن الممثلين الدبلوماسيين لبعض البلاد الصغيرة (وكانوا أنفسهم رجال أعمال أكثر منهم شاغلي مناصب رسمية) ذهبوا في تصرفاتهم إلى حد غريب في تأييد موكلهم، بل أنهم لم يكونوا أنفسهم بعيدين عن اتباع بعض أنواع الحيل المعقدة مقابل نسبة مئوية من العائدات ليضمنوا انتقال أموال السلطان إلى جيوب من هم تحت مظلة حمايتهم.

إنه أمر حقيقي أن بعض درجات الحماية للأوروبيين كانت ربما ضرورية، ففي دولة بدائية كمصر في ذلك الوقت لم يكن من المحتمل أن يتلقوا معاملة عادلة من الموظفين المسلمين الذين كانوا ينظرون بأسى إلى الأيام الخوالي عندما كان ينظر إلى الكفار بأنهم قوم محتقرون، وأقلية مهانة^(١٠)، والذي لا شك فيه أن قدراً كبيراً من كراهية الأجانب نبع من سوء معاملتهم وادعائهم التسامى المتعجرف على ابن البلد المصري.

(٥) سليمان القانوني (١٥٢٠-١٥٦٦) السلطان العثماني عرف عند الأتراك باسم القانوني وعند الأوروبيين باسم سليمان الأبهة والعظمة، The magnificent تشبهاً بالنبي سليمان كما وردت سيرته في التوراة (المترجم).

إن الذين يعرفون مصر اليوم بحكومتها "الكبيرة" التي في مقدورها مصادرة الملكيات حينما تشاء، وتطرد ممثلي الدول العظمى عند ظهور أول مبادرة للتأزم الدبلوماسي ليدهبون كيف سمح سعيد لخزائنه أن تنهب بهذه الطريقة المكشوفة، وبالطبع أن الإجابة على ذلك ليست لأن بندول الساعة قد مال لدرجة أن سعيد لم يكن في قدرته أن يقول لا لأى شخص، لقد كان من الأسير له أن يعطى موافقته لكى يزيج عن كاهله شئون المال المرهقة بحركة فيها شيء من الإذعان. إن صورة العاهل الكريم المتألق كانت تقتضى منه أن يغدق بوابل من السخاء على من حوله بكلتا يديه، وإلى صاحب أى فكرة ذكية أيا من كان، فمثلاً عندما جاء مضحك القصر يشتكى أن تقديراً لحسابه بالليرة الإيطالية جاء ضئيلاً، وللتغلب على هذه المشكلة فقد تم تغيير علامة الليرة إلى علامة الإسترليني (وهى نفس العلامة بالإيطالية على أية حال).

وبالطبع فإن المال الوفير يقبع وراء التعاقدات والامتيازات التي تمنح من أجل الأشغال العامة والخدمات والإمدادات. وكان الأوروبيون وحدهم هم الذين يقومون بها، فهم وحدهم منذ احتكارات محمد على الذين قتلوا المواهب التجارية المحلية، وكان تحت أيديهم رأس المال والمعرفة للقيام بمهمة بناء مصر على النسق الأوربي الغربى. وفى حين أنه من الخطأ أن نظن أن كل العقود كانت عملاً من أعمال الاحتيال، إلا أنها كلها وبكل تأكيد وبدون استثناء حاولت اعتصار أكبر قدر من الفائدة من أى مشروع. فكل فرد فى بطانة سعيد وعلى رأسهم المسئولين الأتراك وضعوا أصابعهم فى جرة العسل ما دامت هناك فائدة يمكن أن تعتصر عن طريق الضغط الذى يمارسه القناصل حتى من غير العقود: مثل الخسائر الحقيقية أو الوهمية، والمطالبات الفلكية للغاية التي كانت تجئ من كل ناحية، والأدهى والأمر أنها كانت تسدد. فقد كان سعيد - الذى أحاط نفسه بحفنة من المتزلفين المتذللين يسخر من مشاكله، إلا أنه من آن لآخر كان يبدي القليل من مظاهر الغيظ مثلما حدث عندما قاطع محادثته مع مقاول فرنسى ليطلب من خادمه أن يغلق النافذة، مطلقاً إحدى نكاته قائلاً: لو أن البرد أصاب هذا السيد المبجل فإن

ذلك سوف يكلفني ١٠,٠٠٠ استرليني « فيما عدا ذلك فقد استمر في حرق الشمعة من طرفيها وهو يبتهج: الطرف الأول هو تجاربه الأوروبية، والثاني هو بذخه الشرقي مما زاد من أحلام النهابين.

غير أن أكبر عملية نهب فاقت كل شيء كانت على وشك الظهور.

الفصل السابع

قناة عند خليج السويس

كان فرديناند ديلسبس قد عين قنصلاً سامياً Ive Consul مقيماً في الإسكندرية حيث كان أبوه قد شغل من قبل وظيفة الممثل الدبلوماسي لفرنسا، ولما وصل إلى مصر شعر بالسخط عندما كان عليه أن يقضى فترة في العزل الصحى (الكارانتينا)، ولكى يبعد عن نفسه الضجر خلال فترة هذين الأسبوعين، أخذ معه تقريراً كان لوبير Lepere قد وضعه منذ ثلاثين عاماً بناء على طلب نابليون حول مشروع ربط البحر المتوسط بالبحر الأحمر. وسرعان ما ألهمت الفكرة خياله.

لقد كان يعرف أن فكرة شق قناة عبر خليج السويس فكرة لا جديد فيها إذ كانت فى الواقع - واحدة من أقدم المشروعات التى فكر فيها المصرى بعد قيام الحضارة، كما أن تفاصيل شق أول طريق مائى يربط نهر النيل بالبحر الأحمر فقدت فى ضباب التاريخ القديم، فطبقاً للتراث كان أول من شقها هو سيزوستريس(*) أحد فراعنة الأسرة الثانية عشرة حوالى ٢٠٠٠ ق.م. حيث ربطت ما بين الفرع البيلوسى للنيل على مسافة ليست ببعيدة من مدينة بليس الحالية، ثم تتبعت حزام وادى الطميلات الأخضر متجهة نحو الشرق حتى البحيرات المرة، ثم وصلت إلى البحر الأحمر عند ميناء القلزم Clyisma القديم بالقرب من السويس.

(*) هو سنوسرت الثالث سادس ملوك الأسرة الثانية عشرة (١٨٧٨ - ١٨٤٣ ق.م) من الدولة الوسطى ونسب إليه حفر قناة ما بين النيل وخليج السويس، عن طريق وادى الطميلات والبحيرات المرة، وتعد هذه القناة أقدم طريق مائى مباشر يصل ما بين البحر المتوسط والبحر الأحمر عن طريق النيل. وقد سماها المؤرخون الأغريق قناة سيزوستريس وهو الاسم الذى أطلقوه على سنوسرت الثالث. (المترجم).

ولمدة تزيد على ألف عام ظلت قناة الفراعنة تربط "منف" ووادي النيل بالبحر الأحمر، ولكن عند قدوم الغزو الفارسي عام ٥٢٥ ق.م كان الغرين قد ردمها، لأن نقش دارا يسجل أنه في عام ٥٢١ ق.م أمر (دارا) بإعادة حفر القناة مرة أخرى. وقد ذكر هيرودوت أنها تتسع لمرور سفينتين من السفن ذات الثلاث طوابق من المجدفين تبحران جنباً إلى جنب، وأن الرحلة كانت تستغرق أربعة أيام. وقد اختصر الرومان المسافة عن طريق شق قناة أكثر استقامة عرفت باسم قناة تراجان، وهي التي اتصلت بالنيل من مكان لا يبعد كثيراً من مواقع القاهرة الحديثة والتي كانت تعرف وقتذاك باسم بابيلون Babylon (*). وبعد الفتح العربي أعيد تشغيلها تحت الاسم الرنان (قناة أمير المؤمنين). أما عن مشروع شق قناة مباشرة من بحيرة التمساح إلى البحر المتوسط، فقد توقف فقط بأمر من هارون الرشيد على أساس أنه من الخطر الفادح أن يفتح ساحل بلاد العرب أمام جيوش الروم. وفي القرن الخامس عشر درس البنادقة المشروع بعد أن اكتشف فاسكو داجاما طريق رأس الرجاء الصالح، إلا أن الأتراك اعترضوا على ذلك. كذلك أشار ليبنتز Leibnitz على لويس الرابع عشر بنفس الفكرة، وقد قام مهندسو نابليون بمسح المنطقة وتوصلوا إلى نفس الاستنتاج الخاطئ الذي كان الإغريق والرومان قد توصلوا إليه منذ ألفين سنة سبقت بأن البحر الأحمر يزيد ارتفاعه ما يقرب من عشرة أمتار عن البحر المتوسط، وأن هناك خطورة بأن تغرق مصر السفلى، وتوصلوا إلى أن ذلك يبطل أي إمكانية لتنفيذه وبالرغم من ذلك فإن السان سيمونيين استمروا يروجون للمشروع (**).

- (٥) هذا خطأ من الكاتب لأن القاهرة لم تكن قد بنيت بعد، إنما بنيت عام ٩٦٩م.
- (٥٥) السان سيمونيون هم Saint Simonians: هم أتباع الفيلسوف الاجتماعي سان سيمون. ولد في باريس عام ١٧٦٠ وتوفي فيها عام ١٨٢٥ أسس الاشتراكية المسيحية، ودعا إلى اعتبار كل البشر أخوة وإلى التنظيم العلمي للصناعة والمجتمع. عاصر الثورة الفرنسية. دعا إلى إحلال العلماء محل القسس والكهنة، وتتبعاً بثورة التصنيع في العالم كما دعا إلى إلغاء الملكية خاصة تلك التي تأتي عن طريق الإرث،

ويعارضون النتيجة التي توصل إليها الخبراء من قبل.

كانت قناتا السويس وبنما جزءاً من برنامج الكونت دي سان سيمون Conte de Saint Simon لإعادة " تجديد شباب " العالم، وعندما جاء بروسير إنفانتين Prosper Enfantin في صحبة مجموعة من السانسيمونيين Saint Simonians إلى مصر عام ١٨٣٣، زادت المناقشات المطولة التي دارت حول مائدة العشاء القنصلية من حماس ديليسبس de Lesseps.

لكنهم ولا غيرهم ممن تقدموا بطلبات للحصول على هذا الامتياز. أحرزوا أى تقدم مع محمد على الذى كان يخشى لو أنه تم توصيل مياه البحر الأحمر بمياه البحر المتوسط. فإن وضع مصر سوف يصبح مهدداً(*)، وأنه سوف يتبع ذلك بكل تأكيد غزو يقوم به واحدة أو أكثر من القوى الأوربية. لكن بينما كان يرفض السماح له بحفر القناة، كان الباشا من الناحية الشخصية

واستبدالها بالملكية الجماعية. أصدر منذ عام ١٨٣١ صحيفة "العالم" Le Globe. عاش السان سيمونيون عيشة جماعية على القليل ويمارسون الطهارة. كانوا يتخيرون عباءاتهم الزرقاء Blue tunics وقبعاتهم الحمراء تركت فلسفته الإصلاحية تأثيراً كبيراً على فلاسفات القرن التاسع عشر مثل جون ستيورات ميل، وتومس كارليل، بل تأثر بها فريدرش إنجلز شريك كارل ماركس مؤسس الماركسية أما تلميذه الأول وخليفته هو بارتلمى بروسير إنفانتين Barthelmy Prosper Enfantin وكان ثرياً يمتلك مزرعة وكان يعول تلاميذ سان سيمون بعد وفاته، قام بعد وفاة أستاذه بالتبشير لنظريته بنشر الصناعة والعلم. وهو الذى اصطحب مجموعة من العلماء إلى مصر عام ١٨٣٣ (المترجم).

(٥) من الطريف أن الفرعون تحاو الثانى توقف عن تنفيذ هذا المشروع لأن نبوءة ظهرت.

بأنه هذا المشروع سوف يكون فى صالح الأجانب: هيروdot الكتاب الثانى

١٥٨: (انظر هيروdot فى مصر) ترجمة صقر خفاجة وأحمد بدوى دار القلم ١٩٦٦

ص ٢٩٢ (هامش ٣، ٤) (المترجم).

شديد الإعجاب بديليسبس وكانت القنصلية الفرنسية المكان الوحيد خارج القصر الذى كان يسمح فيه لابنه المفضل سعيد بزيارته.

وبالرغم مما أشيع أن محمد على قد أنجب ما يربو على ثمانين طفلاً، إلا أن أربعة منهم فقط عاشوا من بعده أكبرهم سعيد. وربما لأنه كان قلقاً من هذه النسبة العالية للوفيات، فقد أولاه محمد على اهتماماً خاصاً فى تنشئته. فمنذ أن كان طفلاً، كان سعيد سميناً جداً، ولذلك وضع له والده حمية صارمة (ريجيم) على النظام الأسيرطى، إذ فرض عليه أن يقضى أيامه وهو يقوم بأداء تمرينات لعضلاته الجسمانية مثل تسلق الأشجرة والصوارى، وكما عين ضابط تدريب عسكرى يتعقبه جرياً حول أسوار القصر. أما عن وجباته الغذائية، فقد كان يسمح له بطبق من الفول وبعض "السلطة" ولم يكن من المستغرب كلما وجد عذراً - كان الصبى التعس المفرط فى السمنة يتسلل إلى داخل القنصلية الفرنسية عندما كان ديليسبس يعلمه ركوب الخيل حيث كان القنصل الشاب وزوجته يشعان بالعطف عليه ويقدمان له بعض السعرات الحرارية الإضافية. واكتشفا أن أكثر شئ يحبه هو "الاسباجيتى" وأمام الأطباق المملوءة بأكوام "الاسباجيتى" والتى عليها "الصلصة" نشأ رباط من الصداقة بينهم، ولم ينس سعيد قط هذا العطف الذى حظى به من جانبهما.

كان ذلك فى عصر صيف عام ١٨٥٤، عندما كان دى ليسيبس منشغلاً بإصلاح سقف بيته، وهو عبارة عن قصر عتيق يقع بالقرب من بوجر Bourges والذى كان فى وقت ما من ممتلكات اجنس سوريل أن ظهر ساعى البريد فى المدخل ومعه خطابات من باريس. وكان لا يزال فوق السطح عندما علم دى ليسيبس أن عباس الأول قد مات وأن محمد سعيد خلفه كنائب للسلطان على عرش مصر.

فبالنسبة لهذا الدبلوماسى النشط، الذى قاده سوء الحظ حديثاً أن يصطدم مع لويس نابليون، وكان يجد فى اعتكافه التى تلى ذلك أمراً مملاً، فأمام هذه الأنباء فجأة وجد مشروعات تشرح الصدر. وكما روى وهو مبتهج لصديقه

الهولندي ريسنايرس Ruysenaers: "وعلى عجل نزلت من السقالة وسارعت لأكتب لنائب السلطان خطاب تهنئة. وشرحت له أن الظروف السياسية في الوطن قد وفرت لي وقت فراغ يسمح لي بتقديم احتراماتي له شخصياً مجرد أن يعلمني بتاريخ عودته من القسطنطينية".

وعلى الفور رد محمد سعيد موجهها الدعوة إلى ديليسبس أن يلحق به في الإسكندرية في مطلع شهر نوفمبر، ولم يساوره أدنى شك حول الغرض الذي يدعوه للحضور من أجله.

إن السمة المميزة للمقاول الناجح - كما أريد لنا أن نعتقد - هو ذلك الشعور بالابتهاج الذي يساوره، عندما يضع أشياء إلى جانب أخرى حتى يراها تكبر، كما أن دوافعه - كما يفسرون لنا - ليست مادية لدرجة كبيرة بل نتيجة إلحاح خالص خلاق. لقد أدلى أخيراً أحد مليونيرات ما نهاتن بتصريح قال فيه: "لو أن الفنانين تركوا مهمة إسعاد العالم ليسعوا وراء مطالباتهم المادية فإن الناس سوف تفهم ذلك. أما الذي لا يفهمونه هو أن كثيراً من رجال الأعمال لديهم نفس الدوافع الخلاقة، ويستمدون منه نفس الإشباع مثل الفنانين تماماً فالتقاط فكرة مشروع وبعث الحياة فيه هو عمل خلاق". (مجلة التايم ٣ ديسمبر عام ١٩٦٥).

وإذا نظرنا إليه من هذه الزاوية، فإن فيرديناند دي ليسبس يبرز كواحد من أعظم فناني عصره، وبكل تأكيد كان واحداً من أعظم مقاوليه، إذ أن حجم ما أنجزه كان خرافياً لكن نشأ اعتقاد ظل ينمو باضطراد أنه في عصر غير لافت للنظر في أمانته فإنه كان أيضاً والد كافة المحتالين الذين يسلبون الناس أموالهم بعد كسب ثقتهم. فالشيء المؤكد أنه منذ اللحظة التي خطط فيها لرحلته إلى مصر، لم يكن في ذهنه سوى هدف واحد هو أن ينتزع من صديقه الذي لا يشك فيه - امتيازاً - لاقى كل من تقدم به الرفض.

إن أوراقه الخاصة التي يجب أن تقرأ إجبارياً من أجل تسويق المشروع تظهر الحيلة والحذر الشديد الذي سلكه، فخلال مقابلاته القليلة مع سعيد، لم

يذكر كلمة واحدة عن المشروع الذي يقبع في مقدمة رأسه، لقد ناقش معه موضوعات كثيرة من ضمنها عدد يخص شئون الحكومة، لكن لم نسمع ولو همسة واحدة عن القناة، فقد كان دى يلسبس مصمماً ألا يفصح عنه قبل أن يكون واثقاً تماماً من الأرضية التي يقف عليها وحتى كما يقول هو: « يصبح ناضجاً لدرجة أن الأمير يتبناه كما لو كان إحدى أفكاره ». وتدرجياً عن طريق الاتفاق وتقديم الأموال، كسب إلى جانبه بطانة نائب السلطان، وقام هؤلاء بدورهم في تمهيد الطريق مع سعيد، وبعد وقت طويل: بينما كانا يسافران عبر الصحراء من الإسكندرية إلى القاهرة، تملك دى يلسبس إحساس قوى أن المناخ بات مناسباً. وكان تاريخ ذلك اليوم هو ١٦ نوفمبر عام ١٨٥٤ إذ يروى في مذكراته: " في حوالي الساعة الخامسة صباحاً، كان المعسكر كله في حالة هرج ومرج عندما سحر بصري ظهور قوس قزح مفاجئ ذي جمال غير عادى. لقد رأيت في هذا التجلى في السماء علامة الميثاق تلك التي وصفها الكتاب المقدس. لقد جاء اليوم لناقش الأمور مع سعيد.

وطوال اليوم، وبينما كانا يطويان الصحراء، فإن دى يلسبس كان ينتظر بتلهف اللحظة المناسبة، ومع اقتراب الغسق صدرت الأوامر بالتوقف. وكعادته أمر سعيد ضباطه بإجراء بعض التمرينات على التشيين على أهداف معينة، ولسبب أو لآخر لم يصب أيًا منهم الهدف، وهنا رأى دى يلسبس أن فرصته قد حانت فأرسل في طلب بندقيته، ثم سدد بحرص نحو الهدف، ويتذكر بلغة بليغة: "ان قدر مصر يتوقف علي هذه الثانية"، ثم ضغط على الزناد، ولم يخله قوس قزح. وجاءت طلقاته تماماً في قلب الهدف.

وفيما بعد كتب بلهجة المنتصر يقول: "وهنا تفتحت زهور من الابتسامات على وجه الباشا، ولوهلة أمسك بيدي، ثم طلب مني أن أجلس إلى جواره في الديوان وكنا بمفردنا، ثم أطلقت العنان لأفكاري دون أن أدخل في التفاصيل. وتابع سعيد ما كان يتوجب على قوله بولع واهتمام، ثم استدار نحوي قائلاً: " لقد أقنعتني.. إنني أقبل خطتك. وخلال ما تبقى من رحلتنا سوف نبحث الطرق والوسائل التي بها تنفذ خطتك.. لقد حسم الأمر. تستطيع أن تعتمد على".

وجاء وقت الغداء، وصفق سعيد بكلتا يديه لإعداد المائدة، وبينما كان طقم الأطباق الفضية الكبيرة توضع على المائدة، انتاب نائب السلطان الفرحة لهذه المفاجأة، فشمّر عن ساعديه، وأخبر بطانته بما قرر، وأعلن والسعادة تغمره: "لقد منحت صديقي المسيو دي يلسبس امتيازاً... هذه هي خطتنا ليست كذلك؟". ولم يخطر على باله أبداً أنه بذلك التصرف يبيع حق مصر، كما وصف دي يلسبس ذلك. وبينما كان ينصت كانت ابتسامة الرجل الفرنسي المغربية لمرة واحدة صادقة تماماً: ولكن بالرغم من أن النجاح حلو المذاق إلا أنه يصبح مستساغاً مرتين عندما يتم التوقيع بسلام، وتطوى الوثيقة وتربط بأحكام بشريط أحمر، وبعد مرور أسبوعين حول دي يلسبس الامتياز إلى عقد رسمي يلفت النظر بصفاقته وتحيزه لجانب واحد، وذلك من خلال بنود الاتفاق التي توالى. ويقال أن سعيد وقع على الوثيقة دون أن يكلف نفسه عناء قرائتها. وعلى أى أساس، كما جاء فى الجدول سمح لنفسه أن يكون فريسة للخداع بهذه الدرجة من السذاجة الواضحة. وكيف يقدم على المقامرة مستخفاً برفاهية شعبه وحقوق وطنه؟

وإذا كان قد قرأ شيئاً منها قط، فربما تلك المذكرة المقدمة لها والتي أرسلها صديقه الحميم مع الاتفاقية والتي تقول: "إن أسماء الحكام المصريين الذين شيدوا الأهرامات. تلك الآثار التي تمثل زهو الإنسانية وغرورها، لا تزال غير معروفة. أما اسم الأمير الذى سوف يفتح القناة البحرية الكبرى سوف يلقى التمجيد من قرن إلى قرن حتى "تتوقف عجلة الزمن".

ومهما كانت الوسائل والسبل التي اتبعتها لتحقيق أهدافه الملتوية، ومهما كانت هذه الأهداف موضع شك، إلا أن النشاط الذى بذله دي يلسبس فى تأسيس "الشركة العالمية Compagnie Universelle يجب أن يجعله فى منزلة أعظم العبقريات فى مجال التنظيم إبان القرن التاسع عشر. فمنذ البداية وجد نفسه وحيداً من الناحية العملية، كداوود التاجر وهو يصارع جولات الفوضى حول مصالح متضاربة، فقد كانت إنجلترا مصممة على وقفه عند حده، بينما لم تكن فرنسا تقف إلى جانبه بأى حال من الأحوال. فى حين أن السلطان العثمانى كان مذبذباً بين تهديدات لندن وتأكيدات القاهرة.

ولولا ضربة الحظ التي تلت، ما كان له أن ينجح. فقد حدث أن ابنة عمه "يوجيني دي مونتيجو" Eugenie de Montigo اقترنت بنابليون الثالث، وبمعاونة الإمبراطورية التي كانت تعمل من أجله من وراء الستار، وبمعاونة البطانة الجشعة التي التفت حول الإمبراطور، ما كان له أن يشق طريقه نسبياً للمشروع. وبعد أن قدم الرشاوى إلى الزمرة الصغيرة التي كانت تدير شئون السياسة الداخلية للإمبراطورية الثانية، أعلن لبورصة باريس أن نائب السلطان قد قدم ضماناً للأسهم، وفي نفس الوقت كان يؤكد لسعيد الساذج دائماً أن الجمهور قد أقبل على الاكتتاب. وحتى بعد أن افتتح باب الاكتتاب للشركة العالمية لقناة السويس البحرية Compagnie Universelle du Canal Maritime de Suez في خريف عام ١٨٥٨، لم يشتري الجمهور إلا ما يزيد قليلاً عن نصف الأسهم البالغ عددها ٤٠٠,٠٠٠ سهم. غير أنه بوجود أمير بلحمه وشحمه وبعض الأسماء ذات النفوذ في فرنسا في مجلس الإدارة أصبح لديه قليل من التخوفات أن يساء فهم وضعه أمام السلطات.. في النهاية وجد محمد سعيد: «إن صديقنا المسيو دي يلسبس» قد تحمل مسئوليات والتزامات مالية تفوق بكثير أي تقدير كان يمر بخياله. فعن طريق عبارات الإطراء التي كانت تقطر من لسان هذا الأستاذ في فن التسويق أن القناة سوف تجلب له الخلود كفرعون السويس (بل وحتى عن طريق الأمل الواهي بأنها سوف تكون وسيلة لتأمين استقلال مصر) وجد سعيد نفسه وقد تحمل وزر ٤٤ في المائة من رأس المال الكلي، وفي غضون أسبوعين تحولت مسألة القناة إلى مسألة عالمية. ففي لندن وباريس والقاهرة والقسطنطينية بدأت التفاصيل تتجمع. فالهوايتهول عارضت المشروع لأنها كانت تفضل لأسباب استراتيجية الطريق البطيء ولكن الأمن حول رأس الرجاء الصالح. فطريق النقل البري من الإسكندرية إلى السويس والذي كان يعمل بنجاح كامل، شعروا أنه وسيلة تناسب جيداً خدمة البريد السريع وتحركات الجيوش إلى الهند. وأن القناة سوف تقلب ميزان القوى رأساً على عقب، بل من المحتمل أنها سوف تطرح المسألة المصرية من جديد، بالإضافة إلى ذلك

فإن القسطنطينية سوف تكون أقرب إلى الهند عن طريق البحر منها إلى لندن. غير أن كل ذلك لم يجد من الأمر شيئاً. وعندما سعى دي ليسبس إلى بالمرستون على أمل إقناعه. تلقى منه رداً سريعاً قاسياً وشرح له بالمرستون قائلاً: "دعني أفصح لك عن تخوفاتي. إن هذا المشروع سوف يقلب علاقات بريطانيا العظمى التجارية والبحرية رأساً على عقب. وإن فتح طريق جديد للتجارة قد يتسبب في فقداننا للمزايا التي نمتلكها الآن بين أيدينا كما أنه يساورني الخوف أيضاً ماذا سيكون عليه مستقبل علاقاتنا مع فرنسا. وأعتقد أنه من واجبي أن أتصرف كما يتصرف رجل الدولة وهو أن نأخذ في عين الاعتبار ما قد يكون في رحم الزمن".

لقد أخفت هذه الآراء التي عبر عنها باعتدال تصميماً لا ينشئ لوقف حفر القناة مهما كان الثمن. وكان حجم الضغط الذي مارسه بالمرستون على الباب العالي كبيراً لدرجة أن سعيد الذي أربكته الانفعالات التي أطلق لها منح هذا الامتياز العنان، أصبح مقتنعاً أن إنجلترا مصممة على عزله وفي مواجهة هذا المصير غير المستحب، كان مستعداً حتى لأن يغفر لديلسبس خداعه إياه حول مسألة الأسهم إذا ما تمكن صديقه من إنقاذه من الإنجليز.

وفي الحقيقية سرعان ما فعل القلق بجسمه أكثر مما فعلته التمرينات الرياضية التي كان يمارسها في شبابه، فقد حولته المعاناة النفسية إلى شخص نحيف البنية. وفي ذات مرة دخل عليه دي ليسبس وهو جالس في بهو الاستقبال في قصر رأس التين، عندئذ أشار سعيد إلى معطفه الذي أصبح الآن أوسع حجماً عدة مرات. وقال بنبرة حزن: "انظر ما فعله بي هؤلاء الإنجليز.. ثم أضاف أنه يأمل أن يتمكن "صديقه المخلص" من إخراجه من ورطته. وفي أثناء ذلك أخبر دي ليسبس أن حفر القناة يجب أن يؤجل حتى يبرد الجو العالمي الساخن قليلاً.

كان دي ليسبس يعرف جيداً كيف يستغل مثل هذه النقاط من الضعف، إذ لم يكن لديه مانع أن يطلب المزيد من الجمائل من محمد سعيد. لقد استترف

نائب السلطان حتى أصبح شاحباً عندما حصل على الامتياز، فقد منح حق حفر القناة، كما منح هبات من الأرض لا تقدر بثمن ومعها الإعفاء من التكاليف، كما وعد بتقديم عمال السخرة، وفي عبارة أخرى تقديم العمل دون دفع الأجور، إلى جانب ذلك كله وافق على أن يتحمل شراء ربع الأسهم، أكثر من ذلك فرض عليه بأسلوب المراوغة والخداع الذي قد يؤدي بأغلب الناس إلى السجن أن يدفع ٨٥,٠٠٠ استرليني. وكان كل هم دي يلسبس أن يدعم المزايا التي حصل عليها.

لم يكن نائب السلطان حاضراً في الحفل متقن التنظيم الذي أقيم عندما بدأ العمل في ٢٥ أبريل عام ١٨٥٩، وبالرغم من أن دي يلسبس قد خذله علناً، إلا أن سعيد أدرك أن الإمبراطور كان يدعم حفر القناة، ولم يجرؤ على استخدام القوة لوقفه. وكل ما كان في وسعه أن يفعله هو أن يقضب جبينه في القاهرة، وأن يضع العراقيل في طريقه.

وطبقاً لشروط العقد، طالبت الشركة بـ ٥٠,٠٠٠ رجل. فلقد كانوا في حاجة إلى مثل هذا الجيش الجرار من العمال لأن أدواتهم كانت بدائية، فقد كان من الأفيد لهم اقتصادياً أن يستخدموا اللحم والدم على البخار والمعادن. غير أن سعيد لم يتمكن إلا من إرسال ١٢,٠٠٠ رجل.

هذه التسوية ضايقت كلا من بالمرستون ودي يلسبس، فقد ركزت الحرب الأهلية الأمريكية الأنظار على الرق. والعمال الذين بعث بهم سعيد للعمل في الحفر بدون أجر لم يكونوا مجرمين أو رقيق، بل كانوا فلاحين انتزعوا قسراً من حقولهم. وقد اتهم البريطانيون سعيد (وبالمناسبة فقد فات عليهم أن يتذكروا أن استخدام سخرة مشابهة حدث عند مد خطوط السكك الحديدية إلى السويس، والتي مولتها شركة P. & O قبل سنوات قليلة) بارتكاب أعمال غير إنسانية. واستصدر دي يلسبس قراراً من مجلس الإدارة يحمل سعيد مسؤولية أي خسائر تنتج من تأخير عملية الحفر.

وبسبب وقوعه في مصيدة مباراة الغضب بين إنجلترا وفرنسا، أصبح

سعيد يائساً أكثر وأكثر، وراح يتذبذب بين الغضب والتوسل، بين الحل
الوسط والمماطلة، ولذا تضاعف وزنه أكثر وأكثر إلى أن جاء الحل لأزمته
في مطلع عام ١٨٦٣. فقد قضى نحبه.

الفصل الثامن

الثمن الباهظ لمظاهر التبذير والترف

حتى وقت قريب اعتاد أحد الباشوات الجلوس كل مساء تقريباً في ركن من أركان البار في "رووف" فندق شبرد، ويتحدث عن الأيام الخوالي في مصر، وهو لم يعد باشا - بالطبع - منذ إلغاء الألقاب عام ١٩٥٢، وبالرغم من أن الحكم الثوري قد صادر أغلب ممتلكاته، إلا أنه كان لا يزال يحتفظ بمظهر السنيور Seigneur. وكان سلوكه ومظهره هي نفسها التي كانت لأسلافه عندما كانوا يدبرون المكائد بلطف في شرفة شبرد منذ قرن مضى، فقد كان في زيّه الرسمي، وعصاه الذي يغطي الذهب أحد طرفيها، وفنجان القهوة الصغير (سادة أو محوج جيداً) وسيجارته المسطحة في المبسم العاجي، والسبحة الصغيرة ذات الحبات من الكهرمان، وقبل كل شيء وجهه النفيس الشبيه بصفحة من الرق، به عيان طيبتان ولكن ماكرتان، وحديثه الناعم الذي يمزج بين حسن النية والخبث، والذي يرمز إلى حكمة الشرق دائمة التردد.

وقد يقول: قد يتخيل الرجل الغربي أن العقلية الشرقية غامضة لأن هناك حاجزاً، ومن ثم فهو لن يقدر على فهم حقيقة المصري. ولكن الأمر ليس كذلك؛ إذ لا يوجد شيء شديد الغموض حول الطريقة التي تفكر بها. إنها ببساطة ينبغي عليك ألا تحاول أن تحكم على الشرق بمفهوم الغرب. أو تنظر إلى مصر من خلال العيون الأوروبية".

وقد يستطرد في حديثه بابتسامة شاحبة: "فنحن - كما تعرف - شعب عريق الجذور.. فهناك موضوع التقاليد، فعلى سبيل المثال قانون الخلافة الإسلامي، فقد كان من الأمور الخطرة في الإمبراطورية العثمانية أن يتولى أحد وراثته العرش. وإذا نظرت إلى أسرة محمد علي ستري أنه قلما ورث ولي العهد الجلوس على العرش.. فمثلاً إبراهيم والأمير أحمد. ولذلك فهذا هو أحد الأسباب التي جعلت إسماعيل يتلف على صدور الفرمان الخاص بتوريث الابن الأكبر العرش .

وقد يتذكر الواحد منا أن إسماعيل نفسه لم يكن ولياً للعهد. فخلال حكم عباس قاد إسماعيل حركة معارضة قام بها الأمراء، ووجد أنه من الأكثر أماناً أن يدبر مؤامراته خارج البلاد. وكان على علاقة صداقة مع سعيد، كما كان يترأس المجلس الأعلى للقضاء. وكان الشخص التالي لورثة عرش نائب السلطان هو النبيل أحمد. وهو رجل بخيل عرف عنه أنه كان ماهراً كرجل أعمال.

وفى عيد الأضحى عام ١٨٥٨ أقام سعيد وليمة كبيرة فى الإسكندرية أرسل من أجلها بطاقات الدعوة - بلهجة تصل إلى حد الأمر إلى كل أفراد أسرته. ولم يتغيب منهم أحد سوى إسماعيل؛ لأنه كان مريضاً. وقام قطار خاص بنقلهم فى طريق العودة إلى القاهرة، وعند كفر الزيات وسط المسافة بين الإسكندرية والقاهرة. يوجد كوبرى بناه روبرت ستيفنون Robert Stevenson، وكان فى وسطه فتحة بين دعامتين تفتح وتغلق لكى تسمح بمرور البواخر التجارية والفيلوكات (جمع فيلوكة)، وعندما أقبل القطار يلوح منه البخار، فوجى سائقه الذى اعتلاه الرعب بأن الكوبرى مفتوح، وكان الوقت متأخراً لتجنب الكارثة، فاندفعت عربات القطار بمن فيها من الأمراء إلى قاع النيل، وفى اللحظة التى كانوا معلقين فيها فى الهواء فوق النهر، تمكن الأمير حليم من القفز إلى الماء سليماً، أما أحمد لأنه كان سميناً مترهلاً فقد غرق، وبذلك أصبح إسماعيل ولياً للعهد. وبالرغم من أن لا أحد اكتشف عما إذا كان ذلك حادثاً عارضاً أم لا، فقد زعمت نوائر القصر أن إسماعيل كان له يد فى الحادث، ومهما كان الأمر، فقد غير هذا الحادث قدر مصر، فلو قدر لأحمد أن يتولى الحكم بدلاً من إسماعيل لسارت الأمور على نحو مختلف.

«غير أن إسماعيل (استطرد الباشا العجوز) لم يكن حقيقة ذلك الشخص المحير كما كان كثيراً ما يفهم. ففى شبابه كان إقطاعياً ناجحاً، فالقطن الذى يزرعه كان الأفضل، ومصنع السكر الذى يمتلكه كان فى إدارته الأكفأ،

وعلى مدى وقت قصير للغاية ضاعف من قيمته الصناعية. ولم يكن مديناً لأحد بمال ولو يؤخذ عليه شيء هو أن الناس لاحظت عليه - لأنه عاش عيشة الكفاف - أنه يميل إلى الشح. ففي فندقه في باريس - مثلاً - كان يرفض أن يعطى أى "بقشيش"، ولكن منذ اليوم الذى أصبح فيه نائباً للسلطان تغير كل ذلك تماماً، وقد يكون فى مقدرة علماء النفس أن يفسروا لنا السبب الذى يجعل أميراً شاباً شحيحاً يتحول إلى حاكم مسرف، ربما يكون خمر السلطة قد لعبت برأسه، والأكثر احتمالاً أنه مثل جده محمد على اعتبر مصر ملكية شخصية لنائب السلطان أى أنها ضيعة خاصة يجرى استغلالها على النحو الذى يراه مناسباً، فقد رأى نفسه تجسيدا لمصر، وكان مصمماً أن يحقق لبلاده العظمة من خلال تعظيم نفسه وأسرته الحاكمة، غير أنه بدلاً من أن يحقق ذلك بالحرب اختار أن يحققه بالمال.

فى القرن الخامس عشر اشتهر لورينزو دى مديتشى Lorenzo d' Medici باسم العظيم Il Magnifico ليس من باب التباهى بحياته الخاصة، بل بسبب إنسانيته والمجد الذى حققه لفلورنسا، أما إسماعيل فقد كان على النقيض من ذلك. ولو أن إسماعيل سمي أيضاً بالعظيم The Magnificent فإن ذلك بسبب المجد الذى حققه لنفسه، فكما كانت دولته أكثر بذخاً كلما كان تبذيره الشخصى أكبر، وكما بدت مصر أكثر جاذبية فى عيون أوروبا. كان هذا منطقاً. ولكى يحقق الاستقلال لبلده كان عليه أولاً أن يرفع مصر إلى منزلة عالمية سامية فى مظهرها على الأقل وأن عليه أن يحاذى إن لم يكن يسبق الأمم الكبرى فى خلق وسائل الراحة ومظاهر القوة. ومنذ أن اكتشف أن الدول المتحضرة فى أوروبا كانت تطلق العنان باستخدام أرصدها فى تقديم القروض، فقد فعل نفس الشيء. فالمال أمره سهل، لكن بعد النظر فهو الذى يعتد به.

ولكن بالرغم من كل بعد النظر الشامل الذى تباهى به، لم يكن لديه إحساس بالتناسق، كما كانت قدرته على خداع نفسه لا حد لها، فقد خدع نفسه أكثر مما خدع أى شخص آخر، فقد كان يصدق خداع نفسه، وعندما حدث الإفلاس كما كان محتملاً أن يحدث، كان لا يزال يبقى فى ذهنه وهماً بأنه لا

يزال الخديوى بمقتضى ثمة حق إلهى، وأن: "مثل هذه القداسة التى تحيط بالملك لا يمكن للخيانة معها إلا أن تسترق النظر إلى ما قد يحدث":

There is such divinity doth hedge a king that treason
can but peep to what it would"

ومن ثم فإن الانقلاب القوى coupol, etat أخذه على غرة، فاستسلم له دون أى مقاومة.

لقد كانت بدايته طيبة، فقد كان خطاب توليه العرش نموذجاً للتعقل والتواضع: «إن أساس الإدارة السليمة هو النظام والاقتصاد القائم على المالية، إننى سوف أتبع هذا النظام وهذا الاقتصاد بكل وسيلة ممكنة، وسوف أضرب المثل للجميع لقد قررت أن أهجر النظام الذى اتبعه أسلافي، وأن ألزم نفسى بمخصصات للأسرة المالكة لن أتجاوزها أبداً».

كانت المخصصات الملكية التى اقترحها تبلغ ضعف مخصصات الملكة فيكتوريا، وهذا غير مهم، إنما المهم هو النوايا.

غير أن الأمور لم تكن بالبساطة التى ظنها، إذ لم يترك له سعيد عرشاً حل به الفقر فحسب، بل ترك له الشؤون العامة فى حالة من الفوضى المزرية، فقد كانت هناك مسألة قناة السويس، كما كان هناك مائة وواحد من مصاصي الدماء فى أبهاء الاستقبال بالقصر ذاته حيث ينتظرهم قناصلهم، وهم يمارسون الضغط للحصول على مطالبات تثير الغضب، كما كان هناك الباب العالى وقد سن أنيابه وأظفاره كالعادة، وكان عليه أن يشتري سكوته بدفع الرشاوى الباهظة، ولولا مدافع قلعة سامتر Fort Sumter (*) لوجد

(*) قلعة فى ميناء شارلستون Charleston جنوب ولاية كاليفورنيا الأمريكية قام الانفصاليون الجنوبيون بالاستيلاء عليها فى ١٣ أبريل عام ١٨٦١ عندئذ اعتبر ابراهام لتكولن رئيس الولايات المتحدة أن ذلك عملاً من أعمال الحرب بين الشمال والجنوب والى تعرف بالحرب الأهلية الأمريكية التى استمرت من عام ١٨٦١ حتى عام ١٨٦٥ (المترجم).

إسماعيل نفسه مفلساً قبل أن يشرع في الحكم. فكما حدث خلقت الحرب الأهلية الأمريكية خلال إسبوعين طلباً على القطن المصري بشكل لم يسبق له مثيل.

فحتى عام ١٨٦٠ كانت الولايات المتحدة تسد حاجة ما يربو على ثمانين في المائة من طلبات أوروبا من القطن، غير أن حصار الاتحاد البريطاني دفع المضاربين في البورصة إلى أيدي المزارعين الهنود والمصريين، وبالنسبة لهذين البلدين، كانت الهند تنتج القدر الأكبر البالغ ست مرات ضعف ما تنتجه مصر، غير أن نوعية القطن المصري بتيلته الطويلة جعلته الأفضل بشكل لا يقارن، ومن ثم وعلى غير توقع وجدت الاسكندرية نفسها وهي تتقلب على الذهب، فقد ارتفع سعر القطن من ٧,٥ بنس للرطل عام ١٨٦١ إلى ٢٦,٥ بنس في صيف عام ١٨٦٢ ثم إلى ٢٩,٧٥ بنس عام ١٨٦٣. وبصفته أكبر مالك للأرض (لقد أصبحت شهيته لامتلاك الأرض بعد توليه العرش أكثر نهماً، حتى أنه سرعان ما أصبح يمتلك ٢٠% من الأرض المزروعة في البلاد بالتمام والكمال) فقد وجد إسماعيل نفسه في قلب الرواج فلم يكن جنون المضاربات التجارية يجاريه سوى حمى البناء التي انتابته.

وبالنسبة لإسماعيل فقد جاءت فرصة عمره لكي ينغمس في طقوس مفرطة للأشغال العامة هدفها تحديث مصر وتحويل القاهرة إلى عاصمة جميلة مثل أي مدينة أخرى في أوروبا. فبين عشية وضحاها بدأ في مشروع على نطاق واسع من الإنفاق، وبالنسبة لفترة حكمه القصيرة نسبياً، فإنه قد أنجز الكثير في مجال الأشغال العامة يفوق ما يقوم به أي حاكم آخر في الأزمنة الحديثة، حتى بمعيار اليوم فإن قائمة إنجازاته تبدو مذهلة، ولكن نذكر بعض المشروعات على سبيل المثال: فقد تحقق لمصر بحلول عام ١٨٧٩ حفر ٨,٤٠٠ ميل (*) من الترعة النيلية و ٤٥٠ كوبرى و ٦٤ مصنع سكر وحوالي ١٠٠٠ ميل (**) من السكك الحديدية، كما أقام إسماعيل أكبر

(*) أى ما يعادل ١٣٥٠٠ كيلو متر. (المترجم).

(**) أى ما يعادل ١٦٠٠ كيلو متر. (المترجم).

ميناء على البحر المتوسط عند الاسكندرية، وأقام سلسلة من الفنارات على طول الساحل، كما أصبح واحداً من الموقعين المؤسسين لاتحاد البريد العام، بل أنه مد خطوط التلغراف جنوباً حتى أسوان، كما أسس شركات الشحن بالبواخر، وافتتح ما يقرب من ٦٠٠٠ مدرسة تعلم كل أنواع المعرفة التي قد تخطر على البال مثل الموسيقى: اللغات، والزراعة، والقانون، والطب، والعلوم العسكرية، بل كان هناك مدارس للبنات تحت رعاية إحدى زوجاته، كما إنه هو الذي افتتح السويس ومدينة الإسماعيلية الجديدة التي تقع عند منتصف الطريق إليها، كما قام بتحديث الإسكندرية وإلى حد ما بورسعيد والسويس.

غير أن أحب المشروعات إلى قلبه كان تجميل مدينة القاهرة. وعندما شرع في ذلك كانت المدينة قد اتسعت إلى ما وراء أسوارها التي ترجع إلى العصور الوسطى، وكان هناك ما يزيد على ميل(*) من الأرض القفر تقع ما بين حدائق الأزبكية التي تحف بها المقاهي، وبين شاطئ النيل. فقام إسماعيل بشق الشوارع العريضة التي على جانبيها الأشجار، وتحف بها البواكي المسقوفة على غرار بوليفار ريفولي (بباريس). وقد شقت البواكي طريقها عبر الحارات المتدخلة كقصور التيه في الأحياء الوطنية القديمة، وعمل على تطوير كل المنطقة تجاه النهر والتي تشكل الآن وسط القاهرة الحديثة. كما شق طريقاً عاماً يؤدي إلى القصر مشمشى اللون على شكل حرف E المقام على ضفاف النيل، والذي اشتهر بسوء السمعة عن جنود قوات الحلفاء في الحريين العالميتين كأكثر التكنات امتلاء بالبق في العالم (اعتاد الجنود البريطانيون عندما ينظرون من ثكناتهم أن يجزموا أن الأسدين البرونزيين كانا يزأرون عند كل مرة تمر فيها فتاة عذراء وأضافوا أن ذلك لم يحدث منذ سنين). واليوم يقوم فندق النيل هيلتون فوق قصر النيل، والمنطقة القريبة من جسر إسماعيل الكبير المؤدى إلى جزيرة "الجزيرة" وكل وسط مدينة القاهرة الحالية من تخطيط وتنفيذ إسماعيل الذي قسم الأراضي، وخفف من شروط

(*) ١٦٠٠ متر تقريباً (المترجم).

الدفع لهؤلاء الذين كانوا يرغبون في إقامة منازل لهم. وباستثناء قصر عابدين الجديد الشاسع بواجهته ذات الطراز الإيطالي، والذي أصبح المقر الرسمي لإقامته، كما دقق في اختيار المواقع الطبيعية لبناء القصور بما في ذلك قصر الجزيرة الذي تم تنفيذه في أقل من ستة شهور بمناسبة زيارة الإمبراطورة يوجيني Eugenie، ولمرتين خلال مائة عام (منذ التسعينات من القرن التاسع عشر وحتى اليوم) أصبح الفندق المفضل لدى السائحين.

بل امتدت أعمال البناء إلى الصحراء، خالقا عين ماء كبريتية في حلوان، وألحق بها فندقا كبيرا خاصا بالحمامات على الطراز الشائع عند الأوربيين، ويقوم على خدمته خط سكة حديد خاص يبدأ من القاهرة. وفي ظرف شهور ثلاثة أنشأ شارعا جديدا يؤدي صعودا إلى الأهرامات، مستخدما قوة عمل قوامها ٣٠,٠٠٠ عامل حتى يتمكن الضيوف المميزون الذين وفدوا لحضور افتتاح قناة السويس من التوجه لمشاهدة الآثار في سهولة ويسر. لقد كانت طاقته للعمل تدعو للإعجاب. فأينما وليت وجهك قامت هناك فجأة مبان جديدة، وتماثيل وشوارع مشجرة، وناפורات، وقد أدلى بملاحظة ذات مرة قال فيها: " إن أغلب الناس يتيهون جنونا بشيء ما، أما جنوني أنا فهو في الحجر والملاط " وما فعله لويس الرابع عشر لباريس فعله إسماعيل للقاهرة. وإنه لمن الغريب أن تظن أن كان في شوارع القاهرة مصابيح تضاء بالغاز قبل أن يتحقق ذلك لباريس. لقد صمم إسماعيل على أن يجد الزوار الملكيون أنفسهم عندما يأتون لافتتاح القناة أنهم في عاصمة جديدة بحاكمها العظيم.

ولقد شغلته مسألة القناة منذ البداية، فهو لم يبتكر المشروع إنما ورثه عن سعيد كتركة متقلة. ولو رغب إسماعيل أن يكمل ذلك، لربما رفض صراحة الاعتراف بشرعية الامتياز التي كان يعمل بمقتضاها دي يلسبس، ناهيك أن السلطان لم يكن قد أعطى موافقته بعد. إلا أن إسماعيل لم يكن مستعدا أن يتخذ خطأ معاديا لفرنسا (ذلك البلد الذي كان شديد الإعجاب به). لقد كانت فكرة القنال تعجبه، لكن الذي رفضه هو الشروط، وعلى الأخص شرط تسليم شريط من الأرض على جانبي المجرى المائي، واستخدام العمل الإجباري لبنائها. فقد أخبر دي يلسبس أنه من أنصار القناة Canaliste مثله تماما، لكن

امتياز الأرض يجب أن يلغى، واستخدام السخرة يجب أن يتوقف، وأصر على أن مصر هي التي يجب أن تمتلك القناة وليس القناة هي التي يجب أن تمتلك مصر!.

لقد أخفى دي يلسبس مشاعره، غير أن أوراقه كشفت بوضوح وكم كانت تلك مفاجأة. كان تمويل القناة مهتزاً، فكل حساباته قامت على أساس استخدام العمل غير مدفوع الأجر، كما أن تركيا لم تكن محبذة للمشروع ووزارة الخارجية البريطانية كانت مصممة على وقفه، ولم يكن أمامه سوى طريق واحد وهو أن يقنع الحكومة الفرنسية بالوقوف وراء مشروع القناة كأمر يهم المصلحة الوطنية. وقبل أن ينقضى وقت طويل اندلعت معركة دبلوماسية بين لندن، وباريس، والقسطنطينية، والقاهرة. ومرة أخرى ضغط على "يوجيني" لتقديم خدماتها، وفي النهاية وافق إسماعيل بدرجة كافية من السذاجة على أن يحيل الأمر إلى نابليون الثالث للتحكيم: "كجنتلمان" إلى آخر as one gentleman to another " ولم يكن فى قدرته أن يدرك بالطبع - أن الإمبراطور لا يعترف به كند له فى المقام بالمفهوم الأوروبي على الأقل، وبالطبع لم يتوقع أن قرار الشرف الإمبراطورى سوف يسمح لنابليون الثالث أن يصدر حكماً مميتاً بدرجة ملحوظة بمنح تعويض عن الخسائر قدرة ٨٤ مليون فرنك أى بما يقارب نصف رأس المال الأصلي للشركة كتعويض عن إلغاء نظام السخرة فى العمل، والأراضى الصحراوية على جانبي القنال، ولكن التقليد الخاص بشرفه - أو على أى تقدير - كبريائه - منعه من أن يرفض قبول حكم الإمبراطور.

هكذا أصبحت الشركة قادرة على شراء أجهزة حفر الأعماق مما أعطى العمل دفعة إلى الأمام بعد أن أعيد تمويلها على حساب مصر، أما بالنسبة لإسماعيل فإن ذلك الحمل المالى الإضافي الذى تزامن مع تدهور سوق القطن كان سبباً للعجز المالى، لقد فاقه الفرنسيون فى الذكاء فى وقت كانت فيه مشروعاته الكبرى تمتد على نحو شاسع. ولم تعد التيلة الطويلة البيضاء ذات الوبسرة هى المحصول الذهبى كما كانت، وكلما جمع المال كلما زادت

حاجته إليه.. من تلك اللحظة فصاعداً كان السوق مفتوحاً أمام مقرضى المال الجشعين واليهود.

ولحسن الحظ كان فى استطاعة إسماعيل أن يظن وهو جالس القرفصاء فى ديوانه (ومن حين لآخر يلعب بأصابع قدمه أثناء حديثه مع زائريه). إن رصيده على ما يرام، ولم يكن هناك نقص فى المرشحين لإقراضه بلايين القروش التى كان ينفقها بغير حساب. فرجال البنوك قد هالهم حياة الأبهة المحيطة به أكثر مما هالهم مظهره الشخصى كنائب للسلطان، فقد كان يرتدى الزى التركى الأستامبولى الفضفاض (وهو نوع من عباءة راعى الأبراشية) وسروال متدلى يتسع عند الركبتين، وخفين مطاطين عند جوانبها اللذين كثيراً ما كان يخلعهما. وقد يدهشهم قبح وجهه الجامد الذى به نعمتات الأكزيما، وخصلات شاربيه الحمر اويين، ومن عينيه التى كانت إحداهما على الدوام مغمضة بينما الأخرى ترمش، لكنهم لم يقاوموا أبداً انجذابهم إلى الطربوش الذى كان يرتديه بأناقة على جانب رأسه، ودفى ابتسامته، ومهارته فى الحديث، وكرم ضيافته السخي.

كان هذا التبذير جزءاً وقسماً من شخصيته الغامضة. كان المال هو الوسيلة التى اتبعها لشراء مركز دولى له، وفى آخر الأمر لاستقلال مصر من السلطان. وقد نجح أخيراً فى عام ١٨٦٦ فى تأمين فرمان يعطيه درجة كبيرة من الاستقلال ولقب خديوى مصر(*)، مقابل مليون جنيه استرلينى عداً ونقداً، ومضاعفة قيمة الضريبة (إلى جانب طقم مائدة من الذهب المشغول

(*) لقب فارسى - تركى يعنى "اللورد"، وقد منحه السلطان العثمانى عبد العزيز لسلالة أسرة محمد على عام ١٨٦٦، وقبل ذلك كان حكام مصر من أسرة محمد على يحملون لقب الباشا أو نائب السلطان. وكان محمد على وأولاده يحملون لقب الخديوى بطريقة غير رسمية، ولما أعلن الإنجليز الحماية على مصر عام ١٩١٤ حولوا لقب الخديوى إلى "السلطان" لتوكيد انفصال مصر عن الدولة العثمانية، ثم استبدل لقب السلطان بلقب "الملك" بعد إعلان استقلال مصر من جانب واحد عام ١٩٢٢ (المترجم).

بالجواهر من أجل السلطان، ومائة ألف جنيه إضافية دفعت في شكل
رشاوي، وبعد أن أحاط به المرابون من رجال البنوك، أصبح " أفندينا "
مستعداً لكي يبهر ذوى التيجان في أوروبا، وفي نفس الوقت يترك أثراً في
عالم مقدمي الديون، بثرائه الذي لا يصدق ومن ثم يغريهم لكي يستمروا في
تقديم الديون له.

وجاءت فرصته عند افتتاح قناة السويس، فقد انتوى إسماعيل أن يجعل
منه استعراضاً وهكذا كان. في البداية انطلقت الألعاب النارية لتغرق سماء
بورسعيد حتى كادت أن تهدمها، ثم في عشية الافتتاح اكتشف وجود صخرة
تحت الماء يبلغ ارتفاعها خمس عشرة قدم (*)، وقد تم نسفها بالديناميت
فانهارت جوانب القناة، وأخيراً عندما تحرك الركب المتألق تجاه مدخل القناة،
قام زورق خاص بالشرطة بالدوران حول نفسه، وكان على وشك من أن
يدمر الافتتاحية كلها، لولا أن دى يلسبس قفز مسرعاً ودمر القارب بأكمله،
وحتى فيردي Verdi فشل في إكمال الترتيلة Hymn في الوقت المحدد من
أجل افتتاح دار الأوبرا الجديدة التي بناها إسماعيل خصيصاً لهذه المناسبة
والتي افتتحت رسمياً في الأول من نوفمبر عام ١٨٦٩ وعرضت أوبرا
ريجوليتو Rigoletto بدلاً منها (١٢).

غير أن أحداً لم يعر ذلك أى اهتمام، فقد كان الترف عارماً بينما رؤساء
الدول يتوالون في الوصول إلى القاهرة من كل أنحاء العالم منذ بداية شهر
نوفمبر لينقلوا على حساب المضيف إلى مصر العليا لمشاهدة آثار الأقصر،
ثم إلى بور سعيد التي كانت تبدو في ذلك الوقت في أبهى حللها. وامتلاً
ميناؤها الذي كان يسبح في الشمس بالسفن التي ترفع أعلام اثني عشرة دولة.

وفي ١٣ نوفمبر ١٨٦٩ وصل إسماعيل على ظهر المحروسة، ثم تلاه
إمبراطور النمسا، وولى عهد بروسيا، وأمير وأميرة هولندا، وأعضاء الأسر
الملكية الأخرى، ثم السفراء والضيوف المميزون من كل وصف.. وأخيراً

(٠) أى حوالى أربعة أمتار ونصف المتر (المترجم).

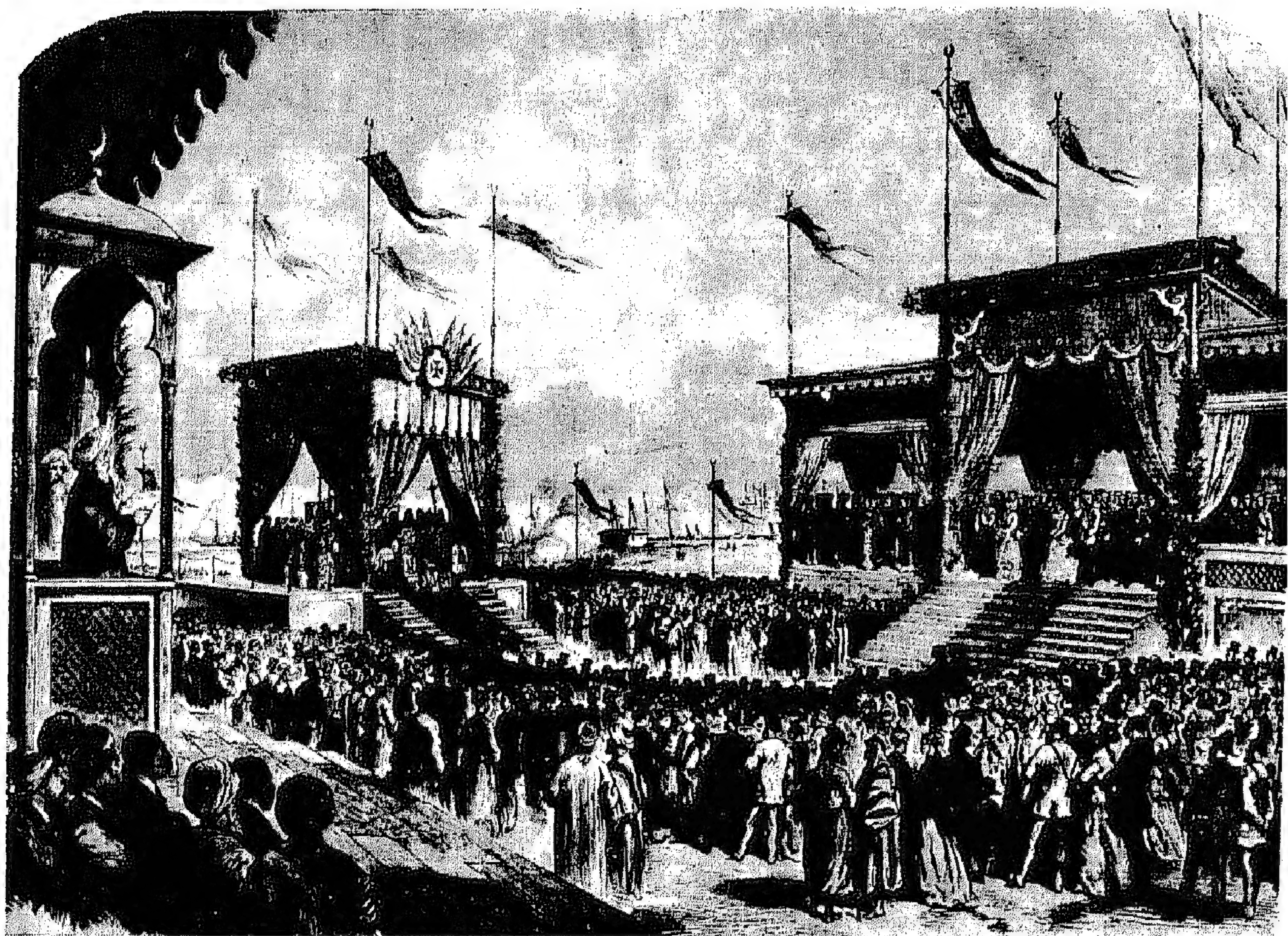
فى الساعة الحادية عشرة من صباح ١٦ نوفمبر بدأت مدافع القطع الحربية البحرية وبطاريات السواحل تزار عندما أقدم اليخت الإمبراطورى الفرنسى "لاجل" L.Aigle (*) يتهادى، وعند مؤخرة ظهره وقفت الإمبراطورة يوجينى، وصاحت الأميرة وقد غمرتها البهجة: لم أشهد فى حياتى منظراً بهذا القدر من الجمال! وشاهد المراقبون أجمل امرأة فى أوروبا والدموع تتساب من عينيها. ولقد استغرق موكب المرور عبر القناة ذات الأربعين ميلاً (**) حتى بحيرة التمساح اثنا عشرة ساعة. وعند مغيب شمس اليوم التالى تقابل الموكب البحرى مع قافلة من السفن المصرية التى كانت قد أفلعت من البحر الأحمر فى اتجاه الشمال. وتحت أضواء عشرة آلاف فانوس جلس إسماعيل ويوجينى فى قصر الخديوى الجديد فى الإسماعيلية على رأس وليمة ذهبية مثلاً فى التاريخ كواحدة من أكثر المآدب بذخاً، بينما انطلقت الأنباء بسرعة البرق بأن التقاء البحرين قد أصبح أخيراً حقيقة.

وبين إجراءات الاحتفالات، طلبوا من إرنست رينان Ernest Renan أن يلقي خطبة رحب فيها بضم دى يلسبس إلى عضوية الأكاديمية الفرنسية L'Academie Francaise ووصفه بأنه "مبعوث القدر"، فقد أعلن ببصيرة تدعو للدهشة قائلاً: « إن البرزخ الذى تم حفره الآن سوف يكون مستقبلاً ساحة للمعارك. أن بوسفور واحد يكفيننا حتى الآن لمشاكل العالم، لقد خلقت برزخاً ثانياً يفوق فى أهميته الأول بكثير! ففى حالة الحرب... سوف يكون ذا أهمية قصوى... إنها نقطة الاحتلال التى من أجلها سوف يتصارع العالم بأكمله... لقد حددت الميدان للمعارك الكبرى فى المستقبل. ».

يجب أن يكون واضحاً كل الوضوح أنه فى الوقت الذى شهد أعمال إسماعيل العظيمة فى مجال الأشغال العامة، والرشاوى التى كان يدفعها للسلطان، واستضافته للأمراء التى كانت تتكلف مبالغ طائلة تفوق بكثير ما

(٠) أى العقاب (المترجم).

(٠٠) أى حوالى ٦٥ كيلو متر (المترجم).



لوحة تصور جانباً من جوانب الحفل الباهظ الذي أقامه
الخدوي إسماعيل في مدينة بور سعيد في ديسمبر
١٨٦٩ في حضره ضيوفه من ملوك وأمراء أوروبا
(مجموعة ماتسيل في لندن)

كان لدى الخديوى أو لدى مصر، وقد يكون فى إمكان هذا البلد أن يسددها على المدى الطويل كما حدث فى بعض الأحيان، لأن مصر فى الأصل بلد غنى بدرجة غير عادية، ولكن بذخ إسماعيل وإسرافه فى ذلك الوقت فاق بكثير مصادر خزانته. لقد أدخل مصر إلى مجال المشروعات الخاصة، والتي لكى يمول تميمتها كان عليه أن يستدين بكثرة من البنوك، غير أن الديون توالى دين يتبع دين، يفصل بينهما فترات فاصلة قصيرة خطيرة، وسابق رجال المال البارزين بعضهم بعضاً، وكان أشدهم جشعاً الأوربيون فى محاولتهم لغشه. وكما لاحظ إميل لودفيج Emil Ludwig: "بالفائدة التى يبغونها، والعمولات والمدفوعات الوهمية، وبكل جيل بورصات باريس ولندن، وبطريقة قد تؤدى بالرجل البسيط إلى غياهب السجون. فالرجل الإنجليزى فى ذلك الوقت كان يطلق على كبار رجال البنوك حثالة "أوربا" لأنهم كانوا يدفعون بالفعل للملك المبتهج ستين فى المائة فقط من الديون التى دونت على الورق".

فمن المؤكد أن ديون الدولة التى عقدت مع بنوك جوشن Goschens فى أعوام (١٨٦٢ / ٦٤ / ٦٦) و اوبنهايم Oppenheim (١٨٧٣) ومع روتشيلد Rothschild (١٨٧٩)، تظهر أن من المبلغ القانونى وقدره ٧٧ مليون جنيه تسلمت مصر فى الحقيقة ٥٠ مليون جنيه فقط. ومن دين اوبنهايم عام ١٨٧٣ الذى كان رسمياً ٣٢ مليون جنيه بالإضافة إلى رسوم سنوية تقدر بـ ٣,٥ مليون جنيه، لم تتسلم مصر منه سوى ١٨ مليون جنيه. إن اليهودى التعس الذى طرد من مصر فى أعقاب أزمة السويس قد يجد تبريراً أخلاقياً لما حدث له فى الخطايا التى ارتكبها أبأوه لأنه على حد ملاحظة جورج يونج اللاذعة: "لم يحدث نهب للمصريين بهذا الحجم قام به شعب الله المختار"^(١٣).

ولم يكن العبرانيون وحدهم. ففى خلال حمى البناء التى انتابت إسماعيل سمح لبعض العقود أن تكافأ بمبالغ عالية لدرجة لا تصدق، كانت فوائدها تذهب إلى خارج البلاد، فعلى سبيل المثال قامت شركة بريطانية معروفة ببناء رصيف ميناء الإسكندرية، وكانت قيمة العقد ثلاثة ملايين جنيه فى حين يرى السير ريفرز ولسون Sir Rivers Wilson (فيما بعد أصبح الممثل المالى

لبريطانيا) أن نصف هذا المبلغ كان كافياً.

وعندما حدث الإفلاس، كان هناك حديث كثير عن الظلم الذي أوقعه أصحاب الديون والمرابين بالبلد، لكن لم يحظ رجال البنوك ولا الخديوى بالعطف، فلو أن هناك ظلماً وقع، فإنه بلا شك ذلك الذي حاق بالمواطن المصرى لأنه كما يحدث دائماً، فإن الذى يسدد الحساب فى النهاية هو الفلاح المسكين، ولنستعير من قول جورج يونج مرة أخرى: إن معاناة الفلاحين المصريين سواء خلال سنوات العمل الإلزامى أو من خلال الإبتزاز المالى الذى تلاه لمواجهة فوائد الديون التى كانت على القناة، يضع أوروبا فى مقدمة الدائنين. دين شرف لأوروبا لمصر، التى لم نسمع عنها كثيراً كما نسمع عن الالتزامات الأقل قيمة من جانب مصر نحو أوروبا.

إن قناة السويس مثلاً بالرغم من أنها شقت بالعمل المصرى، وسددت تكاليفها من المال المصرى، كانت خسارة مميتة حقيقية لذلك البلد خلال الثمانية والثمانين عاماً التالية، وباستثناء المشاكل السياسية التى سببتها، وتحت حجة طرق المواصلات للإمبراطورية كان هذا المجرى المائى واحداً من الأسباب الرئيسية لسبعين عاماً من الاحتلال، كما أنها وضعت نهاية لتجارة الترانزيت البرى التى كانت وقتذاك تحقق دخلاً وتقدم فرص عمل، والأكثر من ذلك خلال السنوات الست التى تلت افتتاح القناة، تسبب إفلاس إسماعيل فى فقد مصر حتى لنسبتها الضئيلة فى أسهم هذا المشروع.

لقد تأرجحت وجهة النظر البريطانية تجاه القناة من النقيض إلى النقيض. ففي البداية فعل بالمرستون كل ما فى وسعه لوقف المشروع، فقد قال أمام مجلس العموم: «إنني اعتقد أنه يأتى فى مرتبة المشروعات الفقاعية الكثيرة فقد قام على تأملات بعيدة المدى فيما يتعلق بالوصول السهل إلى ممتلكاتنا فى الهند. إنه مشروع بكل تفاصيله معادى ومناوئ للمصالح البريطانية»: فعلى طول خمس عشرة سنة ظلت حكومة جلالة الملكة تمارس نفوذها فى القسطنطينية ومصر لمنع تنفيذ ذلك المشروع. ولكن ما أن تم حفر القناة وأصبحت جزءاً من جغرافية العالم الطبيعية والسياسية حتى

أصبحت قصة مختلفة. فقد كتب إيرل كلارندون Earl of Clarendon وزير الخارجية إلى دي يلسبس يقول: إن الافتتاح الناجح للقناة قد استقبل برضاء كبير على مستوى العالم . ثم استمر في إطرائه المفرط قائلاً: إن المزايا السياسية والتجارية التي قد نتوقعها بكل ثقة سوف تكون نتيجة لمجهوداتك ". لقد تغير توجه السياسة البريطانية الآن بشكل محتوم نحو السيطرة على ذلك المجرى المائي الذي ربط بين بحرين وفصل بين قارتين. وبعد افتتاح القناة بست سنوات جاءتهم الفرصة لأن يفعلوا ذلك.

ولقد كامل، ظل إسماعيل يندفع بتهور نحو الدين، راهناً كل شيء نافع من أجل أن يحصل على ديون جديدة حتى أنه أصبح أخيراً في عام ١٨٧٥ على شفا الإفلاس. ولم يتبق لديه من الممتلكات ذات القيمة سوى أسهم قناة السويس. ولقد رفع ستانتون Stanton القنصل البريطاني في القاهرة تقريراً يقول فيه إن مجموعة مالية فرنسية تتفاوض على شرائها وفي حوار خاص أخبر دزرائيلي Disraeli الليدي برادفيلد Lady Bradfield والليدي تشستر فيلد Chesterfield أنه لو تمت هذه الصفقة فإن: قناة السويس بأكملها سوف تصبح ملكاً لفرنسا وسيكون في استطاعتهم إغلاقها. ومهما كان الأمر، فقد أبرق إلى ستانتون في ١٧ نوفمبر بأن الحكومة البريطانية نزلت إلى السوق لشراء الأسهم. وفي ٢٣ نوفمبر رد ستانتون أن الأسهم قد عرضت على بريطانيا العظمى مقابل أربعة ملايين جنيه وأن هذا العرض صالح لمدة ثمان وأربعين ساعة فقط .

ولقد وضع ذلك دزرائيلي في مأزق. فقد كان البرلمان منفصلاً حتى شهر فبراير، وعلى ذلك لم يكن هناك من سبيل للحصول على الاعتماد المالي بعد التصويت عليه. ولم يكن في إنجلترا كلها غير رجل واحد في استطاعته أن يكتب "شيكاً" بمثل هذا المبلغ في الحال. وأدخل سكرتير دزرائيلي على اللورد روتشيلد Rothschild الذي كان قد فرغ لتوه من تناول غذائه.

- كم المبلغ ؟ هكذا سأل رجل البنوك وهو يمرر إليه شراب البورت.
- أربعة ملايين جنيه.



- ١ - من على اليمين صورة دي ليسبس فى صورة
ماسح أحنية لبريطانيا. إشارة إلى الانزال
البريطاني له (مجموعة ماتسيل - لندن)
- ٢ - من على اليسار صورة كاريكاتورية ظهرت فى
مجلة بنش Punch وقد ظهر فيها نذراتيلي وهو
يفاصل الخديوى على بيع أسهم قناة السويس وقد
ظهر الأسد البريطانى يمسك بمخالبه مفتاح
الدخول إلى مصر (مجموعة ماتسيل)

- ومن يكون الضامن.
- الحكومة البريطانية.
- واستتشق روتشيلد كأس البورت، ثم ابتسم، ثم أفرغ الكأس وأجاب بهدوء: سوف تحصل عليها.
- وهكذا أمنت الأسهم بسلام ومنذ تلك اللحظة أولت بريطانيا اهتمامها كمالكة للعقار الذي حصلت عليه، وبالتالي في اهتمامها بحكومة وشئون مصر. لقد أصبحت نبوءة كنجزليك في طريقها للتحقق وكذلك نبوءة رينان.

الفصل التاسع

حديث بنت

كتب ابنته تقول: «إن ولفريد بلنت Wifrid Blunt ولد مثيرا للشغب من رحم الخداع الشرقي، والنفاق الأيرلندي، وأنه كان شكاكا مخادعا مع النساء « غير أن الدكتور سيد محمود - وزير الخارجية السابق في الحكومة الهندية أعلن: أخيرا « إن أفكار "بلنت" وعمله سوف يخلدان ذكرى عظمة انجلترا للأبد » وقبل ذلك كتب يقول: « لقد تعلمت منه الأمانة في السياسة قبل أن أقابل غاندي بوقت طويل ».

وأينما كانت الحقيقة تتبع ما بين هذين الحكمين فإن "ولفريد سكاون بلنت" Wilfrid Scawen Blunt الذي توفي عام ١٩٢٢ وهو يناهز الثمانين من عمره خلد للأجيال التالية صورة موثقة جيدا عن تتابع فوضى الخطط الاستعمارية البريطانية. فقد كان من كبار ملاك الأراضي ومن أقطاب حزب المحافظين. وكان لديه من الثراء ما جعله يفعل ما يريد، كان أيضا رساما ونحاتا، بل وحتى شاعرا، وكما لاحظ عنه ذات مرة إم فورستر E.M. Forster "كان شامل المزاج لكن محدد الإنجاز" Wholly by temperament but only partly by achievement لكن قبل كل شيء كان مثيرا للدعاية السياسية، ومعاد للاستعمار في وقت كان المرء يحتاج فيه إلى الشجاعة ليكون كذلك. لقد كان البطل المدافع عن القضايا الخاسرة حسب تقاليد بيرون وشلي الأرسقراطية، ولا بد أنه كان مصدر إزعاج تام لأصدقائه الذين كانوا يوجهون دفة السياسات في انجلترا. غير أن مقتله للدجل والخداع والاستعمار عامة، تبدو كما لو كانت نبعت ليس من نقص في ولائه لوطنه بل على الأصح من إحساسه العميق بالعطف على ضحايا الاستعمار.

وفي سن الثامنة عشر التحق بالعمل بالسلك الدبلوماسي، والتحق بالبعثات البريطانية في مختلف أنحاء أوروبا، لكن سرعان ما خاب ظنه عندما وجد أن دور السكرتير هو أن يتحرك في المجتمع، وأن يتمتع نفسه بطرق لائقة

ولكن عليه ألا يبدى أى اهتمام فى الأمور الجارية تحت أى ظرف من الظروف، ولفترة قصيرة كتب شعرا أكثر مما كتب برقيات، وساهم فى بعض الدراما التى عاصرها فى أوروبا كمشاهد، بعد ذلك تقاعد ليربى الخيول فى ضيعته بضاحية ساسكس Sussex، ولم يكن قبل عام ١٨٧٣ عندما هرب من الشتاء الإنجليزى هو وزوجته حفيدة اللورد بيرون - ليقوم برحلة إلى الشرق، فسافر عن طريق بلجراد جنوباً ثم من الدانوب إلى القسطنطينية، وعندما كانا فى السفارة هناك اشترى نصف ستة خيول من سوق " الميدان "، وقضى بضعة أسابيع مبهجة، وهو يتجول فى تلال آسيا الصغرى التى يغطيها زهور الخشخاش. وقد تأثر بشدة من أمانة وصدقة الناس وشرور حكومتهم. وقد أبدى " بلنت " ملاحظة فى تعليق ذى نبرة تكاد أن تكون ملاحظة بيئية: « لقد كان جلياً أنه بالرغم من وجود القمع المالى الشديد توجد حرية شخصية بدرجة كبيرة عند الفقراء فى ريف تركيا مما يتناقض بشكل غير مقبول فى وطننا إنجلترا المكبل بالشرطة والمحاكم».

وفى الشتاء التالى ذهب إلى الجزائر، وصادف ذلك قيام الانتفاضة العربية التى سحقتها بشراسة الفرنسيون الذين - فى رأى بلنت - انتهزوا فرصة حدوث التمرد ليصادروا ممتلكات السكان الوطنيين، وتسليمها إلى المستوطنين Colons الفرنسيين فكتب يقول: " وهناك شهدنا منظرأ آخر أعطانا الزاد للتفكير: أن شعباً شرقياً فى حالة خضوع شرس لشعب غربى. مع حبي للفرنسيين (وقد كنت فى باريس خلال الحرب وكنت شديد الحماس فى المقاومة وقت الحصار الذى ضرب عليها) إلا أتنى وجدت تعاطفى فى الجزائر يتجه بكامله تجاه العرب ".

كانت أول نظرة ألقاها بلنت على مصر أثناء مروره عبر بحيرة المنزلة شمالاً على طول قناة السويس فى عشية العام الجديد لعام ١٨٧٥، وفى هذه الأيام كانت البحيرة منطقة بكترا، ومن ثم سحرته أسراب الطيور مثل الفلامنجو، والببط والبجع، وأبو قردان، والتى كانت تغطي سطحها، وكذلك كميات السمك التى كانت تقفز بأعداد كبيرة حول مقدمة السفينة، ولما وصلوا إلى السويس كان فى انتظارهم أنباء الكارثة التى حلت بالجيش المصرى فى

الحبشة. وسرت شائعة تقول أن ابن إسماعيل نفسه قد وقع فى الأسر ومثل به، وفيما بعد نفى ذلك. وكانت تلك بالطبع أنباء لا تسر ولذا قرر الزوجان بلنت، بدلاً من مواصلة الرحلة حتى كسلا أن يغيرا من خططهما ويمكثان فى مصر.

لم يكن لديهما الرغبة أن يتبعنا مسارات السائح العادى، ولما كان بحوزتهما أدوات المعسكر، فقد استأجرا جمالاً عند السويس، وركبا عبر الصحراء إلى القاهرة، ولابد أنها كانت لحظة بغیضة عندما أخطئا فى اختيار موقع إقامة معسكرهما خلف مرمى ميدان التدريب على إطلاق النار الخاصة بالخدیوى، إذ هبا من نومهما مذعورین من صفر الطلقات، غير أنهما كانا محظوظین لأن المجندين كانوا ضعافا فى التشين، ثم وصلا القاهرة سالمین، ولم يتوقفا بها إلا لتسلم الرسائل الخاصة بهما قبل أن يتجها فى طريقهما إلى الأهرامات. وعند غروب الشمس توقفا عند قرية "الطالبة" الصغيرة ولأنها كانت فى - الطريق - إلى الأهرامات فكل الأجانب كانوا يعتبرون غنیمة مشروعة، إلا لأنهما لدهشتما استقبلا بترحاب كبير. والحقیقة لأنهما توقفا عند القرية وقضيا فيها ليلة فقد اعتبرهم السكان ضیوفا، فمن بین كافة الأوربيين الذين مروا بهذا الطريق لم يتوقف أحد قط لقضاء الليل. وكان ذلك أول اتصال بین الشاعر والفلاحین.

لقد لمس بلنت أن الفلاحین فى وضع مزر، فقد كان إسماعیل يترنح على شفا الإفلاس، وكان إسماعیل صديق - ذلك المفتش سىء السمعة - فى الحكم. وكان الأوربيون من حاملى الكوبونات السريعة يتصايحون مطالبین بحصصهم، وكان على الفلاحین أن يدفعوا. وقد انتشر جباة الضرائب فى كل مكان یمسكون بالكرباج فى أيديهم، وكانت مدن الأقالیم مليئة بالنساء اللاتي يعرضن حليهن الفضية للبيع، بل حتى ملابسهن على المرابى اليونانى الذى ليس أمامهن غيره، وقد اشترى "بلنت" منهن بعض حليهن الصغيرة واستمع إلى حكاياتهن، وشاركن فى صب اللعنات على مثل هذه الحكومة التى كانت تبغیهن عرايا، غير أنه لم يفهم أكثر مما يفهم الفلاحون أنفسهم - أن الضغط المالى من جانب أوروبا كان هو السبب الحقیقى للمآسى التى تحيق بهم. ولم یكتشف إلا مؤخرا أن بلاده كان يقع عليها قدر من اللوم.

وبكل تأكيد، كان القرويون صرحاء بما فيه الكفاية، فقد كان للإنجليز في هذه الأيام شعبية في البلاد الإسلامية، فقد كانوا ينظرون إليهم كمتحررين من مخططات " الفرنجة " الآخرين السياسية، وأنهم كأفراد أمناء في معاملاتهم التجارية. وفي مصر بالذات - كانوا يوضعون في موضع مناقض تماما من " حاملي الخرج " Carpot - baggers من بلدان البحر المتوسط: كالإيطاليين، واليونانيين، والمالطيين، الذين كانوا بكل معاني الكلمة يمتصون دماء الحياة من الفلاحين المسلمين. وكان هناك همس عن احتمال تدخل أوربي وفي نظر الفلاحين (إذ ما كان ذلك من جانب الإنجليز) فإن ذلك لم يكن غير مستحب، فقد كانت الأحوال لا تطاق حتى أن أى تغيير في نظرهم سيلقى الترحيب بالفرح والسرور. وبالنسبة للفلاحين فإن حالة العوز التى هم فيها، بعد أن نهبوا وضربوا وهلكوا من الجوع، فقد بدت إنجلترا معها فى نظرهم أنها مثل المبعوثة الربانية كثيرة الغنى، شديدة النزاهة، التى ترد الظلم عن أصحابه، وتصادق المضطهدين مثلما بدا السواح البريطانيون فى كثير من الأحيان وهم يتجولون، باسطة الأكف، وعلى وجوههم مسحة من التعاطف. لقد شعر "بلنت" بالخجل والخزى بمرارة أن يشعر هؤلاء البسطاء بمثل ذلك الشعور، وقليل ما كان يعترهم الشك أن الأنانية فى التجارة هى التى قادت أبناء وطنه بارتكاب كثير من حالات العدوان على كثير من أجناس الأرض الضعيفة.

فقد كتب فى صحيفته يقول: " إن لدى الفلاحين كل الخصائص الكافية لخلق مجتمع سعيد وثرى، فهم مرحون، محبون للعمل، مطيعون للقانون، ومقتصدون بشكل واضح.. عطوفين على كبار السن، وعلى الشحاذين والبلهاء.. أما العيب الكبير فيهم هو حبهم للمال، ولكن علماء الاقتصاد السياسى على استعداد أن يغفروا لهم هذه المزية، إنه لمن الصعب أن نعثر فى أى مكان على شعب يبدو أكثر قبولا لأن يطبق عليه النظرية الاقتصادية وهى توفير أكبر سعادة لأكثر عدد من الناس. وفى مجال السياسة لم يكن لديهم أمل سوى أن يعيشوا ويتركوا ليعيشوا، وأن يتركوا ليعملوا ويحتفظوا بثمار عملهم، وأن يشتروا ويبيعوا دون تدخل من أحد، وأن يتهربوا من دفع

الضرائب، لقد لقوا معاملة سيئة لعصور طويلة دون أن يفقدوا طيبة القلب التي لديهم، فقد كان لديهم قليل من الفضائل الفطرية، وهم ليسوا متطرفين ولا متعصبين في وطنيتهم ولا كرماء بدرجة رومانسية، غير أنهم خالون من الشرور الفطرية. وكل واحد منهم يعمل لنفسه، وعلى الأكثر من أجل أسرته. وهم لا يفهمون فكرة التضحية بالنفس من أجل الصالح العام، وهم أبرياء من المكائد لاستعباد زملائهم.. وبالرغم من القمع البشع الذي هم ضحاياه، إلا أننا لم نسمع من جانبهم كلمة واحدة عن الثورة، وليس ذلك بسبب نظرتهن الاعتقادية الخرافية تجاه حكامهم لأنهم ليس لديهم انحياز سياسي مسبق، ولكن لأن الثورة في طبيعتهم ليست أكثر مما يحدث لقطع الأغنام. لقد كانوا على استعداد لأن يهتفوا لملكة إنجلترا أو البابا أو حتى ملك الإثانتى (*) بنفس القدر من الحماس، لو أن أحداً من هؤلاء جاء لهم بهدية، وهي تخفيض بنس واحد في الجنيه في تقدير الضرائب!.

هذه هي الانطباعات الأولى للشاعر، ولكنه كان لا يزال غير مدرك للأفكار للسياسة التي كانت تسمع في المدن، وللوطنية التي بدأت تنشط، وكان عليه أن يدرك للتأثير الكامل للتمويل الدولي في المصاعب التي كان الفلاحون يعانون منها، وعندما عاد إلى القاهرة سرعان ما أصبح لديه فكرة عن الورطة الاقتصادية التي وقعت فيها البلاد، وحجم الكارثة التي سببها إسماعيل، فقد وصلت فوائد الديون الأجنبية إلى أربعة ملايين جنيه إسترليني في السنة، وكان التقدير للعام أن تكاليف الفترة التي حكم فيها فاقت مبلغ ٤٠٠ مليون جنيه وهو مبلغ هائل بالنسبة لذلك الوقت. ولذا صادر كل ما اقتصده الفلاحون عبر سنوات للرخاء، ومعها كل ماشيتهم التي يستخدمونها في الزراعة، والأدهى من ذلك أنهم كانوا مدينين من ناحية خاصة بمبلغ يقارب العشرين مليوناً من الجنيهات للمرايين اليونانيين وغيرهم من المرايين المحليين.

وقبل أن يغادر القاهرة كان " ولفريد بلنت " ضيفاً في إحدى المآدب

(*) مملكة قامت في غانا في القرنين السابع والثامن عشر.

الفارسة التي أعدها إسماعيل لأعضاء إحدى البعثات المالية عند سفح الأهرامات، وبينما هم يتناولون أطيب الطعام بوفرة، ويحتسون الشمبانيا تحت نظرات جمهور جائع من الفلاحين. رأى ذلك المنظر الذي يناسب الوصف بكل الشرف والبؤس المحيط. أنه الحس المسبق الحقيقي للسبيين التوأمين للثورة القادمة^(١٤).

وسرعان بعد ذلك أن حدثت مراوغة غريبة من جانب الدبلوماسية العالمية تاركة مضاعفاتها على مصر. فعندما كان نذرانيلى شاباً قدم فيما يشبه المزاح في روايته تانكرد Tancred فكرة بناء إمبراطورية أسيوية تحت التاج البريطاني نواتها جزيرة قبرص، ربما مستعيداً إلى الأذهان الحقيقة التاريخية بأن ريتشارد قلب الأسد كان حاكماً لها. ولابد أنه ضحك بينه وبين نفسه عندما وقع على اتفاق سرى في مطلع عام ١٨٧٨ مع السلطان الشاب عبد الحميد سلطان تركيا والذي بمقتضاه قبل أن تؤول قبرص إلى إنجلترا مقابل تقديم ضمان إلى السلطان (الذي كان يتعرض في ذلك الوقت لضغط شديد من روسيا) بالحفاظ على كل ولاياته في آسيا.

لم تكن قبرص في حد ذاتها بذات فائدة خاصة لانجلترا، وفي أحسن الحالات كان ذلك وهماً من جانب نذرانيلى سببه أحد التقارير المزيفة عن شراء الجزيرة قيمته أحد القناصل الذي كانت له مصالح فيها. كان هدف نذرانيلى الحقيقي هو أن يفرض بشكل غير رسمي ولكن بطريقة مؤثرة - الحماية البريطانية على تركيا الأسيوية.

وبعد مرور شهر في على افتتاح مؤتمر برلين الذي عقد لتقرير مصير تركيا الأوروبية، قدم اقتراح أنه يتوجب على كل حكومة أن تتعهد بشرف أنها لن تلجأ إلى عقد أي ارتباطات سرية في هذا الشأن، ولأنهما فوجئاً بالأمر، فقد أعطى كل من نذرانيلى واللورد سالسبوري كلمتهم مثل الآخرين. ولما نشرت إحدى صحف لندن المسائية في اليوم التالي النص الكامل للاتفاقية حول قبرص، شعرا بالإحراج الشديد، ولقد كان ذلك بالطبع من باب سوء الحظ (فقد باع مترجم تلك المعلومات لمجلة "العالم" The Globe مقابل

خمسة جنيهاً إسترلينية) غير أن الصدمة كانت مزعجة، فبعد أن أدين أمام المجلس بتهمة الكذب المباشر، انسحب دزرائيلى إلى مقره تاركاً الأمر لولبرى وهو يحاول التخلص من هذه الورطة بقدر ما استطاع، ولقد حصل الوفدان الفرنسى والروسى على أفضل المزايا، وقد خرجا وهما يتظاهران بالغضب الشديد، ولقد كانت هناك حاجة إلى عبقرية بسمارك لإرضاء الفرنسيين، والتوصل إلى اتفاق وسط الذى بمقتضاه، أن تترك فرنسا لتحتل تونس فى مقابل حصول إنجلترا على قبرص، بل حتى — كما زعم — أن يعترف لها بحق المطالبة بسوريا، وعلاوة على ذلك، بل الأهم من ذلك كله أن يكون لفرنسا رأياً مساوياً لإنجلترا فيما يختص بالترتيبات المالية التى كانت تجرى فى مصر.

هكذا دفع الثمن لفرنسا، وقد وضع "ولفريد بلنت" إلى أصدقائه وهو على ظهر الباخرة ميساجيرى ماريتيمز *Messagei Maritimes* والتى كانت تنقلهم من مارسيليا إلى الإسكندرية أنه ساعد دزرائيلى فى العودة إلى لندن لكى يفاخر فى العلن أنه أعاد السلام مع الشرف^(١٥).

لقد اعتقد أن الوصف الأكثر ملائمة هو "السلام مع الخراب" بعد أن روعه هذا الإعلان عن الاستعمار الذى لا يقوم على مبدأ فالى مؤامرة قبرص تعزى سلسلة طويلة من الجرائم ضد حرية الشرق وشمال أفريقيا. فقد وضعت تونس تحت أقدام فرنسا، وأطلقت شرارة التقسيم الكبير لأفريقيا بين القوى الأوروبية، وجعلت المسلمين يشعرون بالمرارة إزاء إنجلترا، بل كان ذلك السبب الحتمى بعد مرور عام للسيادة المشتركة *Condominium* الأنجلو فرنسية على مصر.

وفى خريف العام التالى، وجد "بلنت" نفسه مرة أخرى وهو يتجه صوب الشرق بحثاً عن المهور العربية للاصطبل الذى كان يملكه فى كرابت *Crabbet* وبينما كان يجلس على ظهر السفينة مع السير ريفرز ولسون (والذى كان قد عين كوزير مالية للتمويه على فرض الحراسة القضائية الأجنبية) ترامى إلى أسماعه ما كان يحدث فى القاهرة خلال العامين

المنصرمين. وكان ذلك بالدرجة الأولى حول سجل الجرائم التي ارتكبتها إسماعيل. ولكن بالرغم من ذلك كان عند ولسون آمال عراض لإعادة مصر إلى الازدهار وإنقاذ الفلاحين من الأسر المالي لقد كان يعلم أن إسماعيل سوف يكون خصما عنيدا ومجردا من المبادئ الأخلاقية، ولكنه اعتمد على قدرته في التمكن من الوصول إلى اتفاق معه. وبالرغم من المثل القديم القائل "ما دام الوزير أرميني فالخراب قريب منى". *An Armenian Visier & Ruin* is near فقد وضع ثقته في نوبار (رئيس الوزراء الجديد) وظن أنه يمكن جعله يقف من ورائه ليس فقط في تأييد وزارة الخارجية ولكن الأكثر من ذلك أهمية في تأييد أسرة روتشليد، فقد نجح في إغرائهم في باريس بتقديم قرض بفائدة يقدر بتسعة مليون جنيه مصري بضمان كافة ممتلكات الخديوى، ولقد انتهى ذلك الأمر أن يكون تصرفاً مميتاً، عجل بالصدام في القاهرة.

لقد كانت الفترة القصيرة التي شغل فيها (ولسون) وزارة المالية فشلاً ذريعاً، لأنه في المقام الأول كان عليه أن يصارع ضد أصحاب القروض الأوروبيين الجشعين، كما أنه اعتمد كثيراً على نوبار الذي اكتسب شهرته كرجل أرميني كون ثروته من تلقى عمولات من مقدمى القروض من الأوروبيين، ومن ثم كان الاعتماد عليه أشبه بالاعتماد على قشة هشة. وإذا كان إسماعيل بمقتضى قرار عرف باسم مرسوم عام ١٨٧٨ سلم إدراته الشخصية للدخل إلى وزارة نوبار - ولسون، فقد كان ذلك بمثابة البديل لإعلان إفلاسه الفعلى، وكان لديه النية الخالصة للتخلص منها بأسرع ما يستطيع، ولم يكن من العسير عليه أن يثير مشاعر المسلمين ضد ولسون الذى هو أجنبى ومسيحى، خاصة أنه بدأ بعقلية المحاسب فى سلسلة التوفيرات القاسية بين الموظفين المصريين فى نفس الوقت الذى زاد فيه من مرتبات الأوروبيين، كما أن ولسون رغم كل نواياه الطيبة لم ينجح فى تخفيف الأثقال عن كاهل الفلاحين. لقد كان أساسيا أن يبقى الخديوى قادرا على الوفاء بديونه وهذا يعنى ان الفائدة على هذا الكم الهائل من الديون يجب

أن تسدد في مواعيدها تماماً(*) واستمر حكم الكرباج بلا رحمة كما كان دائماً في القرى، كما أن المسح للدخول الذي أجرى بطريقة سيئة، فسر على أنه مقدمة لفرض ضرائب أبهظ على الأرض جعل الأمور تسير إلى أسوأ. وعندما ذهب ولسون إلى تقديم اقتراح بإلغاء تنظيمات المقابلة» Moukabalah (والتي كان يعنى في الواقع أن تصدر الحكومة مبلغ ٩,٥٠٠,٠٠٠ جنيه مصري دفعها ملاك الأراضي مقدماً على ملكياتهم من الأراضي)، فقد نشأ اعتقاد أن هناك ما هو أسوأ يمكن توقعه من هذا المحاسب الإنجليزي بدرجة أكثر من ذي قبل. أما بالنسبة "لبانت" فقد بدا له أنه أمر مناف للعقل أن يقوم أي شخص ذكي وجاد مثل صديقه بإحداث مثل هذه الفوضى في الشئون. وتطرق إلى ذهنه أن بعض الإجراءات التي كان "ريفرز" يتخذها لا بد وأن تكون من اقتراحات الخديوى نفسه لكي يشوه من سمعته. وكانت قمة بلاهته إقدامه على تخفيض أعداد الجيش، وتسريح عدد كبير من الضباط دون أن يدفع لهم متأخراتهم.

يقول المثل الشرقي: "دع الخنازير تقطع حلوقها وهي لا تدري". فقد دبر الخديوى مظاهرة للطلبة وصلت حتى مكاتب الحكومة في الوقت الذي كان فيه الوزراء يغادرون مكاتبهم، وما أن وصل نوبار إلى عربته حتى أحاط به الشباب وهم يهتفون ثم شوه من شواربه، وضربوا أذنيه بقبضاتهم. عندئذ أطلق حرس الخديوى الذي كان مختبئاً وراء الكواليس — بضع طلقات فوق

(٠) صدرت هذه القوانين عام ١٨٧١ أثناء حكم الخديوى إسماعيل بهدف الحد من المصاعب المالية المتصيبة عن النقص في دخل الحكومة. وقد عرضت هذه القوانين أمام واضعي الضرائب فرصة تحقيق ٥٠% إذا ما سددوا للخزانة المصرية مبلغاً يعادل ضرائب ست سنوات مقدماً، كما شمل مزايا أكثر إذا سددت ضرائب اثنا عشرة عاماً مقدماً. وكان لهذه القوانين أثراً مدمراً إلى أن ألغيت في أكتوبر ١٨٧٩ على يد الإدارة المالية الأوربية.

رعوس التجمع، ثم ظهر الخديوى وأمر المتظاهرين أن يعودوا إلى منازلهم. وعن طريق هذه التمثيلية الهزلية Opera bouffe بدا أن إسماعيل قد نجح فى إقناع القنصلين الإنجليزى والفرنسى انه لولا تدخله ونفوذه الشخصى فإن أمورا كثيرة كانت ستحدث ونصح نوبار أن يقدم استقالته. وعين راغب باشا- مرشح الخديوى رئيسا للوزراء بدلا منه. وبعد قليل جاء الدور على ولسون ففى الثلاثين من أبريل عام ١٨٧٩ كتب إلى "بلنت" يقول: ربما تكون قد سمعت أننى قد انزعجت من جراء ذلك الخديوى الوغد التافه. أنه لم يدبر اغتيال تاما ولكن دبر عملية الهجوم على فى الطريق حيث عومت بفضاظة... إن حكومة جلالة الملكة بولاتها المعتاد لوكلائها تركتتى لعدوى».

غير ان ولسون كان أيضا يعرف المثل الشرقى، ولأن حكومته تركته فى وضع حرج ومخيب للأمال، فقد سافر عائدا إلى الوطن عن طريق باريس حيث حذر آل روتشلد من مغبة جريان أموالهم فى القاهرة، وأخبرهم أن الخديوى ينوى رفض الاعتراف بالديون كلها ، ولكى يغطى على تصرفه، سوف يعلن حكومة دستورية فى مصر — فإن لم يمنعوا حدوث ذلك فسوف يجدوا أنفسهم خاسرين. وفى ضوء هذه النصيحة تصرف آل روتشلد، وبدأوا يدعون إلى تدخل فعلى من جانب القوى العظمى، غير أن الحكومة البريطانية التى كانت تواجه المتاعب فى جنوب أفريقيا، لم تكن فى مزاج يسمح لها بالتدخل. وبالمثل كانت باريس. ولما بلغ اليأس مبلغه اتجهوا إلى "بسمارك" الذى كان دائما يوليهم عطفه ومساندته منذ أيام فرانكفورت، ثم جعلوا البريطانيين والفرنسيين يفهمون أنهم إن لم يقدروا على حماية مصالح حاملى السندات فى مصر فإن الحكومة الألمانية سوف تقوم بذلك. مما حسم الأمر.

ففى السادس والعشرين من يوليو عام ١٨٧٩ سلمت برقية من الباب العالى إلى رئيس الوزراء المصرى وكانت موجهة: "إلى الخديوى السابق إسماعيل باشا" وللحظة خانت الوزير أعصابه. ثم استجمع قواه ولف إلى مكتب الخديوى وبدون أن ترتعش عضلة واحدة من عضلاته، قرأ إسماعيل عبارة عزله، ثم اتجه بهدوء إلى رئيس الوزراء قائلا:



الخدوي إسماعيل خديوي مصر قبل أن
يعزله السلطان العثماني عام ١٨٧٩

«أرسل فى طلب الأمير توفيق! » وعندما دخل عليه ابنه، نهض وسار إليه عبر الحجرة، وبحركة رزينة رفع يد توفيق إلى شفتيه قائلاً:

— أحبيك يا سيدى الخديوى !، ثم وضع كلتا يديه على كتفه وقبله على خديه، وهو يقول: « أتمنى أن تكون أكثر نجاحاً من أبيك »، ثم غادر الحجرة.

وفى خارجها قال للوزراء: " سوف أكون أول من يطلق عليه، ويسجل اسمه فى الكتب كأول ملك على مملكة مصر الحديثة ذات السيادة.. دعنا الآن لنذهب ونلعب دورة " ترك — تراك " Tric- Trac (*)).

وبعد أيام قليلة ركب متن يخته المحروسة وأبحر إلى إيطاليا تماماً مثلما قدر لحفيدة أن يفعل ذلك بعد ثلاث وسبعين عاماً. وكان آخر تصرف قام به هو أن يملأ جيوبه بالمال السائل الذى كان لا يزال موجوداً فى الخزانة.

(*) إحدى لعبات التسلية لشبيهة بلعبة تنس الطاولة اليوم.

الفصل العاشر
إخضاع عرابي

أيها المصريون هيا
دافعوا عن دينكم
ثراؤكم قد نهب
العلم كان شمسكم
اهجروا النجوم مليا
وعن أرضكم
وأبنائكم ليسوا سوى عبيد
التي أضاعت الدنيا
واليوم أنتم في غروب

(صالح مجدى - الديوان) (*)

(٥) هو السيد صالح مجدى بك. ولد عام ١٨٢٦ بقرية أبو رجوان القبلى مركز البدرشين محافظة الجيزة. درس فى كتاب قرية فرغونة المجاورة، ثم التحق بمكتب (مدرسة) قرية حلوان وهى إحدى المدارس التى أسسها محمد على باشا عام ١٨٤١. وبعد أن أتم دراسته بها التحق بمدرسة الألسن تحت نظارة رفاعة بك رافع الطهطاوى حيث تخصص فى دراسة اللغة الفرنسية والعربية، ثم تحول إلى مجال الترجمة من الفرنسية إلى العربية التى برع فيها خاصة فى المجالات العلمية والرياضيات والطوبوغرافيا والجيولوجيا والهندسة الوصفية، ثم انتقل إلى مدرسة المهندسين ببولاق عام ١٨٤٣م، حيث عكف على ترجمات العلوم الهندسية والحربية وعلوم الميكانيكا بعدها انتقل إلى آلاى المهندسين حيث عين بوظيفة باشمتراجم وحظى برعاية الخديوى محمد سعيد باشا الذى كتب فيه العديد من قصائد المديح فى عدة مناسبات، وبعد وفاة سعيد تحول ولاؤه إلى إسماعيل باشا الذى أكثر من المديح فيه، كما مدح بعض الشخصيات سيئة السمعة مثل إسماعيل باشا المفتش.. كما مدح باى تونس المرحوم محمد الصادق الذى أنعم عليه بعدة نياشين. وبالرغم من حرص صالح مجدى على ولائه للأسرة العلوية إلا أنه كان يحث من حين لآخر أبناء الفلاحين كمصريين كان لهم يوماً ما شأن عظيم

بوجهه الرقيق الذى ينم عن الزهد، وبلحيته السوداء المتليفة، وبعاطفته المشبوبة التى تسرى فى كيانه، كان ذلك المعمم من أفغانستان ثوريا بمعنى الكلمة. فليلة تلى ليلة فى قهوة الفيشاوى بالقرب من الأزهر، كان يحيط به جمهور مبتهج من الشعراء والنحاة والطلاب والصحفيين حيث نجح جمال الدين الأفغانى فى بلورة عواطفهم إلى كلمات.

كانت رسالته واضحة، وهى: حض المسلمين على النهوض، واكتساب القوة والزعامة، حتى يتمكن المجتمع الإسلامى من اللحاق بأمم العالم المتقدمة. كان الرجل مقتنعاً بأن المصريين يملكون كل المقومات لبناء الأمة مثل الشعور الدينى العميق، واللغة ذات الجذور الضاربة فى الأرض، وكيان وتقاليد كونوها عبر القرون، غير أنه - كما أدرك - أنه ينقصهم الإحساس بالكرامة، وأنه ليس لديهم التعطش للمغامرة، وكما قال لجمهوره: بسبب خوفكم من الموت تدهور بكم الحال إلى الموت... إن سنوات الخضوع جعلت المصريين لا هدف لهم، فاترى الشعور، مستكينين، ينقصهم المثابرة ومتذللين لدرجة لا تطاق!.

ولما اشتدت ورطة البلاد تدهوراً خلال سنوات حكم إسماعيل الأخيرة المشؤمة، بذر الأفغانى أولى بذور الوطنية القومية، وبالفعل شرع فى محاولة منظمة لتأليب الشباب على السلطة، وبدأ الوطنيون من الشباب يوزعون فى الشوارع ليلاً منشورات غير موقعة تهاجم الخديوى، والطبقة التركية الحاكمة، ولقد وجدت احساساتهم بالإحباط متنفساً فى نظم الشعر مثل تلك المنسوبة إلى صالح مجدى:

ويحث جيش الخديوى على الكفاح والجهاد لرفعة الدين والوطن وقد بحث فى ديوانه الذى نشره ابنه محمد مجدى بك بعد وفاته بالمطبعة الأميرية ببولاق المحمية عام (١٨٩٤م / ١٣١١هـ)، عن ترجمة للأبيات التى أوردها المؤلف بالحرف الواحد فلم أجد، وقد استعنت بالأستاذ الدكتور عبد اللطيف عبدالحليم الأستاذ بدار العلوم والمتخصص فى شعر هذه الفترة، فنصحتنى بالترجمة الحرفية لما ورد عن المؤلف وإلقاء المسئولية عليه فربما نشرت هذه الأبيات فى مناسبات خاصة. (المترجم).



ولفريد سكافن بلنت' (١٨٤٠ - ١٩٢٢) شاعر
وأديب وسياسي بريطاني، تزعم الدفاع عن مصر
والعرب وتحدي السياسيين الإنجليز الاستعماريين في قمة
التطرف الوطني البريطاني وكان صديقاً لأحمد عرابي
(قاعة عرض اللوحات الوطنية بلندن National Portrait

(Gallery)

« لقد زجوا بوطنكم إلى الجحيم... ليستمتع النذل اللئيم، وأموالكم قد بعثرت على الخطاة والبلغايا... الرجل عادة تكفيه زوجة أما هو فيبغى مليون زوجة والرجل عادة تأويه دار أما هو فعنده تسعون داراً. أيها المصريون هناك عار من حولكم. فاستيقظوا استيقظوا ».

ومن بين مختلف الطلاب الذين واطبوا على حضور دروس الأفغاني، لم تسحر بلاغة الشيخ أكثر مما سحرت محمد عبده. فيما بعد عندما أصبح كبير فلاسفة عصره، وصف الأفغاني بوصف يكاد أن يكون صوفياً، كولي من أولياء الله الصالحين وكمخلص، وعندما انتهى الأمر بالقيض على الأفغاني وطرده من البلاد. كانت آخر كلماته على أرض مصر: إني أترك لكم الشيخ محمد عبده.. فهو يكفي مصر.

وفي سبتمبر من عام ١٨٨٠، عين محمد عبده رئيساً لتحرير الجريدة الرسمية الوقائع المصرية. وخلال وقت وجيز، تمكن من تحويل هذه الجريدة الكئيبة - لسان حال السلطة - إلى أداة لتوعية الرأي العام، فكان يصبر على أن يكون المساهمون فيها من نوى المستوى الأدبي الراقى، مما أتاح للجيل الجديد من المصريين فرصته للتعبير الواضح والناضح. وكان يعظ أنه من الضروري أن تتم الإصلاحات الداخلية في مصر بمجهوداتها الخاصة. أما تطلعاته للتعبير فكانت تتأرجح بين فكرة المستبد العادل (هل يا ترى يبرز مستبد عادل في الشرق؟)، إلى إيضاحات عن متطلبات الديمقراطية: إن الخطوة الأولى لتحقيق قدر معين من الحرية يتمثل في تكوين المجالس القروية، ثم يتلوها بعد بضع سنين المجالس البلدية شريطة أن لا تكون وسيلة لسيطرة هذا أو ذاك، بل تكون مصدراً للأراء ووجهات النظر، بعد ذلك يجيء التمثيل البرلماني، وعند الضرورة لم يتردد في أن ينتقد الحكومة ذاتها. فقد وصف مرة الجيش بأنه يقوده عساكر نوى عقلية بلهاء! «.

كان هذا هو الزاد والزواد لبعض الضباط المصريين من أبناء البلد. فقد كانوا غاضبين ليس من مسلك الأجانب فحسب، بل كانوا ساخطين من الترف

وكذلك من المحاباة والتّحيز الذى يظهر بوضوح تجاه الأتراك والشراكسة. وعندما وقعت الهزيمة المهينة فى الحبشة تلاها الإجراء الاقتصادى الصارم الذى قام به ريفرز ولسون والذى خفض بمقتضاه إلى النصف رواتب ٢٥٠٠ ضابط، وسرح عدداً آخر لا حصر له، وزاد على ذلك كله تعيين عثمان رفقى - وهو جركسى سىء السمعة ومعدوم الجماهيرية - وزيراً للحربية: مما أوصل غيظهم إلى درجة الغليان. فقد بدأت مجموعة من رتب الجيش من الشباب تجتمع من آن لآخر فى بيوت بعضهم البعض فى محاولة للتخطيط لوضع نهاية للمحاباة نحو العناصر التركية فى الجيش حتى وإن استدعى الأمر عزل الخديوى. وعندما نما إلى علمهم ذات مساء أنهم فى طريقهم إلى التسريح، قرروا أن يتجه قائدهم البكباشى أحمد عرابى (*) مباشرة إلى رئيس الوزراء ليقدّم التماساً^(١٦).

غير أن رد الفعل من جانب رئيس الوزراء لم يكن مشجعاً بتاتاً، إذ تحدث إليهم بلهجة خشنة وحذرهم أن مثل هذا العصيان جريمة تستوجب الإعدام شنقاً، ثم أضاف بلهجة شديدة السخرية: هل فى نيتهم أن يغيروا الحكومة ولو كان ذلك كذلك فىمن ينوون استبدالها؟ فرد عرابى: هل مصر امرأة عاقر لم تتجب سوى ثمانية أبناء؟ وهو فى ذلك يشير إلى رئيس الوزراء وأعضاء حكومته السبعة، عندئذ لوح رئيس الوزراء له بيده غاضباً لكى يخرج من مكتبه. وهنا بدأت فصول الدراما تتوالى.

فبعد أيام قلائل، استدعى البكباشى الثلاثة الذين كانوا قد وقعوا على العريضة إلى ثكنات قصر النيل على زعم التخطيط لإقامة استعراض بمناسبة زواج إحدى الأميرات، وما أن وصلوا إلى هناك حتى ألقى القبض عليهم، وجردوا من أسلحتهم. وبدأت محاكمة عسكرية عاجلة. وكان عرابى يؤكد دائماً أن النية كانت معقودة على وضعهم على ظهر باخرة تقف خارج الثكنات، وتلقى بهم فى هدوء فى النيل بعد وضع أثقال حول أقدامهم. غير أن

(٥) كان أحمد عرابى « أمير الاى » وليس « بكباشى » (المراجع).

« الميرالايات » كانوا قد أخذوا حذرهم، فلم يظهروا فى الوقت المحدد، بينما قامت جنود فرقهم بالسير إلى التكنات حيث اقتحموا المحكمة العسكرية. وكان على القادة الشراكسة أن يشقوا طريقهم متقهقرين بطريقة مهنية، فقد هرب عثمان رفقى من خلال فتحة نافذة فى حين سار عرابى وأصدقائه على رأس قواتهم عائدين منتصرين.

هكذا حاول عرابى أن يسبق التاريخ إلى حد ما بطريقة خرقاء ولكن درامية. لقد كان صورة نموذجية للفلاح، فارع القامة، ثقيل الأطراف، بطئ الحركة، وكما صورتها كلمات (ولفريد بلنت): إنه يعتمد على القوة الجسمانية الضخمة التى هى صفة لفلاح الدلتا الكادح... لقد كان هناك تصنع فى حركاته لكى تعطيه ذلك الوقار الذى تراه عند مشايخ القرى وأحياناً كانت تبدو فى عينيه نظرة الحالم شارد الذهن غير أنه حين يبتسم كان يعلو وجهه إشراقة شديدة التواضع كإشراقة الشمس على منظر طبيعى معتم .

لم يكن عرابى فى عيون الطبقة التركية الحاكمة سوى مجرد فلاح جلف من النوعية التى سيطروا عليها لقرون عديدة. وفى البداية شك فى أمره حتى مصلحو الأزهر من رجال الفكر على أنه قوة سياسية، لكن بالنسبة لطبقته من الفلاحين فقد كان بطلاً على شاكلتهم وواحداً منهم.

لقد كانت ثورة ١٨٨١ فى المقام الأول حركة للفلاحين المصريين من أهل البلاد الأصليين موجهة ضد طبقة رجال البلاط الأتراك الذين تسببوا فى خراب البلاد، كما وجهت أيضاً كراهيتها نحو الأوروبيين بعد أن انحازت السيطرة الأنجلو - فرنسية علناً إلى جانب توفيق.

لقد قادت محاولات إسماعيل لتحويل وادى النيل إلى قطعة من أوروبا، وتزايد تدخل القوى الأوروبية بعد عزله، إلى قيام تحالف غريزى بين السياسيين الأحرار من أعضاء الجمعية الوطنية، وبين الضباط الذين ينحدرون من أصول مصرية فى الجيش، وفى مواجهة الإحباط الناتج عن إغلاق مجلس النواب الذى كان قد بدأ تدريجياً يتحول إلى ساحة للوطنية المصرية، اتجه الوطنيون من السياسيين إلى الجيش باعتباره القوة الوحيدة

القادرة على الحفاظ على الحريات فى البلاد فى مواجهة أوروبا والخيوى. وبرز أحمد عرابى كزعيم الوطنيين المصريين الأول، غير أن حركته كانت تمثل أبعد بكثير من مجرد تحالف مؤقت بين ضباط الجيش الساخطين والسياسيين الأحرار: لقد كانت الشرارة الأولى لليقظة الوطنية التى استمدت قوتها من قلب وروح أرض مضطربة، سلبية، وتواكلية.

فى البداية سائر توفيق المتمردين، فطرد عثمان رفقى، وبالتالي قبل قسم الولاء له من جانبهم. غير أن شهر العسل بين الخيوى والبكباشية كان قصيراً. فما أن جرؤ، حتى عين توفيق زوج شقيقته وزيراً للحربية، وقام بنقل عرابى إلى الإسكندرية والبكباشيين الآخرين إلى الأقاليم.

وببساطة رأى عرابى أن فرصته قد حانت ساعتها أو لا فرصة إلى الأبد، فلو قبلوا أن يبعدوا عن القاهرة، سوف يسهل إخضاعهم، وأحسن ما يتوقعونه هو طلاقة رصاصة سريعة أو إغراق فى النيل. ويتذكر عرابى الأحداث التى وقعت صباح أحد أيام سبتمبر عام ١٨٨١: لقد كتبت خطاباً يتضمن مطالبنا، وبعثت به إلى الخيوى أقول فيه. أننا سوف نقوم بمسيرة إلى قصر عابدين... كى نتلقى رده ؛ عندما وصل الخيوى... وجدنا نحتل الميدان، وكانت المدفعية والفرسان أمام المدخل الغربى بينما، أنا وقواتى أمام المدخل الرئيسى... نادى على الخيوى أن أترجل وترجلت، ونادى على أن أضع سيفى فى غمده ووضع سيفى فى غمده، غير أن أصدقائى من الضباط اقتربوا منى لمنع وقوع غدر أو خيانة، كان عندهم ما يقارب الخمسين، وبعضهم وضعوا أنفسهم بينى وبين القصر.. وعندما سلمت الرسالة وعرضت مطالبى الثلاثة على الخيوى، قال: أنا الخيوى وسوف أفعل ما يحلو لى . وردت على ذلك بقولى: اسنا عيداً ولن نعامل بعد اليوم بهذه الطريقة ولم ينبس ببنت شفه، إنما استدار ورجع إلى القصر .

إن عرابى كرجل ثورى - كما يتضح من روايته على الأقل - كان يبدو معتدلاً بما فيه الكفاية.

وكما يبدو الموقف من الجانب المقابل، ومن خلال عيون السير اوكلاند

كولفين Auckland Colvin فإن ما حدث كان يكفى ويزيد بالنسبة لتوفيق الجبان. فمنذ الصباح الباكر كان كولفين يحثه على اتخاذ خطوة قوية ضد عرابي، غير أن الخديوى الذى كان يصيح كصياح الدجاجة المذعورة قضى يومه (يكاكى) ويدور من حوله منتقلاً من وحدة الحرس الخديوى إلى أخرى ليتأكد من ولائهم له - وفى النهاية اضطر كولفين - وهو رجل متخصص فى التعامل مع المواقف التى تتطلب الحذر إلى إخراجهم من هذا الموقف. وعندما خرجا أخيراً من القصر قال للخديوى: عندما يقدم عرابي نفسه أطلب منه أن يسلمك سيفه. ثم أصدر أوامرك إلى قواته لتتفرق ثم تجول حول الميدان مخاطباً كل وحدة على حدة ثم أعطهم أمر الانصراف .

كانت المباني التى تحيط بميدان عابدين مكتظة بالمتفرجين عندما قدم عرابي فوق صهوة جواده. وهمس كولفين فى أذن توفيق المضطرب: «أطلب منه أن يترجل»: فقال توفيق: انزل! فنزل عرابي، وتقدم ماشياً على قدميه يتبعه الحرس وحراب بنادقهم مسددة، بينما أمسكت الجماهير أنفاسها، وهنا همس كولفين: الآن جاءت فرصتك فرد الخديوى توفيق: «ولكننا محاطين بأربعة نيران.. سوف نلقى حتفنا فرد كولفين: أأمره أن يضع سيفه فى غمده ونفذ عرابي الأمر بعد أن أدى التحية، ثم عرض مطالب إقالة الوزراء، وعودة مجلس النواب إلى الاعتقاد، وزيادة عدد الجيش إلى ٨٠٠٠ رجل وفى نفس المساء وافق توفيق عليها جميعاً.

وقد أظهر كولفين فى مذكرته التى رفعها إلى وزارة الخارجية مشاعره حول هذا الأمر إذ كتب يقول: ليس هناك من سبب يجعلنا نعتقد أن أحداً آخر غير هؤلاء الضباط أنفسهم هم المسئولون عن الحركة. لقد كانت مظاهر عسكرية بحتة. ولم يؤثر فى نفسى شيء بالأمس أكثر من عدم إبراكهم العميق بالأخطار التى سوف يجلبونها على أنفسهم.. أنهم فاقدوا البصيرة لعدم إبراكهم لتصرفهم .

ربما كان ذلك حقاً، غير أن مصر استيقظت فى صباح اليوم التالى لتكتشف أن ما حدث لم يكن مجرد حركة تمرد، بل ثورة. وكتب (ولفريد

بلنت): ودوت عبر مصر كلها صيحة من الفرح والابتهاج لم يسمع مثلاً منذ مئات السنين على ضفاف النيل فقد كان الناس يوقفون بعضهم البعض في شوارع القاهرة دون أن يعرف بعضهم بعضاً ليعانق كل منهم الآخر معبرين عن فرحتهم جميعاً لهذا الحكم الجديد المفاجئ، وللحرية والتي تدعو للإعجاب الذي بدا لهم.

لقد عين عرابي وزيراً للحربية في حكومة رئيس وزراء من اختياره، ولم يكن هناك أدنى شك في أنه قد أصبح الآن القوة الحقيقية في مصر، فقد أعلن عن ولائه الخالص للخدوي (طالما وفي بوعده)، لأنه كان يرى نفسه ممثلاً للجيش القوة الوطنية الوحيدة التي تقف بين مصر وحكامها من الأتراك. كما كان الراعي لمصالح الشعب. وكما شرح ذلك بقوله إن وضعنا نحن معشر العسكر كوضع هؤلاء العرب الذين ردوا على الخليفة عمر عندما تقدم به العمر، وسأل الناس عما إذا كان قد اتبع طريق العدل المستقيم. فأجابوه ملتويًا: «يا ابن الخطاب. إنك قد سرت حقاً في الطريق المستقيم. وأنا لنحبك، غير إنك تعلم أننا جاهزون مستعدون إذا ما سلكت سلوكاً معوجاً فإننا سوف نقومك بسيوفنا (*)».

وبالرغم من كل نوياء الطيبة، لم يكن لدى عرابي برنامجاً أبعد من التطلعات العامة والمثالية إلى حد ما من قبل الوطنيين لذلك قام محمد عبده ولقريد بلنت قرب نهاية العام بالتعاون معه في رسم خطوط وثيقة أطلق عليها

(*) روى عن عمر بن الخطاب أنه قال يوماً على المنبر: يا معشر المسلمين ماذا تقولون لو ملئت برأسي إلى الدنيا كذا - وميل رأسه - فقام إليه رجل فسل سيفه وقال: أجل كنا نقول بالسيف كذا - وأشار إلى قطعه. فقال: إياي تعنى بقولك ؟ فقال: نعم إياك أعنى بقولي فنهره عمر ثلاث وهو ينهر عمر: رحمك الله. الحمد لله الذي جعل في رعيتي من إذا تعوجت قومني (خرجه الملاء في سيرته) عن كتاب: الرياض النفيرة في مناقب العشيرة لأبي جعفر أحمد الشهير بالمحب الطبري، الجزء الأول طنطا ١٩٥٣، ص ٦٦ (المترجم).

(برنامج الحزب الوطنى المصرى). وهذه الوثيقة أقرت بالخدمات التى أدتها الحكومتان الإنجليزية والفرنسية لمصر، بل حتى اعترفت بأن كل مظاهر الحرية والعدالة التى تم الحصول عليها فى الماضى كانت بفضلهم وأعلنت إن الحزب الوطنى يعترف بالسيطرة الأوروبية كضرورة بالنسبة لوضعنا المالى، وأن استمرارها هو أفضل الضمانات لرخائنا، ونعلن ذلك كأمل من آمالنا أن نخلص بلادنا تدريجياً من براثن أصحاب الديون.»

وقام (بلنت) بإرسال هذه الوثيقة إلى جلاستون Gladstone على أمل أن يباركها بما عرف عن تعاطفه مع شباب الوطنيين الذين يكافحون من أجل الاستقلال، ومهما كانت تقبع عواطف جلاستون الشخصية. فقد كانت هناك ضغوط خارجية لا يمكن تجاهلها، فالسلطان كان يرغبى ويزيد فى القسطنطينية، وأصحاب الديون كانوا يحثون على اتخاذ خطوة، كما كانت هناك مفاوضات وتنازلات بارعة تتم مع الفرنسيين.

كان جامبيتا Gambetta يسن سكاكينه لمواجهة الثورة الإسلامية فى كل من تونس والجزائر. فقد كان منزعاً من الطابع العام لهذه الحركة، ورأى أن بعضاً من تأثيرها بدأ يتحرك فى مصر. وقال يجب على إنجلترا الانضمام إلى حملة صليبية حضارية - كما أطلق عليها - للحفاظ على الوضع القائم فى مصر. والذى بمقتضاه كان يعنى التنظيمات المالية القائمة (كان جامبيتا من خلال أصوله اليهودية على اتصال وثيق بأسرة روتشيلد وآخرين) أما صيغة التدخل التى كانت فى ذهنه فهى أن ترسل إنجلترا أسطولاً إلى الإسكندرية، بينما ترسو القوات الفرنسية براً.

وعلى الجانب الآخر كان الهوايتهول مثلهفاً على تجديد المعاهدة التجارية مع فرنسا والتى كانت مدة سريانها على وشك الانتهاء، كما أن السير تشارلز ديلك Charles Dilke الذى كان يقود المفاوضات، أخبر جامبيتا مبتهجاً: أنه على استعداد لإدماج مصر فى معاهدته التجارية.

ولو قدر لجامبيتا ألا يسقط بعد ذلك بقليل بفارق صوت واحد معارض حول موضوع مختلف، لربما قام الفرنسيون بغزو الدلتا، ولكان تاريخ مصر

قد اتخذ مساراً مختلفاً جذرياً، وكنتيجة لذلك حصل ديلك على معاهدته، كما حصل على حملته الصليبية في شكل منكرة مشتركة نكرت بصراحة أن «الحكومتين تعبران أن بقاء الخديوى على العرش هو وحده القادر على ضمان النظام والرخاء لمصر وأنهما ينويان مراقبة مجهوداتهما المشتركة في مواجهة كل أسباب التعقيد، في الداخل أو الخارج والذي من شأنه قد يهدد النظام القائم في مصر.

لقد كان واضحاً ما كان يعنيه جامييتاً بذلك، فقد كانت قد تشكلت قوة لحملة عسكرية في طولون، أما ما كان يعنيه جلاستون كان يمكن لأي أحد تخمينه منذ أن أضاف خاتمة للمذكرة بطريقة غامضة تقول: إن حكومة جلالة الملك يجب ألا تفهم على أنها تلزم نفسها بخصوص ذلك بأي شكل معين من أشكال التصرف غير أن التشابه المحزن لأسلوب موليه Mollet وهو الضرب بالعصا، وتنبذب تصرفاته كما حدثت في ظروف مشابهة بعد ذلك بأربعة وسبعين عاماً كان في آخر الأمر واضحاً كل الوضوح باستثناء أنه في عام ١٨٨٢م، كانت كل من بريطانيا وفرنسا في أوج قوتها الاستعمارية.

أما في مصر فقد كان تأثير ذلك كارثة، ففي صباح اليوم الذي أعلن فيه عن نص المذكرة، قام ولفريد بلنت بزيارة عرابي في الوزارة، ولأول مرة كما يتذكر، وجد عرابي يتأجج غضباً: فقد كان وجهه مثل الصاعقة، وكان في عينيه وميض غريب فقد فاجأ الإعلان عن أن سياسة بريطانيا وفرنسا واحدة تجاه ذلك الجندي الفلاح، لأن تلك يعنى أنه مثلما غزت فرنسا تونس، فإن من حق بريطانيا أن تغزو مصر، ثم أضاف بوجه عابس: دعوهم يأتون.. إن كل رجل وطفل في مصر سيقاثلهم.. أن نبدأ بالضربة الأولى أمر مناف لمبادتنا، لكننا نعرف كيف نرد الضربة.

لقد كان هناك ضجة تحدث في مكان ليس يبعد. ففي القاهرة كان الصدع بين المصريين الثوريين، وبين طبقة بلاط القصر التركية أخذ في الاتساع، وكانت تشير الغبار الرملية مثلما تفعل رياح الخماسين (تلك الرياح الجنوبية غير المريحة والتي تنفذ إلى كل فتحة من مسام جسم كل إنسان)، أما

الأوروبيون سريعو الفهم فقد كانوا يتوقعون شن حملة وحشية ضدهم فى أى لحظة.

وفى لندن بدأت الصحافة حملة منسقة ضد عرابى، صورته فيها ككائن متعطش للدماء ومتعصب خائن. وعندما يقرأ الإنجليز وهم يتناولون إفطارهم من الخبز المقدد والمربى أن عرابى الذى هو الآن باشا قد سحق مؤامرة اغتيال دبرها له بعض الضباط الأتراك، وأنه حالياً يجند فرقة جديدة للمقاومة الوطنية ضد التدخل البريطانى، فإن إقناعهم بأن حركة تمرد أخرى مثل تلك التى قامت فى الهند، وأن مذبحه للإنجليز، يعد لها لن تحتاج إلى وقت طويل. فقد ألقى أحد القسس عظة فى الريف قال فيها: يجب تدمير عرابى بدانة مدفع واقترح أحد اللوردات المتقدمين فى العمر « أن تذهب مجموعة من كبار القناصة لشنق ذلك الوغد » ووجد ولفريد بلنت أنه دائماً: على خلاف مريز مع أصدقائه بخصوص مصر . ولذا قام بنفسه بعرض موضوع عرابى على جلادستون.

غير أن رأى العام كله لم يكن متحيزاً ضد المصريين، فقد أصدرت الجبهة المعادية للعدوان Anti Aggression League نشرة أوضحت فيها أنه بينما ليس من واجب المواطنين العاديين أن يتدخلوا فى الشئون العامة، إلا أن عليهم أن يصروا أنه يتوجب على الحكومة ألا تجر الأمة إلى حافة الحرب وأن تتصنع أزمة مع شعب أجنبى بدون سبب مشروع كما أرسل حاكم سيلان السابق إلى جريدة التايمز The Times رسالة مطولة يرجو بالتصرف العادل مع الوطنيين ويقول فيها: إننى اعتقد أن الزعيم عرابى رجل أمين ووطنى واعتقد أنه لا توجد سياسة أكثر وضوحاً لإنجلترا من تأييد ودعم الحكومة المصرية القائمة، وأنها سوف تكون آسفة بالنسبة لمصالحنا لو أنها فشلت والحقيقة أنه كلما تزايدت المؤامرات والشائعات والأحداث نشأ إحساس إما لصالح عرابى أو ضده بنفس القدر الذى كان فى إنجلترا وفى مصر. وأخيراً لجأت القوى إلى خططها التقليدية: فقد بعثت بأسطول مشترك إلى الإسكندرية تحت قيادة (بو شامب سيمور) Beauchamp Seymour. وطلب من عرابى أن يستقيل ويغادر البلاد!.

وفى السابع والعشرين من مايو استجابت الحكومة الوطنية باستسلام كاف لتجد نفسها تعاد إلى السلطة عن طريق انتفاضة شعبية عفوية فى القاهرة. وفى ظروف كانت فيها الإدارة العامة للحكومة فى حالة تفكك، بمعنى أن التعاون مع رجال الخديوى والقصر كان قد انتهى فعلاً، لم يصبح عرابى دكتاتورا عسكرياً فحسب، بل بطلاً قومياً بالمثل. وأطلقت صحف القاهرة صيحة تطالب فيها بإحياء الإسلام واستقلال مصر ؛ ولما وجدت الجالية الأوربية نفسها وقد تملكها الذعر، ولت هاربة إلى الإسكندرية لتكون فى مأمن تحت حماية الأساطيل الحربية المتحالفة. ولما كان عرابى يحاصر بالمطالب المحمومة أينما ذهب، فقد بدأ يستعد للحرب، وأشتعل القتيل فى تلك اللحظة: وأصبح حدوث الانفجار مجرد وقت بكل معانى الكلمة. وفى العاشر من شهر يونيو اندلع الشغب العنيف فى الإسكندرية.

كانت المدينة فى عام ١٨٨٢ يونانية أكثر منها مصرية، فقد كان يسكنها جاليات كبيرة من رجال الأعمال من بلدان البحر المتوسط، كثير منهم مرابون، واختفى الود الضئيل الذى كان قائماً بين الأوروبين والمصريين. ومن الطبيعى أن يصل هذا الإحساس المرير إلى ذروته بوصول أسطول الحلفاء لحماية المصالح الأوربية، وفى هذا الجو المعبأ كان حدوث شجار فى الشارع بين رجل من مالطة وصبى حمار حول قرش صاغ كافياً لتفجير الموقف. فبعد ذلك بساعة انفجر الغضب فى المدينة. واندفعت الغوغاء وهى تصرخ وتتهب، وعند نهاية اليوم عندما استعاد عرابى النظام بحزم، كان هناك بضع مئات من الناس إما قتلى أو جرحى. وقد أصيب القنصل البريطانى بجرح خطير، أما القنصلان اليونانى والإيطالى فقد لقيا معاملة جافة، وبدا الوضع كما قال العالمين ببواطن الأمور فى الهوايتهول أن مصر فى حالة فوضى شاملة. وأنه يجب القيام بعمل حازم، لأن أى هزيمة لوزارة الخارجية لن تكون سوى فضيحة كبرى. لقد طلب من عرابى أن يغادر البلاد ولم يمثل للأمر وبدلاً من ذلك راح ينظم أعمال الشغب، ثم يقوم بقمعها كاستعراض لقوته، فقد كانت شهرته تتزايد فى الشرق على حساب بريطانيا، ولو ترك ليستمر لكان فى الإمكان حدوث ثورة إسلامية شاملة فى الهند. كان

الموقف لا يحتمل، وكانت هناك ضرورة قصوى لاتخاذ إجراءات قوية.

فى ذلك الوقت كان جامبيتا قد استقال، وكان الفرنسيون يتراجعون، وأصبح الوضع يتوقف على إنجلترا وحدها، ولما كان جلاستون ممزقا بين اقتناعاته الشخصية وبين « شوفينية » زملائه المتطرفة، فقد بذل أقصى ما يستطيع لتجنب اتخاذ قرار. ولذا قرر «أن يترك الأمر للرجل الموجود فى الموقع».

كانت مدافع السير بوشامب سيمور فى حالة استعداد فى ميناء الإسكندرية، ويتذكر رجل سويسرى عجوز من المقيمين أنه كان يشاهد الأميرال فجر كل يوم على ظهر السفينة مرتدياً قميصه الصدفى الضيق غير العسكرى، وتبرز قدماء الحافيتان من سروال بيجامته، ليعاين التحصينات المصرية. واستطرد مواطن: « اتحاد برن » بصوت أجش ولأنه كان رجلاً ريفياً فقد كان من الصعب عليه أن نتوقع من جانبه معرفة بروتوكول التواجد على مؤخرة السفينة: « كان السير بوشامب يلعب لعبة "دورة جوبيتر" ويثير رعب الجميع وهو يقسم بأغلظ الأيمان » أما الحقيقة فقد كان الأدميرال ينتظر حتى يتم جلاء كل الأوروبيين قبل أن يفجر التحصينات إلى شظايا.

وفى العاشر من يوليو أرسل إنذاراً إلى عرابى: « سلم القلعة خلال أربع وعشرين ساعة أو أننا سوف سنطلق النار ». وقد رد الخديوى على ذلك - تحت تلقين عرابى - باحتجاج مهذب ولكنه حازم، وذلك قبل أن ينسحب من منطقة الخطر (حيث قضى اليومين التاليين وهو يناقش عما إذا كانت كرامته تسمح له أن يلجأ إلى سفينة حربية بريطانية التى ربما تتعرض للإغراق). أما السفن الأجنبية فقد أدارت ماكيناتها البخارية، وخرجت إلى عرض البحر، وهى تطلق صفاراتها بشكل رسمى تحية لسفينة القيادة البريطانية، بينما قامت الفرقة الموسيقية الخاصة بالإدميرال بعزف النشيد الوطنى المناسب لجنسية كل سفينة تمر عبرها. وكان آخر من غادر السفن الفرنسية.

وعند فجر اليوم التالى بدأ القصف.

ومن قلعة العجمى (حيث يمتلك الآن ذوى اليسار من أبناء المنطقة «شاليهات صغيرة لقضاء عطلة نهاية الأسبوع) حتى منطقة السلسلة (حيث كان يوجد قصر بطليموس قديماً، وحيث يخطط الآن لإقامة هيلتون الإسكندرية فى نفس الموقع) (*) كانت القذائف تنهال. وقد ردت الخمس عشرة قلعة على النيران بكل ما استطاعت من قوة. ولكن لم يكن هناك أدنى شك فى نتيجة ذلك، وقد جاء فى تقرير سيمور إلى قيادة البحرية: « أن المصريين قد حاربوا بشجاعة وعناد وهم يردون على جحيم النيران من مدافعنا الثقيلة حتى بدوا كما لو كانوا قد هلكوا جميعاً. وعند الساعة الخامسة والنصف من بعد ظهر اليوم، كان أكثر من ألفى مصرى قتلى، والقلاع حطام».

ولم تلتهم النيران القلاع وحدها فحسب، بل التهمت الإسكندرية ذاتها عندما تهاوت عليها القذائف التى تسبب عنها اندلاع الحرائق. وقامت الغوغاء بدورها بإشعال النيران ونهب كل شيء وقع عليه بصرهم. وسرعان ما احترق الحى الأوروبى عن آخره. واندفعت عصابات قطع الرءوس من مبنى إلى مبنى يمزقون كل شيء يصل إلى أيديهم، وينشرون الحرائق عن طريق القطن المشبع بالبرافين. وفى الصباح الباكر لليوم التالى بدأ موكب حزين من العربات التى تقعع عجلاتها وعليها أكوام من الجثث تتجه نحو الجبانات، ومن خلف كل عربة سار جمع من النسوة وهن يولولن. وكان القنصل اليونانى أول من رسا إلى البر بعد توقف القصف ويتذكر ذلك قائلاً: " كان الرعب يملكنا فى كل خطوة أن نحاصر تحت حطام المنازل المشتعلة التى كانت تنهار فى الطريق محدثة دويماً عنيفاً.. وكانت كل الحوانيت قد نهبت، وكان الطريق مملوءاً بالعلب والصناديق التى تركها النهابون بعد أن ذهبوا. وكان هناك خمس أو ست بيوت فى الشارع مليئة بفجوات أحدثتها قذائف مدافع الأسطول البريطانى ". وكان شهود العيان مذعورين من حجم الخراب. وأعلن مدير شبكات المياه الإنجليزى أن كثيراً من الشوارع أصبحت لا يمكن

(*) تم إقامته فعلاً بعد ذلك وهو هيلتون المنتزه.

السير فيها. وحتى للشخص الذي يعرف المدينة جيداً لم يكن من السهل عليه أن يجد طريقه فيها". وقال: "إن الشيء الوحيد الذي بقي على حاله في وسط المدينة هو تمثال محمد علي، فيما عدا ذلك كل شيء كان حطاماً أسود اللون، حتى الأشجار آتت عليها الحرائق».

ولقد أسفر القصف عن انشقاق ظاهر بين حزب القصر وبين الوطنيين، فحتى هذه اللحظة كان عرابي يتصرف ولو اسماً تحت سلطة الخديوي، ولكن لما شاهد توفيق بنفسه من فوق سطح قصره في الرمل أن البريطانيين يعنون ما يقولون، لم يضيع وقته ليضع نفسه تحت الحماية البريطانية وتحت حراسة سرية من جنود الأسطول، ثم أصدر بياناً أعلن فيه أن عرابي متمرّد، ثم جلس ينتظر هزيمة رعاياه!.

وفي أثناء ذلك انسحب عرابي وجيشه إلى موقع قريب من كفر الدوار والذي تحول إلى مقر لقيادة الحزب الوطني. ولكن يبدو أن أغلب وقته ضيعة في الاستقبالات. فقد كان هناك سيل لا يتوقف من العلماء والمشايخ والأعيان من كل الفئات يتدفق على الخيمة الكبيرة التي كانت يوماً ما خاصة بسعيد، ثم أهدتها أرملة نائب السلطان إلى عرابي. وقد لاحظ نينييه Ninet(*) السويسري الممثل لهيئة الصليب الأحمر وجود زوار من مناطق بعيدة كالحجاز واليمن. وكان عرابي يأمل في الحصول على تأييدهم، وبالرغم من أن قوة بريطانية بقيادة الجنرال اليسون Allison كانت قد تقدمت خلال شهر أغسطس من الإسكندرية إلا أنها ردت على أعقابها خاسرة، غير أنه من الملاحظ أن قليلاً من الاستعدادات أعطيت لمواجهة هجوم القوات الرئيسية التي كان يقودها الجنرال وولسلي Wolseley. ولقد تلقى عرابي تحذيراً أن البريطانيين قد يأتون من ناحية القناة ليتلف حول موقعه، لكنه صدق دي يلسبس عندما وعده بأنه القناة سوف تبقى محايدة، ورفض أن يعطى أوامره النهائية بردم القناة حتى أصبح الوقت متأخراً. وكانت تلك غلطته الكبرى، فقد سجل وولسلي في

(*) نينييه Ninet صاحب كتاب معروف عنوانه « عرابي باشا Arabi Pasha » (المراجع).

تقريره: " لو نجح عرابي في ردم القناة كما انتوى، لكننا حتى هذه اللحظة نحاصر مصر من أعالي البحار.. لقد أنقذتنا أربع وعشرين ساعة".

وبينما كان « نينيه » يتجول حول المواقع المصرية خلال شهرى يوليو وأغسطس شديدى الحرارة، صدم فى الواقع من عدم المبالاة أو بالأحرى وجهة النظر القدرية لجيش الفلاحين، فبخلاف إقامة بعض الاستحكامات القليلة من الطين، لم يأخذ المصريون سوى القليل من الحيلة، صحيح أنهم كانوا يقومون بالتسلل خلف الخطوط البريطانية ليلاً، ولكن ذلك فقط من أجل أن يروا ما يقدرون على سرقة. وما أن يعودوا ومعهم بعض البزات النظامية لجنود الفرسان (الهوسار Hussar) والخوذات البيضاء ذات الطرف المدبب، حتى ينفجروا من الضحك وهم يرتدونها، وأكثر ما كان يضحكهم أن البريطانيين يتجردون من ملابسهم قبل النوم تماماً، ولكنهم عموماً كانوا يقضون ليلالى الصيف يستمعون إلى القرآن الكريم أو يجلسون فى دوائر ويطلقون النكات.

وفى الثانى عشر من شهر سبتمبر تلاشت ضحكاتهم فجأة، إذ قام جيش الجنرال وولسلى الذى جاء عن طريق قناة السويس بالتسلل ليلاً لأكثر من سبعة أميال فى الظلام الدامس لبياعتهم فجأة. لقد كانت معركة التل الكبير التى حسمت مصير مصر لجيلين أو أكثر، أقصر ما سجلت الوثائق، إذ يروى السير وليام بتلر Willam Butler: « لقد هبطنا عليهم هبوط الصاعقة على رجل نائم إذ استغرق الأمر كله خمس وثلاثون دقيقة». وربما كان أول علم للمصريين بالهجوم كان التدفق المفاجئ عندما قام رجال الحرس الأسود بالهجوم على التحصينات الطينية وقد خفضوا رءوسهم وسددوا حراهم التى هى فى مقدمة بنادقهم. وبالرغم من أنهم أخذوا على غرة إلا أن المدافعين ردوا على النيران بغضب « ويذكر أحد جنود السرايا إنه: " بينما اندفع جنود الفرقة ٤٢ نحو الخنادق كالنمور، وبينما كانت الطلقات تدوى وتصفر وتترز أزيز النحل وهى تتطلق، واللحظة قصيرة كان هناك قتال السنكى للسنكى لقد حارب المصريون كالمجانين «، ويعبر الجنرال الليسون عن دهشته قائلاً: " لقد كان رجال المدفعية المصريون جادين لدرجة أنهم كانوا يقاتلون بالسنكى

من المؤخرة بينما كانوا يضربون بمدافعهم " ثم فجأة أقبل الفرسان الإنجليز يعدون بخيولهم وسط الغبار والفوضى والضجيج، وهذا وضع نهاية للموقف. لقد انتهت المعركة قبل أن تبدأ، فقد تحول جيش عرابي إلى مجرد حشود مشتتة انطلقت نحو الصحراء في كل مكان. كان عرابي نائماً عندما بدأ القتال، ودون أن يتوقف حتى ليضع نعليه في قدميه، ألقى بنفسه فوق صهوة جواده. وبعد أن استولى على قاطرة ذات محرك بخاري عند بليس وصل إلى القاهرة وهو داخل مقصورة القوادين ليصل في الوقت المناسب ليشهد الاحتفالات التي أقامها الخديوي على شرف الجيش البريطاني المنتصر، (ولو أنه لم يشارك فيها فعلاً) وأشارت صحيفة التايمز The Times إلى حفل رسمي أقامه توفيق وهو يستقبل التحية من ١٨,٠٠٠ بريطاني الذين أعادوه إلى العرش، بينما عرابي يشاهد من نافذة سجنه في نفس الميدان عار جيشه، فقد بعثرت الرياح في عشرين دقيقة عمله الطموح طوال العام ". لقد انهال توفيق بسخاء كبير على الجنرالات الإنجليز بكل أعمال التكريم، وكان أقل سخاء في معاملته لجيشه الخاص، إذ بأربعة كلمات بالتمام والكمال ألغى وجوده، إذ أصدر توفيق قراراً يقول L'Arme Egyptienne est dissolue: « لقد سرح الجيش المصري »، ولم يكن يستطيع أن يكون أوجز من ذلك، فما حققه وولسلي في ميدان الحرب، أكمله توفيق في مقصورته الفارهة، بل أنه في الواقع فعل أكثر منذ ذلك. فقد حاول كبج الوطنية ذاتها عند شعبه، فلم يمض وقت طويل حتى كادت الحركة الوطنية أن تنسى، وأن يرضى المصريون بما خطه القدر وهو أن يحكمهم البريطانيون. في أثناء ذلك سارع أصحاب الحوانيت باستبدال صور عرابي بأخرى لتوفيق. واحتلت فرقة كولد ستريم Coldstream القلعة، ووصل الفرع لدى الأوروبيين إلى حد الجنون.

وقد قال الباورن دي كوسل Baron de Kusel وهو يهز كتفيه مستهجنًا: "الله وحده يعلم بما يشعر به المصريون" أما تجران باشا وكيل وزارة الخارجية الأرمني، فقد عبر عن الشعور بالهزيمة والضياع، فقد قال بنبرة الحزن: "لقد جرفنا التيار كجزع شجرة" وترك للأفغانى ومحمد عبده وهما في المنفى ليبقيا على لهيب الوطنية مشتعلًا من خلال صحيفتهما «العروة الوثقى».



صورة للبطل أحمد عرابى وهو فى سجنه بالقاهرة
١٨٨٢ بعد هزيمته فى التل الكبير على يد البريطانيين
(مجموعة مانسيل)

ومنذ أن أيقظ نابليون البلاد من سباتها العميق بهزها هزاً عنيفاً قبل ثمانية عقود، عرفت مصر البعث الجديد كما عرفت الإحباط، فقد جعلها محمد علي قوة من قوى البحر المتوسط، لكن ذلك كان على حساب الفلاح، كما دعم إسماعيل طموحات جده بالعمل المحموم طول ست عشرة عاماً، غير أن سوء إدارته "للاستعمار المالي" الأجنبي عجل بالاحتلال الأوربي للبلاد. ولعدة شهور كان عرابي لسان حال ورمزاً لمصر المتعطشة للعدل والكرامة. ويؤكد جمال محمد أحمد: "أن انهيار حركته عندما واجهت القوة البريطانية، وكما أن معالجة قضيته بالطريقة الملتوية في الصحافة الأوروبية في ذلك الوقت، ربما جعلت منه أقل حجماً مما كان". وربما من أهم الملامح اللافتة للنظر في أحداث ١٨٨٢ لم يكن من المستغرب أن ينبعث الجيش كقوة ثورية، بل كان ذلك ببساطة أنه أصبح رأس الحربة لحركة شاملة التي قد ينكر الوجود البريطاني الاستمئاع بثمارها لمدة سبعين عاماً أخرى. هذه الثورة التي طويت صفحاتها كانت المقدمة لانتفاضة عام ١٩١٩ وانقلاب عبد الناصر في النهاية عام ١٩٥٢.

الفصل الحادى عشر

الحاكم بأمره على ضفاف النيل

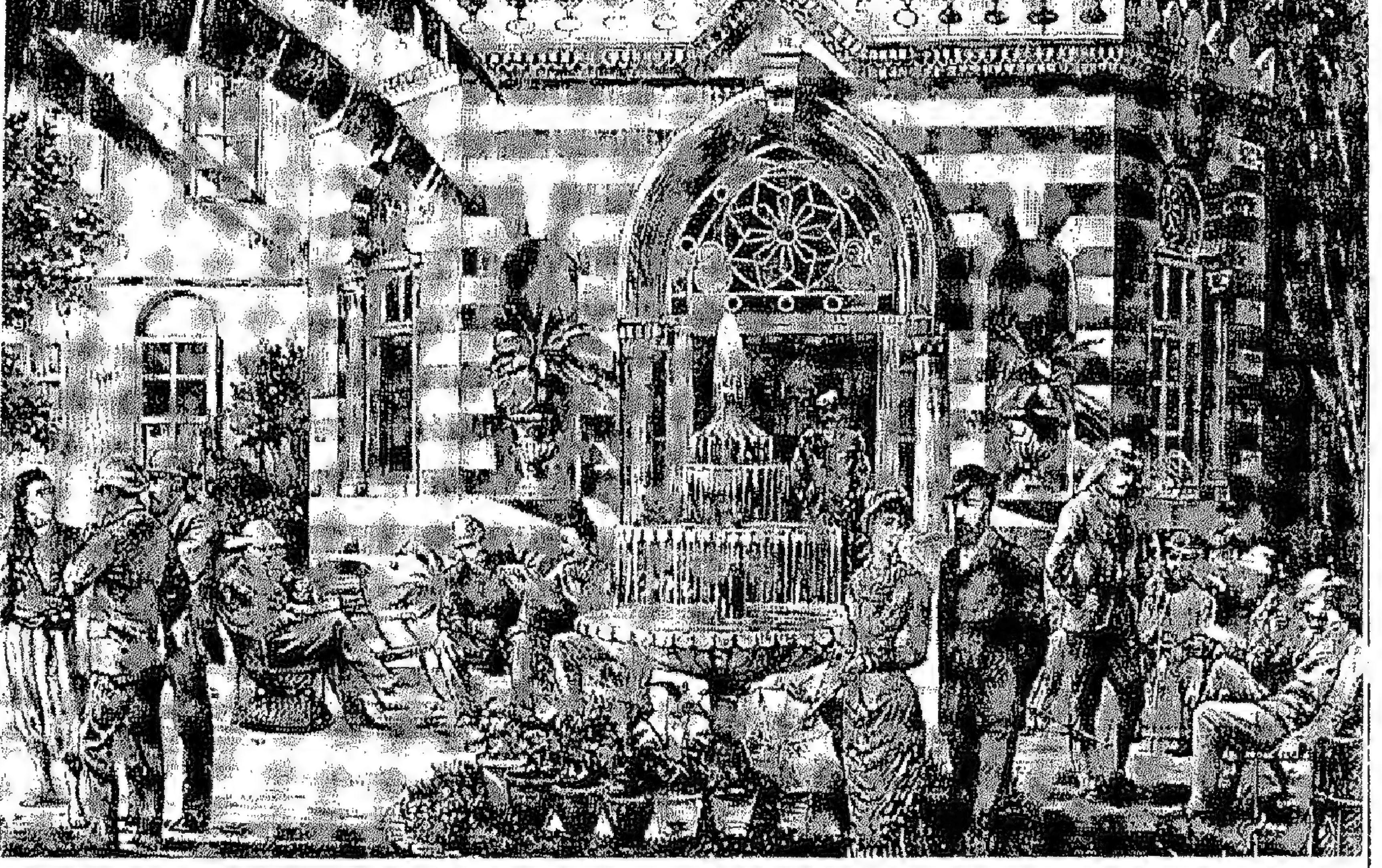
كان الناس في عصر الملكة فكتوريا بالطبع يبدوون على قدر كبير من الغرابة، وذلك من خلال بكاء بيكاديللي Piccadilly Weepers ومن خلال مظهرهم، ومن تجمعاتهم المزدحمة بشكل محب للاستطلاع، غير أن الذي لا شك فيه أن الناس ذوو المظهر الوسيم في أيامنا هذه قد يبدوون لنا خلال خمسين سنة قادمة في شكل يدعو للسخرية. وبالمثل فإنه من العدل أن نحكم على اللورد كرومر المعتمد البريطاني من منظور عصره، فالذي لا شك فيه أنه من خلال عصر كان يعتبر بطلاً، كان بكل معاني الكلمة فكتوريا عظيماً ، فقد كان إدارياً كفئاً، ونائب قنصل رائع، فحتى في شبابه كان مسئولاً في الهند باسم الميجور إيفلين بارنج Major Evelyn Baring (*) فقد كسب شهرة بأنه غليظ الطبع حيث عرف بين رفاقه بأنه شخص لا يطاق، فما أن جلس على كرسي المفوض العام في القاهرة وهو يخفي سلطاته الدكتاتورية تحت اللقب المتواضع: القنصل العام، كما يصف ذلك هـ. أ. ل. فشر H. A. L. وسرعان ما كشف كرومر للجميع وبسرعة أنه ليس بالرجل الهازل، في بلد قد يمارس فيه قليل من الهزل - أو على الأقل - قليل من التعاطف البسيط - البلسم الشافي للشعور الوطني المجروح - ففي الشرق تسير الحساسية المرهفة جنباً إلى جنب مع كرامة تمتد عبر ثقافة العمر، فالجرح قد يغتفر، أما الإهانة فلا تغتفر أبداً، فبنظرته الباردة كالصقيع وغير المقبولة، وبشاربيه الفظين اللذين يغطيان فمه المحكم، وباعتداد الرجل الفكتوري بنفسه الذي يجعل النفس تضيق به ذرعا في بلد أجنبي، والذي يبدو فيه كرمز للهيمنة المتغطرسة للغرب النشط الجشع على الشرق المقدس الغارق في الفوضى وسهل الانقياد. وبالرغم من تجرده من اللباقة، كان كرومر موظفاً أميناً يؤدي كل ما في طاقته من جهد صعب. ولأنه كان ينتمي

(*) إيفلين بابرنج كان اسم كرومر قبل أن يحصل على اللوردية عام ١٨٩١.

لأسرة معروفة في مجال البنوك، فقد تلقى تدريباً في الحلقة الداخلية للنظام المالي العالمي، فبخبرة رجل المال جلس يتعامل مع ما وصفه اللورد ملنر Milner « السباق لوقف الإفلاس » فقد كان السبب الرئيسي للاحتلال البريطاني هو التأكد أن مصر قد سددت ديونها، لقد كانت كل النوايا والأهداف تتجه نحو إقامة حراسة قضائية عليها ولقد مهدت البراعة التي عالج بها كرومر الموقف المالي السبيل لحدوث معجزة اقتصادية صغيرة، دفعت مصر بعيداً عن الخط الأحمر بالرغم من حدوث الكثير من المناورات الخفية من جانب الفرنسيين لإعاقة هذا الشفاء، فحتى عقد الاتفاق الودي Entente Cordiale (*) عام ١٩٠٤ كانت السياسة الفرنسية مستعدة للقتال ضد الإنجليز لدرجة أن فرنسا بالرغم من امتلاكها ثلثي الديون إلا أنها كانت مستعدة لدفع مصر إلى حالة الإفلاس لمجرد أن تتسلف الاحتلال البريطاني الذي كان مرفوضاً للمرة من جانب باريس لأنه كان يشكل بشكل واضح جرحاً أصابت به فرنسا نفسها.

وعلى أي حال اعتدل ميزان المدفوعات مع نهاية عام ١٨٨٦ (وباعتراف الجميع أن ذلك قد تم عن طريق بعض المهارة والحسابات المضادة) وكما عبر عن ذلك بوضوح جورج يونج George Young لقد بدأت نقاهة شعب كساد بعد مرض جاء من الخارج. فقد بدأت التجارة تزدهر مرة أخرى، هذا الرواج الذي دعمه الإنجليز بحراهم هو الذي أتى بأوروبا إلى مصر. فخلال التسعينات من القرن التاسع عشر، أصبح قضاء الشتاء في القاهرة عمل مستحب لذوي اليسار. فقد امتلأت الفنادق الكبرى مثل شبرد ومينا هاوس

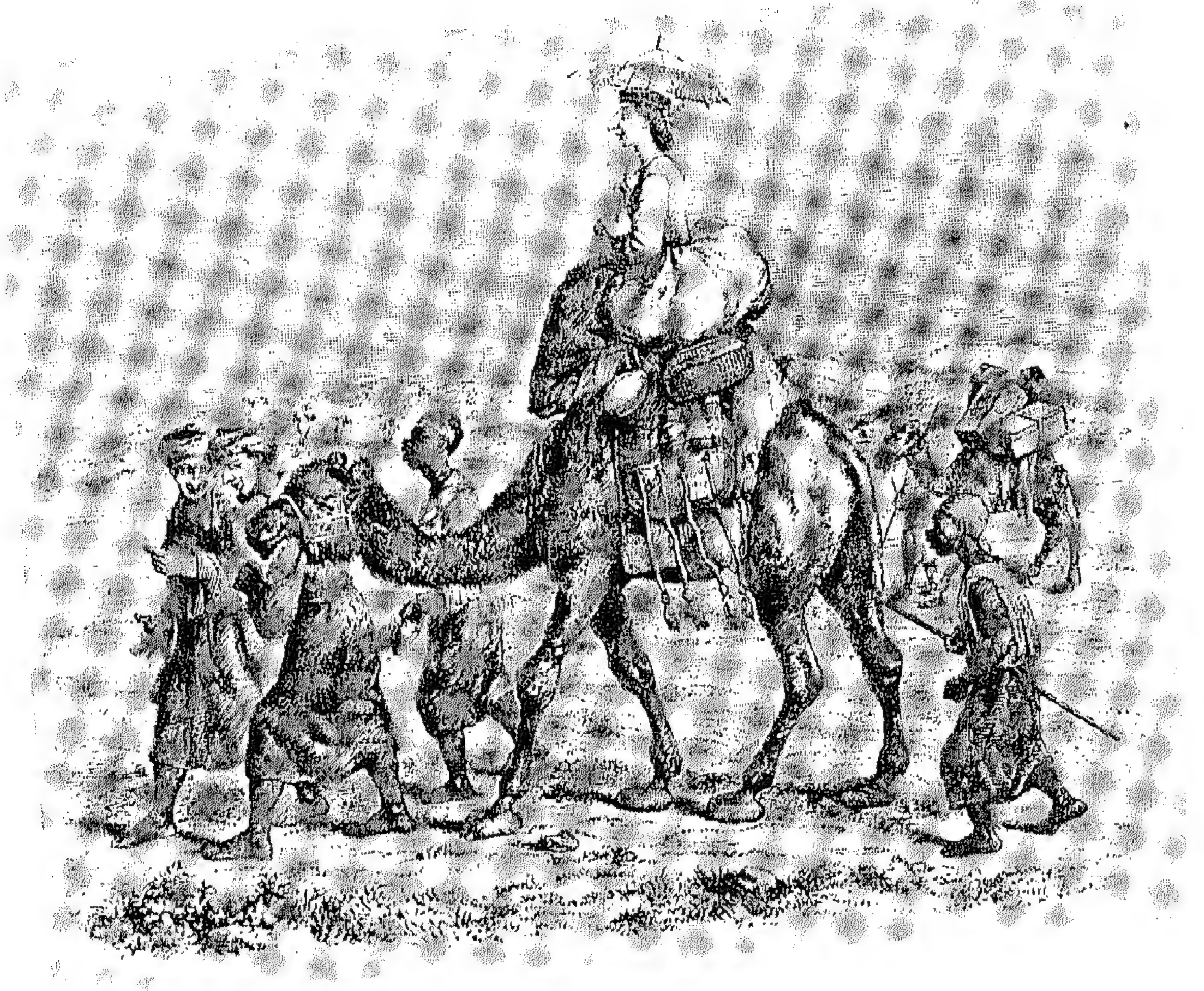
(٥) اتفاق وقع بين فرنسا وإنجلترا لوضع نهاية للصراع الاستعماري بينهما على مدى ثلاثين عاماً خاصة حول مصر، فقد أقر هذا الاتفاق اعتراف فرنسا بإدارة بريطانيا لمصر مقابل إقرار بريطانيا بادعاءات فرنسا في المغرب، وعدم تدخل صندوق الدين في شئون مصر الداخلية أو فرض ديون جديد أو تحديد الإنفاق الحكومي. وقد اعتبر أنصار فرنسا من المصريين على رأسهم مصطفى كامل أن توقيع مثل هذا الاتفاق طعنة لهم في الظهر من جانبها (المترجم).



بدأ تدفق السواح البريطانيين على مصر لقضاء فصل
الشتاء كما بدأ بناء الفنادق على النمط الأوروبي الحديث
بدلاً من الخانات المملوكية والعثمانية. وكان فندق شبرد
أولى الفنادق التي بناها المستثمرون الإنجليز في قطاع
السياحة وهذه صورة لقاعة التدخين في فندق شبرد
(مجموعة ماتسيل)

وقصر الجزيرة (الذى بناه إسماعيل خصيصا ليوجيني) وعشرات الفنادق الأخرى بأعضاء الأسر المالكة وصفوة المجتمعات الأوروبية جنبا إلى جنب مع عدد من عامة الناس الذين كانوا ينوون الهروب من الشتاء الإنجليزى. فقد كان من باب المباهاة استئجار فيلا على الجزيرة أو اكتراء عوامة للسكنى على ضفاف النيل، وإذ أراد الشخص السياحة فيمكنه أن ينقله المستر توماس كوك Thomas Cook إلى مصر العليا فقد كان قد بدأ فى تنظيم رحلات إلى أعالي النيل (وبقيامه بهذا العمل فقد كان بالطبع يعيد إحياء تقليد قديم. فقد ترك السياح فى العصور الإغريقية والرومانية آثارهم فوق تمثالى ممنون فى طيبة، وفوق الجرانيت المصقول فى أبى سنبل)، ومن ثم فإن ضيوف المستر كوك كانوا يتبعون نفس البرنامج الذى اتبعه هيرودوت وإسترابون، فقد كان فى مقدور أى شخص أن يقضى شهرا أو شهرين، ولم يكن أمامه أجمل منطقة يقضى فيها الشتاء أفضل من أعالي النيل، كما قدمت المعابد والمقابر إقبالا ممتازا لرحلات الخيول الطويلة أو تناول الطعام فى الصحراء. وعندما يعود (السائح) إلى القاهرة فهناك نادى الخديوى الرياضى الذى كان يقع فى الجزيرة والذى كان واحدا من أجمل النوادى الرياضية فى العالم. ففيه يستطيع المرء أن يرقص طوال الليل، وعندما يقترب الفجر يبدأ ركوب الخيل إلى مينا هاوس حيث يسبح فى الصباح الباكر، يتلو ذلك إفطار شهى قبل أن يتوجه إلى رحلات الصيد فى الصحراء، وبعد غفوة القيلولة يقضى العصر فى النادى وهو يستعد لاختيار الملابس المناسبة للعشاء، ثم يبدأ الدورة من جديد، وبالطبع كل هذا الإجراء المحبب لم يضاف شيئا يذكر لثراء مصر، أو أفاد المصريين الذين كانوا غالبا ما يهملون، أو ببساطة يتجاهلون. وبالرغم من أن قدرا كبيرا من الأموال كان ينفق خلال الموسم. إلا أن أغلبه كان يعود إلى أوروبا فى شكل أرباح الوكالات السياحية وشركات البواخر والفنادق التى يديرها رأس المال العالمى. فقد كانت الفنادق تكاد أن تكون مليئة بالمديرين السويسريين، والجرسونات الألمان، أما الأموال التى كانت تنفق فى حوانيت القاهرة الراقية، فكانت تذهب إلى جيوب أصحابها من اليونانيين والإيطاليين، والفرنسيين، وليس للمصريين.

وبالفعل فإن أغلب الزوار الذين كانوا يقضون الشتاء فى القاهرة يتخيلون أن مصر من ممتلكات بريطانيا العظمى حيث كان اللورد كرومر فى



سائحة بريطانية تتركب الجمل ومن أمامها وحولها
الترجمات وسائس الجمل، لقد بدأت السياحة إلى مصر
تدر دخلاً طيباً لكن الثروة كانت تذهب إلى جيوب
الأجانب الأوروبيين من أصحاب الشركات السياحية، ولم
يذهب إلى المصريين إلى النذر القليل

القاهرة يقوم بدور كرمويل(*) (فى لندن)، وفقد كان الزى العسكرى البريطانى يظهر فى كل مكان. ومن الصعب أن نلومهم على التفكير فى ذلك. وكان يعلمون أنه يوجد فى مكان ما - فى الخلفية الخديوى، وكان بالكاد يبدو تابعاً لإدارة شكلية من مولاة فى تركيا، إلا أن الخديوى كان حاكماً ذا سيادة على دولة مستقلة، من الناحية الرسمية كان هذا هو الوضع. وكانت الهوايتهول على علم واضح بذلك. فبريطانيا من وجهة النظر الرسمية قد قامت بقصف الإسكندرية لمجرد حماية حياة الأوروبيين الذين كانت تهددهم الغوغاء العسكرية، وأنها أرسلت اللورد وولسلى Woolsey على رأس جيش لاستعادة سلطة الخديوى التى أضعفتها ثورة البكباشية المتمردين، وأنها منذ تلك اللحظة تحافظ وتدعم سلطة الخديوى. أما الوحدات التى كانت تعسكر فى القلعة وفى قصر الأسماعيلية على النيل، فلم تكن حقيقة حامية بريطانية، بل بقايا جيش احتلال لمساعدة الخديوى للحفاظ على النظام العام. وفى نظر لندن فإن مسألة الانسحاب بعد ثورة عرابى سوف تكون بمثابة ترك مصر لتسلق نفسها فى عصاريتها، وقد كانت الهوايتهول على ثقة من أن ذلك سوف يؤدى إلى المزيد من اندلاع حركات التمرد والعصيان والثورات، ثم يتلوها تدخل أوروبى من جهة أو أخرى. ولهذا السبب فإن إنجلترا لا ضمت مصر إليها ولا جلت عنها، وكما شرح اللورد كرومر أن الرجل الانجلو - سكسونى يؤكد عبقريته النظرية عن طريق ابتكار نظام - قد يبدو - غير فعال طبقاً لكل قوانين الفكر السياسى، فبينما كان لا يتدخل من

(*) كرمويل Cromwell (١٤٨٥ - ١٥٤٠) سياسى إنجليزى ظهر فى عصر الإصلاح المبكر. كان فى البداية رجلاً عصامياً عمل تاجراً ومرايياً ومحامياً، ثم أصبح عضواً فى البرلمان. لفتت مهارته الملك هنرى الثامن فأوكل إليه شئون المملكة حتى أضحي الحاكم بأمره خلال السنوات السبع (١٥٣٣ - ١٥٤٠). كان ثورياً ومصالحاً اجتماعياً وكان من المشجعين على فصل الكنيسة الإنجليزية عن كنيسة روما الكاثوليكية. انقلب عليه الملك هنرى الثامن وأعداؤه المحافظون فاعدم دون محاكمة فى ٢٨ يوليو عام ١٥٤٠. (المترجم).

الناحية الرسمية فى حرية الحكومة المصرية، ولكن من الناحية الفعلية كان متأكدا أن الخديوى والوزراء المصريين ينفذون بالضبط ما يطلبه منهم. كما أنه كما يبدو لم يجد شيئا غريبا حول احتلال جزء من الإمبراطورية التركية عن طريق القوات البريطانية، وفى نفس الوقت يتجنب بحرص شديد التعدى على الحقوق الشرعية للسلطان، وفى نظر اللورد كرومر أن مثل ذلك التصرف هو الطريقة العملية الاستعمارية المعقولة (مع الغياب الكلى لأى خطة محددة) التى تميز أغلب السياسة الاستعمارية البريطانية.

بالفعل لم يكن الضباط البريطانيون فى وحدات الجيش المصرى وفى وزارة الحرب المصرية فى الخدمة البريطانية بتاتا، بل كانوا معارين مؤقتا للخديوى لمساعدته فى تدريب وفرض النظام على جيشه، وبنفس الطريقة كان الموظفون المدنيون البريطانيون يخدمون تحت إمرة الخديوى لتقديم العون فى مسالك إدارته وتصريف شئونه المالية. فقد كانوا موظفين يتلقون رواتبهم من الخديوى وليس من إنجلترا. ولهذا بقى الخديوى اسميا القوة العليا فى الدولة فكل قرار إدارى أو مادة تشريعية كان من المفروض أن تصدر منه.

وباختصار إذا ما استخدمنا كلمات كرومر نفسه إن البريطانيين لا يحكمون مصر، إنما فقط يحكمون حكام مصر وكانت وجهة نظر صريحة وواضحة فقد كان لكل إدارة وزير مصرى على رأسها. وهؤلاء المسئولون لا يتلقون رواتبهم فحسب، بل بدلات وظائفهم. فقد يجد الزائر الوزير جالسا فى مكتب كبير يحيط به السكرتارية والحجاب، وبعد أن يحتسى فنجانا من القهوة مع الباشا، يؤخذ إلى حجرة صغيرة يجلس فيها رجل إنجليزى يعتلى وجهه الإرهاق على مكتب ملئ بالملفات، ويعطى أوامر عاجلة للكتابة والسعادة. هذا الرجل الإنجليزى هو المستشار وهو من الناحية الاسمية أقل مرتبة من الوزير، معين لمساعدته فى عمله، ويقدم نصائحه المفيدة بقدر ما يرى ذلك ضروريا، وهو لا يأمر « أبدا بل قد يقول فقط: أظن أنه من باب النصيح أن يصدر فخامتكم هذا الأمر » أو نما إلى علمى أن كيت وكيت قد حدث وأنا أرجو فخامتكم أن يعتقد أنه من الأصلح أن تفعل كذا وكذا لإعادة

الأمور إلى مجراها الصحيح أما إذا فشل فخامته في الاستجابة فان المستشار بالطبع سوف ينقل الأمر إلى دار المعتمدية، والتي سوف تقوم بدورها على الفوز بممارسة الضغط على الخديوى، لذا لم يكن من المستغرب أن يريخ الوزراء المصريون أنفسهم بتدخين السجائر، وقراءة الروايات الفرنسية فى مكاتبهم الرسمية اللهم فى بعض الأحيان كانوا يكلفون أنفسهم عناء وضع توقيعاتهم على الوثائق التى أعدها المستشار الإنجليزى حتى دون أن يقرءوها.

هذه الرواية المحكمة التى يمكن مقارنتها بحكاية عن مهارة الحاج نصر الدين الذى حمل حماره فوق ظهره ليعبر به النهر حتى لا يلقيه (الحمار) من فوق ظهره إلى الماء، قد نسجت (فى مصر) إلى حد كبير لتجنب الصدام المباشر مع تركيا وكذلك من أجل الظهور بمظهر الرجل الطيب Bella Figura أمام القوى العظمى، ولكنها قلما تحسب حسابها لكسب رضا المصريين أو أقل ما يقال لكسب رضا الخديوى. وفى عام ١٨٩٢ مات توفيق بعد أن عاش خنوعا حتى النهاية، وخلفه ابنه عباس حلمى الذى تلقى تعليمه فى مدارس فيينا Vienna ليؤمن بالسلطات الإلهية للأمراء، على عرش صورى وهو فى الثامنة عشرة من عمره، وعلى الفور اصطدم بالمعتمد البريطانى، وقد علق اللورد كرومر فى خطاب بعث به إلى اللورد سالسبرى Salisbury بعد ما يقرب من شهر بعد تولى عباس يقول: إن الخديوى على وشك أن يصبح مصريا خالصا «، ولم يدخر وقته فى توجيه الإهانة العلنية للخديوى الشاب، فالنسبة لرجل فى عقلية كرومر كما يقول: ولفريد بلنت فإن معرفته الحقيقية عن الشرق ضئيلة لا تتعدى ما قد يتسرب إليه من خلال الوثائق الرسمية القابعة فوق مكتبه، ولذا فإن قص أجنة الخديوى بالنسبة له يسبق فى الأهمية تدعيم الصداقة معه، حتى أن السنوات المتبقية من السياسة الكرومرية، أنزلت من قدر عباس إلى مدبر مكائد، يشعر بالمرارة إزاء السلطان (الذى كان يفكر فى محاربة إنجلترا) ويدبر المؤامرات سرا مع الحركات المعادية للمسيحية فى مراكش ومقدونيا وقد فعل السير الدون جورست Eldon Gorst الذى تبع كرومر فى المعتمدية

كل ما فى وسعه لتضييق هوة الخلاف، وبالرغم من أنه قد نجح فى إقامة صداقة وطيدة مع الخديوى، إلا أنه لم يستطع أن يمحو الشعور المعادى لبريطانيا الذى كان ضاربا فى الأعماق والذى أيقظه كرومر من رقاده^(١٧).

لقد بدأت نفس الأساليب الأوتوقراطية تثير الكراهية عند المصريين أنفسهم، فمن العبث أن يتوقع المحتلون أن يكونوا محبوبين فهم يظنون أن وظائفهم عمل بناء، أو أن يعتقد فيلق السلام Peace Corps أن عملهم عمل هام وخطير وإلى حد ما قليل الراتب، وهو يتفق كثيرا مع أجل الصالح العام، ولكنهم لا ينتظرون الشكر عليه، لكن يتوجب علينا أن نتذكر أنه خلال السنوات الأولى للحكم البريطانى لم يكن لدى رجل الشارع شىء آخر غير الشعور بالعرفان للإنجليز لأنه كان يستذكر حالة البؤس التى كان يعيشها فى عهد إسماعيل، وكبار السن من الفلاحين لم ينسوا الكرباج، ولا الاستدعاء لأعمال السخرة بمجرد سماع صفارة، وأن الذى يتكأ ويصل متأخرا يعاقب بعشرين جلدة، والآن نسيت جراح مثل هذا الظلم، كما أن الأمور أصبحت أحسن مما كانت عليه، وأصبح الرخاء على مرمى البصر ولكن سرعان ما تبين لهم أن أى عصر ذهبى سوف يكون فى المقام الأول للأوروبيين ومن يسيرون فى ركابهم وقد يكون هناك مكان فى عربة الحظ للمصريين أنفسهم، بل على العكس أصبح التمايز الاجتماعى أكثر اتساعا، فالأغنياء يزدادون غنى، «والمصري أفندى يدرج فى موقع مواطن من الدرجة الثانية أو حتى الثالثة، والأكثر من ذلك بالرغم من التأكيدات المتكررة بأن الاحتلال البريطانى مجرد مسألة مؤقتة (وبحساب حذر صدر فى عام ١٨٨٣ قدره بأربعين عاما) إلا أن الشكوك كانت تتزايد أن اللورد فى مكتبه داخل المعتمدية كان يخطط بشكل منظم لبقاء البريطانيين إلى الأبد، وتحويل مصر إلى هند صغيرة^(١٨).

بدأت الحركة الوطنية فى أول الأمر فى الخفاء، فى المقاهى الواقعة حول الأزهر، ثم بعد أن اكتسبت الشجاعة بعد أن أحست بتأييد الشعب ووقوفه من ورائها، بدأ صوتها يسمع مرة أخرى بعد أن كانت خامدة لمدة عشرين سنة تقريبا فقد بدأ مصطفى كامل من خلال جريدة اللواء يعبر عن مشاعر جيل جديد، ويلتمس أيضا التأييد فى فرنسا.

وإذا ما قرأنا كراساته اليوم، فقد تبدو في لهجتها معتدلة إلى حد كبير وتضرب على وتر حساس بخصوص موضوعات كانت قد قبلت كأمر مسلم بها منذ زمن طويل. فمثلا يعلن في كراسته التي تحمل عنوان: الخطر الإنجليزى : نتائج احتلال مصر بواسطة إنجلترا «

le peril Anglais: consequences de l' occupation de l' Egypte par l'Angleterre.

والتي نشرت في باريس عام ١٨٩٩. ورد فيها أن الناس تتجاهل الأهمية الحقيقية لمصر: موقعها الجغرافى، وأن القوى التي قد تصبح سيده بلا منازع على وادى النيل سوف تصبح من الناحية الفعلية صاحبة السيادة على أفريقيا... وعلى الأراضى المقدسة وعلى البحر الأحمر. إن قناة السويس جزء لا يتجزأ من مصر وتهيمن على الطريق إلى الهند والصين وأستراليا. إن إنجلترا تسيطر الآن على البحر المتوسط، وأنه لمن الأمور الحيوية للقوى الأوروبية الأخرى ألا تتركها تسيطر على طرق التجارة فى إفريقيا ومن ثم فإن الاحتلال البريطانى لمصر.. يمثل خطرا يهدد القوى الأخرى فى أوروبا».

ولكن بالنسبة لكرومر كانت تلك هى الفوضى بعينها، وتفاهات توبيخية خطيرة تثبت أن المصريين لا يمكن الثقة بهم، وأن بعثة بريطانية فى مصر ليس فى مقدرتها أن تنتهى فى المستقبل المنظور، وبالمثل اشترطت أولويات فيما يختص بالاتفاق العام، فمثلا بينما كان مستعدا للموافقة على عدد من المشروعات لتطوير نظام الزراعة بما فى ذلك بناء السد الجديد الكبير فى أسوان، والذي كان من الناحية المادية سيطور إنتاج البلاد الزراعى^(١٩)، وقد خصص أقل ما يمكن تخصيصه لشئون التعليم، بناء على مبدئه الذى يفترض بأن المصريين ليس فى مقدرتهم الالتحاق بالمدارس الخاصة على النظام الإنجليزى l Anglais 1 ومن ثم فمن الأفضل لهم أن يبقوا ملازمين للأرض حيث يكون فى استطاعتهم إنتاج المواد الخام المفيدة لمصانع النسيج فى مانشستر. إن فشل كرومر فى الواقع - كان على المستوى الإنسانى ذلك

المستوى الذى من أجله بدا أن عرابى المنزعج يكافح - والذى يعنى أن أى واحد من الشرق سوف يتفهم عندما يعطى الأهمية اللازمة لبعض الأشياء التى يعطيها المصري أهمية قصوى مثل ديانتته وأسرته، قريته، وطنه، أهله، كرامته، الشخصية، كل هذه الأمور التى لم يكن كرومر يهتمها إلى حد ما فحسب بل تجاهلها تماماً. وبالرغم من أنه حكم مصر لخمس وعشرين سنة، وهى فترة مدة حكم أى فرعون، إلا أن كرومر نادراً ما جرؤ على الخروج من دار المعتمدية للقيام بزيارة رسمية للقصر إلا لتوبيخ الخديوى حول بعض الأمور، أو لترأس سباق الخيل فى نادى الجزيرة، إنما كان يحكم من مكتبه طبقاً لما تمليه عليه أوراق الميزانية، وليس من المستبعد أنه فى سريرة نفسه لم يفكر على الإطلاق فى المصريين كشعب.

وأخيراً كشفت الأضواء عن هذه الهوة بين فكر كرومر وفكر المصريين عندما وقعت حادثة دنشواى. ففى أحد أيام شهر يونيو الحارة عام ١٩٠٦ خرج بعض الضباط الإنجليز للصيد، غير أن جمعاً غفيراً من القرويين الغاضبين أحاط بهم معترضين على صيد الحمام لأنه يمثل طعاماً غاية فى الأهمية بالنسبة لهم فى وجباتهم الهزيلة، وأثناء الصخب انطلقت رصاصة من إحدى البنادق أدت إلى إصابة امرأة بجرح، ومن ثم فر الضباط طالبيين النجاة، وسقط أحدهم ميتاً بعد أن تلقى ضربة شمس، بينما أمسك جنود وحدة الضابط فتى قروياً لا شأن له بالأمر كله، بل أنه جاء لتقديم المساعدة للضابط، وانهالوا عليه ضرباً بالعصى حتى مات. عندئذ شعرت الجاليات الأوروبية فى القاهرة بالذعر متصورين أن مذبحة عامة على وشك الحدوث.

وأدانت محكمة خاصة شكلت من ثلاثة مسئولين بريطانيين واثنين من المصريين، أربعة من القرويين وحكمت عليهم بالإعدام، كما حكمت على ثلاثة منهم بالجلد خمسين جلدة لكل واحد، وأدانت عدداً آخر وحكمت عليهم بالسجن مع الأشغال الشاقة لفترة طويلة. وصدق كرومر على الأحكام. وغلت مصر بالكراهية. وضاعت بذلك إنجازاته الإيجابية لعقدين من الزمن. ومنذ تلك اللحظة أصبح غالبية المصريين متعاطفين مع الوطنيين، وشعروا أنهم أنفسهم محاربون يقاومون عدواً مشتركاً. بالرغم من ذلك لم يشعر

كرومر بالفرع ففى خطاب الوداع الذى ألقاه فى العام التالى للحادث(*) عدد فيه مزايا الحكم البريطانى الذى قدر لمصر أن تهناً به، وأشار إلى أنصار الحركة الوطنية باحتقار معلناً: إننى سأستكر أى تغيير - ولو كان طفيفاً - أو أى بداية جديدة تتسم بالعنف. والأكثر خصوصاً سوف أحت على أن هذه الحركة غير الشرعية والمضطنة - والتي تدعو إلى تطور سريع للمؤسسات البرلمانية - لكي تعامل كما تستحقه.. ودعونى أضيف أيها السادة أنها حقاً تستحق قدراً ضئيلاً من الاهتمام.

وفى اليوم التالى سار موكبه عبر شوارع خالية إلى المحطة، وفى إنجلترا تقاعد، حيث قضى وقته على نحو يميز شخصيته معارضاً لحركة تحرير المرأة. وجاء تعليق مصر على خروج آخر الأوتوقراط الأجانب فى أبيات الشاعر أحمد شوقى:

أيامكم أم عهد إسماعيل	أم أنت فرعون تسوس النيل
أم حاكم فى أرض مصر بأمره	لا سائلاً أبداً ولا مسئولاً
يا مالكا رقى الرقاب ببأسه	هل اتخذت إلى القلوب سبيلاً
لما رحلت عن البلاد تشهدت	فكأنك الداء العياء رحيلاً
أوسعتنا يوم الوداع إهانة	أدب لعمر ك لا يصيب مثيلاً(**)

(٥) هذا الحفل أقامه مصطفى باشا فهى رئيس الوزراء - التركى الأصل - فى دار الأوبرا لتوديع كرومر، وخطب يثنى عليه لكن كرومر ألقى كلمة أهان فيها المصريين وأهان الخديوى عباس حلمى الثانى فى وجود الأمير حسين كامل الذى أصبح سلطاناً على مصر فيما بعد، ولم يراع كرومر مشاعر الحاضرين. (المترجم).

(٥٥) وتنتهى القصيدة بالبيت التالى:

من سب دين محمد فمحمد
متمكن عند الإله رسولا



صورة للورد كرومر الحاكم الفعلى لمصر عام ١٨٨٤
والصورة تعبر عن الصرامة والقسوة وكراهية المصريين
وقد خلفه السير إدوين جوردن عام ١٩٠٧ وكان لا يقل
عنه قسوة ولكن يرتدى قفاز من حرير (صالة عرض
اللوحات الوطنية بلندن National Portrait Gallery)

لا شيء يصور التغيير بعيداً عن الكرومرية أفضل من حفل الاستقبال الذى أقامته الدولة فى صيف عام ١٩٠٧. فسلطة الخديوى قد تكون وهنت ولكن، الأبهة الملكية استمرت فى بذخها بنفس الدرجة التى كانت عليها فى أى قصر من قصور أوروبا، فقد اصطف أعضاء السلك الدبلوماسى وقد ارتدوا بدلات التشريفة ذات الطراز الرسمى وقد غطى وجوههم قليل من العرق وهم يمرون ببطىء فى طابور طويل أمام عرش الخديوى حيث ينحنون لجلالته. وكان أعضاء الوفود يتقدمون طبقاً لأقدمية التعيين، ففي أول الصف وقف وكيل شركة بواخر هولندية متقدم فى السن ممثلاً لملكة هولندا، يليه الآخرون حسب ترتيبهم: المندوب الأسبانى، ثم النمساوى، ثم الروسى، ثم الألمانى، بعدها يجىء ما تبقى من ممثلى الدول الصغرى التى كانت لها علاقات دبلوماسية، ويكاد يأتى فى مؤخرة الجميع رجل إنجليزى قصير القامة إلى حد ما يضع نظارة مستديرة ذهبية، ويبدو فى هيئة لا تلفت النظر بقدر الإمكان، يرتدى معطفاً مزرراً وسروالاً مزين بشريط ذهبى، وكان يتقدمه المندوب السويسرى والبلجيكي، ولم يكن خلفه سوى رجل سويدي ذات مكانة أقل منه بكثير، وقد يظن الذى لا يعرفه أنه شخص غير ذى أهمية، لكن هذا الشخص كان السير الدون جورست Sir Eldon Gorst الذى خلف اللورد كرومر - الحاكم الفعلى لمصر، وله من السلطة والقوة التى تفوق سلطة الخديوى وكل وزرائه مجتمعين.

كان جورست من أنصار الاتصال غير الرسمى والإقناع الناعم، فبينما كان كرومر بقبعته العالية يجوب شوارع القاهرة فى عربته التى يتقدمها راكبو الجياد والسياس يجرون من خلفه لاهئين، نجد خليفته يستخدم سيارة

وذلك رداً على تقرير كتبه كرومر عام ١٩٠٦ طعن فيه فى الدين الإسلامى زاعماً أنه دين لا يصلح لهذا العصر، كما انتقد شوقى فى هذه القصيدة سياسة اللورد كرومر الاستعمارية فى إدخال لعبة كرة القدم فى المدارس التى الهبت روح الصراع والفرقة بين صفوف جبهة الطلاب وذلك على حساب تلقى العلم: فجاء قوله:

هل من نذاك على المدارس أنها تذر العلوم وتأخذ الفوتبولاً (المترجم)

من ماركة وولسلي Woolsey ذات مقعدين، وهى أول مجموعة سيارات استوردتها شركة القاهرة للسيارات، وقد فتح قميصه، ويثرثر بالعامية مع المارة، غير أن هذا التغيير فى الاقتراب الذى جاء به صاحبه لم يفصح عن تغيير فى السياسة البريطانية.

فخيوط السياسة ظلت كما كانت من قبل، إنما الذى تغير ببساطة هو الغلاف الخارجى.

والحق يقال، كاد أسلوب السير الدون الناعم الذى أدهش حتى غلاة الوطنيين وأثار غضب الجالية البريطانية - أن ينجح فى إخماد المشاعر المعادية للبريطانيين فى مصر. ففى غضون فترة قصيرة أقام صداقة مع الخديوى، كما أرضى الطبقة المثقفة بتبنيه مشروع الجامعة المصرية الجديدة (والتي كان كرومر قد اعترض عليه فى العام السابق) كما أطلق سراح سجناء دنشواى، وقلل من درجة غليان الوطنيين باستقطاب أكثرهم نفوذاً وتعيينهم فى مناصب عامة. وبتحريض منه تولى رئاسة الوزارة مصرى خالص، ولكن بسبب حادث مؤسف ساهم ذلك أكثر من أى عامل آخر فى إفساد تجربته الشجاعة فى المصالحة. فقد كان رؤساء الوزراء السابقون خلال فترة الاحتلال جميعاً من عنصر أجنبى: شريف باشا ومصطفى باشا فهمى كانا أتراك، بينما كان نوبار باشا أرمنى، ورياض باشا يهودى، غير أن بطرس باشا غالى وهو شخصية عامة كبيرة فى البلاد كان قبطياً. والأكثر من ذلك كان الرجل الذى ترأس محكمة دنشواى. ومن ثم عندما أشار جورست إلى بطرس: كأول مصرى حقيقى وصل إلى قمة المناصب فى البلاد كانت تلك العبارة من وجهة نظر المسلمين عبارة مثيرة للشعور أكثر منها دقيقة، وبذلك بدا كما لو كان يدق إسفيناً بين المسلمين ذوى المشاعر الوطنية وبين المتعاونين معهم من الأقباط. وبالنسبة للوطنيين الذين كانوا يتحرقون لأحداث اختراق مثلما فعل شباب تركيا الفتاة، وكان ذلك بمثابة لطمة على الوجه. وعندما أبدى بطرس رغبته فى تعزيز المصالح الأوروبية بالموافقة على اقتراح لمد فترة امتياز شركة قناة السويس لفترة أطول مقابل زيادة نسبة من دخلها ثارت الصحف الوطنية والرأى العام

المصري عن بكرة أبيه، ولم يمر يومان على هذا حتى اغتيل بطرس.

وجاء الآن الدور على الرأي العام الأوروبي ليغلي غضباً، فمن خلال محاولته للسماح للمصريين بإبداء رأيهم في شئونهم، واستمراره في استبدال الموظفين الرسميين البريطانيين بالأقباط، فقد شعروا أن جورست قد شجع على إحداث موقف خطير، فقد أصبحت حياة الأوروبيين وممتلكاتهم في خطر حتى ثيودور روزفلت Theodore Roosevelt الذي ضم صوته إلى صوت الآخرين عندما كان يقضى أجازته في مصر فقد قال متذمراً: احكموا أو اخرجوا Govern or Get out، ولكن في ذلك الوقت كان السير إدون جورست مريضاً في المستشفى يعاني سكرات الموت من السرطان. وقليل من الناس أدركوا في ذلك الوقت مدى قيمة ما كان يحاول هذا الرجل القليل الحجم أن يعمل لمصر، ولذا فإن الخديوى نفسه تحمل عناء السفر إلى إنجلترا لكي يودع صديقه، وقد عدد السير رولاند ستورز Roland Storrs إنجازاته وهو يؤبنه: لقد خاض حربه وحيث رأى العالم فشله كان قد نجح.

He had Fought his fight and where the world saw his failure , he had succeeded. (*)

وعلى أى حال كانت وجهة نظر الهوايتهول أن زمن البراعة قد ولى، وأن مصر في حاجة لعودة الرجل الصارم Gauleiter. وفي نوفمبر عام ١٩١٠ خرج اللورد كتشنر « أوف خرطوم » من محطة القاهرة بقامته الفارعة، المتصلبة، الوضاعة بنفس العينين الزرقاويين الشاحبتين، وشاربيه المرعبين، اللتين كانتا فيما بعد تطلان من ملصقات التجنيد. وكانت فخامة وأبهة موكبه، وموكب حراسه اللامع المتألق، « والسياس » في ردائهم الأحمر والذهبي كلها ضمن حساباته لإغراء أى مصري وطنى أو أيا كان بأن رمسيس

(٠) وهو لقبه اللوردية الذى جعل عليه بعد أن قاد حملة إسقاط الدولة المصرية إعادة

احتلال الخرطوم عام ١٨٩٨م (المراجع).

والإسكندر ونابليون مجتمعين جميعاً في شخص رجل واحد وأن هذا الرجل قد وصل. وربما تخيل ضابط الألغام السابق أن ذلك قد حدث بالفعل. ومن الناحية الشخصية كان يسعى من أجل الهند فمظاهر نائب الحاكم التي فرضها على دار المعتمد البريطاني، والتي اندفعت فجأة على عجل لإعداد البزات القرمزية، وطاقم المائدة الذهبية، وقاعة الرقص الجديدة، ربما كانت من أجل تعويضه عن شعوره باليأس لخداعه بتعيينه في مصر.

وفي صبيحة يوم وصوله، تصادف إعلان إيطاليا الحرب على تركيا، ولأن ما تبقى من الجيش المصري كان لا يزال من الناحية الرسمية تحت سيادة السلطان والذي كان من المتوقع أن يجعله تحت إمرته للقيام بعمليات ضد الإيطاليين الذين كانوا يقومون بغزو طرابلس، لكن أوضح الأمر على الفور أن مصر بالرغم من أنها لا تزال تحتفظ بالفكرة الخيالية بأنها من الناحية القانونية *de Jure* جزءاً من الإمبراطورية العثمانية. لكن البلاد من ناحية الأمر الواقع *de facto* كانت أقرب إلى أن تكون جزءاً من الإمبراطورية البريطانية.

وللسبب نفسه، صدر سيل من المراسيم: مثل قانون التآمر الإجرامي، وقانون الرقابة على الصحف، وقانون النظام في المدارس وكانت إنذاراً واضحاً لغلاة الوطنيين عن الأسلوب الذي ينوي المستبد الجديد تناول أي مشكلة من خلاله، وخلال بضعة أيام وجد الوطنيون البارزون أنفسهم يلقون في المعتقلات لأقل سبب واه بمقتضى قانون النفي (وهذا القانون قصد به أصلاً التعامل مع قطاع الطرق) فمثلاً نفي زعيمهم فريد بك - لأنه كتب بضعة سطور كمقدمة لديوان شعر وطني، وحكم عليه بالسجن لفترة قاسية، بينما تمت مطاردة محرر مجلة أدبية لأنها تحدثت بطريقة خارجة عن الحدود وهو بعيد في القسطنطينية، لكن كـتـشـنـر أعاده ليقدّمه للمحاكمة، حتى حال الوطنيون المتعاونين لم يكن أحسن حالاً، فقد طرد سعد زغلول من منصبه، كما قدم الصوفاني بك للمحاكمة، وهو عضو بارز معتدل في المجلس الوطني لأنه أصر على الدستور، ولا حتى الخديوى منح مساحة أكبر من حرية التصرف، إذ لم يكن هناك مكان في مصر يوجد فيه رئيسان في وقت

واحد. ولما أدرك الوطنيون ذلك خافوا على أنفسهم، ولجأوا إلى العمل السرى، بينما حط من شأن عباس حلمى حتى أصبح يشغل نفسه فى مضاربات تجارية مشبوهة، ويدخل فى جدل مع العلماء لكى يعترفوا بشرعية زواجه من زوجته الجديدة التى كان كل فرد فى القاهرة يعرف أنها بدأت حياتها فى إحدى النوادى الليلية فى فيينا.

وحتى كتشنر سرعان ما تبين له أن سياسة العودة إلى أسلوب السياسة «الكرومرية» شديدة القسوة، وإلى تعنت الدولة البوليسية، ليس سوى طريقة سلبية للتعامل مع الموقف فى مصر. فحاول أن يوازن بين قسوة تصرفاته فى بداية عهده ببذل مجهودات إلى حد ما لتحسين أوضاع الفلاحين، لأن حبه الصادق لأرض مصر قدم له فى النهاية فرصة عمره. فمنها برز نجمه - مثل محمد على - من الغموض إلى عالم الشهرة، بوصفه كتشنر أوف خرطوم (وهذا الموضوع سوف نعالجه فى الفصل الخاص بالسودان)، وبدا مثل محمد على كما لو كان قد تفهم الطريقة التى يعمل بها العقل المصرى.

ولأن كتشنر كان يمتلك إلى جانب قدرته العظيمة على التنظيم مسحة مسرحية ساعدته على تبين مدى الأهمية التى يقدرونها للنجاح فى الشرق لقياس الشخصية، فبينما كان كرومر وهو يقبض على كل شئ يختفى وراء أسوار الوكالة البريطانية، وكان كتشنر شخصاً بارزاً فى مقدرة أى أحد أن يراه. ويقول جورج يونج George Young لقد طور كثيراً فى الأقاليم، فكان يستقبل الالتماسات ويرد عليها باللهجة العامية مع تباسط الاوتوقراطية الشرقى، وقد تبلورت عقليته إلى مزيج محير من إصدار القرارات الاستبدادية، والنفاق الدبلوماسى، الذى هو أمر غريب على أمراء الشرق. لقد كانت لغته العامية أحياناً غير مفهومه، ولكنه كان يعرف كيف يستحوذ على مشاعر مستمعيه، فلقد أخبر شيخ تقدمت به السنون السير أرثر فيجال Arthar Weigall. أنه وضع كلتا يديه على كتفى وقال له: أأست أنا مثال أيبك؟ هل يمكن للأب أن ينسى أبناءه؟

فى كثير من الأحوال كان يبدو طيباً مثل كلماته، فقانون الأفدنة الخمسة

الذى سنه والذي بمقتضاه أصبح من المخالف أن يستحوذ الفرد على مساحة من الأرض الزراعية تقل عن خمسة أفدنة داخل زمام قرينته(*)، إلى جانب تأسيسه البنك الزراعى الذى أنقذ الفلاحين من براثن المرابين وحقق نوعاً من الاطمئنان لأول مرة فى حياة المزارعين، كما تأسست وزارة للزراعة، وبدأت مشاريع عديدة للصرف والرى، هيأت للقطن بالذات أن تتوسع زراعته. إن مثل هذه الخطوات الأولية إلى جانب صدور دستور جديد عام ١٩١٣ والذى بمقتضاه منحت البلديات المحلية لأول مرة بعضاً من السلطة، وتأسس المجلس التشريعى الجديد. كل ذلك جعل كثير من المصريين يعبرون عن تقديرهم لنظام حكم كتشنر بالرغم من القسوة التى اتصف بها. إنه لأمر محير كيف كتشنر الذى كان فى حياته الخاصة سىء السمعة لكونه نكد المزاج، شديد الوقاحة بدرجة لا تطاق لكل من حوله خاصة إذا ما افترط فى الشراب - كيف تمكن بطريقته ثقيلة الوطأة أن يقدم نفسه للمصريين بهذا النجاح حتى أن الحرب عندما اندلعت عام ١٩١٤ كانت العلاقات بين مصر وبريطانيا على خير ما يرام. وأفضل بكثير مما كانت عليه فى أى وقت منذ الاحتلال.

(*) منع هذا القانون رهن الأراضى للملاك الذين يحوزون على خمسة أفدنه أو أقل (المراجع).

الفصل الثانى عشر الحرب والثورة

لقد غيرت الحرب وجه أوروبا، أما في مصر فإنها لم تفعل سوى أنها كشفت عن تظاهرات ولطائف وتفاصيل دبلوماسية، أقرت بما كان واضحاً للعيان منذ زمن طويل بأن مصر قد أصبحت جزءاً من الممتلكات البريطانية بأبسط الحقوق وهو حق الفتح، وأن لندن ليس لديها النية في أن تخفف من قبضتها على منطقة يمثل هذه الأهمية الإستراتيجية.

ففي نوفمبر عام ١٩١٤ أعلن الأتراك الحرب على إنجلترا بعد أن نجح الألمان بمهارة ولباقة في كسبهم إلى جانبهم، وبعد ذلك بقليل ألغت بريطانيا العظمى السيادة التركية وأعلنت مصر محمية بريطانية. وقامت بعزل الخديو عباس حلمي وعينت مكانه عمه حسين كامل بعد أن منحته لقب السلطان.

وفي خلال أيام قليلة، قام جمال باشا أحد أبرز رجال تركيا باختراق سيناء على رأس حملة عسكرية لاستعادة مصر من الكفار، وقال لأصدقائه تملأه الثقة: سوف أعود من القاهرة بحراً غير أن التحصينات البريطانية على طول القناة صدت الهجوم، ولم ينهض أحد من الدلتا ليظهر أى علامة من علامات الثورة كطابور خامس كما كان يتمنى الأتراك. ولكن حملة الصحراء التي مضت بطيئة حتى عام ١٩١٦ لفتت الانتباه الشديد إلى القناة، وبأن مصر بالرغم من كونها محايدة من الناحية النظرية، سرعان ما وجدت نفسها وقد استقر بها الحال لتكون إلى جانب الحلفاء، فخلال شهور تحولت البلاد جميعها إلى قاعدة كبرى للقوات البريطانية، كما أن الشعب المصري كان بعيداً عن تأثير الدعاية المنادية بوحدة العالم الإسلامي، ولم يبذل أى مجهود ليعلن الثورة لتأييد الأتراك كما كانوا يتوقعون خاصة أن معظم الطبقة الحاكمة كانت من أصول تركية.

ومن هنا استنتج توم ليتل Tom little أن حركة الوحدة الإسلامية لم تكن

فى حد ذاتها قوة محرّكة للعمل الشعبى فى مصر، ولكنها كانت آلة المقاومة المصرية بعد أن حرّمت من قيادتها الوطنية التى أرغمت على البقاء فى الظل بسبب الإجراءات الصارمة التى فرضتها الحرب، لقد عملت جماهير المصريين بإخلاص من وراء الحكام البريطانيين حتى وجدوا فى النهاية أن الإسلام ذاته يقف إلى جانبهم ممثلاً فى شخص شريف مكة.

لقد أعطى البريطانيون كلمتهم أن المصريين لن يدعون للخدمة الفعلية فى الحرب، لكن سرعان ما تخلى البريطانيون عن وعدهم، وقاموا بتجنيد فيلق للأشغال الشاقة، فى أول الأمر كان التطوع اختياريًا، ثم بعد ذلك أصبح إجباريًا. وربما كانت الأجور المرتفعة التى كان يدفعها الجيش البريطانى هى الدافع الأكبر الذى يفوق أى اقتناع بقضية الحلفاء أنفسهم، ولكن تبقى الحقيقة أن أكثر من ١٢٠,٠٠٠ مصرى شاركوا فى الخدمة العسكرية ليس فى داخل مصر بل أيضاً فى الحملات على غاليبولي، والعراق و ١٠,٠٠٠ خدموا فى فرنسا وقد تردد فى بعض الأحيان الرأى القائل أن مصر لم تفعل شيئاً فى الحرب سوى أنها ازدادت ثراء، غير أن ذلك رأى ملتو ولا يمثل الحقيقة. وبالرغم من كل شيء لم يستفد من ذلك سوى رجال الأعمال من الجاليات الأجنبية أكثر مما استفاد منه المصريون أنفسهم.

ومع أكوام الذهب المتراكمة جاءت سيول من اللوائح المدنية أصدرتها مركز القيادة العامة البريطانى أغلبها يبدو أنه خطط لتحويل المصريين إلى بريطانيين، فقد صدر مثلاً حظر على نحر الخراف فى عيد الأضحى كأضحيات، وأن يحظر تقديم المشروبات فى المحال العامة إلا ما بين منتصف النهار حتى الثانية والنصف من بعد الظهر، وما بين الساعة السادسة والنصف حتى العاشرة ليلاً، كذلك يتذكر سكان مصر القديمة بشيء من الرهبة المتزايدة مجيء الأستراليين.

فجأة امتلأ المكان بأقوام لفحت الشمس وجوههم، يضعون فوق رؤوسهم قبعات كبيرة من اللباد فى وضع مقلوب على أحد الجوانب، وكان تجولهم ليلاً عبر شوارع القاهرة أشبه بفريق سباق القوارب الليلية. وكانوا يقومون

بغارات على الممتلكات، ويسابق بعضهم البعض فى شوارع القاهرة الرئيسية حتى تخور قوى جيادهم، ثم يلعبون الكرة فى ميدان الأوبرا بطرايش رجال البوليس فالسلطة لا تعنى لهم شيئاً، وتذكر بريسيلا نابيه Prissila Napier فى مذكرات طفولتها الرائعة فى مصر: لقد كانوا أشبه بصبيان مستهترين انطلقوا لأقصى درجة فى عبث صاخب لآحد له، فقد كانوا يسابقون بعضهم بعضاً فى تسلق الهرم الأكبر والنزول منه، وخلال الأسبوعين الأولين سقط عشرة منهم من فوقه ودقت أعناقهم، ولذا فرض حظر على ذلك، غير أنهم كرروا الاستعراض فوق هرم سقارة المدرج. لقد كانوا يجلسون أعلى عربات الترام غيراً أبهين بسائقي الترام المصريين وهم يتصايحون، ويدخنون، ويضحكون ويغنون وباستمرار يصعقون أنفسهم بالكهرباء وكانوا يسابقون بعضهم البعض فوق حاجز الكبارى على النيل من أجل رهان ويسقطون من أعلاه إلى النهر ويغرقون. وقبل أن يغادروا إلى غاليلوى ذلك اللسان البارز الحزين الذى لم يعد منهم سوى القليل، قاموا بالإغارة على كل الحوانيت والبارات التى كان بينها وبينهم ضغينة ودمروا تماماً مبنى فندق « الضوء الأحمر »، فقد كانوا يلقون بالأثاث وبالنزلاء من النوافذ، ثم أشعلوا النيران فى المبنى، ويقول هؤلاء الذين كانوا يعرفون المنطقة أن البركة (حى الأزبكية) لم تعد تماماً كما كانت.

وإذا ما قورنت بالصراع الشرس الذى كان يدور فى أرجاء أوروبا، فإن حرب الصحراء كانت أشبه برحلة سفارى، وتحولت مواخير القاهرة إلى أسطورة بين الآلاف من جنود الحلفاء الذين كانوا يتدفقون بشوق عليها لقضاء إجازاتهم القصيرة.

لقد كانت تلك أيام القاهرة العظيمة التى ازدهمت بمروجى الأنباء من كل صنف ونوع ابتداء من لورانس العرب وحتى رواية المرأة المشثومة Femme Fatale والتى من الواضح أنها كانت على قمة الرواتب من جانب الألمان.

غير أن هذا الرواج والصخب لم يصل منه شيء لا لرجل الشارع أو

للفلاحين الكادحين فى حقولهم، والذين بدءوا يدركون - كلما زادت مطالب الحرب - أن حميرهم وجمالهم يستولى عليها، وقمحهم يصادر، بل أنهم أنفسهم كانوا يجندون للخدمة فى الصحراء مثلما كان الحال فى أيام السخرة فى الأيام الخوالى، وبالطبع كل شىء كان يدفع له مقابل من قبل السلطات الإنجليزية، غير أن كثيراً ما كان هذا المقابل يضل طريقه على يد فئة ماهرة من الناس قبل أن يصل إلى جيوب مستحقيه، والذي لا مناص منه وقوع قدر كبير من الإجحاف.. كان يغذى الإحساس العام بالسخط على تلك الرقابة ذات البطش، وإجراءات الأمن البوليسية التى وصلت إلى حد التعدى على حرمة النساء بطريقة وصفتها جريدة التيمز The Times بأنها: الأكثر رعونة، والأكثر حمقا، والأقسى شراسة من أى بلد آخر وقع تحت الحكم البريطانى». أما عن حكومة السلطان حسين التى كانت كالدمية، فقد تعاونت دون أن تبالى، ولم يكن لدى الوزراء سوى القليل لوقف هذه التعديات، وكانوا مقتنعين تماماً بإلقاء اللوم بسبب المصاعب والآلام زمن الحرب على عاتق البريطانيين وبنهاية سنوات الحرب الأربع هبط البريطانيون فى نظر الناس من درجة الحكام الذين يخشى جانبهم، وينظر إليهم باحترام، إلى أناس مستغلين يخاف الناس منهم، ويشعرون نحوهم بالكراهية كما عبر عن ذلك سيمون لاکوتير Simon Lacouture بقوله: «رجال شرطة قصيرى النظر فى أمة متعطشة للحصول على حقوقها» فالكراهية تجاه الاحتلال وتجاه تدخل الأجانب فى شئون حياتهم اليومية وأن هؤلاء الأجانب يتحكمون فى بلادهم، سرت حتى نخاع عظامهم. ولم يكن المتطرفون وحدهم الذين كانوا يتهايمسون بل المصريون على كافة طبقاتهم يغنون:

بالقوة سلبتنا قمحنا	إنجلترا مصيبة نزلت علينا
وبالقوة سلبتنا إبلنا	وبالقوة سلبتنا ماشيتنا
ولم تترك غير الكفاف لنا	وبالقوة سلبت أبناءنا
اتركونا لحالنا	وحباً فى الله الآن

ففى مصر كما فى أى بلد آخر - برز دور الإنسان. والرجل الذى خطا

إلى الأمام ليلعب دور المتحدث باسم مصر كان سعد زغلول، الذى لم يكن وطنياً فحسب، بل كان إنسانياً Humanist وعبر عن مبادئه فى جمل بسيطة ولكن بصورة رائعة. فذات مرة قال لصبى حمار كان ينهال ضرباً على الحيوان المسكين: إن الحيوانات لا تتكلم ولكنها تفهم، بينما الأدميين يستطيعون الكلام لكنهم فى غالب الأحيان لا يفهمون».

لقد أبقى سعد زغلول غضب العناصر الوطنية تحت السيطرة طالما استمرت الحرب، وخلال ما بدا لهم أنه صيف من الغضب طويل ولا نهاية له. كان دائماً يكبح مثيرى الشغب الذين كانوا يتحرقون لعمل شيء ما، أى شيء للتفتيت عن مشاعرهم التى كانوا يكتبونها إزاء البريطانيين. ولكن أخيراً بعد يومين من عقد الهدنة، ترأس وفداً زار السير ريجنالد وينجيت Sir Reginald Wingate ليطلب الإذن لعرض قضية مصر من أجل الاستقلال على لندن. وكان التوقيت يبدو مناسباً. فمبادئ السلام التى تضمنتها الأربع عشرة مادة الشهيرة والتى كان الرئيس ولسون قد أعلنها منذ وقت قليل، والإعلان الأنجلو فرنسى عام ١٩١٨ الذى قصد به تحرير البلدان التى كانت من قبل تحت سيطرة الأتراك، وكذلك وعود البريطانيين لبعض البلدان العربية الأخرى، كل ذلك أعطى الإحساس بأن من المتوقع عقد صفقة جديدة فى الشرق الأدنى، وأن مطالب مصر القوية للاستقلال سوف يكون الأهم.

وما بدا توقيته مناسباً فى القاهرة كان بالنسبة للندن على العكس تماماً. فبينما كانت الجالية البريطانية فى مصر - والأوروبيون عامة - يحتفلون بابتهاج بانتهاء الحرب بالألعاب النارية والحفلات الصاخبة، وقداصات صلوات الشكر، والاستعراضات، أقام اليونانيون والإيطاليون استعراضات للنصر، نافسوا فيها بعضهم البعض، انتهت بالمصادمات بين الجانبين فى قصر النيل، إذ رفض كل فريق أن يفسح الطريق للطرف الآخر، مما تسبب عنه معركة شرسة فيما بينهم بينما كان الناس فى إنجلترا يحتفلون بعقد الهدنة بطريقة تتسم بالوقار، فقد كانوا مشغولين بالدرجة الأولى فى لعق جراحهم، وجمع حطام حياتهم اليومية. فمن الناحية الفعلية كان لكل واحد خسائره التى كان يبكى عليها. فالمواد الغذائية كانت لا تزال توزع

بالبطاقات. وكل شيء في حاجة إلى طبقة من الطلاء إن لم يكن أكثر من طبقة، لقد خرجت بريطانيا منتصرة من الحرب لكنها كانت في حالة يرثى لها ومرهقة بعد أربع سنوات من المجهود المتواصل الشامل، وأصبحت الآن تواجه المشاكل الملحة التي تولدت عن السلام، فخريطة أوروبا يجب إعادة رسمها من جديد، كما يجب معاقبة ألمانيا ووضعها تحت الحراسة. كما كانت هناك مئات من القضايا الكبرى تنتظر الحل، ومن ثم فإن موضوع مثل مطالب مصر بالاستقلال كان يعتبر بالنسبة لتفكير المسؤولين المرهقين في الهوايتهول قليل الأهمية للغاية، إذ شعروا أنه ليس هو الوقت المناسب لمصر - محور الاتصالات في الإمبراطورية وقاعدة بريطانيا الرئيسية في الشرق الأوسط، وأكثر من ذلك أنها بلد أصبح ثريا من الحرب - أن تبدأ في هز القارب. وبدأت فكرة طلب الاستقلال بالذات في وقت كانت فيه بريطانيا قد فرغت للتو من إنقاذها من غزو العدو لها، فكرة لا مكان لها بصورة تدعو للسخرية. وجاءت الإجابة من لندن وهو الرفض السريع وغير القابل للتفاوض.

وقد يكون لدى الهوايتهول بعض المبررات لذلك، ولكن كالعادة كان ينقصها التفاهم. هذا الرفض الجاف لم يؤد إلا زيادة تأجج النيران في صدور الوطنيين. لقد كانت طريقة سعد زغلول الأولى لبقة، فقد قال "لوينجيت" إن إنجلترا هي أقوى القوى الكبرى، وأكثرها ليبرالية، وباسم هذه المبادئ التحررية التي تقودها نطلب صداقتها ولكن لما فشل في تحقيق أي مطلب تقدم إلى الأمام بصيحة تردد صداها: الاستقلال التام (أو الموت الزؤام) « وفي اجتماع جماهيري كبير قوبل برنامج الوطنيين بنصفيق حاد. كانت المادة الأولى منه هي إرسال وفد إلى لندن، ووفد آخر إلى مؤتمر السلام، ولما رفض ذلك مرة أخرى بالرغم من أن بلدانا صغيرة كالحجاز والحبشة مثلت رسميا في المؤتمر وسمح لبلدان أخرى غير ذي أهمية بالحضور، وصل الإحساس بالمرارة في مصر إلى ذروة الانفجار، وأرسل مذكرات تشرح وضع مصر إلى الرئيس ولسون، وإلى المسيو كلمنسو، Clemenceau (*)

(*) رئيس وزراء فرنسا.

وإلى السنيور أورلاندى Signor Orlandi(*)، وبالمثل إلى لويد جورج Lloyd George(**) وفى مارس عام ١٩١٩ أرسل البريطانيون زغلول ورفاقه ليس إلى باريس ولكن إلى السجن فى مالطة.

وفى اليوم التالى انفجرت الثورة فى مصر، فقد جاءت الأنباء من أقصى البلاد إلى أقصاها بحدوث اضطرابات وأعمال تمرد ونهب، فقد نزلت قضبان السكك الحديدية، وحطمت القطارات وأعمدة التلغراف، وأضرمت النيران فى المباني العامة، وتدفق الآلاف من الطلاب وتلاميذ المدارس وهم يهتفون بالشعارات، ودارت معارك ضارية فى بعض مدن الأقاليم مثل طنطا، ودمنهور، والمنصورة. وحوصر النزلاء البريطانيون فى أسبوط لمدة أسبوع. لقد كانت ثورة حقيقية بكل تفاصيلها وعنفوانها تشبه انتفاضة المجر عام ١٩٥٦، واستغرق الأمر أسبوعين من جانب الجيش البريطانى لكى يفرض سيطرته مستخدماً العربات المصفحة والدبابات، وخلال هذه الأحداث لقي مائة من المتظاهرين حتفهم وجرح ألف آخر منهم، غير أنه خلال هذه «الهوة» المفاجئة لم يرتكب سوى القليل من الأعمال الوحشية باستثناء ديروط حيث هاجمت الغوغاء قطارا وقتلت سبعة جنود بريطانيين بطريقة وحشية (مزقوا أحدهم إلى قطع صغيرة، وحمل الأطفال قطعاً منها تقطر دماً وداروا فى الشوارع يصيحون لحم إنجليزى للبيع!!). وانتقاماً لذلك نفذ حكم الإعدام فى ثلاثين مصرى. حقا أنه بالرغم أن بعض الوحدات البريطانية أطلقت العنان لمشاعرها بإطلاق النيران على الجماهير فى المليان بدلاً من إطلاق النار فوق رؤوسهم، إلا أن الجاليات الأجنبية التى كانت تتوقع أن تقع فى أى لحظة حمامات الدم، أصابها الدهشة لمدى ضبط النفس الذى أظهره، إذ همهم دبلوماسى فرنسى قائلاً: رداً على ما حدث أو ربه أو حتى ذرة من مثل هذا التصرف لكان الفرنسيون حولوا القاهرة كلها إلى كوم رماد وربما لو قدر لهم لفعلوا ذلك أيضاً.

(٠) رئيس وزراء إيطاليا.

(٠٠) رئيس وزراء بريطانيا.

وإلى حد ما هزت هذه المشاعر الهوايتهول وأخرجتها عن انشغالها.

وقد حدث أن التقى لويد جورج بالجنرال اللنبي Allenby في إحدى الحفلات (وكان في ذلك الوقت في قمة شهرته كفاتح لفلسطين)، واتخذ قراراً سريعاً بإرساله إلى القاهرة كمعتمد خاص لإعادة الأمور إلى نصابها. وكان أول تصرف قام به اللنبي هو الإعلان عن إطلاق سراح سعد زغلول ورفاقه من مالمطة، وترك الأمر لهم ليسافروا إلى باريس، وعندئذ وبطريقة محيرة متقلبة المزاج لا يمكن أن تحدث في أي مكان آخر إلا في مصر، وجدت القوات البريطانية نفسها تستقبل بالتحية كلما مرت في الشوارع حتى السلطان فؤاد الذي كان الناس يعتبرونه في جيب بريطانيا - لقي تصفيقا هو الآخر.

لقد فاز الوطنيون في الجولة الأولى بالنقاط، غير أن الصراع كان لا يزال مستمرا، فأحد الخصمين كان يريد إنهاء الحماية، والآخر كان يريد الإبقاء عليها وأصبح كل منهما يناور الآخر. ولقد أرادت الحكومة البريطانية كسب بعض الوقت بإرسال بعثة لتقصي الحقائق برئاسة اللورد ملنر Lord Milner والذي كان في شبابه أحد نجوم الصحافة، وكان قد أرسل خلال الثمانينات من القرن التاسع عشر لتسويق فكرة الاحتلال البريطاني، أما الوطنيون فقد أدركوا أن العنف رغم أنه مؤثر، إلا أنه يحمل المجازفة برد الفعل الذي قد يقضى عليهم، فلبأوا إلى المقاومة السلبية، وربما نقلوا هذه الفكرة عن غاندي، وبالفعل تحولوا إلى الإضرابات وأعمال التخريب والتباطؤ المتعمد في العمل مما جعل البلاد في حالة ركود. وعندما وصل ملنر ورفاقه إلى مسرح الأحداث، وجدوا كل مصري قابله يبدو كما لو كان أصم وأبكم. وكانت المقاطعة للبعثة شاملة، فمثلا إذا ذهب أعضاؤها لحضور اجتماع، يعلن على الفور تأجيل انعقاده، وإذا تحدثوا إلى فلاح أدار ظهره لهم. وبعد ثلاثة شهور من هذه المعاملة عادت البعثة إلى لندن بخفي حنين، ولم يعرفوا سوى القليل عن مصر، لكنهم عرفوا الكثير عن الحركة الوطنية المصرية. وعندما أصدر ملنر تقريره، ظهر أنه قطعة من الخطابة المنمقة الجميلة بقلم محترف، وبالرغم من تملقه للاماني الوطنية المصرية إلا أنه يبال بها تماما، إنما اقترح في الواقع استمرار الحماية بطريقة مقنعة مناسبة، ولمدة غير

محددة. وبالنسبة للقاهرة كانت قد ضاقت ذرعاً بالصبر، إذ بدا لها ذلك بأنه عودة إلى نفس الأسلوب القديم الذى كان من قبل، فنفس اللحم المفروم يقدم اليوم، ولكن مع تغيير مناديل المائدة، وأن أى وزير يحترم نفسه لن يقبل ذلك أو يقبل التفاوض على هذا الأساس، وحتى لو حاول فلن يجد التأييد أو المساندة. هكذا أصبحت مصر فى مزاج غير قابل للحل الوسط، وعلت نبرة الاستقلال التام بدرجة أعلى، وعندما أبعد أيضاً سعد زغلول الذى كان يجسد الحلم الوطنى والرجل الوحيد الذى كان فى مقدرة التحدث باسم مصر بقدر مؤثر مع رفاقه أعضاء الوفد ونفى إلى جزيرة سيشل Seychelles عندئذ انفجرت البلاد فى غليان من جديد واندلعت أعمال الشغب والإرهاب.

وعند هذا الحد كاد اللورد اللنبى الذى كانت لديه صورة أكثر وضوحاً عن الموقف أكثر من رؤسائه فى وزارة الخارجية يفقد صبره إزاء هذه الأعمال التى لا طائل منها، وتحمل المسؤولية وخرج بخطة ألغى فيها الحماية وأعلن أن مصر دولة مستقلة دون أى شروط، وبعد تبادل سلسلة من البرقيات اللاذعة (والتي عرض فى إحداها استقالته) هرول عائداً إلى لندن حيث تحدث بنفسه إلى أعضاء الحكومة وشرح لهم وجهة نظره، وكانت النتيجة الإعلان باستقلال مصر من جانب واحد وذلك فى ٢٢ فبراير عام ١٩٢٢ ولكن بتحفظات أربعة حددت بالفعل سيادتها وبقيت مسألة شائكة خلال الثلاثين سنة التى تلت (٢٠).

وبعد مرور شهر وبالتحديد فى ٢٢ فبراير عام ١٩٢٢ أعلنت مصر رسمياً كمملكة مستقلة، وأصبح من حق أحمد فؤاد أن يرتدى التاج، وولى زمن الحماية، وجاء عصر الاستقلال، وبدا بذلك كما لو كان نصراً لمصر أول نصر بالفعل حققه شعب على الاستعمار الأوروبى خلال القرن التاسع عشر. غير أنه لم يكن بالطبع فى حقيقته انتصاراً قط: فالتحفظات الأربعة أعطت بريطانيا تبريراً لتوجيه دفة سياسة البلاد كما تمليه عليها مصالحها. وأن تفرض نفوذها بوضع قوات فيها أينما يحلو لها، فالملك فؤاد نفسه جلس على العرش بفضل وبجميل جعله رغم أنه عميلاً لسياسات لندن. وهذا جعل الوطنيين يتذمرون بحق بأنه لا هو استقلال ولا حتى ارتباط متداخل،

إنما هو بمثابة لكمة عنيفة براحة اليد استهزاء بتطلعات مصر، حقق لها مجرد احتلال متخفى يستمر تحت قناع الدستور، وكشف حقدهم عن نفسه في زوبعة جديدة من الإرهاب، لا يسر أحدا بالمرّة لأنه كان أساساً عبارة عن إطلاق النيران من الخلف على أفراد أبرياء من الإنجليز.

وفي اللحظة المناسبة، وعندما سمح لسعد زغلول لكي يعود، تحول التذمر إلى حماس عندما انتهز ذلك القائد الوطني الانتخابات المزمعة ليقدّم نفسه كرئيس للوفد خاصة أن شعبيته بلغت في ذلك الوقت درجة لم تبلغها من قبل. وهنا ظهر تأثيره الذي جعل البلاد كلها تسير من ورائه. فقد أعيد الوفديون بعد أن حظوا بتسعين في المائة، ومن ثم أصبح سعد زغلول الذي صار بطل مصر غير الرسمي، أول وفدي أو وطني يصبح رئيساً للوزارة.

وتصادف ذلك مع مجيء أول حكومة من حزب العمال في إنجلترا، فقد كان رمزي ماكدونالد Ramsay Macdonald يعلن دائماً وهو في مقعد المعارضة أنه يؤيد استقلال مصر، وبدا ذلك كما لو كان فرصة معدة وجاهزة للتخلص من قوات الاحتلال، غير أن سعد زغلول اعتقد أن حكومة العمال سوف تخضع وتسحب قواتها، وهنا خاب ظنه، فقد أشار رمزي ماكدونالد إلى دستور ١٩٢٣ قائلاً أن ذلك قدم لمصر كل الاستقلال التي كانت في حاجة إليه في الوقت الحاضر. ولما وضعت العراقيل أمام هذا المطلب، غير زغلول في أوراقه إذ فجأة تحول ذلك الزعيم الوطني إلى زعيم استعماري فقد طالب بالسودان.

الفصل الثالث عشر

نظرة سريعة على السودان

كان المصريون دائماً مسحورين بالسودان، فهو بالنسبة لهم ليس مجرد جار في الجنوب، على وفاق معه أو غير ذلك، ولكن بالنسبة لمناطق الأعماق التي يكتنفها الغموض والتي يأتي منها النيل فهي: تذكارات أبدى وملزم بأن مصر ذاتها هي هبة النيل. فلو قدر لمياه الفيضان ذات اللون الذي يميل إلى الحمرة أن تعجز عن الظهور في مجاريها في وادي حلفا، فإن الدلتا بأكملها تصبح أرضاً قفر كالصحراء المحيطة بها. ولذا فإن الصيحة " وحدة وادي النيل " ليست مجرد ألحوبة غوغائية Spiel كان يحلم بها مصطفى كامل إنما شوق قديم قدم التاريخ نفسه.

وبلاد السودان كما كانت تسمى - هي في نظر أغلب المصريين تلك البراري الشاسعة المقبضة، شديدة التشبع بالبخر، جمع الثروة فيها غير مضمون مثل ضربة الحظ في اليانصيب، وذلك لمن يغامر بالذهاب إليها بحثاً عن الثروة من خلال الحرارة والمشقة والخطر. وبالنسبة لعقليات القرن التاسع عشر كان للسودان نفس الجاذبية التي هي للقمر اليوم بالنسبة لمن يمتلكون روح المغامرة والإقدام. فقد بعث إليها محمد علي بحملات بحثاً عن الذهب والعاج والرقيق، كما أن سعيد قام بزيارة رسمية لها، وورث إسماعيل عنهما مليون ميل مربع من المناطق المجهولة، وفكر وقتها في ضم المزيد منها. ولذا فقد أرسل السير صمويل بيكر Sir Samuel Baker على رأس حملة مصرية إلى مناطق أعالي النيل، بل عين ثم فيما بعد الكولونيل جوردون Colonel Gordon حاكماً على منطقة ذات اتساع يعادل اتساع عدة بلدان من بلدان السوق الأوروبية المشتركة إذ ضمت مجتمعه، وتمتد من أسوان حتى خط الاستواء، ومن البحر الأحمر إلى الحدود الغربية لدارفور.

وتحت رعاية إسماعيل، كان جوردون مطلق اليد في السودان، وتمكن بأسلوبه المتقلب والمتفاني من اجتياز هذا البلد الشاسع من فوق ظهر جمل بطريقة تتسم بالكفاءة والمثابرة التي لم تتوقف. لكن طبقة الموظفين التي

قويت شوكتها فى القاهرة بعد عزل إسماعيل، بدأت على الفور فى قص أجنحته. وفى عام ١٨٧٩ استقال جوردون من وظيفته كقائد عام وحاكم على السودان وهو مستاء، وحل محله رؤوف باشا وهو رجل تركى من أسوأ أنواع البلطجية، بكل ما تحمله الكلمة من معنى، وقد بلغت قسوته وفساده حدا جعل السودانيين لا يطيقونه، ومن ثم بدأوا يتدفقون إلى جانب شخصية متطرفة تعيش فى إحدى جزر النيل، وقد همس للمقربين إليه بأنه المسيح المنتظر. فقد كان لهذا الداعية المحارب نصفه طيب ساجر، ونصفه الآخر رجل مظهرى، بلحيته المدببة السوداء له تأثير السحر على أتباعه فقد دعى إلى تطبيق تعاليم الإسلام الصارمة، وبسيل جارف من الخطابة حثهم على « طرد الأتراك المكروهين إلى البحر ».

ويقول عنه ليتون ستاركى Lytton Starkey: كان لحضوره مهابة خاصة.. عيناه مكحلتان تشع منهما النيران بطريقة غير عادية.. وعندما كان يرفع صوته للصلاة فى خشوع كانت الآلاف تحس بأن أبواب السماء قد فتحت وأنهم أقرب ما يكون إلى الله. كانت طبول الحرب تدعو بدقاتها المشئومة الجموع إلى حمل السلاح وترفع الرايات الخضراء والحمراء والسوداء فوق الحشود. عندئذ يتقدم الجيش العظيم إلى الأمام ".

وفى نفس الوقت وعلى نحو لافت للنظر، ولنفس الأسباب التى من أجلها انقلب عرابى والوطنيون على الحكم التركى - المصرى فى مصر، بدأ المهدي ثورته فى السودان. وفى البداية لم يأخذها الباشوات ومستشاريهم البريطانيون مأخذ الجد، فقد كان يكفيهم ما لديهم من مشاكل. كان عليهم أن يواجهوها فى مصر بكل الطرق، ولكن عندما سقطت سنار أولاً، ثم تلاها «الأبيض» فى يد الثوار، أصبح واضحاً أنه يتوجب عمل شىء. ولكن ذلك لم يكن بالأمر السهل على الإطلاق فى ظروف كانت البلاد تعاني فيها من نقص فى الأموال والرجال، وأخيراً أرسلت حملة لجس النبض كان أغلب رجالها من أتباع عرابى القدامى الذين أطلق سراحهم من السجون وبعث بهم إلى أعالي النيل تحت قيادة ضابط إنجليزى لقمع هذه الثورة. لقد كان جيش الكولونيل هكس Hicks المتداعى محتوم عليه بالهزيمة منذ البداية فى مواجهة الحماس الدينى لحشود المهدي. وأخيراً عندما تسربت الأنباء أن

الحملة قد ذبحت لأخر رجل، اشتعل الرأي العام فى إنجلترا غضباً. وبرزت مدرستان للفكر: أولهما هو الجلاء عن السودان وتركها لتستوى فى سليقتها، أما الثانية التى تبنتها الصحافة الشعبية، فقد طالبت باتخاذ عمل صارم لرد الاعتبار للكارثة التى لقيها هكس.

فى تلك اللحظة تذكر محرر جريدة يومية الحاكم العام السابق، فظهرت المانشئات بكل وقار تقول أن جوردون هو الرجل الذى يجب أن نرسله إلى الخرطوم. فخببرته الشاسعة فى السودان يعرف كيف يعيد الأمور إلى نصابها. وعندما أجريت معه مقابلة فى لندن وافق الجنرال، فقد كان ضرورياً اتخاذ خط صارم.

وفى مواجهة هذا الصخب عما يجب القيام به لإنقاذ حامية بلد أجنبى من ثورة قام بها بلد أجنبى آخر، راحت الحكومة تدور وتلف. وكان جلاستون قد هداه تفكيره لاتخاذ قرار بالانسحاب من السودان، غير أن الرأي العام يجب أن يعمل له حساب، ومن ثم وافق على خطة وسط بالرغم من أن ذلك كان يتعارض مع حكمة الأفضل، غير أن الجنرال الذى شاعت شهرته العامة كمؤيد لاتخاذ إجراءات صارمة، أرسل لينفذ عكس الخطة المرسومة تماماً، فقد كانت مدة صلاحيته أن يضع حداً للأحداث فى السودان وأن يقوم بإجلاء المصريين والأوروبيين بأسرع ما يمكن.

وما تلا ذلك هو القصة الأسطورية لجوردون الخرطوم.. قطعة من روائع التراجميديا الإغريقية ومعها مقومات رواية ناجحة لمغامرات الغرب الأمريكى. فما أن عاد إلى مقره القديم، حتى بدأ جوردون يعيد الأمور إلى نصابها بقدر ما استطاع. فقد خفف من الضرائب، وأطلق سراح السجناء، وألغى التجاوزات المخزية التى جلبتها إدارة رؤوف، وبالمثل التزم بالتعليمات التى صدرت إليه وأعلن أنه سيتم الجلاء عن السودان. ولكن بعد ذلك طبقاً لأصدق تقاليد المدارس الراقية، أقسم أنه لم يترك الخرطوم حتى تعطى كل القوات المصرية فى الأقاليم المترامية الفرصة للانسحاب إلى مناطق آمنة. وفى أثناء ذلك كان المهدي وجيوشه الجرارة يتقدم. وحاصر أم درمان، وقطع خطوط التلغراف، وبهذا حوصر جوردون فى الخرطوم ومعه

حفنة من قوات الحامية و ٣٠,٠٠٠ من السكان المدنيين.

ومرة أخرى آثار الرأي العام فى إنجلترا الحكومة، ولكن فى هذه المرة من أجل إنقاذ جوردون نفسه. وكانت الحكومة تشعر بشكل غير واضح أنه لو كان فى موقف صعب، فذلك خطؤه تماماً، بل فى الحقيقة ساورها شك بشيء من السخط إلى حد ما أنه كل ما حدث من تدبيره لكى يضغط على الحكومة لكى ترسل حملة إنقاذ. وتبادلت إرسال واستقبال البرقيات مع اللورد كرومر فى القاهرة ماذا يحدث فى الخرطوم؟ وقالت الهوايتهول لو أن الجنرال جوردون يستمر فى البقاء هنا، فمن الضرورى عليه أن « يحدد لنا السبب ونواياه التى تجعله يستمر على هذا الحال » ولما هرب إليه هذا التساؤل البيروقراطى من وراء خطوط العدو تمكن من تهريب الرد على هذا الطلب بقوله: " إنكم تطلبون منى أن أوضح السبب والقصد من بقائى فى الخرطوم ولأنى أعرف أن الحكومة تقصد أن أغادر السودان، وللإجابة على ذلك أقول: أنا باق فى الخرطوم لأن العرب ضربت من حولى الحصار ولم تدعنا نفلت منه.

ولمدة أطول استمرت الحكومة فى وضع القضية على الرف حتى عبرت الملك فكتوريا فى النهاية عن آرائها الخاصة وآراء البلاد بشكل واضح إلى وزارة الخارجية، فقد قالت للورد هارتجتون: " إنك ملزم بإنقاذه! " وهنا اتخذ جلادستون الذى ساءه أن يشهر جوردون بالحكومة بمثل هذه الطريقة خطوة، إذ عين اللورد وولسلى Wolseley بطل معركة التل الكبير لقيادة حملة من أجل إنقاذ الجنرال.

وبقدر محتوم لا مفر منه بدأ الفصل الأخير من المأساة يرفع الستار عنه ببطىء. فمن فوق قصر الحكم فى الخرطوم راح جوردون يمسح الأفق دون توقف من خلال منظاره المكبر بحثاً عن أول بادرة إنقاذ قادمة. وبطريقة ما جعل الحياة اليومية تسير داخل المكان بالرغم من النقص الحاد فى التموين لدرجة أنهم اضطروا إلى أكل كل حيوان حى بما فى ذلك الحمير والقطط والكلاب، والفئران، بل وحتى القروء. وعلى الجانب الآخر من النيل فى أم درمان كان جيش المهدي ينتظر بتلهف شرس أن تستسلم المدينة الجائعة،

ولم يكن المهدي (لو صدقنا الأسرى الأوربيين) مستعجلاً متلهفاً لحدوث ذلك، إذ لم تكن حياته الخاصة تخضع لهذه القيود المزعجة في مخالفة التعاليم الصارمة التي أصدرت باسم الإسلام، والتي طبقها بقسوة على أتباعه الذين كانوا عرضة للجلد حتى الموت بكرياج مصنوع من جلد وحيد القرن لمجرد ارتكابهم ذنب شرب الخمر أو التدخين أو التتأبذ بالسباب، إذ كان يقضى أيامه مضجعا على وسائد مطرزة بخيوط الذهب، ويقوم على خدمته ثلاثون فتاة في مقتبل العمر، وهن يهزرن المراوح المصنوعة من ريش النعام لتهويته من الحر، ويقمن بتدليك أطرافه لإحداث نرفانا لذيدة، ولا تقطع ذلك إلا من حين لآخر عندما يخرج للصلاة أو لترأس مجلس الحرب.

وفي أثناء ذلك كانت قوة الإنقاذ تشق طريقها ببطىء، بل ببطىء ممل في اتجاه أعالي النيل. فقد وصل اللورد وولسلي إلى القاهرة في التاسع من سبتمبر، وبعد قضاء ثلاثة أسابيع في فندق شبرد انطلق تجاه وادي حلفا، بعد أن توقف لبعض الوقت في أسوان لينقب عن الآثار، وعند نهاية شهر ديسمبر، وصلت الحملة إلى كورتى korti وعند مقرب منتصف يناير أصبح على مشارف الخرطوم. وفي السابع عشر من يناير وقع أول اشتباك مع السودانيين، وضاعت منه أياما غالية وهو يصلح المراكب والإشراف على حل المضلات. ويقول اللورد وولسلي أنه كان يرى أن جوردون لا يزال خارج نطاق منظاره المقرب، وأن أياما تزيد أو تنقص لن يتغير من الأمر شيئا، وأن جوردون صمد في الخرطوم عاما كاملا ومن ثم ففي استطاعته أن يصمد لوقت قليل آخر.

كان في الإمكان أن يبقى المهدي يمارس النيرفانا، ويبقى جوردون محاصرا لو أن أنباء حملة الإنقاذ البريطانية لم تصل إلى السودانيين بتاتا في وقت كانت فيه مياه النيل في أدنى مستوى لها حتى أن شواطئه الطينية جعلت عبوره سهلا. وفي فجر ٢٦ يناير ضرب المهدي ضربته فقد اجتاحت جموع الدراويش وهي تتصايح الاستحكامات لتدخل الخرطوم. وعندما سارعت بواخر حملة الإنقاذ أخيرا إلى جنوب النيل في اليوم التالي كان كل ما وجدوه حطاما يتصاعد منه الدخان، ولا يعرف أحد عما إذا كان الجنرال جوردون قد رصد قدومهم بمنظاره المقرب، لكن الشيء المؤكد أن الحملة عندما

وصلت إلى الخرطوم وجدت رأس جوردون لا تزال تقطر دماً موضوعه فوق حربه خارج خيمة المهدي. لقد وصل وولسلي ولكن بعد فوات الأوان.

وفي مواجهة العجز عن القيام بحملة لتطهير البلاد كلها، لم يكن أمامه شيء سوى أن يعود أدراجه ويسدل الستار عن السودان. ولذا تركت (بلاد السود) لمآربها لمدة خمس عشر سنة تلت والتي كما يستدل من الأنباء المتفرقة التي تسالت إلى العالم الخارجي، كانت بالكاد تحدث السرور للسودانيين.

غير أن المهدي لم يستمتع بانتصاراته لوقت طويل، فبعد مرور خمسة شهور من سقوط الخرطوم مات أما عن طريق وضع السم له من قبل حريمه أو كنتيجة للإغراق في ملذاته: وتولى من بعده قائد جيوشه «ال خليفة» (*) الذي إلى جانب قيامه بدور المهدي، بدأ عهداً من الإرهاب على الفور أشد سوءاً مما شهدته الأيام السابقة وهذه (البربرية) انطلقت من عقالها بلا سيطرة عليها لتدخل القرن العشرين، لكن بالنسبة لحمى الاستعمار المستعيرة في التسعينات من القرن العشرين فقد كانت القوى الأوروبية كل تمسك بعنف الأخرى في صراع دولي للسيطرة على الأراضي. فقد بدأ الألمان يتحركون نحو شرق أفريقيا والإيطاليون نحو الحبشة، ولو لم يتخذ البريطانيون خطوة نحو السودان لربما كان الفرنسيون قد فعلوا ذلك^(٢). وفي عام ١٨٨٥ استبدلت حكومة حزب الأحرار برئاسة جلاستون بحكومة محافظة قوية كانت على استعداد للتأثر لمقتل جوردون، كذلك أن فشل كل من هكس وولسلي، خاصة أنه قد أشيع أن لدى الخليفة خطط لغزو صعيد مصر.

لا يوجد شيء يصور التلاحم الإنجليزي المصري الغريب أكثر من إعادة فتح السودان عام ١٨٩٨ تحت ادعاء أن الوقت قد حان لإبعاد الخطر عن حدود مصر الجنوبية. فقد تقدم الجنرال كتشنر، بصفته سيردار الجيش المصري، وباسم سلطان تركيا، ولكن منفذاً للأوامر الصادرة إليه من لندن، وبتمويل من الخزانة المصرية تقدم جنوباً على رأس جيش أنجلو مصري

(٥) يقصد عبد الله التعايشي خليفة المهدي (المترجم).



إيرل كتشنر الخرطوم يرتدى الزي العسكرى كسردار
الجيش المصرى فى السودان - وقد اشتهر عند
الإنجليز بأنه بطل الخرطوم الذى سحق الثورة المهدية
فى معركة أم درمان عام ١٨٩٨
(مجموعة مانسيل فى لندن)

ليتأكد أن السودان أصبح بريطانياً وليس فرنسياً. ولقد استغرقت حملة كتشنر ما يقرب من عامين لكي تصل إلى الخرطوم. وكان يقيم خط سكة حديد صحراوي وهو في توغله حتى وصل إلى بربرة Berber، وعلى مسافة مسيرة خمس ساعات فقط ليسحق الخليفة في السهل المقفر خارج أم درمان. لقد كانت معركة غير عادية وذلك لأن أربعة ألوية أنجلو مصرية تحت قيادة ضباط أكفاء تمكنت من سحق ٤٠,٠٠٠ درويش تماماً، مخلقة من ورائها عشرة آلاف قتيل مقابل خسائر بلغت ١٧٥ بريطاني، ٢٧٣ مصري ما بين قتل وجريح^(٢٢). كذلك قامت الكتيبة المعروفة باسم اللانسر Lancers والتي كان من بينها الملازم و.س تشرشل بهجوم مثير للعجب (ولكن ربما لم يكن ضرورياً) من قبل سلاح الفرسان. وفي النهاية سار كتشنر فوق صهوة جواده المعد للقتال إلى الخرطوم، حيث أخذ تأره لمقتل سلفه بطريقة مروعة لافتة للنظر، إذ أمر بنبش قبر المهدي، وبعد أن فصل رأسه ألقى به في النيل، وأخذ رأسه لنفسه ليصنع منها محبرة، ولما علمت الملكة فيكتوريا بذلك التصرف صدمت بشدة، وعبرت عن ذلك بقولها: إن مثل هذا التصرف كان مستساغاً بشدة في العصور الوسطى فقط ولما أدرك كرومر بشاعة الفعل الذي قام به كتشنر، دبر في الوقت المناسب اخفاء الجمجمة بعيداً عنه ليأمر بدفنها بهدوء في وادي حلفا.

ومنذ تلك اللحظة رفرf العلمان البريطاني والمصري فوق الخرطوم، ولكن كان جلياً منذ البداية أن إنجلترا كانت تتوى إطلاق يدها في السودان تماماً مثلما كانت الإدارة البريطانية تفعل في مصر - متخفية بمهارة تحت اسم «السيادة الثنائية المالية» Financial Condominium وبذلك أعلن ضم السودان إلى حوزة الإمبراطورة البريطانية سياسياً في شكل الحكم الثنائي. وفي ١٩ يناير عام ١٨٩٩ تم التوقيع في القاهرة على واحدة من الألاعيب القانونية التي سعت بلطف إلى إعطاء الإحياء للاستجابة للمطالب التي أصبحت مطلباً شرعياً لحكومة جلالة ملكة بريطانيا بحق الفتح، وهذا في الحقيقة وضع مصر وبريطانيا في حالة صدام حول الحقوق الخاصة بكل منهما. إن حكم الخليفة لم يعيثر في البلاد كلها فساداً فحسب، بل أنه قضى على كل آثار الحكم المصري القديم. وبذلك أسست إدارة بريطانية خاصة عرفت باسم «إدارة الخدمة

المدنية السودانية « Sudan Civil Service، وبذلك أصبحت الإدارة في تزايد لتصبح أكثر « بريطانية » وأصبحت المساهمة المصرية في النهاية ذات تأثير رمزي يماثل السيادة التركية على مصر ذاتها.

لم يكن هناك أدنى شك في كفاءة الإدارة الجديدة، فمن أرض قفر كثيبة (بلغ دخلها بالكاد عام ١٨٩٨ حوالي ٣٥,٠٠٠ جنيه إسترليني مقابل ٢٣٥,٠٠٠ جنيه أنفق عليها) إلى سودان مزدهر قابل للنمو الاقتصادي مستقلاً تماماً عن مصر. لكن إحساسهم بأنهم قد أزيحوا جانباً بعد أن ساهموا بأغلب الرجال والأموال لإعادة فتح السودان لكي تتمكن إنجلترا من إقامة اتصال آخر في مسيرتها الاستعمارية من القاهرة حتى رأس الرجاء الصالح، كان أمراً يثير ضيق الصدر بشكل متزايد لدى الكبرياء الوطني، حتى ولو من وجهة نظري الخاصة رغم أن المصريين ربما يفضلون الابتعاد كلية عن السودان المتقدم حرارة، إلا أنه لا يزال في نظرهم هو تلك الأرض التي يتدفق منها نهر النيل واهب الحياة لبلادهم. ومنذ اللحظة التي أطلق فيها مصطفى كامل صيحته: « وحدة وادي النيل » أصبحت المطالبة بالسيادة الكاملة على السودان جزءاً لا يتجزأ من الأمن الوطني تماماً مثل الجلاء عن مصر ذاتها.

ومن ثم، عندما شعر سعد زغلول بالإحباط من الطريقة التي خدعت بها مصر بإعلان عام ١٩٢٢، من الأمل المفعم بالثقة للحصول على الاستقلال إلى نوع من الاستقلال الناقص الزائف، فقد بدأ يضغط للحصول على ما اعترفت به لندن وهي متمنعة « بالحقوق الطبيعية والتاريخية لمصر على نهر النيل ». بالرغم من أن سعد زغلول كان يقصد فعلاً السيادة الكاملة على السودان، وهنا تركز الصراع على رجل واحد بدرجة تثير الإرباك وهو السير لي ستاك Lee Stack بصفته " سيردار " على السودان وفي نفس الوقت القائد الأعلى للجيش المصري. فقد كان يتمثل في منصبه ليس أكثر من إيماءة ضعيفة تجاه حقوق مصر كما كانت ترغب فيها، بينما كان يميل بشكل رمزي واضح كل الوضوح لخضوع مصر للتاج البريطاني. وعندما اشتكى سعد زغلول أن قائداً أجنبياً أعلى لقوات الجيش المصري: « في وضع يتعارض مع كرامة مصر المستقلة » ردت وزارة الخارجية ببرود أن ذلك

قد وضع السردار « فى وضع صعب » ولكن لما حول سعد زغلول هجومه الدبلوماسى نحو السودان، وواجه الشخص التعس، أصبح موقف السير لى ستاك ليس صعباً فحسب، ولكن شديد الخطورة خاصة عندما ترمى إلى أسماع البرلمان بمجلسيه عبارة أن بريطانيا العظمى « ليس فى نيتها مغادرة السودان تحت أى ظروف كان »، فقد كان ذلك دعوة مفتوحة لوضع الأصبع على الزناد، ففى التاسع عشر من نوفمبر عام ١٩٢٤ بينما كان السير لى ستاك يقود سيارة من مكتبه فى وزارة الحربية عائداً إلى منزله فى أرض الجزيرة، تلقى وابلاً من الرصاص أطلقها سبعة من الرجال يرتدون زي الطلاب، وفى خلال ساعة من إطلاق الرصاص سارع سعد زغلول مذهولاً إلى دار المعتمد البريطانى ليعبر عن أسفه وفزعه غير أن ذلك لم يجدى شيئاً.

وهنا قام اللورد اللبى الذى وصفه ويفل Wavell بأنه جنرال متفجر An Explosive General بالسير وهو فى زيه العسكرى الكامل إلى المجلس. وسلم إنذاراً كالرعد طالب فيه بتقديم اعتذار رسمى، وإجراء تحقيق شامل لحادثة الاغتيال، وحظر كل المظاهرات السياسية ودفع غرامة تعويض قدرها ٥٠٠,٠٠٠ جنيه إسترليني والانسحاب الفورى لكافة القوات المصرية من السودان، وتحويل مياه النيل للقيام بمشروعات للرى فى السودان، وأحكام قبضة بريطانيا على وزارات العدل والمالية والداخلية. وعندما رفض المجلس الشروط الثلاثة الأخيرة « والتى كان لها علاقة ضئيلة على أية حال بالمأساة »، قامت القوات البريطانية باحتلال جمارك الإسكندرية وفرضت نفس التعليمات على السودان ذاته.

لقد كان الوضع خطيراً أن تفقد مصر استقلالها ومعها السودان، ولذا اتخذ سعد زغلول الخطوة الوحيدة التى كان يقدر عليها وهى تقديم استقالته. وقام الملك بحل البرلمان الذى كان يسيطر عليه الوفد، وتشكلت حكومة إمعة تحت رئيس وزراء من اختيار القصر وهو زيوار باشا، الذى كان بديناً للغاية.

ونفذ حكم الإعدام فى عدد من قيادات الوطنيين وعندما عادت كل الأطراف المعنية لى ثوابها كان واضحاً أنها كانت سحابة صيف قد انقشعت،

وبذلك أسدل الستار عن الفترة الثورية التي بدأت عام ١٩١٩.

لقد حصلت مصر على صيغة رمزية للاستقلال بمعنى أن أحمد فؤاد كان من الناحية الظاهرية ملكاً على مملكة مستقلة، وأصبح سعد زغلول ومن ورائه كل آمال وتطلعات المصريين صعيدياً تحت تهمة أنه المسئول عن الموجة الإرهابية عامة، إن لم يكن المسئول الفعلي عن اغتيال السردار. ومن ثم أصبحت بريطانيا ممثلة في اللورد لويد Lloyd تمسك تماماً بزمام الأمور، وخلال السبع والعشرين سنة القادمة سيطر على المسرح السياسي صراع مثلث الأضلاع بين المعتمد البريطاني، والقصر، والوفد.

الفصل الرابع عشر

الصراع الثلاثي للقوة

تعنى كلمة (وفد) الممثلين المفوضين، وهو فى نشأته كحزب سياسى كان أمراً غريباً، غير متبلور على نحو نموذجى " كاليخنى " طبق الشعبى بدءاً من الشربة الخضراء المعصجة المليئة بالتوابل صعبة الهضم والتي يضاف إليها كل شىء: تلال من الأرز، الدجاج، ولحم الضأن، والزبيب، والخل وكل ما يجده الطباخ لديه(*) . فقد كان الوفد خليطاً من كل الجماعات السياسية، لسان حال الطبقات المختلفة لكل الشعب، فقد اشتمل على - حد كلمات لاكوتير Lacoutures - « كل من جاد بنفسه كالمتقنين، والمشوشين فكراً، والأناس الطيبين سليمى الطوية، والمتناقضات وحب المبالغة والإفراط فى التخيلات للملايين من مؤيديه».

لقد كان الوفد استكمالاً لمنهج سعد زغلول (الزغلولىة) Zaghoulis، فقد كان سعد زغلول هو كاهنه الأكبر . كما أنه نبع من ينبوع الصراع مع المعتمد البريطانى، ولم يكن لديه سياسة واضحة سوى التخلص من البريطانيين، كذلك لم يكن للوفد لون سياسى معين، فلم يكن من الأحرار ولا الاشتراكيين، ولا حتى أى مذهب يمكن تحديده، ولكنه لكل الناس كان كل شىء، إذ أن تعدديته الديموقراطية جذبت إليه الناس من سائر الطبقات: من أكبر ملاك الأراضى، وأققر الفلاحين، وأشد الغوغاء ميلاً للإثارة. وأكثر المتقنين ميلاً للتفكير الهادئ. كل طرف انجذب إليه مدفوعاً باعتقاداته حول الشكل الذى يجب أن تكون عليه القضية الوطنية وما يمكن اصطياده من أسماك البركة.

وعلى مدى ثلاثين عاماً كان يلعب دور صمام الأمان للكبت العاطفى، فقد

(*) الكلمة التى وردت فى النص هى الملوخية Molochia واعتقد أن ما يقصده المؤلف هو اليخنى لأن تفاصيل الوصف هى التى تنطبق على ما يقصده المؤلف.

كان ميدانا آمنا للصيد للبشوات، إذ لم يكن لديه جناح يسارى ينحاز إليه بعض الأعضاء، بل ساحة للاحتجاج ذى الضجيج يستطيع من خلاله أدنى الفلاحين وضعاً أن يجد فيه بعضاً من أمانيه المشوشة، ونقمة وسخطه، حتى الشباب الميال إلى اليسار والمتقنين وجدوا أنفسهم يخطبون «ديما جوجية» سعد زغلول ومصطفى النحاس غير المعقدة، وكلاهما جاءا من خلفيات فلاحية، وبذلك كان فى استطاعتهم اللعب بأمزجة الجماهير على نحو بارع، ولكن بسبب عدم وجود نظرية أو برنامج محدد كان الوفد دائم الاندفاع، وله تأثير كبير وله نفوذ عندما يكون فى المعارضة. وفى كل مرة تجرى فيها انتخابات حرة يعود الوفد بأغلبية ساحقة، وراح يشق طريقه بصعوبة، ثم بدأ الجانب المظلم منه فى الظهور، فقد كان قاداته مهتمين بلا موارد بجمع الثروات بشتى الطرق والوسائل الممكنة حتى أصبح فساد الوفد نكات تتردد فى قاعات الموسيقى. وتابع الناس فى المقاهى والبارات غرائب حرم النحاس باشا وأسرتها خلال الثلاثينات والأربعينات من القرن العشرين بضحك كالبكاء، كما أن صورة الوفد لم تتحسن كثيراً بسبب النزاعات المستمرة بين قاداته، وبسبب الأحزاب التى انشقت عنه. كان الوفد ببساطة فى المعارضة ثلاثة أرباع الوقت، فمن ناحية غرر به القصر بدهاء ليبقى خارج الحكم، ومن ناحية أخرى فعل البريطانيون نفس الشيء وكلاهما لم يطق بقاءه فى الحكم إلا عند الضرورة كما حدث عام ١٩٣٦ من أجل التوقيع على معاهدة ١٩٣٦ بين إنجلترا ومصر.، وكذلك فى أكثر الأوقات حرجاً وخطورة فى الحرب العالمية الثانية وذلك للحصول على ثقل التأييد الجماهيرى خلف الحكومة.

إن مثل هذه المناورة ضد حزب يمثل الأغلبية - إن كان ممكناً بالمرّة - تفسره حقيقة أن إعلان ١٩٢٢ الذى جعل من فؤاد ملكاً على مصر، كان بمثابة عودة زمام السلطة إلى أسرة محمد على، فطبقاً للدستور كان لدى الملك سلطة تعيين رئيس الوزراء وتعطيل البرلمان، ومثل أغلب الملوك الذين يحكمون دون موافقة شعوبهم، كان ينظر إلى الوفد وجماهيريته بعين الشك لأنه كان يعلم أنه فى أعماقه جمهورى الهوى، وعاطفياً يقف فى وجه

المعارضة للقصر ولطبقة الباشوات المميزة الذين كانوا رجال الملك. وكان نفوذ القصر والباشوات يضمنه وجود الحاميات البريطانية، وأن يكون الجيش المصرى تحت قيادة كبار الضباط البريطانيين، وكان فى مصلحة القصر كلية أن يعقد اتفاقا صلبا وطويل المدى مع إنجلترا، وطوال فترة خلط الأوراق الذى لا طائل منها فى السياسة المصرية خلال العشرينات والثلاثينات من القرن العشرين، بل فى واقع الأمر حتى قيام ثورة ١٩٥٢ كانت السياسة تسير على نفس الوتيرة: القصر يحاول الحكم بدون مساندة الجماهير، الوفد يريد التخلص من البريطانيين وفى نفس الوقت من طبقة الباشوات الرجعية المغلقة على نفسها، والبريطانيون (الذى ظلوا فى مصر لأسباب استعمارية واستراتيجية) القوة الحقيقية يقعون فى الخلفية. لقد كان الوضع أشبه بمثلث سياسى تمكن ضلعان فيه من وضع الضلع الثالث عند حده ففى كل مرة تجرى فيها انتخابات نزيهة كان الوفد يعود إلى الحكم بأغلبية ساحقة، وما أن يشرع فى إثارة مسألة إخراج الإنجليز وتصبح مثارا للقلق، حتى يقوم الملك فؤاد بحل البرلمان ويحكم بالقرار الملكى، ولم يكن فؤاد الذى تلقى تعليمه فى إيطاليا بعاشق للبريطانيين الذين كان مفوضوهم ميالين للضرب على الأصابع الملكية بآلم، إلا أن الملك والباشوات على حد سواء كانوا فى حاجة إلى الوجود البريطانى كنوع من سياسة تأمين بقائهم الأبدى بالرغم من أنهم كانوا ينافقون الجماهير فى مطلبها بالجلاء.

هكذا كان الحال، ففى كل مرة كان فيها الوفد يصرخ محدثا ضوضاء لكى يخرج البريطانيون، كان يبعد عن الحكم عن طريق الوسائل الدستورية إذا ما تجاوز حدوده، بينما كان رجال القصر يتظاهرون بدعم الحركات المطالبة بالجلاء نفاقا، وفى الخفاء يؤكدون لدار المعتمد البريطانى أن ذلك مجرد استهلاك محلى وأنهم فى الحقيقة يؤيدون بقاء البريطانيين.

ومهما ما قد يقوله ضلعا المثلث الآخران، ومهما ما قد يفعلانه، فإن البريطانيين كانوا هم القوة المهيمنة، وكانوا ينوون البقاء بقدر ما كان يناسبهم، وقد أعلن المندوب السامى اللورد لويد - حاكم بومباى السابق - عن ذلك بوضوح، والذى كان الحل عنده لأى مشكلة هو إرسال بارجة

حربية، حتى ضاقت به الهوايتهول ذرعا، فاستبدلته بالسير بيرسى لورين Percy Lorraine الذى كان يميل نحو الأسلوب الدبلوماسى.

ولأنه كان يمتلك ملعبا لسباق الخيول، « وسنيور » بمعنى الكلمة، فقد كان السير بيرسى لورين خبيرا في تهدة الأوضاع الثائرة، كما لعب أسلوبه المامل وشعبيته الشخصية دورا كبيرا فى تمهيد الأرضية لعقد معاهدة ١٩٣٦. كان السبب الرئيسى لعقد هذه المعاهدة هو تدهور الموقف فى العالم إذ لم يكن من المستطاع تجاهل الغزو الإيطالى لكل من طرابلس والحبشة، وصدور التهديدات الداعية للحرب من قصر بلانزو فينيسيا Palazzo Venezia فى روما(*) ومن أجل اعتبارهم الدولى، لم يكن البريطانيون على استعداد للسماح تحت أى ظرف من الظروف لحدوث تآكل فى وضعهم المهيمن على البحر المتوسط، ومن ثم كان واضحا أنه لابد لهم من العثور على حل للوضع فى مصر. ذلك الوضع الذى كان قابلا للانفجار فى أى لحظة. وعن طريق المناورات اللبقة أمكن التوصل إلى اتفاق بين أضلاع المثلث الثلاث. فقد أجريت فى عام ١٩٣٦ الانتخابات، وكما هو معتاد جاءت بالوفد إلى السلطة. وتوصل النحاس باشا الذى كان على رأس وفد من الوفدين وبعض القيادات السياسية. والأحزاب الأخرى إلى اتفاق معقول مع لندن بعد لى طويل. فلقد كانت معاهدة ١٩٣٦ وثيقة واقعية فى ضوء الظروف التى كانت سائدة فى ذلك الوقت. إذ أعلنت انتهاء الاحتلال العسكرى البريطانى لمصر، فى حين أن بريطانيا احتفظت لنفسها بحق وضع قواتها على طول قناة السويس ما دام التحالف قائما والذى كان ينتهى عام ١٩٥٦، ما لم تمد المعاهدة باتفاق الطرفين. كما ألغت نظام الامتيازات الأجنبية، ووافقت بريطانيا على تبنى طلب مصر للحصول على عضوية مقعد فى عصبة الأمم كدولة مستقلة ذات سيادة، كما حرص الطرفان على تجنب طرح مسألة السيادة على السودان، غير أن الحظر الذى كان قد فرض على المشاركة المصرية فى الحكم الثنائى عقب اغتيال السير لى ستاك قد رفع تماما.

(٠) مقر الدوتشى موسولينى زعيم الفاشية الرسمى.

ولقد حمل هذا الاتفاق قائمة مثيرة من التوقعات شملت تقريبا كل من كان له نفوذ في ميدان السياسة المصرية في ذلك الوقت. كما أنها أرضت تطلعات أحزاب الوسط والوطنيين على السواء، وحقق لمصر السيطرة التي تطلبها على القناة. لقد كان بالفعل خطوة حقيقية إلى الأمام بالنسبة لمصر أعطت كل الآمال بدعم علاقات الصداقة بين البلدين. غير أن هناك بعض العوامل التي خدعت عيون الناظرين في الكرة البللورية لقراءة المستقبل، وهي أن سحب الحرب التي كانت قد بدأت تتجمع سوف تؤدي إلى تزايد التدخل البريطاني في شئون مصر وليس الإقلال منه، فقد ظهر السير مايلز لامبسون Sir Miles Lampson الذي وقع المعاهدة نيابة عن بريطانيا في هيئة رجل ذي كرش كبيرة كما ظهر في الكاريكاتير - كرمز للبيروقراطية البريطانية. ومات الملك فؤاد الداهية عشية توقيع المعاهدة وخلفه ابنه النحيل البنية، العارم الشعبية، والمسمى بفاروق.

وبصرف النظر عن الفوران الثوري لعام ١٩١٩ الذي جلب السياسة إلى الشوارع، فإن مثلث القوة في العشرينات والثلاثينات من القرن العشرين كان قد انحسر، وتحول إلى دوامات من خلف القصور الملكية ذات الوجهات على الطراز الإيطالي، وأبواب قصر الأميرة شويكار ذات الطابع البندقي الحديث المنتشر في كل مكان (والذي أصبح فيما بعد مقر مجلس الوزراء) (*) وفي قاعات الاستقبال ذات الأعمدة في مبنى دار المعتمد البريطاني. وإذا أسقطنا من حسابنا بعض المجموعات المعممة التي كانت تتقابل في الأركان الجانبية به في قهوة الفيشاوي في خان الخليلي، وهتافات الشعارات التي كان يقوم بها الطلبة من آن لآخر حيث يفرجون عن انفعالاتهم بإشعال النار في ترام أو ترامين إلى أن تتولى الشرطة مطاردتهم، فإن الأجنيبي العادي (وهو لا يدرى أن القوات البريطانية تحميه) ظل يمارس أعماله بعدم اكتراث وترفع خاصة

(٠) أوصت الأميرة شويكار بأن يتحول قصرها بعد وفاتها إلى مقر لمجلس الوزراء. وقد توفيت عام ١٩٣٥ (المترجم).

إذا كان يعيش في الإسكندرية التي تقابل فيها أحداث القاهرة بهز الكتفين استهجانا، وبابتسامة الظرف الساخرة.

ولأن الإسكندرية - رغم أنها كانت المركز التجارى لمصر - كانت تعتبر نفسها مصرية بصعوبة. فموقعها الغريب الذى يشبه موقع جزيرة يكاد يفصل رأسها عن البر الرئيسى بحيرات مريوط ذات الملوحة الفاترة، يجعل فى استطاعة الإسكندرية أن تمتد أذرعتها التجارية الطويلة إلى قلب الصعيد الأسمر اللون، بل إلى أعرق من ذلك إلى قلب أفريقيا السوداء، غير أن محيطها وروحها كان أوربيا وليس مصريا تماما مثلما كان حالها عندما كانت عاصمة للإسكندر الأكبر منذ ألفى عام مضت. وإذا كانت اليوم لم تعد تتباهى كما كانت تفعل قديما فى العصور الإغريقو - رومانية بأنها المدينة التى تجلس على عرش البحر المتوسط، إلا أنها من الناحية الحسابية كانت أكبر ميناء تقع عليه (ولا يسبقها فى ذلك غير مارسيليا)، كما أن رجال الأعمال فيها كانوا يمثلون دول العالم كله، وعلى اتصال بعواصم أوروبا^(٢٣)، وليس عن طريق السيارة البنتملي Bentley التى تحمل رقم ٢(*)، بل عن طريق جوازات سفرهم أيضا، وحتى البطالمة المقدونيين كانوا نسيجا أوروبيا، غير مرتبطين سواء من خلال الثقافة أو الذوق العام أو طريقة المعيشة بباقي سكان الدلتا المتكدسين من خلفهم - حتى بعد تجديدات محمد على فى القرن التاسع عشر التى أولاها للمدينة، إلا أن هذه التجديدات لم تغير سوى القليل فى شكل المدينة ذات المباني من الرخام، والتى وصفها عمرو الفاتح العربى بأن تحوى ٤٠٠٠ قصر، ٤٠٠٠ حمام (٤٠٠ مسرح؟) ١٢,٠٠٠ متجر و ٤٠,٠٠٠ يهودى، أما المدينة الجديدة فقد نجحت بطريقة غريبة فى تحقيق الرخاء من جراء المضاربين فى بورصة القطن، وتجار البصل لكى تبعث من جديد فى نزعته اليومية فى ثوب ذى مذاق ورونق سهل، مثل أناقتها الماكرة التى كانت عليها أيام العصر الهليني.

وربما كان قدر كبير من روحها المشرقة يعود ببساطة إلى مقاهيها ذات

(٥) يقصد سيارة المعتمد البريطانى (المترجم).

طراز بلدان البحر المتوسط لأن ذلك لم يكن أكثر من مظهر تخيلي، إذ كانت التعاملات اليومية تتم في مناخ خائق من المخادعات والمغالطات التي دائما تحلق فوق حافة الممارسة الحادة، غير أن الحياة الاجتماعية كانت إلى مالا نهاية عالمية الطابع، ذات خليط مغر لحياة الدعة والوفرة التي تعكس صدى، بل تشبعها بالإشعاع الدولي القادم من روما وخاصة الارستقراطية القادمة من أثينا ولذة الحياة *dulce vita* مثل بالرمو أو الجزائر، فقد كان أمرا عاديا أن يخرج المرء ليتناول عشاءه أربع أو خمس ليال أسبوعيا، وأقل ما يتوقع المرء على المائدة ستة عشر شخصا حيث يتناولون أطباقا في غير موسمها، وكثيرا ما كانت تجلب من فرنسا أو إيطاليا. وغنى عن القول أنه لم توجد في ذلك المجتمع سيدة لا يمر ببالها أن ترتدى نفس الثياب أو حتى نفس القبعة مرتين (كان هناك بعض الحوانيت المفيدة التي تؤجرها لفترة المساء، أما في المناسبات الكبرى فقد كان من المعتاد *de rigueur* أن تطلب الواحدة ملابسها ومصفف شعرها ليصل من باريس صباح يوم المناسبة، وكن يتعرضن لخفقان القلب والقلق خوفا من ألا تصل في الوقت المحدد بالرغم من أنها كانت تصل في حينها) « فالمودة » كانت تعتبر إحدى وسائل الإمتاع. فالمضييفة إذا كانت تود أن تصبح سيدة مجتمع فإنها تتصدر المائدة التي يقدم عليها وجبة تتكون من اثني عشر طبقا، بينما تضع أمامها طبق شربة به ببساطة مجرد ماء ساخن، ومن آن لآخر يحضر السفرجي جهاز التليفون لتقوم صاحبة المأدبة بأجراء محادثة مفعمة بالحياة مليئة بآخر الأخبار، أو تقوم المضييفة بالتفاوض على صفقة مهمة، أما الصفقات التجارية فقد انسابت بلا توقف خارج المكاتب لتعقد حول موائد الشاي، أو في مقاصير خاصة ملحقة بدور السينما، حيث تعقد صفقات مثيرة للاهتمام مثل بعض الكماليات كشحنات ورق الحمام، أو علب البيرة. أما البرنامج اليومي للمتقنين من كل الأعمار فقد كان مليئا بكل أنواع التسلية: تناول القهوة المثلجة في مقهى ونكى *Wenki* صباحا، يتلوها تناول مشروب فاتح للشهية في مقهى بودروت *Baudrot*، ثم تناول الغداء في اليونيون بار *Union Bar* (الذي كان

فى أوج عصره ربما أحسن مطعم فى أفريقيا) ثم ممارسة لعبة الجولف أو البولو بعد الظهر فى النادى الرياضى (اسبورتىج كلب) Sporting Club. ومن خلف النوافذ ذات الإطار النحاسى لنادى اليخت الملكى بتراءى طيف العجائز من النساء بشعورهن المصبوغة باللون الأزرق، وبالألماس لى يتباهين بأنهن من علىة القوم (beau monde) وهن يحملن من خلال نظارات الأوبرا المقربة ليشاهدن مجموعات الشباب وهم يتلقون المساعدة فى مراكب شراعية تنطلق بسرعة للقيام بنزهة بحرية فى الميناء وقت العصارى، مزودين بجهاز الجرامافون وعلب الفطائر المغطاة بالكريمة. وفى داخل حجرات النادى لم يكن مسموحا بارتداء زى الإبحار، فقد حدث ذات مرة عام ١٩٤٢ أن طلب سكرتير النادى الإنجليزى من مجموعة تضم: ملك اليونان، ونيل كوارد Noel Coward ولورد كيس Lord kayes أن يغادروا المكان لأنهم كانوا يرتدون السراويل البيضاء القصيرة الخاصة بالبحرية.

وخلال فصل الشتاء كان تقام حفلات الرقص مرة أو مرتين فى الفنادق المختلفة، أما كازينو سان ستيفانو فقد اشتهر بالديكورات ذات المغزى التى كان ينفذها بمهارة مهندس الديكور الروسى رانكوفيتش Rancovich فمثلا عندما أضرب عمال الفحم فى أوروبا، صمم قاعة الرقص فى هيئة منجم فحم. كانت حفلات الشاى الراقصة th dansants كثيرة ومتعددة، أما سهرات الشاى th prolonges فى البيوت الخاصة فقد كانت نادراً ما تبدأ قبل الساعة والنصف والتى كانت فى الحقيقة تشتمل على بوفيه عامر بالوجبات السريعة. هذا كله يعنى أن النساء المتتبعات لأحدث المودة كن يرتدين ثياب السهرة أغلب الأمسيات. أما الرجال فقد كانوا أقل اهتماماً بزي السهرة، حتى أن رئيس الجالية اليونانية كان حظه سيئاً عندما ظنه البعض جرسونا! لقد كان جمال السكندريات وعلو ثقافتهن، ولطف الرجال يكاد أن يكون شيئاً أسطورياً، وبالفعل كان كل شىء يدور حول الجنس اللطيف مع شىء من الغرابة أو النرجسية، والتى جنباً إلى جنب مع حب المال تمثلان الرغبة الوحيدة الحقيقية عند السكندريين، والتى كانت المحك ليس لدهائهم

الجاد الماكر فحسب، بل لصداقتهم الدافئة المفعمة بالنفاق. هكذا كانت الثقافة في موطن افلوطين Plotnus وأنسطاسيوس تكاد تلمس سطح حياة الناس المكرسة لراحة البال والرفاهية. فكثير من الشخصيات المرفهة تتقلها سيارات الليموزين إلى حفل موسيقى في قاعة الهامبرا Alhampra أو إلى موعد في الأتليه L Atelier وكانت قادرة على التفاهم بست لغات، لكنها لم تكد تجيد واحدة منها. ولكن بالرغم من كل عيوبهم كان هناك سحر مقدر ومتألق لدور الإسكندرية في البحر المتوسط، والتي ماتت وخمدت الآن مثل المدينة الإغريقية للبطالمة التي ألهمت إ.م فورستر E.M Forster لكي يؤلف أحسن كتاب مرشد كتب حتى الآن عن أى مكان، ويرسم لورانس داريل Lawrence Durrell ملامح تدهور جوانبها التي كانت مشرقة والتي دفعت بكافافي Cavafy أن يصبح شاعر المدينة الأول. هل أدرك كافافي أن الإسكندرية التي يبغيتها قد حكم عليها بالفناء؟ ربما أدرك ذلك لأنه عندما رجع بذاكرته الفى عام إلى الوراء، حيث كان انطونيوس يعانى سكرات الموت بدأ قصيدته بطريقة غريبة كما لو كان يكتب تأبيناً لمدينته الوهمية التي كان وقتذاك شديدة الازدهار، وواقعة من نفسها، لكنها فجأة تتحلل إلى مجرد ذكرى واهية تحمل عطر الياسمين، واليوم كل ما تبقى من المدينة التي أحبها حبا جما هو مجرد الشوارع، والمبانى، والنسيم القادم من البحر كالبلسم، الشافى والتي كتب وداعاً لها كما لو كان يتباً قال فيه:

إذا سمعت فجأة عند انتصاف الليل ترنيما

من منشدين عابرين يعزفون فى الدجى لحنا شجيا

فقم ولا تتدب أقول نجمك الذى قد غاب

أو سعى عمرك الذى قد خاب

أو كل ما دبته فبات وهما كالسراب

عليك أن تكون قد أخذت أهبتك

مثل الكماة درعا لشجاعتك

حتى تقول للحبيبة وداعا يا إسكندرية
وقبل كل شيء لا تخادع نفسك العصية
لا تقل كان مناما فصحت
أو أن أذنى أخطأت أدرك صوت
حذار من تلك الأمانى الخاويات لا تدعن لهن
عليك أن تكون قد أخذت أهبتك
مثل الكماة من زمن
عليك أن تكون أهلاً للمدينة
فقم إلى الشباب فى سكىنة
أنصت إلى الأنغام فى شجن
لكن بلا صلاة أو شكاة من جبن
هذا انقسام الزمن
أنصت إلى الألحان فى آلات سحر عبقرية
علوية الأوتار صوفية
هذا وداعى الآن يا إسكندرية
(قلها وزد)
تلك التى تضيع الآن من بين يديه(*)

(٠) صاغها شعراً لى الزميل الأستاذ الدكتور محمد عنانى رئيس قسم اللغة الإنجليزية.

الفصل الخامس عشر

بذور الثورة

كتب مسئول بريطاني في منتصف الثلاثينيات (من القرن العشرين) يقول: «أنه على الرغم من أن مصر يحكمها ملك، ويقدم له المشورة برلمان، لكن هذا النظام نظام مزعج لدرجة تبنيه أسلوب حكم طلبة المدارس، وذوى القمصان الزرقاء: لقد كان تلاميذ المدارس يفرضون رأيهم بالحجارة والزجاجات المهشمة، أما ذوى القمصان الزرق فبالخنجر والهروات المكسوة بالجلد»، ثم استطرد الكاتب موضحاً لصالح قراء مجلة: أضواء شرقية Oriental Spotlight: «هذان الحزبان السياسيان طويلاً النظر والمتعلقان قد اندمجا الآن في جبهة واحدة، ويطلقان على نفسيهما اسم «الجبهة المتحدة» أنها صيغة رخيصة لدرجة التواضع للحكومات، ولا تكلف شيئاً، فلا رواتب ولا أجور تدفع لزعمائها، وكل ما يتوجب على البلاد فعله هو تعويض شركات التزام عن العربات التي أحرقوها، وإعادة تركيب مصابيح الشوارع مرة كل أسبوع، وتعويض رجال البوليس عن جماجمهم المحطمة».

وربما أدرك قراء مجلة «الأورينتال سبوت لايت» ذلك التفسير. ولكن كما حدث كان أكثر الشخصيات الذين أطلق عليهم الميجور: س. جارفيز C. S. Jarvis «حكومة التلاميذ» حماساً شاب طويل القامة، ذا بشرة داكنة بلون زيت الزيتون، يبلغ من العمر سبع عشرة عاماً، وخلال الأحدى عشرة عاماً من دراسته في المدارس نجحت محاولاته في اجتياز مرة واحدة في المرحلة الثانوية، وثلاث مرات في المرحلة الابتدائية. فخلال شهر رمضان عام ١٩٣٥م أصدرت الخارجية البريطانية ما يمكن أن نسميه الآن بالبيان الروتيني من أجل سكب الماء البارد على اقتراح مصر لتخليص البلاد من القوات البريطانية. ورد النحاس باشا - زعيم الوفد - بتوبيخ روتيني من جاردن سيتي. إذ صاح قالاً: «إن المصريين سيحاربون ويموتون طالما بقي جندي انجليزي واحد على التراب المصري»: واستجابت له الجماهير - كما

كانت تفعل دائماً، فتدققت مجموعات من المظاهرات غير المنظمة بقودها الطلاب عبر الشوارع. ووقع صدام مع رجال البوليس تلقى خلاله ذلك التلميذ ذى البشرة الزيتية جرحاً أحدث فتحاً فى جبهته. وفى اليوم التالى وصفت الصحف هذا الصدام، وذكرت أن من بين المصابين وزير الحربية الذى تلقى كسراً فى جمجمته وطالب اسمه جمال عبد الناصر. وبعد انقضاء شهر وتحت ضغط موجات المظاهرات، وافقت بريطانيا على إجراء مفاوضات توجت بعقد معاهدة ١٩٣٦.

ولد جمال عبد الناصر فى ١٥ يناير عام ١٩١٨ فى حي « باكوس » بالإسكندرية ذلك الحى الملى بالأسواق، فقد كان أبوه رئيساً لمكتب البريد، وعندما نقل أبوه فيما بعد إلى قرية الخطاطبة الصغيرة الواقعة على حدود صحراء مصر الغربية، انتقل هذا التلميذ إلى مدرسة فى القاهرة، وهناك عاش مع عمه فى شقة صغيرة آيلة للسقوط فى قلب حي الموسيقى. كان عمه من الثوار وكان قد خرج لتوه من السجن بعد قضاء عدة سنوات لتنظيمه مظاهرات ضد البريطانيين.

أما بالنسبة له فقد بدأ الشاب جمال ينمي عاطفة وميلاً نحو العمل السرى، وتدبير المؤامرات، لقد كان ولداً صغيراً ولكنه عنيد، شديد الاعتماد على نفسه، قضى أيامه فى الحوارى الضيقة المزدهمة بحى الأزهر. فهو مثل نموذجى لابن الشارع الذى يتصف بالعداونية، لا يطيق أى سلطة بأى شكل من الأشكال.

لقد كان فى التاسعة من عمره عندما رحلت أمه، ومنذ تلك اللحظة لم تعد لحياة الأسرة أى معنى عنده، فقد اتجه أكثر فأكثر إلى التوقوع على نفسه، يضيف على أكثر الأحداث ضيوضاء ستاراً من السرية، تسعده المؤامرات والمؤامرات المضادة، شيئاً فشيئاً بدأ بتلقى من عمه مذاق الأحلام الثورية.

وفى أثناء المرحلة الثانوية سرعان ما تورط فى مظاهرات غذتها الأحزاب المعارضة، فقد انضم إلى حزب « مصر الفتاة ». وهو حزب

الشباب المصري، ولم يمض وقت طويل حتى راح يقضى أيامه متحدياً معلمية، ومحدثاً لأعمال الشغب في ساحة جامعة القاهرة، أو متلقياً أو منفذاً تعليمات الحزب. كان ذلك بالنسبة له أكثر إثارة من الجلوس في الفصل حزيناً، يسترجع ذكريات الأيام التي تدور بذاكرته أن أحد الكتب المقررة في دروس الإنجليزية كان كتاب البارونة أوركيزى Baroness Orczy المسمى Scarlet Pimpernel (كزبرة الثعلب القرمزية) (*) لقد كان يستمتع بهذه الرواية، وربما قال لنفسه: « هذا رجل بدأ حياته كما لو كان بدون فائدة، ولكن انتهى به المطاف أن يكون زعيماً ». ومن بين الأبطال الذين عرفهم أيام صباه «نيلسون»، وهكذا نسج التلميذ التأثير خيالاته الخاصة. فقد بدا لنفسه أنه بطل يبحث عن دور، وفيما بعد بوقت طويل عاد إلى نفس الفكرة في كتابه فلسفة الثورة (**).

وفى أثناء ذلك، ومع وجود أثر للضربة على جبهته، أصبح له ملف لدى الشرطة، وقد حاول ناظر مدرسته الذي ضاق ذرعاً بذلك الصبي الذي يسبب المشاكل، أن يتخذ من ذلك حجة لفصله. وكان رد الفعل أن قدم التلاميذ الآخرون التماساً طالبين إعادته، وعندما رفض الناظر ذلك، أعلنوا الإضراب، وهددوا بإشعال النيران في المدرسة، واضطر ناظر المدرسة إلى إحضار جمال في عربته الخاصة إلى المدرسة. وكان ذلك انتصاراً شخصياً لناصر - الأول في حياته.

وبعد مضي بضعة شهور، وقعت مصر وبريطانيا عام ١٩٣٦ معاهدة تعترف بالمساواة عند التعامل بين البلدين، وتحدد وجود القوات البريطانية بمنطقة قناة السويس المحددة إلى أن تصبح مصر ذاتها قادرة على ضمان

(٥) إحدى النباتات ذات أزهار قرمزية أو أرجوانية تغلق على نفسها حين تسوء الأحوال الجوية (المترجم).

(٥٥) جمال عبد الناصر: فلسفة الثورة، دار المعارف بمصر، سلسلة اخترنا لك ص ٢٦١، ٦٢ (شخصيات تبحث عن مؤلف)..... المترجم.

تأمين الملاحة عبر ذلك الممر المائي. ولقد استقبل هذا الاتفاق بالترحاب كنصر كبير تحقق لمصر، غير أن العينين النافذتين للشاب جمال عبد الناصر لم تكونا مقتنعتين. فالإنجليز لا يزالون فوق الأرض المصرية، وعلى أي حال انتهت أيام المظاهرات، وكان عليه الآن أن يفكر في مستقبله، فقد تقدم للالتحاق بالكلية الحربية، ولما لم يكن لأسرته أي نفوذ، فقد رفض طلبه. فالتحق لفترة وجيز بكلية الحقوق جامعة القاهرة.

وكان ذلك يعنى أنه سوف يعيش لوقت يكاد أن يكون غير محدد في بيت والدّه ولما كان عل علاقة غير طيبة بوالده وزوجه والده، فقد سعى مرة أخرى للالتحاق بالجيش بالتجراً على مقابلة سكرتير وزارة الحربية في مكتبة. ولقد تأثر اللواء بروح المبادرة لديه، وبالحماس الذى عرض بها حالته، ف سجل اسمه للعرض على لجنة الاختيار، وحتى ذلك الوقت كانت رتب الجيش العليا وفقاً على أبناء الأثرياء، فلكي يصبح المرء ضابطاً كان على المتقدم فى أغلب الحالات أن يقنع السلطات (بطريقة غير رسمية بالطبع) أن لدى أسرته دخلاً لا يقل عن ٢٠٠٠ جنيه استرليني سنوياً ليضمن افتراضاً أنه جزء من « المؤسسة »، ولكن بعد أن حصلت مصر على استقلالها عام ١٩٣٦، فتحت الكلية الحربية أبوابها أمام أبناء جميع طبقات المجتمع، وكانت خطوة أساسية - كما ثبت فيما بعد - إذ أن قادة ثورة ١٩٥٢ كانوا تقريباً جميعاً أعضاء دفعة المرشحين الذين اختيروا أساساً بناءً على هذه الشروط الجديدة، ورغم ذلك لم يقع الاختيار من بين المتقدمين سوى على عشرة فى المائة، وكان من بينهم لدهشته الكبرى - جمال عبد الناصر، وبعد انقضاء ستة عشرة شهراً تخرج برتبة ملازم ثان.

« كان أول تعيين له فى أسبوط التى تبعد بضعة كيلو مترات من قرية بنى مر التى يكسوها التراب الداكن، حيث كان لأسرته جذور فيها، وهنا وجد الفتى جمال ذاته، فقد كان يمثل أول جيل ابتعد عن طبقة الفلاحين الذين يعملون فى حقول صعيد مصر. ولقد وجد كتيبته تعمل جنباً إلى جنب وبالتعاون مع الضباط الإنجليز هذا من الناحية الرسمية، لكن كان غير راض

عن أسلوب التعالي التي تعاملوا بها مع الرتب المقابلة من المصريين، وذلك كان واضحاً للعيان. وكانت الدماء تغلى فى عروقه عندما يشيرون بسخرية إلى المصريين بألفاظ لا تليق مثل Gypies (المحتالين) و Wogs (السفلة)(*)(**).

ومن هنا تربت لديه عقدة الكراهية للعنصر الأنجليزى Anglophobia وكذلك كراهيته لرجال السلطة، فقد أدهشه أن يرى الرتب العليا من الضباط المصريين، وهم يمثلون عاراً للزى العسكرى الذى يرتدونه، فقد كانوا كسالى، فاسدين، فقدوا لياقتهم بالترهل، وكان غالباً ما يتفق مع الإنجليزى الذى قال أن رتبهم الأعلى تحدد حسب وزن كل منهم. وبالإضافة إلى ذلك كان يحتاج غضباً من الطريقة التى كانوا يتملقون بها البعثة العسكرية البريطانية، وكاد بغريزته أن يصبح تائراً.

وقد شاركه فى مشاعره بعض رفاقه من الضباط. وكان أحدهم هو أنور السادات والآخر هو زكريا محى الدين. وعندما كانوا يجلسون أمام خيمتهم فى المساء كانوا لا يتوقفون عن مناقشة سخطهم، وكانوا يقولون لبعضهم البعض أن «البلاد فى حالة من الفوضى يديرها الأجانب من أجل مصلحة الأجانب وحدهم»، وهؤلاء لم يستغلوا المصريين فحسب، بل كانوا ينظرون إليهم باحتقار أيضاً، بالرغم، أو ربما بسبب معاهدة ١٩٣٦ سيطر البريطانيون على البلاد، فقد وقعت مصر فى شباك الالتزامات السياسية والعسكرية التى كانت ضد مصالحها الحقيقية، والتى لم تستطيع الفكاك منها. وقد تساءل جمال عبد الناصر بأسلوب بليغ فى كتابه «فلسفة الثورة». «متى اكتشفت أن بذور الثورة قد غرست فى أعماق نفسى؟ لقد وجدت

(٥) وذلك بفضل سياسة حزب الوفد الذى كان يتجه إلى زيادة نفوذه الشعبى فى صفوف الجيش (المترجم).

(٥٥) أى الغجر أما الثانية فهى اختصار لمصطلح Wild Oriental Gentlemen. أى شخص مهذب شري شرس.

بذورها في أعماق نفوس الآخرين. بذور لم تثبت بعد بل أنها تطلعات مكبوتة تركت كتراث لنا من الجيل السابق «(*)». وبأبسط وأوضح الأساليب كان قد أصبح شاباً غاضباً وساخطاً. وكان يشاركه في ذلك الشعور في فجر عام ١٩٣٩ كثير من المصريين.

وعندما وضعت الحرب أوزارها، تفرقت وحدته، ووجد الملازم عبد الناصر نفسه، يعسكر في حامية نائية ومعزولة في أعماق السودان.

وكان الضابط الوحيد الذي كان معه وبرتبة ملازم أيضاً عبد الحكيم عامر، وحتى عندما اكتسحت جيوش هتلر بلجيكا وهولندا وفرنسا، وقامت القوات الإيطالية بغزو مصر، وتقدمت في طريقها حتى سيدى برانى، كان هذان المصريان يتحدثان بلا توقف عن المستقبل. وكان كل واحد يسر إلى الآخر بابتهاج: سوف يخسر البريطانيون الحرب! وربما كان في ذلك فرصة لنا للفكاك من النير البريطاني مرة واحدة وللأبد!

كان موقف بريطانيا إزاء مصر خلال تلك الفترة في غاية البساطة، فقد تعاطفت إلى حد كبير مع تطلعات المصريين، فقد منحت في معاهدة ١٩٣٦ الكثير من التنازلات بقدر ما استطاعت للاستجابة لرغبات مصر في الحصول على حق السيادة الكاملة، لكنها كانت ترى في نفس الوقت أن المسألة المصرية يجب أن تعرض في ضوء خلفية الأوضاع العالمية. فقد كانت بريطانيا غارقة - إلى حد ما بمفردها - في معركة الموت والحياة مع دكتاتورية ألمانيا النازية، وإيطاليا الفاشية، ولم يكن الوقت مناسباً لبدء القلق حول مشاعر المصريين. فليخبرها أو لشرها كانت مصر مسرحاً أساسياً للحرب، ويجب ألا تقع في حوزة العدو.

ولم يكن سراً أن كثيراً من المصريين كانوا متعاطفين مع دول المحور، فببساطة كما يقول العرب: « عدد عدوى صديقى »، أو لأن النازيين بدوا

(*) فلسفة الثورة نفس الطبعة ص ١٧ (المترجم).

كما لو كانوا سيكسيون الحرب، بل أيضاً بسبب العقيدة الغربية لنظرية الاشتراكية الوطنية التي وضعها الدكتور جيبلز Dr. Goebbels كانت بمثابة اللحم والشراب لأي واحد يتحمل وزر الصراع. لذلك فإن البطش العكسرى للحكم الشمولى سحر ألباب صغار الضباط مثل ناصر وزملائه والذين لم يدرى بهم أنها سوف تشكل تهديداً لمصر، ومن ثم لأن البريطانيين كانوا يشكون فى ولاء الجيش المصرى، فقد اعتبروه مصدر إزعاج لابد من إبقائه على الحياد التام، وهو تصرف كان له ما يبرره، فقد حاول القائد العام للقوات (المصرية) بعد طرده من الخدمة بناءً على طلب القيادة العامة البريطانية أن يلحق بالقوات الألمانية مستخدماً طائرة فاروق الخاصة(*)).

وبكل تأكيد بدت الأمور حالكة فى الأيام المبكرة لعام ١٩٤٢ بالنسبة للحلفاء، فخلال الشهور القليلة الماضية أغار العدو فى عدة طلعات على مدينة الإسكندرية، وكان بلاد اليونان قد سقطت فى يديه، كما وقع انقلاب عسكرى موالى لقوات المحور فى العراق، وكان الأمريكيون لا يزالون فى حالة من الذهول من جراء ما حدث فى بيرل هاربور Pearl Harbour، وكانت قوات روميل Rommel تتقدم عبر ليبيا. ولقد فعلت حكومة حسين سرى باشا كل ما فى وسعها لتؤازر البريطانيين، غير أن النقص فى الغذاء والأسعار المنطلقة كالصاروخ كانت قد بدأت فى إحداث قلق خطير بين عامة المصريين الذين شعروا أنه قد زج بهم فى حرب ليس لهم فيها مصلحة، وليقفوا مع الجانب الخاطئ. وسار التلاميذ فى مواكب فى الشوارع وهم يهتفون و « نحن جنود روميل ». ولقد أراد القصر - الذى كان من الناحية التقليدية موالى لإيطاليا - أن يؤمن نفسه من انتصار دول المحور الذى بدأ على وشك الحدوث، فقام بتعيين وزارة مقبولة لألمانيا وإيطاليا. ومن ناحية أخرى كان القلق يساور البريطانيين لدرجة اليأس لبقاء البلاد هادئة. وهو أمر لا يقدر على تحقيقه سوى النحاس وحده على رأس حكومة الوفد.

وفى مطلع عام ١٩٤٢ استقال سرى بعد أن أجبره البريطانيون على قطع

(٥) وهو عزيز المصرى.

العلاقات مع حكومة فيشي Vichy (*)، وبدأ كما لو كان الملك فاروق يمهّد الطريق لعلی ماهر باشا (الذی كانت اتجاهاته نحو المحور تثير القلق) لکی يعود إلى السلطة، ولقطع الطريق على ذلك قام السفير البريطاني السير مايلز لامبسون Sir Miles Lampeon الذی أصبح فيما بعد اللورد كيللرن Lord Kellern) بزيارة القصر. وبدون أن يدور ویلف حول الموضوع، أخبر الملك أنه لا یوجد سوى رجل واحد قادر على السيطرة على الوضع فی الداخل بطريقة ترضی الحكومة البريطانية فی وقت بدأ فیهِ الموقف الاستراتيجی أبعد بكثير من أن یكون مرضياً، وذلك الرجل هو النحاس باشا زعيم الوفد، ثم استطرد لسیقدم أنذاره: « ما لم أسمع حتى السادسة من صباح الغد أن النحاس باشا كلف بتشکیل الوزارة فعلى جلالتم تحمل عواقب ذلك ». وقد رفض فاروق، الأنذار. ولكن ما أن غادر السفير. حتى اتصل الملك تليفونياً بزعماء الأحزاب السیاسية المختلفة للقاءه من أجل تكوين حكومة ائتلافية برئاسة النحاس. وقد وافقوا جميعاً على ذلك فیما عدا النحاس نفسه الذی رفض أن یترأس حكومة ائتلاف، وأصر على تشکیل حكومة من اختياره الشخصی أى أن تكون كلها من الوفد، وما بین الطعم البريطاني القديم والسفارة، كان واضحاً أن صفقه ما قد عقدت.

وبعد التاسعة من مساء الیوم الرابع من فبرایر بدقائق تحرك جنود المشاة البريطانيون نحو میدان عابدين، ثم اتخذت وحدة دبابات ستیورات مارك Stuart Mark مواقعها وصوبت مدافعها تجاه القصر. وأخيراً وصلت سيارة اللورد كيللرن الصفراء من طراز « فانتوم ٣ » Phantom III تتقدمها عربة مصفحة إلى القصر، لكن بواباته كانت مغلقة، عندئذ اندفعت العربة المصفحة بقوة وفتحتها، ثم قاموا بتجريد الحرس الملكي من سلاحه، واتخذ السفير طريقه إلى مكتب فاروق یصحبه الجنرال ستون Stone القائد العام للقوات، وثمانية ضباط شاهرین مسدساتهم. وهنا بحث الملك الذی كان یبلغ وقتذاك الثانية والعشرين من عمرة والذی كان یراقب ما یحدث من خلال النافذة، -

(٠) حكومة فرنسا الموالية لألمانيا النازية (المترجم).

بحث عن مسدسه - وقد استشاط غضباً، غير أن ياوره نصحه بالعدول عن ذلك. لأن طلقة طائشة واحدة كافية لاسقاطه عن عرشه. ودلف اللورد كيللرن وجماعته إلى حجرة المكتب حيث كان فاروق جالساً إلى مكتبه. وقال السفير بطريقة فظة: «لقد جئت من أجل تلقى رد جلالتك»! ورد فاروق مظهراً بقدر ما استطاع كل الوقار: «لقد سبق لنا وأن أصدرنا تعليماتاً للنحاس باشا أن يشكل حكومة من اختياره».

وربما كان أكثر الحاضرين في الحجرة شعوراً بالخجل هو الجنرال ستون نفسه، فحتى ثلاثة أسابيع فقط كان يشغل وظيفة معاون الشخصى للملك، فقد أسر لبعض أصدقائه فيما بعد قوله: «لقد كان شيئاً بغيضاً أن ألقاه مرة أخرى بإنذار مثل هذا» غير أن الغاية تبرر الوسيلة وقد رد حزب الوفد ذلك الجميل بإخلاص للسفير البريطانى، وطوال العامين التاليين أبقى النحاس باشا البلاد ثابتة من وراء الحلفاء.

لكن بالنسبة لغالبية المصريين كانت صدمة الرابع من فبراير أمراً مزعجاً، فعن طريق اليد العليا ذات البطش ترك كيللرن جرحاً لم يندمل أبداً، وأكثر من ذلك، فبتحطيمه لمثلث السلطة الذى كان يسير مصر منذ وقت طويل، ساعد على سلب الثقة من القصر، وجعل من الملك عدواً، وفى نفس الوقت أظهر النحاس باشا كدمية يحركها البريطانيون، وكما وضع مكرم عبيد ذلك بقوله: «إهمال مصالح الأمة من أجل مصلحة البريطانيين» فالوفد الذى عرف منذ وقت طويل بأنه قائد الكفاح ضد البريطانيين لم يبرأ أبداً من وصمة العار بأنه جاء إلى الحكم على أسنة رماح البريطانيين. وقد كتب جمال عبد الناصر إلى صديق له خطاباً قال فيه: «أما القلوب فكلها نار وأسى، والواقع أن هذه الحركة... هذه الطعنة ردت الروح إلى بعض الأجساد، وعرفتهم أن هناك كرامة يجب أن يستعدوا للدفاع عنها» (*).

وارتفعت الأصوات الغاضبة فى نادى الضباط صائحين «لقد بصقوا على

(*) فلسفة الثورة نفس الطبعة ص ١٥ (المترجم).

رأس الدولة! وأن الملك لم يعد سوى صفر لا قيمة له، سجين قصره. لقد أهين جيشه، وأهينت أمته كلها، ولم تعد مصر سوى بلد محتل، تخضعها سرية دبابات واحدة»، وقام أحد أعضاء القيادة وهو البكباشي محمد نجيب بتقديم استقالته. وعرض ثلاثة من الملازمين «الشبان وهم: عبد اللطيف البغدادي وصلاح سالم، وأنور السادات، أنفسهم ليكونوا فريقاً انتحارياً يقوم بأى عمل يكلفون به ضد البريطانيين.

غير أن جمال عبد الناصر بدأ في ٤ فبراير عام ١٩٤٢ بالتخطيط للثورة بطريقة منهجية.

وسقطت طبرق، ودخل الفيلق الأفريقي مصر Afrika Korps، ثم سقطت مرسى مطروح. وأصبح روميل عند العلمين. ووصل رتل من الدبابات الألمانية إلى برج العرب التي لا تبعد سوى أميال قليلة إلى الغرب من الأسكندرية، كما صعد عمود من الدخان غطى سماء حي «جاردن سيتي» أظهر أن القيادة البريطانية العامة تحرق وثائقها السرية. وأجلبب عائلات البريطانيين عن مصر. وفي الثالث من يوليو كلما وردت الأنباء ساعة بساعة وهي تحمل أنباء تجعل الموقف أكثر يأساً، أعلنت سكرتيرة قيادة القوات أنها سوف تتزوج في الحال من ضابط مدفعية من روديسيا في صباح ذلك اليوم. وأعد مدير شبرد أفضل ما عنده من الشمبانيا لحفل الغداء، وقال بطريقة ساخطة: «إنه من الأفضل لنا أن نحتسيها الآن ونحن مازنا على قيد الحياة»!.

وقال جنرال بريطاني وهو يشرب نخب العروسين بطريقة ميلودرامية: «أيها السيدات والسادة... إننا نشهد سقوط إمبراطورية!!»^(٢٤).

وفي الخارج كانت الجماهير تجوب الشوارع وهي تهتف: «روميل... روميل»، وفي نادى السيارات الملكى والذي كان يترأسه الأمير عباس حليم، والذي كان جندياً في سريه الرختهوفن Richthofen (الألمانية) أبان الحرب العالمية الأولى، تمت مناقشة خطط استقبال الألمان، كما أن بعض الضباط

من بينهم أنور السادات تهامسوا أن الوقت قد حان للقيام بانقلاب عسكري لعزل النحاس، وإعادة على ماهر، والقيام بغارات على القوات البريطانية، والانضمام للمحور. وخطب المرشد الأعلى لمنظمة دينية متطرفة تدعى « الإخوان المسلمون » وهو الشيخ حسن البنا بنبرة صوفية عن مصر، وهي تحمل السلاح لتحرر نفسها من قيودها. كل ذلك حتى الآن كان كلاماً لا فعلاً. فقد ظل النحاس باشا يقف من وراء الإنجليز دون أن يهتز، قابضاً بشدة على الأمن، بل أنه أمر بإغلاق نادى السيارات، وألقى القبض على الطابور الخامس، مؤكداً الأمن والطمأنينة للمدنيين. ومرت لحظة القلق الحادة كحد « موسى الحلاقة »، وأوقف تقدم روميل عند العلمين، وبعد ثلاث شهور أخرى تعقبوه وهو يتقهقر عبر ليبيا. وانحسرت الحرب عن مصر، وسرعان ما أزاح الحلفاء الألمان عن شمال أفريقيا كلها، وبدأ غزو إيطاليا، وفتحت جبهة ثانية في نورماندى.

وفى القاهرة عين النقيب جمال عبد الناصر معلماً فى الكلية الحربية. وفى نفس الوقت تقريباً التحق صديقة عبد الحكيم عامر بكلية أركان الحرب. وكان ذلك فرصة مثالية للاتصال من أجل وضع البذور الأولى للثورة، فقد تخرج على يديه مئات من الضباط الشباب، كان يتفحص بهدوء وبطريقة منهجية كلا منهم على حدة وبدوره، منصتاً إلى ما قد يصدر عنهم من قول، وهو يقيس درجة النار التى تستعر فى صدورهم، لكنه قليلاً ما كان يتحدث عن نفسه، إذ أنه أغلب الوقت كان يشغل نفسه بقياس قدرات كل فرد من أفراد الثورة، التى كان قد بدأ بخطط لها. وشيئاً فشيئاً تكونت « جمعية الضباط الأحرار السرية » دون أن يوضع شئ على الورق بتاتاً لأن فى ذلك خطر كبير. فمن هم الضباط الأحرار؟ وما هى الأدوار الموكلة لكل منهم؟ هذا أمر لا يعرفه أحد سوى جمال عبد الناصر وعبد الحكيم عامر. إذا لم يكن هناك ما يشبه قوائم العضوية. غير ان التنظيم أخذ فى الانتشار، وتكونت التخصصات المختلفة فيه: مثل شعبة التمويل، وشئون الأفراد، والأمن، والأعلام، والإرهابيين المدنيين. وكانت كل شعبة تشتمل على عشرين خلية، وكل خلية تتكون ما بين خمسة إلى عشرة أعضاء. ولم يكن لدى أى ضابط

من الضباط الأحرار أى معرفة بالآخرين سوى أعضاء خليته. وأكثر الأشياء التى حرصوا عليها تماماً هى « شخصية القائد ». التى تم إخفاؤها بنجاح، حتى أنه بالرغم من وجود بعض تحركات الضباط التى عرفت لدى السلطات فى القاهرة، لم يكن فى مقدرة أحد خارج حلقة التآمر من تخمين مصدر الإلهام أو معرفة حتى بعد أن قامت الثورة من هو القائد الحقيقى، حتى أن التشكيل الأساسى للضباط الأحرار بقى غامضاً حتى لزملائهم، كما أن عادة ناصر فى لقاء كل واحد منهم على حدة فى كل مرة، وأن ينصت إليه أكثر مما يتحدث إليه، كان يعطى الإيحاء « أنه وعبد الناصر » هما الزعماء. هكذا صور خالد محيى الدين فيما بعد تكتيك الثورة فى مقال نشر فى إحدى الصحف. كما كتب بعد مرور عقد: « قرب نهاية عام ١٩٤٤ » كنت أتمشى فى شارع رمسيس فى صحبة أحد أصدقائى. وكان كلانا أعضاء فى منظمة سرية تأسست داخل الجيش عام ١٩٤٢، فجأة قال لى صديقى: « أسمع يا خالد. عندى موعد مع ضابط آخر، إنه شاب طيب سوف يعجبك تعال معى وقابلة ». ثم استدرنا إلى شارع الجلالى، وصعدنا إلى الطابق الثالث فى من مبنى ضخّم به وحدات سكنية كثيرة. وفتح لنا الباب شاب طويل القامة، وعرفنى صديقى به قائلاً: « النقيب جمال عبد الناصر. معلم فى الكلية الحربية ». وأخذنا جمال إلى حجرة الطعام، وجلسنا على الجانب المقابل من المائدة التى كانت تغطيها الكتب. ثم ابتسم لنا وهو يقول أنه يستعد للتقدم إلى اختبار بكلية أركان الحرب، ثم تطرق الحديث إلى التنظيم السياسى السرى الذى كنا جميعاً أعضاء فيه. وبدأ كما لو كان على معرفة به. وعندما هممت بالانصراف قال لى: « أود أن أراك مرة أخرى فى القريب العاجل. فهناك أشياء كثيرة سوف نتحدث عنها ».

كانت أساليب عبد الناصر على قدر كبير من الحذر حتى أن خالد لم يدرك أنه يتعامل مع زعيم الضباط الأحرار، أو أن ابن عمه زكريا محيى الدين كان أحد الأعضاء المؤسسين المسجلين فيه. لقد كان توخى الحذر هو الصفة المميزة لكل أنشطة التنظيم السرى. ولقد كان هناك بعض الضباط المتلهفين للقيام بعمل فورى، فقد اقترح أنور السادات، الذى كان قد زجت به السلطات

البريطانية في السجن بسبب تعاونه مع اثنين من الجواسيس الألمان الذين كانا يديران شبكتهما من غواصة على النيل - اقترح أنه يقوم بنسف السفارة البريطانية إلا أن عبد الناصر اعترض بشدة على هذه الخطة، مذكراً إياه برد الفعل الذي جاء في أعقاب اغتيال السير لي ستاك Lee Stack عام ١٩٢٤م، وبدلاً من ذلك بدأ أنور يخطط لعمليات اغتيال سياسية. فبعد محاولة فاشلة في وضح النهار للاعتداء على النحاس باشا زعيم الوفد، الذي أظهر نفسه كصديق شديد الإخلاص للبريطانيين، قامت جماعة السادات الإرهابية بالتركيز، على السياسى التالى فى القائمة: أمين عثمان باشا وزير المالية فى حكومة الوفد إبان الحرب، والذي أهله مجهوداته الراسخة فى تحسين العلاقات الأنجلو مصرية للحصول على نوط الفرسان الإمبراطورى (KBE) (*) من لندن. وقد لقي حتفه على أيدي الضباط الأحرار. فعندما كان يهيم بدخول النادى الفكتورى العتيق وقت الغداء فى أحد الأيام أطلق عليه النار من مسافة قريبة. غير أنه ألقى القبض على القتلة. وصدر على أنور السادات الذى ورد اسمه فى اعترافاتهم حكماً لمدة طويلة فى السجن. وبعد هذه الحادثة، شدد ناصر بقوة لوقف مثل هذه التصرفات، لأنها كانت تعرض التنظيم السرى كله للخطر. وركز فقط على نسج خيوط الثورة بأحكام فى هدوء وفى أماكن نائية، وهو ينتقل من بيت زميل لآخر، دائم البحث فى عيون شباب الضباط عن بريق التطرف التى تتم عن مرشح جديد. وفى أثناء ذلك كان منكبا على تعليم نفسه أصول وفن الثورة، واضعاً الأسس للانقلاب الذى أخذ على نفسه بأنه سو يقوم به يوماً ما.

(٠) هى اختصار Knight of the British Empire

الفصل السادس عشر

أقول شمس العهد البائد

لم تكن كل الجماعات الثورية في تلك الفترة تأخذ حذرهما، فقد أصبحت جماعة « الإخوان المسلمون » في ذلك الوقت، والتي يرجع تأسيسها أصلاً إلى عام ١٩٢٨ على يد الشيخ حسن البنا كحركة دينية لأحياء الإسلام، تعمل في العلن كمنظمة متطرفة، تنتشر نوعاً من التصوف العنيف، وأكثر صيغ النظريات القرآنية تطرفاً، وكان المرشد العام يقطع البلاد وهو يتلفح يعباءته الحمراء التي تكاد تخفى أغلب أجزاء وجهه، وهو يلقي مواعظة ضد وجود الكفار والامتيازات التي ينعمون بها، وعن فساد الأحزاب السياسية، وقد اعتبره بعض الناس أنه من أولياء الله الصالحين، أما البعض الآخر فقد ظنوه غريب الأطوار Eccentric، غير أن سحر شخصية حسن البنا جعلت الآلاف من الناس، وعلى رأسها العناصر اليائسة المتطرفة من حزب الوفد تتحدث بنفس النبرة التي كان الدراويش السودانيون يتحدثون بها عن المهدي.

وفي الأساس كانت رسالة الإخوان المسلمين رسالة انتقام وأمل: تميل نحو الهدوء في العمل أكثر من كونها قوة ثورية. وكان الإخوان المسلمون واضحين المعنى بأنهم مستعدون للعب الكرة مع كل من القصر والبريطانيين بينما في الظاهر يبدو وكأنهم يصبون اللعنات على كليهما.

ومنذ وقت مبكر حاول الضباط الأحرار، استطلاع إمكانية عقد اتفاق مع المرشد العام، لكن تبين لهم في النهاية أنه رغم أن خطاب الدعوة ذا تأثير بلاغي جزل، موجه إلى الغلاة من الناس الذين أعمتهم الكراهية، إلا أن الإخوان المسلمين في الحقيقة ليسوا سوى صمام أمان نسبياً لنشر السخط الذي عاد يجتاح الأمة من جديد. ولهذا السبب ذاته لم تتخذ السلطات أي إجراء ضدهم إلى إن ثم اقتفاء أثر موجة من الاغتيالات نسبت إلى الإخوان المسلمين في فترة ما بعد الحرب.

وفي نهاية الحرب العالمية الثانية وجدت مصر نفسها كدولة قابلة للانفجار

تماماً مثلما كانت بعد حرب ١٩١٤ - ١٩١٨. فالجيش البريطانى الذى كان يتوجب عليه أن يكون طبقاً لبنود معاهدة ١٩٣٦ قد توارى عن الأنظار ليتركز فى منطقة القتال، أصبح أكثر ظهوراً من أى وقت مضى. ولم يجد بقاء القوات طبقاً للمادة السابعة من نفس المعاهدة لتأمين وسلامة مصر غير قليل من السلوى من جانب أولئك المصريين الذى شعروا - ولهم بعض المبررات فى ذلك - أن بريطانيا والحلفاء يخوضون الحرب من أجل بقاء أنفسهم وليس من أجل بقاء مصر.

فقد كان فرض البوليس الحربى البريطانى لقواعد القانون العسكرى ذات القبضة الصارمة أحياناً فى كل مكان أمر يثير السخط. وذلك لما يقرب من اربع سنوات كاملة بعد انتهاء الخطر الذى كان تمثلته دول المحور لمصر. كما كانت هناك أسباب أخرى تبعث على السخط فمكاسب الحرب العارمة الأغنياء جعلت مرة أخرى أكثر غنى، فى حين ضرب التضخم الجماهير بشدة، ومن ثم زادت الهوة بين الطبقات الاجتماعية، فظروف الحرب حتمت مركزية التحكم فى الاقتصاد، وكذلك أدى تركيز كل شئون الأعمال فى القاهرة وحدها قد إلى تضاعف عدد سكانها فى أقل من خمس سنوات، بينما أدى العودة إلى الاستيراد إلى إغلاق الكثير من المصانع المحلية الصغيرة، والتي كانت قد ازدهرت أيام الحرب مما زاد من تضخم أعداد العاطلين. غير إن أكبر مصدر للسخط ربما كان عجز الحكومة الكامل. فالقيادة السياسية كانت لا تزال فى أيدي القصر والباشوات وكانت تسير من سئ إلى أسوأ.

فخلال الحرب وبعدها، استمر كبار الأقطاعيين يديرون إقطاعياتهم على طريقة الاستعباد الأقطاعى (فى العصور الوسطى)، وهم يجنون الدخول العالية من ارض الدلتا الثرية التى كان فى مقدورها أن تدر ثلاث محاصيل فى السنة وكان إنتاج الفدان الواحد يعطى دخلاً لا يقل عن خمسين جنيهاً. وفى أغلب الأمور أنه إذا قدر لأغلبهم أن يقوموا بزيارة لضياعهم، فقد كانت هذه الزيارة الروتينية عادة لمقر الدائرة فى القاهرة لمدة نصف ساعة عادة من أجل تحصيل بعض الأموال النقدية، وأجراء بعض المكالمات التليفونية

مع أصدقائهم فى الوزارة أو الدخول فى المراهنات على سباق الخيل التى تجرى عصراً، أو التحدث عن خصائص طراز حديث لسيارة ما، أو الحديث عن رحلة مزمعة إلى أوروبا. بعدها يقود الواحد منهم سيارته إلى نادى محمد على للدردشة لمدة ساعة حول أمور السياسة قبل تناول الغداء. أما الإدارة الفعلية لقطاعياتهم فكانت تترك فى أيدي الناظر الذى كان يمارس الغش من كل جانب، غير أنهم كانوا يعتمدون عليه فى متابعة الناخبين فى القرى المجاورة والذين كان أغلبهم يعمل فى الضيعة لكى يضعوا علامة الموافقة أمام اسم الباشا وقت الانتخابات.

وباستثناء بعض الشخصيات البارزة مثل طلعت حرب باشا الذى أسس مجموعة شركات مصر، وأحمد عبود الذى جعلته مجموعة شركاته الصناعية واحداً من أغنى الرجال فى العالم، إلا أن قليلاً من النبلاء المصريين غامروا فى مشروعات تجارية. فقد كانوا راضيين بترك الأعمال التجارية فى أيدي الأجانب، وأن يشرفوا بحضورهم من أن لآخر (بدافع المظاهر) اجتماعات مجالس الإدارة دون أن يعترضهم الخجل بأنهم مجرد أسماء، وربما كان السبب فى ذلك أنهم كانوا يشعرون بعدم الجدوى فى الدخول فى منافسة مع عبقریات رجال الأعمال الأوربيين واليهود فى مشروعات تتسم بالخداع، وربما أنهم أحسوا بعدم الفائدة فى إقامة مشروعات جديدة فى سوق تخضع للتحكم الصارم، أو لأنهم لم يكن يعينهم أبداً أى اهتمام جدى بالمشروعات، على نحو أو آخر. ما الأرض، وممارسة السياسة كانا كافيين الفترة إقامتهم الموسمية فى القاهرة، وقضاء الصيف الطويل فى أوروبا.

كان الأجانب الذين يملكون المصانع، وكذلك الأسر اليهودية الثرية أصحاب مستودعات البضائع، والمستوردون من الشوام، وبالمثل الملحقيين الدبلوماسيين يتحركون بحرية فى دوائر المجتمع الراقى يمارسون لعبة «البولو» و«الجولف» و«التنس» فى فترة ما بعد الظهيرة، يتلو ذلك الحفلات الفارهة. فمنذ وقت قريب استرجع مصرى من رجال العهد البائد الذكريات بلهجة يغلب عليها الحنين إلى الماضى فقال: «هل تتذكر الفترة من ١٩٤١ وحتى ١٩٥١؟ كم كانت رائعة. فى كل مساء ثلاث حفلات كوكتيل،

وتناول الغداء فى الأوبرج، ولعب القمار فى نادى السيارات إنى أتذكر فاروق وهو يلعب الورق مع بطانته: محمد سلطان، باروك، النبيل إسماعيل، إميل عدس ومن على شاكلتهم، ففى كل دورة من دورات اللعب كان يلقي إلى المائدة ١٠٠,٠٠٠ جنيه إسترليني. وقد خسر توتو عدس فى تلك الليلة ٣٠,٠٠٠ إسترليني. وهذا بالطبع لا يقارن كثيراً بما يحدث فى نوادى القمار فى مونت كارلو ولكنه كان يناسب القاهرة .»

ويكاد المرء يدهش مع وجود هذه المقامرات أن كان هناك عرف غير مكتوب يشترط على عضو النادى أن يثبت أنه مليونير، وأن يخاطب الأعضاء بعضهم البعض بلقب: صاحب السعادة!! كما كان عشاء ليلة رأس السنة من الشئون ذات الاعتبار، إذا كان يقدم فى قائمة الطعام ثلاثين أو أربعين صنفاً. وكانت بارات الشمبانيا فى كل حجرة، كما كان هناك بوفية دائم الخدمة على مدار الساعة لتقديم الوجبات لأى عضو لا يزال يشعر بوخزات الجوع، ولم يكن ذلك أمراً بعيداً عن المعتاد، فعندما تزوجت ابنة عبد الحميد الشواربى، اكتست أرضية الفيلا الشاسعة بالسجاد العجمى. وشمل البوفيه مائدة خاصة طولها ٢٠ متراً لتقديم الكافيار وحده الذى كان يقدم بوفرة كما لو كان عصيدة لآلاف الضيوف المميزين الذين رقصوا كل حسب اختياره على ثلاث فرق موسيقية. كانت معيشة الترف ذاتها Train de vie تمارس فى منتجعات أوروبا كل موسم صيف، ولذا كانت شكوى اندريا بادروت Andrea Badrutt صاحب فندق البالاس أوتيل فى سانت موريتز Palace Hotel, st Moritz بأن ثورة ١٩٥٢ قد دمرت تماماً مواسمه السياحية شكوى لها ما يبررها من أسباب.

ويجئ على رأس هذه الفئة المرفهة بل التى ينخر الفساد فيها شخصية الملك. فعندما جاء فاروق إلى العرش كان يحظى بشعبية عارمة تؤيده؛ فقد اتجهت قلوب الناس إلى ذلك الأمير الرشيق الأنيق الذى كان لا يزال فى سن المراهقة، عندما استدعى للعودة من إنجلترا على إثر وفاة والده المفاجئة عام ١٩٣٦. وقد زاد من شعبيته زواجه من « فريدة » تلك الفتاة الجميلة التى كانت فى مقتبل العمر. وتنعكس هذه الشعبية فى ان آلاف الأطفال الذين

ولدوا خلال تلك الفترة تسموا باسمه، حتى ألد أعداء الحكم الملكى انجذبت قلوبهم إليه خلال تلك الفترة، غير أن حصانة التعليم الذى تلقاه والذى توقف فجأة وهو لا يزال فى سن السابعة عشرة لم يقدم له الحماية من الوقوع فى مستنقع الفساد الذى كان مبعثه تلك الطغمة المتشربة بالروح الإيطالية المتواجدة بالقصر، كما أن الحرب تسببت فى حدوث انحسار «شيزوفرانى» تجاه الولاء له. وربما كان فى استطاعته أن يتغلب على هذه المعضلة لو أن أكثر مستشاريه تعقلاً وهو حسنين باشا لم يلق حتفه فى حادث انزلاق شاحنة بريطانية، أو أن اللورد كيلرن لم يواجهه فى يوم ٤ فبراير بطريقة جرححت كرامته بوضعه أمام اختيار حاسم: إما التنازل عن العرش أو الانصياع التام لمطالبه. فقد كان هناك أعضاء آخرون من الأسرة المالكة من أمثال الأمير محمد على، والأمير عبد المنعم بالذات على استعداد تام لأن يحلوا محله. كما كان الأمير عباس حلمى (*) يتفاخر وهو يكرر عدة مرات وهو جالس أمام بار نادى السيارات حكاية أنه قبل حدوث هذه المباغطة المفاجئة Coup de main انتحى به اللورد كيلرن جانباً وقال له هذا السفير: « أن الصبى يسئ التصرف. وإذا قررنا إحداث تغيير.. هل عندك استعداد لتولى العرش؟ »: وقبل أن يجيبه عباس أشعل سيجاره « البار اتاجاس » وقال: « ولو أننى أيضاً أسأت التصرف هل ستستبدلوننى بالأمير محمد على أو عبد المنعم ». عندئذ رد كيلرن بصرامة: « أظن أننا سوف نفعل ذلك! » عندئذ نفث عباس دخان من سيجارة ورد قائلاً: « إن الأمر كما لو كان يبدو نكتة! » قالها بشئ من السخرية والاشمئزاز. غير أن السفير لم يكن فى مزاج يسمح له بتبادل النكات فى مثل هذه الأيام، إذ وجد عباس حليم نفسه بعد بضعة أسابيع إنه رهن السجن لمدة عامين بناءً على أمر مباشر من كيلرن وذلك لأنه أقام حفل شامبانيا فى نادى السيارات ليلة سقوط طبرق فى أيدي الألمان. والحق يقال أنه لم يقيم هذا الحفل متعمداً فى تلك الليلة: لكنه كان حفلاً أقيم على شرف «بوبى الخياط» أحد أعيان الأقباط الذى تصادف عيد ميلاده فى ذلك التاريخ. وكان الحفل قد أعد له منذ وقت طويل قبل وصول الأنباء من طبرق.

(٥) كان لقب عباس حليم النبيل وليس الأمير (المراجع).

ويروى عباس حليم أنه بعد أن أطلق سراحه أخيراً، أن أول شخص قابله في نادى السيارات هو كيللرن الذى ربت على ظهره قائلاً بلطف: «يا فتاى العزيز: لقد مر دهر طويل منذ أن رأيته آخر مرة.. أين على ظهر البسيطة. كنت؟».

وربما لم يكن حال فاروق أفضل من حال ابن عمه لو لم يستسلم إلى الإنذار البريطانى فى مساء ذلك اليوم من شهر فبراير، إذ تحول هذا الحادث ليصبح نقطة تحول فى التاريخ المصرى، لأنها لم تكن فقط بداية العمل المعترف به بالنسبة لحركة الضباط الأحرار، بل كانت أيضاً اللحظة التى تنازل فيها (الملك) عن شخصيته، فمنذ تلك اللحظة فصاعداً يتفق المراقبون على أنه توقف عن الاهتمام بشئون الدولة تماماً، واتجه مواسياً نفسه بالملذات الشخصية، ويمارس بسخرية لعبة الملوك، جاعلاً مآدب الولايم فى حالة من الاستعداد من أجل أغراض ملذاته الخفية Boutades، لقد كان أمراً مسلياً بالطبع أن يقدر الواحد على وصف كيف أن فاروق كان يقود عربته الستروين السوداء من طراز جانجستر Gangster وهو يدور عدة مرات حول ميدان الأوبرا وهو يسير فوق الرصيف، يستخدم بوقها المصمم بحيث يشبه صوت صراخ الكلب الذى دهسته سيارة. أو أن يصور ما حدث فى استراحة وادى السنطرون عندما وصل رهط ملكى فى منتصف الليل وهم يعيشون فى المكان فساداً. وكان من بين وسائل تسلياته عمل قوائم لكبار رجال الأعمال الذين تواروا عن الأنظار لأن فاروق كان يسعى وراء زوجاتهم، وكان من بين الطرائف التى تناقلتها الألسن حكاية الملك عندما كان فى زيه المدنى وقد أطلق لحيته عندما تلقى صفة على وجهة من إحدى السيدات التى ظنته ضابطاً بحرياً على أثر قيامه بقرص مؤخرتها. كل هذا ما كان ليحسن من صورة التاج.

ولقد تطور لديه مزاج ساخر Falstaffian ازداد مع ازدياد حجمه كان يهيئ له فرصة المزاح من آن لآخر على حساب البريطانيين، إذ حدث ذات مرة فى نادى صيد الطيور والأسماك الملكى Royal Shooting & Fishing Club، والذى سمح لرجال الخدمة العسكرية من جيوش الحلفاء بالعضوية

المؤقته فيه، غير أن الشرطة العسكرية للحلفاء قررت ان يكون الدخول إليه وفقاً على الضباط وحدهم. وصل القائد العام البريطاني بصحبة عدد من كبار الضباط جميعهم متألقون بالشرائط الحمراء، وقبعاتهم ذات اللون الذي يجمع ما بين لون صفار البيض وبياضه، باستثناء واحد أقل منهم في الرتبة وهو بدرجة مقدم. ومن على مائدته على الجانب الآخر من القاعة كان الملك فاروق ينظر إلى كبار الضباط بامتعاض، ثم فتح الباب فجأة ودلف جنديان نفر من نيوزيلاندا وساراً حتى جلساً على إحدى الطاولات، وطلباً أن يشربا البيرة. وكان من الواضح أنهما غير مدركين لملاح الغضب التي كانت ترمقهم من طاولة القائد العام، وبعد برهة قصيرة، نهض المقدم بإيمائه من الجنرال، وسار إلى طاولة الجنديين وقال لهما وهو يدون أسماءهما وأرقامهما: « أنه محظور عليكم الدخول إلى هنا. وعليكما مغادرة المكان فوراً! » وقبل أن ينهض الجنديان النيوزيلنديان أقبل كبير الأندال مهرولاً وهو يحمل زجاجة شمبانيا كبيرة من نوع « الفيف كليكوت » الفاخر Veave Clicquot وبأنخناته رسمية إلى الجنديين، وضع لهما وهو يملأ كأسيهما بالشمبانيا. «مع تحيات جلالة الملك »، « وفي مقابل نظرات الغضب من طاولة القائد العام قابلتها ابتسامه ملكية متكلفة.

وأحياناً كانت المضايقات تصل إلى حد العلن، فقد روى عن الملك أنه أبدى ملحوظة في النادي السوري، بدون وجه حق - في حق اللورد كيللرن عندما قال: « أنه من الأفضل للورد كيللرن ألا يجلس على مائدة القمار نهائياً ما لم يكن لديه النية لتسديد ديونه ». أو ما حدث في أثناء حفل كان يقام في إحدى شقق الزمالك عندما أمضى فاروق المساء وهو يلقي بقبعات الضباط البريطانيين من الشرفة مسدداً مسدسه نحوهم بينما انبطحوا أرضاً!.

لقد استمر الهزل الملكي الماجن في جو البذخ لدرجة إخلاء الشوارع من حركة المرور لمدة ساعة أو أكثر قبل أن يندفع فاروق مسرعاً في عربته « الرولز رويس » القرمزية اللون، وقد اعتاد أعضاء نادي السيارات أن يجدوا وهم يسلمون قبعاتهم وطرايبشهم غير مكترئين لطاولة البواب وقد جلس عليها الملك وهو يلتهم طبقاً من القواقع، فأى شيء كان متوقعاً من فاروق.

ففى إحدى المناسبات الرسمية فى منتصف الصيف، كان عدد من كبار رجالات الدولة يصطفون ليقدموا أنفسهم للملك وكان من بينهم زوجة طبيب مشهور، وكانت شابة جذابة، وعندما جاء دورها انحنت بشدة لتجد أن فاروق قد وضع يده على كتفها مانعاً إياها ومنعها من النهوض، ثم قال لها بطريقة ودية: « يا له من يوم حار، دعينى أقدم لك شيئاً مرطباً » ثم تناول قطعة من الثلج الموضوع على المائدة من خلفه وأسقطها بين يديها.

ومن بين الطرائف التى كان مجتمع رجال الأعمال فى القاهرة يتتدرون بها ما حدث ذات مساء فى شرفة « الروف جاردن » فى فندق سميراميس، عندما تصادف وجود حفل أقيم بمناسبة زيارة رئيس شركة «الكوكاكولا»، فى نفس الوقت كان هناك حفل آخر يقام احتفاءً برئيس شركة «البيبسى كولا» وهو موقف مناسب رأى أن لا يفوته. فبعد لحظات جمع كل الحاضرين، وأمر بتقديم لرئيس شركة الكوكاكولا كأساً من البيبسى، بينما قدم للمسئول عن شركة البيبسى كولا كأساً من الكوكاكولا، ومع كل منها بطاقة تقول: «مع تحيات صاحب الجلالة». وكان يرفع كأسه ليشرّب فى نخب كل منهما، واضطروا مجبرين على شرب كل منهما فى نخب منتجات الطرف الآخر.

كان لعب القمار من أهم نزوات الملك فاروق، فكثيراً ما قضى الليل بطوله على موائده، وهذا يعنى أن أحداً من المقامرين لا يستطيع الانصراف، وإذا تصادف وكانت « البرتيته » غير مكتملة، عندئذ كان يذهب بنفسه إلى بيوت الناس ويطلق نفير سيارته حتى ينتزعهم من أسرته. لقد كان يقامر بشئ من التميز، وكثيراً ما يلجأ إلى الغش رغم أنه كان فى الحقيقة هو الخاسر. وبعد قيام الثورة عثر على مفكرة فى قصر عابدين سجل فيها أنه فى سنة واحدة خسر ٨٥٠,٠٠٠ جنيه استرلينى. ولما كان يكره أن يخسر، يكن يتوانى عن التلاعب فى الورق لصالحه، حتى أن بعض رجال الأعمال الذين كانوا يعتمدون على مكرماته كانوا يخفون أنفسهم تماماً عندما تصبح صحبته مكلفة لهذه الدرجة. ففى إحدى المناسبات الشهيرة فى نادى السيارات سحب ثلاثة « ملوك » من ملوك الكوتشينة، وراهن على عشرة آلاف جنيه

فى هذه الدورة، وسرعان ما تصاعدت أرقام الرهان، ولما طلب منه ان يكشف عن ورقة، عندما كشف منافسه عن ثلاثة ملوك وعشرين بينما كشف فاروق عن ثلاثة ملوك مخفياً فى اليد الأخرى بعض الأوراق الراحبة سحبها من المائدة، عندئذ احتج اللاعب الآخر، غير أن الملك رفض احتجاجه، وأصر اللاعب الآخر على موقفه قائلاً: « يا صاحب الجلالة »: « أن أوراقى تتفوق على أوراقك فليس لديك سوى ثلاثة ملوك »! عندئذ رد فاروق بلهجة ملكية: « أنا الملك الرابع! » وعباً جيوبه بمبلغ الرهان كله!!!.

كانت النساء هن أكبر نزواته بلا شك، فمنذ يوم زفافه على فريدة الجميلة والتى تحملته طويلاً، كان زواجه على حافة الهاوية. فقد توالى قائمة لا تنتهى بمن ارتبط بهن، ولم يمض وقت طويل حتى توقف التأييد للملك ليتحول إلى مجرد أضحوكة فجأة. وقد ذكر أحد مؤرخى سيرته حديثاً أنه خلال حياته القصيرة نسبياً (مات الملك فى سن الخامسة والأربعين) أقام اتصالاً جنسياً مع ما يزيد عن خمسة آلاف امرأة!! ولم يعد سراً فى القاهرة أن شطحاته فى هذا المجال كانت من باب التظاهر، فأقل ما قيل كما ادعى بعض الناس إلى أنه كان عاجزاً جنسياً برغم كل أفعاله: لكن ذلك لم يكن من باب الحقيقة لأن المشكلة كانت أنه كان غير ناضج، وهذا بلا شك يحسب لصالح شذوذ سلوكه لدرجة كبيرة.

لقد كان فى كل نادى ليلى فى العاصمة، طاولة فى جانب خاص محجوزة على الدوام للملك، لكى يتأتى لفاروق أن يشرفه بحضوره بين حين وآخر على حد ما كانت تشير إلى ذلك الصحف، وكان فى أصحابه اثنان من الياورات اللذان قد يكلفان بحمل رسالة ملكية إلى أى امرأة شابة تستولى على خياله، وكثيراً ما كانت النتائج مربكة، ولكن الويل كل الويل لأى غريب يعترض على هذه الطريقة التى يتقدم بها.

فى إحدى المناسبات التقط مغنية كبارية، وخلال دقائق كان يسرع بها فى عربته الكاديلاك ذات الغطاء القابل للطي فى الطريق المؤدى إلى مصر الجديدة، حيث انتحى بعربته جانباً فى مكان يناسبه ومشبوه غير مطروق،

وبدا يمارس معها الجنس في المقعد الأمامي للسيارة بطريقة روتينية وبتصرف لا يليق إلا بطالب جامعي مراهق. وكما حدث، كانت شرطة الآداب تحرس المكان في تلك الليلة، ولفت هذا المنظر غير المعتاد والمشبوه فجأة أضواء سيارة الشرطة، عندئذ سحب فاروق مسدسه من جرابه، وأطلق بجنون وابلاً من الرصاص تجاههم، في نفس الوقت كان يضغط على دواسة البنزين لينطلق بسرعة جنونية مبتعداً بينما كانت سيارة الشرطة تقتفى أثره وتطارده، وعندما أجبر أخيراً علي أن ينعطف في ركن ويتوقف، ونزل الضابط من سيارة الشرطة متجهاً نحوه وهو مكفهر الوجه متأهبا لإلقاء القبض عليه، فوجئ أن شجاعته تخونه وهو يواجه جسد مليكه السمين الذي قام بصفعه على وجهه وجرده من مسدسه، ثم أطلق وابلاً من الرصاص نحو سيارة الشرطة مطلقاً قهقهة مدوية، ثم عاد إلى عجلة القيادة وانطلق بسيارته بسرعة حتى اختفى في دياجير الظلام.

وفي مناسبة أخرى مشابهة، وقع هو ومن كانت معه في كمين نصبته عصابة من قطاع الطرق في أحد الطرق الفرعية المتجهة إلى الريف بالقرب من حلوان، ولما كانت العصابة تجهل هويته، فقد قامت بسلبهما من كل نقائسهما. بل كانت العصابة على وشك من أن تقطع رأسه لولا أن زعيمها صاح بازدراء: « كفى دعوا ذلك الخنزير السمين فهو لا يساوي المجهود الذي يبذل في قتله ». وفي صباح اليوم التالي، وضعت كافة قوات شرطة القاهرة في حالة طوارئ. وفي الوقت المناسب ألقى القبض على أفراد العصابة. وتنفيذاً لتعليمات صادرة من فاروق نفذ في أفراد العصابة حكم الإعدام في نفس الموقع فيما عدا زعيمهم الذي صدر الأمر بجلده مائة جلدة لمجرد أنه أشار إلى مليكة بلفظ «الخنزير السمين» ومنحه ألف جنيه لأنه أبقى على حياته.

وأحياناً كان لطيشه جانب شرير، ففي إحدى المرات، وجد ضابط شاب برتبة نقيب، ومتزوج من فتاة جميلة نفسه منقولا فجأة إلى السودان، وبعد مرور أربعة أسابيع تمكن الضابط من الحصول على أجازة لبضعة أيام، وعندما فتح باب شقته علته الدهشة، إذ وجد قائد قوات حرس الملك، وهو

برتبة لواء سى السمعة، يجلس فى حجرة المعيشة، وبعد أن تبادل معه لدقائق محادثة مهذبة، اتجه إلى حجرة النوم، عندئذ صاح رئيس الحرس بلهجة حادة « إياك أن تدخل! » فأخذت الكبرياء الضابط الشاب، وكرر اللواء القول: «إنى أحذرك!»، وهو يسحب مسدسه: « إياك أن تفتح الباب! » وعندما وجد الشاب نفسه وقد جحظت عيناه يندفع إلى داخل حجرة نومه، رفع اللواء مسدسه وأطلق رصاصة سقط بعدها الضابط قتيلًا فى مكانه، وقال الذين يتهامسون الأسرار « إنها لجريمة وحشية »، ولكن المهم أن الذى كان يضاجع الزوجة فى الفراش هو الملك نفسه .

كان الملك لا يزال يستند إلى ولاء الجيش (ومؤمنا نفسه بوجود القوات البريطانية المعسكرة فى منطقة القناة) ومحاطا ببطانة فى القصر يتزايد عددها وهى ذات سمعة سيئة، وأخذ هذا الملك - ضخم الجثة - يزيد من مجونه على الملأ، دون اعتبار لما تبقى من كرامة العرش. وكانت النتيجة أنه لم يعد لديه أى أوهام (بالبقاء على العرش) فيما يبدو، إذ سرعان ما أصبح مغرماً بتكرار مقولته: « لن يبقى من الملوك فى العالم سوى خمس: ملك إنجلترا «وملوك الكوتشينية الأربعة» وهم: ملك القلوب King of hearts، وملك البستونى King of Spades، وملك الدينارى King of Diamonds، وملك الأسباتى (الوردة المثلثة) ». وكلما مر الزمن تضاعلت سلطة نفوذ وزرائه فى حين تزايدت أهمية مجلسه الخاص الذى كان يتكون من خادمه المعنى بملبسه (الشماشرجى)، وحلاقة، وسائقة الخصوصية، وقليل من الآخرين، وكان هؤلاء يتلاعبون بالوزراء، ويمنحون الترقيات بطريقة فجأة أثناء قيامه بالترتيب له لارتباطاته الشخصية، هؤلاء هم رجال السلطة فى المراحل الأخير من حكم فاروق!!

وفى ربيع عام ١٩٤٩، بينما كانت القاهرة تغلى وتزبد بسبب الإحباط الذى سببته مهزلة حرب فلسطين، تمكن هؤلاء من إقناع الملك بأن الوقت قد حان لكى يتزوج من امرأة ثانية. فقد أثار طلاقه - الذى تم وحرب فلسطين عام ١٩٤٨ فى ذروتها - رأى العام، لكن كان ضروريا لهيبته أن يكون لديه وريث ذكر يرث العرش من بعده، وقد هز فاروق كتفيه تعبيراً عن عدم

اكترائه، إذ لم يكن يعنيه أن يتزوج بأى امرأة أخرى، غير أنه أخبرهم أنهم ما داموا مصرين على ذلك - فهم على دراية بذوقه وعليهم أن يبحثوا له عن زوجة مناسبة.

وبعد مرور بضعة أيام، دلف خطيبان فى مقتبل العمر إلى محل جواهرجى مفضل عند الملك ويقع محله فى شارع سليمان باشا لاختيار دبل خطوبتهما، وكان للفتاة وجه صغير ممتلئ الوجنات، ومفعمة بالحيوية والنشاط ولها قوام ملتف Rounded وذات بشرة شركسية بيضاء كالقشدة. وبينما كان يعرض عليهما صواني « الخواتم » خطرت فجأة فكرة فى عقل الجواهرجى. ومن داخل مكتبة أدار قرص « التليفون » طالباً الرقم الخاص بالملك، وقال له: « يا صاحب الجلالة أظن أننى قد عثرت على ضالتك المنشودة التى تريدها » ورد عليه الملك أنه سوف يحوم حول المكان فى الحال، وعليه أن يطيل بقدر ما يستطيع بقاء الفتاة، خلال ذلك الوقت كان الخطيبان قد استقر رأيهما على الاختيار. وبأسلوبه الناعم أصر الجواهرجى أن يريهم كل ما عنده، وبعد مرور ما يقرب من نصف ساعة لمح الملك وهو يختلس النظر من خلال فترينه العرض وهو يتفحص الفتاة مقيماً إياها، وبعد لحظة التقت عيناه بعيني الملك وأعطاه إشارة الموافقة بضم أطراف أصبعه السبابة إلى إيهامة فى شكل دائرة، عندئذ شرع الجواهرجى بالقيام بالدور الموكل به. ومن داخل خزانة أخرج خاتماً ثميناً من الألماس النادر، واستبدله بالخاتم المتواضع الذى كانت الفتاة قد وضعتَه فى إصبعها، بينما علت الدهشة الشاب، ثم همس (الجواهرجى) قائلاً: « هذا أمر صاحب الجلالة!! ».

هكذا كانت الظروف التى أصبحت فيها ناريمان - فتاة مصر الجديدة - آحر ملكة على مصر.

ومنذ ثلاثة سنوات سبقت، أقنعت سلسلة من أعمال الشغب البشعة ضد التواجد المستمر للجيش البريطانى فى القاهرة القيادة العامة - ضد رغبتها الشديدة - أن الوقت قد حان لأن يقولوا وداعاً إلى حياة الدعة فى شبرد ونادى الجزيرة الرياضى. وفى الرابع من شهر يوليو (وهو يوم مشهود كما

يعرفه الأمريكيون) وبعد عشرة سنوات كاملة متأخرة عن التاريخ الذى حددته معاهدة ١٩٣٦، قام القائد العام للقوات البريطانية بتسليم مفتاح القلعة الفضى إلى رئيس الأركان المصرى، ثم غادر بعد تناول الغداء إلى مقر قيادته الجديد فى صحراء «فايد» الجرداء فى منطقة القناة.

ولقد أراح رحيل وجادلهم القوات البريطانية، وما تلاه من عقد مفاوضات أعطت خلالها حكومة المستر أتلى Atlee الانطباع باحتمال الجلاء أيضاً عن منطقة القناة الكثير من السخط الكامن فى نفوس الضباط الأحرار^(٢٥) إذ شعر بعضهم أنه فى قدرتهم الاسترخاء، إلا أن جمال عبد الناصر اعترض بشدة على مثل ذلك القول، وجادلهم بأن أهدافهم لن تتحقق حتى يغادر آخر جندي بريطاني أرض مصر، أما فى الحقيقة فقد كانت أهدافه تمتد وقتذاك إلى ما هو أبعد بكثير من ذلك، فقد كانت فكرة الثورة جزءاً لا يتجزأ من وجدانه، وظل يخطط بقدر كبير من الصبر والحيلة، مستطلعاً بسرية كاملة كل الاتصالات الممكنة، وكما يتذكر ثروت عكاشة: «لقد كان حقاً دينامو.. دائم العمل والقراءة والنقاش» مستبقاً اللحظة التى يقوم فيها بانقلابه اليأس ضد شئ بدا لناظرية أنه يخلق روح البلاد.

غير أن جماعة الضباط الأحرار وجدت نفسها فجأة فى عام ١٩٤٨. تتورط فى مغامرة من نوع مختلف. فقد صوتت الأمم المتحدة بالموافقة على تقسيم فلسطين. وكانت بريطانيا قد أنهت انتدابها فى الخامس عشر من شهر مايو، وأعلن اليهود قيام دولة إسرائيل المستقلة، وأصدر العرب أوامره إلى قواتهم للسير إلى فلسطين. لقد كانت حرب فلسطين بالنسبة لأغلب الضباط الأحرار تجربة ملتهبة، فقد لقي خلالها الكثير منهم مصرعه أو تلقى جروحاً، وكان البعض منهم قد ذهب إلى جبهة القتال يملؤه الحماس الوطنى، ولكن عندما عاد كان قد تجرد من الوهم وأصبح أكثر نضجاً، أما البعض الآخر مثل اللواء محمد نجيب الذى تلقى جرحاً للمرة الثالثة، والصاغ جمال عبد الناصر الذى تلقى جرحاً هو الآخر قد حققا شهرة لنفسيهما غير أن الحملة كانت إخفاقاً يدعو للسخرية، فالبرغم من شتى أنواع التحريض والإثارة التى

أذاعها راديو القاهرة في شكل تقارير تتحدث كيف أن القوات المصرية قد قامت بتدمير كيבוترات العدو: « وهي تهتف عاش الملك فاروق القائد الأعلى المظفر للجيش! ». أما الحقيقة فإن أغلب القوات ولت هاربة لأنها لم تكن مسلحة تسليحاً مناسباً، وذلك لأن قيادتها العليا كانت خالية تماماً من الفكر العسكري، وقلما غادرت القاهرة، كما أن أسلوب نقل الجنود وإعاشتهم كانت في حالة من الفوضى التي لا أمل يرجى من ورائها. فقد لقي المصريون هزيمة على يد جيش صغير من الإسرائيليين رغم تفوقهم عليه بنسبة خمسين إلى واحد، ولم يصمد سوى جيب صغير بالقرب من غزة، وبذلك أنقذ الجيش المصري بأكمله من إهانة الهزيمة، ولد وجد في عملية الصمود في الفالوجا كثير من الضباط الأحرار أنفسهم محاصرين من بينهم: ناصر، وعامر، وزكريا محيي الدين، وصلاح سالم، وعكاشة، وجدوا الفرصة التي حقق من خلالها الصاغ جمال عبد الناصر شهرته العسكرية من خلال هجوم مضاد مندفع منع الإسرائيليين من اجتياح المواقع المصرية. فلقد أصبحت الفالوجا بالنسبة له رمزاً، فقد كتب فيما بعد في « فلسفة الثورة » يقول: « هذا هو وطننا هناك... إنه « فالوجة » أخرى على نطاق كبير... وطننا هو الآخر حاصرتة المشاكل والأعداء وغرر به، ودفع إلى معركة لم يعد لها، ولعبت بأقداره مطامع ومؤامرات وشهوات» (*). كما كانت كلمات صديقه أحمد عبد العزيز أحد الضباط الأحرار الذي لقي مصرعه في الجبهة ترن في أذنه وهو يحتضر قائلاً: «إن ميدان الجهاد الأكبر هو في مصر» (**).

عاد جمال عبد الناصر من الجبهة وهو يحمل نفوراً وكرهية للحرب، مقسماً أنه لو كان الأمر بيده « لفكر ألف مرة قبل أن يقحم مواطنيه في الحرب إلا إذا لم يكن هناك من خيار عندما يكون شرف الأمة وسلامتها معرضين للخطر، ولا يوجد شيء آخر على إنقاذها سوى المعركة ». عندئذ وفي هذه الحالة يقرر العودة لحمل السلاح. لقد عاد هو ورفاقه وهم يتحرقون

(*) فلسفة الثورة - نفس الطبعة السابقة ص ١٤.

(**) فلسفة الثورة نفس الطبعة ص ١٣.

غضباً من « مؤسسة » الفساد الشامل في القاهرة التي ورطت مصر في هذا الموقف الشائن، بل كانت تتكسب علانية الأموال من ورائه، ولم يعد سراً أن القصر الملكي نفسه كان مشوش الذهن في صفقات سلاح مشبوهة قدمت خلالها معدات فاسدة لتزود بها القوات المسلحة، وشعر الجيش أن قادته قد غرروا به عن طريق خيانتته وفي جو الهزيمة الحزين الذي لا يقدر على التغطية عليه أي قدر من الدعاية واستعراضات النصر، تلاشت آخر شذرات الثقة في العهد البائد.

منذ وقت طويل كان الإخوان المسلمون يجنون ثمرات هذا القلق العام، وربما كان في استطاعتهم تدبير انقلاب ما لم يأمر رئيس الوزراء بقمعهم، وبعد مرور شهر اغتيل النقراشي باشا في مبنى وزارة الداخلية رغم أنه كان محاطاً بضباط الحراسة، وقام خليفته عبد الهادي باشا باتخاذ خطوات صارمة ضد المتطرفين، فقد زج في السجن بكل قيادات الشيوعيين، أما الآلاف من جموع أعضاء الإخوان المسلمين فقد وضعهم في معسكرات الاعتقال. وكان اغتيال حسن البنا جزءاً من خطة التطهير، حتى تنظيماً الضباط الأحرار كان على وشك من أن يكشف أمره، بل قام رئيس الوزراء باستجواب جمال عبد الناصر نفسه لاشتباكه في وجود مؤامرة يدبرها الجيش بالاشتراك مع الإخوان المسلمين، غير أنه بطريقة ما أثبت براءته من هنا الاتهام مذكراً مستجوبيه في عاصفة من الغضب الدال على استقامته بأنه قد عاد لتوه من جبهة القتال من أجل بلده، ورغم أنه سمح له بمغادرة المكان حراً طليقاً، لكنه ظل لوقت طويل والعيون مركزة عليه، ولم يحول دون الكشف عن ثوار الجيش سوى الحرص الشديد بالإضافة إلى قدر كبير من حسن الحظ.

وما أن قام إبراهيم عبد الهادي ورجال البوليس السري بمحاصرة العناصر الإرهابية، حتى حاول القصر أن يمتص غضب الرأي العام وذلك بإعادة الوفد إلى السلطة. وعلى الفور سنّ النحاس باشا عدداً من الإصلاحات الاجتماعية التي شملت توزيع أراضي الحكومة والأراضي الملكية وتخصيص ميزانية للمحتاجين، غير أنه سرعان ما تبين أن الوفد قد عاد إلى ألعيبه القديمة، ذلك لأن معظم المنتفعين كانوا من أقارب حرم النحاس باشا

وأقارب بعض الوزراء، وزاد على ذلك فضيحة لم يكن من الممكن إخفاؤها، وهى التلاعب بسوق القطن فى الإسكندرية فى أعقاب الحرب الكورية، ولأبعاد انتباه الناس عن فساد الوفديين كان لابد من إطلاق سحابة دخان لإخفائها. وبما أن للنحاس باع طويل وقديم فقد كان يجيد اللعبة ويعرف ما يجب عمله بالضبط. فدق الطبول ضد الوجود البريطانى كان على الدوام الطريقة المؤكدة لتحويل انتباه الرأى العام عن المشاكل الداخلية القائمة. وفى الثامن من أكتوبر عام ١٩٥١ ألغى النحاس معاهدة ١٩٣٦ من جانب واحد، تلك المعاهدة التى كان قد وقعها بنفسه، معلنا أن فاروق ملكاً على السودان كما هو ملك على مصر.

كانت تلك الخطوة غاية فى الخطورة لأنها كانت تتاسب هدف الحكومة كصمام أمان تنفث من خلاله العواطف المشبوبة. ولم يكن لدى النحاس نية لإعلان الحرب على إنجلترا والتى كانت تعتبر حماقة منه إذا ما وضع فى الاعتبار قوة القاعدة المتواجدة فى منطقة القناة، غير أنها أعطت مجالا لاستخدام سخط الغلاة فى القيام بعمليات فدائية ضد البريطانيين ولوضع بعض المزايا السياسية لصالحه عند بدء المفاوضات، وكما هو متوقع فقد تحولت الجماهير من الهتاف ضد جرائم الوفد لتندفع إلى الشوارع وهى تهتف: « يسقط البريطانيون ويحيا الوفد ».

وما أطلقت عليه صحف القاهرة بصيغة المبالغة: « معركة القناة » لم يكن يزيد عن سلسلة من « تكتيك اضرب واجرى » قامت به العناصر الفدائية، فقد كان من وجهة نظر النحاس أنه من الأفضل استخدام الإخوان المسلمين والشيوخ، وذوى القمصان الخضر التابعين لأحمد حسين فى إلقاء القنابل اليدوية على قوافل الحراسة البريطانية، أو القيام بخطط اللوريات العسكرية من وإثارة القلاقل فى العاصمة، غير أن الجيش المصرى لم يشارك فى هذا العمل بالرغم من أن الضباط الأحرار كانوا يقومون سرا بتقديم ما يقدرون عليه لمساعدة هذه الجماعات السياسية.

وبناء على إصرار السفارة البريطانية قامت قوات الحامية فى أول الأمر

بالرد المضاد على هذه الأنشطة (والتي لم يزد عن أكثر من أحداث مضايقات أقرب إلى التهديد) بما لا يجاوز الدفاع التقليدي عن النفس، فقد كان واضحاً للسفير أنه لا يمكن تحقيق أى مكسب إذا ما فقد الإنسان أعصابه، ولحق هذه الجماعات السياسية كان الأمر يتطلب التحرك خارج منطقة المعاهدة والتي يمكن حلها بالدبلوماسية حلاً وسطاً. وأنه بمجرد البدء فى حملة عسكرية، قد تتصاعد إلى الاحتلال العسكرى الكامل للبلاد. والذي لا يناسب من الناحية العملية فى الظروف القائمة (وهى حقيقة واضحة أغفلت عام ١٩٥٦).

كان لصبر الجنرال « إرسكين Erskin » القائد العام للقوات البريطانية حدود، فقد كان رجلاً عسكرياً وليس سياسياً، وعندما تبين له على إثر هجوم على نقطة تموين فى التل الكبير - أن قوات البوليس الاحتياطية (بولوكات النظام) كانت تعمل فى الخفاء جنباً إلى جانب مع الفدائيين، قرر أن يلقنهم درساً لا ينسوه. ففي الساعة السابعة من صباح أحد الأيام ضرب الحصار بالدبابات حول قيادة البوليس فى الإسماعيلية ووجه إنذاراً إلى قوات بولوكات النظام بتسليم أسلحتهم والاستسلام.

وقد وصلت أنباء هذه التطورات إلى سراج الدين وزير الداخلية وهو فى الحمام، وبكبرياء يتجاهل حقائق الموقف أصدر أوامره على الفور بالقتال « لآخر رجل وآخر رصاصة ».

وفى الخامس والعشرين من يناير قاومت بلوكات النظام بشجاعة وبسلاحهم غير المتكافئ لدرجة تثير الشفقة حتى نفذت ذخيرتها. وما أن قدمت الساعة الحادية عشرة حتى كانت مقر قيادة بلوكات النظام كومة من الحطام. فقد لقى أربع وستون جندياً من قوات البوليس مصرعهم بينما جرح مائة آخرون.

وقد حذر الأصدقاء المصريون أن الموقف جد خطير بالنسبة للأجانب، وما ان أقبل فجر اليوم حتى ساد إحساس ثقيل بالغثيان وبالقدر المشئوم، وبدأ

بضعة آلاف من المتظاهرين الغاضبين - إلا أنهم كانوا منظمين - يتجمعون بالقرب من الجامعة بينما تم نقل طابور من سيارات الرولز رويس التي تبرق في شمس الشتاء المشرقة من صالات العرض في وسط المدينة إلى موقع أقل تعرضاً للخطر. وعلى وجوه رجال الشرطة في بزاتهم السوداء علت نظرة تشف عن تهكم وهي التي كانت عادة تعلوها الابتسامة. وفي الدواوين التي كانت عادة تعج بالصخب كان هناك وجوم حذر. ومع اقتراب الثالثة بعد الظهر كانت هناك سحابة كبيرة ذات لون رمادي تميل إلى السواد تتصاعد فوق المدينة وتتحجج تدريجياً جنوباً الأهرامات. وجاء صوت متشنج على الهاتف يصرخ: « كل شيء يحترق.. أنهم يحرقون كل شيء... القاهرة كلها مشتعلة... كل شيء قد تحطم! » وسرت شائعات غاضبة عن حدوث مذبحة للأجانب. وفي وسط هذه الصدمة وهذه الكارثة الغامضة جاء صوت النحاس يعلن الأحكام العرفية. وبعد الكارثة قام بجولة وهو غائب الذهن في شوارع المدينة التي أضحت أطلالاً يتصاعد منها الدخان، وشوارعها مليئة بالحطام المبعثر، لا شيء فيها سوى قطع الدبش وحطام الأشياء التي التوت بفعل النيران حيث كانت معالم المدينة الشهيرة قائمة. كانت الجماهير صامتة وقد علتها الكآبة وفي عيونها بريق شرير ينم عن الثأر. أنه يوم السبت الأسود في السادس والعشرين من يناير عام ١٩٥٢، في ذلك اليوم انفجر بركان الغضب الذي كان محتزناً منذ عقود في شكل محرقة للانتقام. اشتغل فيه إطار العهد البائد بأكمله وغطته سحب الدخان.

الفصل السابع عشر

حركة الضباط الأحرار

قد لا يمكن أبداً معرفة العقل المخطط لحريق القاهرة تماماً مثل استعراض كل الحقائق حول حادثة اغتيال الرئيس كنيدي التي لم يصل فيها أحد إلى تفسير واضح حتى الآن فبعض الناس يعتقدون أنه من تدبير الملك لتشويه سمعة الوفد ، بينما البعض الآخر يعتقد أنه من تدبير الوفد لتشويه سمعة الملك . أو من عمل الشيوعيين على أمل الاستيلاء على الحكم من خلال أحداث الفوضى ، بل اقترح بعضهم الذين تتحكم فيهم غريزتهم اللاإرادية بأن أيدى البريطانيين التي تمتد إلى كل مكان ، بأن وراء ذلك كانت السفارة البريطانية . وأكثر الأجابات احتمالاً أنها نتاج حريق ذاتي من تدبير مؤامرة صامتة وغير مسئولة دبرتها السلطات والمتطرفون من كل صنف واتجاه للقيام بمظاهرة شيطانية فقدوا السيطرة عليها تماماً بطريقة سارت بها نحو الكارثة ، وكما يتضح من الموقف أنه كان في الإمكان تجنب ذلك كله كما حدث في موقف مواز بالإسكندرية حيث حالت الإجراءات الصارمة التي اتخذها محافظها مرتضى المراغى من وقوع أى عمل فوضوى .

فطوال الليل أدت أنباء مذبحة بلوكات النظام إلى غليان الدماء في العروق. فمنذ الصباح الباكر بدأت الجماهير تتجمع في الميدان الكبير أمام الجامع الأزهر . حشود هائلة تمثل كل عناصر السخط : الإخوان المسلمون والشيوعيون ، والاشتراكيون من ذوى القمصان الخضر ، والعامّة من الناس من لابسى الجلاية ، جميعهم يزأرون طلباً للنار . ولم يكن في مقدورهم أن يعلموا أن مجلس الوزراء قد اتخذ قراراً في جلسة عقدت عند منتصف الليل بقطع العلاقات الدبلوماسية مع بريطانيا العظمى ، والقبض على ثمانين من الإنجليز المقيمين كرهائن وسرعان ما تبين لهم أن رجال البوليس بدلاً من أن ينهالوا على رؤوسهم بالهراوات كما اعتادوا قد انضموا إليهم في المظاهرة بالفعل . ومن ثم لم يكن أمامهم عائق خاصة بعدما خطب فيهم وزير الشؤون الاجتماعية من شرفته قائلاً : "أنه يومكم سنثار لكم ! « .

ولمعظم ساعات الصباح لم تقم الجماهير بفعل شئ خطير غير الهتاف بالشعارات . لكن قبل الظهيرة وقع حادث هو الذى أشعل فتيل الحريق . ففي شرفه كاباريه بديعة فى ميدان الأوبرا ، جلس أحد الضباط يحتسى الويسكى فى صحبة إحدى مضيفات الكاباريه . عندئذ وجه إليه أحدهم اللوم لأنه يتمتع نفسه بهذه الطريقة المبتذلة بينما رفاقه يذبحون فى الإسماعيلية ، ووقع بينهما شجار ، فاندفعت الغوغاء إلى داخل الكاباريه ، وصبوا البرافين على الأثاث الموجود فيه، وفى لحظات كانت النار تتأجج فى المكان . وفى نفس ذلك الوقت تماماً كانت سيارات الجيب المعبأة بالرجال والبرافين تجوب أنحاء العاصمة المختلفة ، وبدأت المشاعل تؤجج النيران بطريقة منظمة من مكان إلى آخر . وكان تركيزهم بوجه خاص على الشركات والمؤسسات المعروفة بأنها إما بريطانية أو يهودية ، ولم يعرف أحد هوية هؤلاء بالرغم من أن شخصية رجل شرير محترف إشعال حرائق - قيل أنه من السفارة البولندية- كان دائماً متواجداً فى قلب أى مظاهرة .

وفى نادى "التيرف" Turf Club البريطانى حيث اعتاد عدد من المترددين على تناول مشروباتهم المعتادة قبل تناول الغداء كان من بينهم القائم بالأعمال الكندى والمستشرق الشهير جيمس كريج James Craig . إذ لم يكن أحد يأخذ أعمال الشغب مأخذ الجد ، فقد شاهدوا من قبل مثل هذه الأشياء.

ويسترجع "دينيس بيرش" Dennis Birch « وكيل شركة فورد ذكرياته: "فجأة ظهر سائقى فى البار ، وأصر على مغادرتى المكان فوراً بل أنه جذبنى من ذراعى تقريباً لإخراجى إلى سيارتى ، ولو كنت بقيت دقيقتين لكان حدث ما حدث » . إذ اندفعت الجماهير إلى مبنى النادى ، وبللت كل شئ فيه بالبترول ، ثم أشعلت عود نقاب ، وقد حاول سبعة من الأعضاء الهروب بينما كانت النيران تمسك بثيابهم ، ولكنهم اجبروا على العودة إلى داخل المبنى مرة أخرى. وهلكوا وسط النيران.

فى ذلك الوقت كانت المباني فى كافة أنحاء وسط المدينة مشتعلة ، وكان

الأوربيون يهربون بطرق تشيب لها الولدان . فمثلا مدير شركة جيه أرثر رانك J. Arthar Rank التي كانت تمتلك دار سينما ريفولي تعرض للمطاردة عبر الدهاليز من جانب عصابة من الرجال المسلحين بالسكاكين ولم يسعفه بالهرب سوى القفز من نافذة في الطابق الثاني . أما في صالات عرض شركة القاهرة للسيارات فقد ثقب مضمرو النيران السواتر الحديدية الثقيلة ، وأحرقوا السيارات في الشوارع قبل أن يضرمو النيران في المكاتب . وذكر أحد الحراس أنه : "عندما وصلت عربات الأطفاء ، قاموا باستخدامها لفتح البترول على المباني وفي ثوان قليلة كان كل شيء تشتعل فيه النيران « لقد كانت الوسائل التي اتبعوها تتسم بالعنف حتى أن اثنين من مثيري الشغب حاصرتهم النيران بالداخل وحرقوا حتى الموت . وكذلك انتشرت مناظر مشابهة في كل أنحاء المدينة .

وربما أكثر ما حدث من إثارة ذلك الذي حدث في فندق شبرد ، الذي كان لوقت طويل قبلة المسافرين . فخلال ساعات الصباح اقبل لورى محمل بالرجال قدموا أنفسهم إلى الإدارة على أنهم فرقة من البلدية جاءوا لرش الـ د. د. ت. ، ثم قاموا برش مسحوق في معظم الحجرات ، لكنهم في الحقيقة كانوا يستخدمون مادة سريعة الاشتعال ، وعندما وصل مضمرو النيران قرب الساعة الثالثة من بعد الظهر ، لم يستغرق منهم سوى دقائق حتى تشتعل النيران في كافة جوانب البناء الكبير الممتد . كم من الزوار حوصروا وسط النيران في حجراتهم لا أحد يدري؟، فقد دمرت السجلات مع تدمير الفندق.

ولمعظم ساعات النهار استعر الجحيم بلا سيطرة على الإطلاق . وفي قمة أحداث الشغب كان رئيس الوزراء النحاس باشا يتلقى العناية بأظافره من متخصص بيدكير "Pedicure" . وكان الإجراء الوحيد الذي صدر منه خلال هذه الساعات هو أنه أرسل عربية مصفحة لإحضار حرمه من عند مصفف الشعر الخاص بها في قصر النيل ، أما فؤاد سراج الدين وزير الداخلية فقد كان مختلئاً في مكتبه الخاص يتفاوض على شراء ضيعة بالفرنكات السويسرية . وعندما وصلته الأنباء قام على الفور بالاتصال هاتفياً بالقائد العام للقوات المسلحة في قصر عابدين، غير أنه لم يستطع الوصول إليه لأن

الملك كان يقيم حفل غداء لأربعمائه من كبار ضباط الجيش احتفاء بمولد ابنه الأمير أحمد فؤاد ، ولا يريد إزعاج أحد من الحاضرين في الحفل. ولم يكن قبل الغسق عندما قامت أولى فصائل الجنود بمحاولة جاءت متأخرة لإعادة النظام. وخلال ذلك الوقت كانت رعايا القاهرة تفتش حولها في الحطام باحثّة عن أى شئ يمكن التناطحه ، واستمرت أعمال السلب والنهب طوال الليل . وعندما حل الإرهاق الكامل بمثيرى الشغب لدرجة التوقف ، كان تقريباً كل بار ، أو دار سينما أو كاباريه فى المدينة قد دمر تماماً . وانهار أو اتلف بفعل الحريق ما يقرب من أربعمائة بناية . وبدأ وسط المدينة كما لو كان قد تعرض لقصف جوى . وحقيقة الأمر أن ما حدث كان مقدمة لثورة لم تسفك فيها دماء .

وكبطيخة كبيرة انشطرت مصر إلى شطرين ، لأن كل واحد كان يرى أن الثورة ترشح من كل بذرة . ولقد نجح الملك فى تشويه سمعة الوفد مرة أخرى ، عندما اعتبر النحاس مسئولاً عن أحداث يوم السبت الأسود لكنه فى نفس الوقت كان قد أشعل فتيل قنبلة موقوته أسفل كرسي العرش ذاته فلم تعد رعاية الله تحيطه بسياج .

فى الأصل وضع الضباط الأحرار تاريخ التحرك نحو هدفهم للقيام بأنقلابهم تاريخاً متأخراً من عام ١٩٥٢ . فجمال عبد الناصر لم يخطط لضربته ما لم يكن متأكداً تماماً من نجاحه نجاحاً كاملاً . فقد وضع للآخرين قائلًا : «من ناحية المبدأ أنا لا أقوم بفعل ، إنما أنا أقوم بالرد على الفعل فقط» . كانت الظروف فى صالحهم فى تلك اللحظة ، غير أنه تبين لهم أنه حتى ولو قدر لهم النجاح فى الاستيلاء على الحكم ، فإن مجموعة الضباط غير المعروفة قد تفشل تماماً فى كسب الرأى العام ، وكذلك القبول العام بها سواء داخل مصر أو خارجها . وقبل كل شئ فإن الجيش البريطانى يعسكر على مقربة من العاصمة . ومن المعروف أن الوحدات البريطانية كانت قد وضعت فى حالة تأهب للتحرك نحو القاهرة عند أول أمر يصدر إليها إذا ما تصاعدت أعمال الشغب . فقد كان الجيش البريطانى هو الخندق الأخير لتأمين سياسة القصر . وفى لحظة اليأس فإن الملك قد يدعوهم للتدخل إذا ما

وجد عرشه في خطر . أما على الجانب الآخر فأن المتآمرين كانوا يراهنون على أن البريطانيين أنفسهم قد ضاقوا ذرعاً بالملك فاروق وبطانته لدرجة الموت ، وأنهم سوف يرحبون بقيام "دكتاتورية العسكر" « بشرط أن تحظى بالاحترام (هذا الاقتراض كان حقيقياً تماماً : فقيادة القوات البريطانية كانت دائماً تعتبر الجيش أهم الركائز في البلاد التي يمكن الاعتماد عليها ، ربما لأنهم شعروا أنه قد تلقى تدريبه إلى حد كبير على الأسلوب البريطاني ، وما كان الضباط الأحرار في حاجة ماسة إليه هو العنبر على شخصية ذات هيئة ووقار لتكون الواجهة - رجل من الجيش قادر على كسب احترام على نحو واسع.

وأول اسم رشح لهذا الدور راعيهما القديم - ذلك الثعلب العجوز . «عزيز المصري» الذي كان قد حاول مساعدة روميل في الحرب لكنهم أدركوا أن العمر قد تقدم به ، ومضى على تقاعده زمن طويل ، أما الشخص الثاني في القائمة فقد كان اللواء فؤاد صادق الذي أثبت جدارته في حرب فلسطين : وما كادوا يقررون الاتصال به حتى فاجأهم الأنباء بأن الملك فاروق قد عينه رئيساً للأركان. وبناء على اقتراح من عبد الحكيم عامر فقد طرح اسم قائده المباشر اللواء محمد نجيب ، ووافق ناصر على الفور بأن ذلك اختيار ممتاز ، فقد كان قائد سلاح الحدود ذو القلب الطيب والذي كان يدخل الغليون يمثل رمز البطل في الجيش ، فلقد جرح ثلاث مرات بدرجة خطيرة في فلسطين حتى أنهم في إحدى المرات تركوه بعد أن ظنوا أنه قد لقي مصرعه . كما كان الرجل الوحيد الذي يحمل في صدره آثار ثلاثة جروح غائرة ، كما كان على اتصال بحركة الضباط الأحرار عن طريق مساعده عبد الحكيم عامر ، وكانت بادرة الشك من جانب ناصر هل هذا اللواء ذو الرتبة العالية سوف يقبل أن يكون مجرد واجهة ؟ ، إلا أن عبد الحكيم عامر أعاد التأكيد له على هذه النقطة .

كان الضباط الأحرار آخذين في الظهور شيئاً فشيئاً ، فمنذ عام ١٩٥١ أصبحت الحركة غير شرعية لمجرد أن قادتها كانوا غير معروفين ، وكان بعض المشاركين ذوي عقلية تنظيمية قد تتفوق على عقلية ناصر يريدون

تأسيس أنفسهم فى هيئة رسمية لها مجالس وخطط وبرامج ، وقد رفض ناصر ذلك بشكل مطلق ، وكتقدير له وافقوا أن يصبح على رأس مجلس تنفيذى ، والذي بالرغم من تغير أعضائه من آن لآخر كان عادة يعرف باسم «مجلس التسعة»، وعلى أى حال لم يكن هناك أى شئ رسمى بخصوص ذلك . كان العضوان الوحيدان فى هذا المجلس اللذان يعرفان أسماء جميع الضباط الأحرار هما ناصر وعامر . كانت المسالك إليه موصدة بطريقة سرية حتى لا بوليس الملك السرى ولا وزارة الداخلية كان لدى أيهما أدنى شك فى أن لناصر يد فى الحركة حتى مجئ يوم الثورة .

ولما كان من المحال عقد اجتماعات جماهيرية أو العمل فى العلن، فقد بدأوا يوزعون منشورات تهاجم تبذير الملك وإسراف الحكومة . وهذه المنشورات كانت تكتب بمشقة على الآلة الكاتبة المحمولة عن طريق أصبعين، والتي كانت تخص زكريا محيى الدين ، ثم تنسخ . وتنقل إلى ثكنات الجنود ، وتحت مقاعد سيارات الضباط . وبعد برهة تجرأوا واصبحوا يوزعونها عن طريق البريد العلنى بالرغم أنهم كانوا بجرأة يرسلونها دائماً من صناديق بريد متباعدة لدرجة أن نسخاً منها أرسلت إلى القصر ووزارة الداخلية التى كانت مهمتها الأولى قمع المؤامرات.

إن مثل هذه النشاطات كلها كانت معروفة ، غير أن ناصر كان يعرف أن هناك شيئاً جوهرياً ضرورياً كشرط لاختبار القدرة الحقيقية للضباط الأحرار، ربما كان عددهم الشامل ما يقرب من ألف ، لكن كان يتوجب استطلاع رأى الجيش كله لقياس مدى تأييده الكامل فى حالة حدوث حركة التمرد . ومن ثم اختير نجيب كمرشح لمنصب حساس من الناحية السياسية وهو رئيس نادى الضباط فى الزمالك . وانتشر الترويج بوجوب إعطاء الأصوات للرجل الذى يحمل ثلاثة جروح فى صدره . أما مرشح الملك فقد كان اللواء حسين سرى عامر والذي كان مكروها بشدة بسبب دوره فى بعض صفقات السلاح المشبوهة . ولقد بدأت الإجراءات على غير توقع ، وذلك بالوقوف ثلاث دقائق فى صمت فى ذكرى أحد الضباط الذى لقي مصرعه على يد البوليس

السرى ، ثم بدأ الأعضاء يعطون أصواتهم ، وفاز نجيب إذ حصل على أكثر من ثمانين فى المائة من مجموع الأصوات .

كان ذلك بمثابة صفة مريرة تلقاها الملك الذى ألغى على الفور نتيجة الانتخابات التى أظهرت إلى أى اتجاه تهب الريح ، فلم يعد فاروق يعتمد على ولاء الجيش . ولقد أكد ذلك بشدة محاولة اغتيال اللواء حسين سرى عامر وظهور خنجر مثبت به مذكرة على مكتبه فى قصر عابدين وكانت المذكرة تقول : «قريباً جداً ستكون أنت الهدف ذاته ، وليس فى ظهرك فقط» وبالمثل كان من المحال بالنسبة لناصر أن يؤجل التصرف لأبعد من ذلك إذا ما أراد أن يهرب من المصيدة التى كانت يعدها بوليس القصر السرى . ولقد كان مرتضى المراغى الذى أصبح أقوى رجل فى وزارة الداخلية على وشك من أن يضع يده على صلب حركة الضباط الأحرار . وكان الملك يناور ليعين صهره إسماعيل شيرين وزيراً للحرب . كل بات ينذر بحدوث كارثة ، فقد حدث أن نقل عدد من الخلايا الداخلية للضباط الأحرار إلى وحدات بعيداً عن القاهرة ، والحصار المحكم كان يضيق عليهم ، وأصبح الأمر مجرد أيام . وأن الضربة سوف تنزل بهم فى أى لحظة .

فى مطلع شهر يوليو غادر الملك وبطانته القاهرة لقضاء أجازة الصيف للاستمتاع بنسيم الإسكندرية المنعش ، وتبعه الوزراء والهيئات الدبلوماسية ، وطبقاً للتقاليد المتبعة منذ زمن طويل ، فقد كانت فترة خمول واستجمام ، حيث يكاد أن يصل خلالها نشاط الحكومة إلى أدنى درجة . ولكن فى ذلك العام جعل التغيير الوزارى المستمر كل شئ عند حافة الهاوية . وفى القاهرة بدأ مناخ الصيف الخانق معبأ بالتهديد .

ويروى ثروت عكاشة - أحد أعضاء الخلية الداخلية للضباط الأحرار : «وفى العاشر من شهر يوليو جاء إلى منزلى كل من جمال وخالد(محيى الدين) وطلبا منى ، كما كانا يفعلان فى أغلب الأحيان - أن أدير لهم إسطوانة ريمسكى كورساكوف Rimsky - Korsakov "شهر زاد" ، وكان جمال ينصت كما لو كان يحلم ، وعندما توقفت الأسطوانة نهض ورفع أبرة

التشغيل عن الأسطوانة . ثم قال فجأة : «سوف نضرب ضربتنا في مطلع الشهر القادم» .

فلقد كان الخامس من أغسطس هو التاريخ الذي اختاره وذلك بسبب رئيسي وهو إتاحة الفرصة لهم لقبض مرتباتهم في نهاية شهر يوليو . وما كاد القرار أن يتخذ حتى اعترى ناصر الشك . فقد كان يقلقه أن عدداً كبيراً من رجاله الأساسيين قد تفرقوا ، أو متواجدين في أماكن بعيدة . فبعد أسبوع ذكر أمام المجلس أنه يخشى أن يفشل الانقلاب وأنه من الأفضل أن تكون هناك موجة من الاغتيالات .

وبينما كانوا في حالة من الحيرة ، دق جرس التليفون في العشرين من يوليو في مكالمة بعيدة من الإسكندرية ، ويستطرد ثروت عكاشة في مذكراته: «لقد كان المتحدث هو صهرى أحمد أبو الفتح (محرر جريدة المصري) الذي نقل إلى أن حسين سرى على وشك من تقديم استقالته من رئاسة الوزارة ، وأن الملك يعمل على فرض تعيين اللواء سرى عامر على الوزارة كوزير للحربية . وأن أربعة عشر فرداً من رجالنا مطلوب القبض عليهم» .

هكذا لم يكن هناك من خيار ، وكان عليهم أن يتصرفوا في الحال . ومما يدعو للدهشة أن الحكومة لم تكن على دراية بما يحدث حتى في هذه المرحلة المتأخرة. ففي العشرين من يوليو أدلى حسين سرى بملاحظة إلى مساعدة العسكرية في لهجة يغلب عليها المزاح : "لقد نما إلى علمي أن هناك بعض القلاقل في الجيش فهل هذا صحيح ؟ « ولقد علت الدهشة وجه مساعده بحق إزاء هذه المعلومة وأجاب قائلاً : "يا صاحب الفخامة : أننى لم ألاحظ أى شئ بنفسى» . ومنذ تلك اللحظة لم يتوقف عن التفكير كيف كان مخططاً إلى هذا الحد .

كان مخططاً للثورة أن تتم على مرحلتين : المرحلة الأولى وهى السيطرة على الجيش ذاته عن طريق قيام الفرقة الثالثة عشر مشاة باحتلال القيادة

العامّة، بينما تقوم وحدات الدبابات والمدركات بالسيطرة على المراكز الحيوية مثل المطار، ومحطة الإذاعة، وهيئة التليفونات، وبعض المناطق الحيوية الأخرى. وما أن يتم ذلك حتى يبدأ التعامل مع الملك وحددت ساعة الصفر عند الساعة الواحدة من صباح يوم ٢٣ يوليو حيث تكون شوارع العاصمة خالية، ويكون كبار ضباط الجيش في أسرهم نائمين في أمان.

وكما يحدث في كثير من الأحيان لأدق الخطط حيطة وحذراً، وقع عدد من المواقف غير المتوقعة في اللحظات الأخيرة. أن أحداث ٢٢ يوليو عام ١٩٥٢ مرت كما لو كانت سيناريو لفيلم إثارة.

كانت الحرارة في ظهر ذلك اليوم كالجحيم إذا ارتفعت درجاتها إلى ١١٧ درجة فهرنهايت (*) . وتحولت القاهرة كلها كما لو كانت حماماً تركيا، ولأن محمد نجيب كان موضوعاً تحت المراقبة الدقيقة من قبل البوليس السرى، فلم يكن متوقعاً له أن يلعب أى دور فى الانقلاب الفعلى . فقد أمضى عصر ذلك اليوم فى نادى التجديف الواقع على النيل . وما أن مالت الشمس نحو المغيب خلف الأهرامات، وهب نسيم منعش قادم عبر النهر، حتى جاءه أحد الصحفيين بأنباء مزعجة . فقد سمع لتوه من الإسكندرية أن الهالى باشا سوف يشكل الحكومة وأنه انتوى إلقاء القبض على مجموعة من المتآمرين على رأسهم محمد نجيب .

وفى مكان آخر من المدينة، كان ضابط شاب يقرع باب شقة عبد الناصر - فى اللحظة التى انسحب فيها جمال ليرتدى بزته العسكرية . لقد كان النقيب سعيد توفيق أحد الضباط الأحرار، غير أنه لم يكن من بين السبعين ضابطاً المنوط بهم القيام بالانقلاب . وفقد شرح أنه كان مكلفاً بالخدمة فى وزارة الداخلية، وأنه ظن أنه من الأفضل أن ينسل ليحذره . فلقد جاءت الأنباء من الإسكندرية أنه نما إلى علم الملك أن انقلاباً يخطط له، وأنه تحدث على الهاتف لرئيس الأركان . وأن أمراً صدر لجميع قادة

(*) أى ما يعادل ٤٢ درجة مئوية .

الوحدات بالتواجد في مقر القيادة بالقبة . ولقد اعترف ناصر أن "تلك كانت لحظة كريمة . وأن الخطوة الوحيدة التي يجب اتخاذها هي التصرف فوراً ، وبضربة حظ يمكن محاصرة القيادة العليا داخل مقرها « . ثم اصطحب النقيب توفيق معه ، وقفز إلى سيارته الأوستن السوداء الصغيرة ، واتجها إلى بيت عبد الحكيم عامر ليخبره بأن ساعة الصفر يجب أن تقدم من الواحدة بعد منتصف الليل إلى منتصف الليل إن أمكن . لكن كيف يوصل هذا القرار إلي الآخرين ؟ وفي صحبة عامر وتوفيق اندفعوا مرة أخرى إلى الأوستن بحثاً عن أنور السادات غير أن الثوري أنور السادات ، ذلك الرجل الذي كان يتنفث الثورة منذ سنوات، كان قد اتخذ الحيلة بأن اصطحب زوجته وابنته إلى دار السينما(*) لكن لم يكن في مقدرتهم غير ترك مذكرة بأن يتصل بعامر في الحال.

كانت محطته الثالثة هي بيت أحد الضباط الأحرار الذي كان يختزن أسلحتهم ، لكنه كان أيضاً خارج الدار ، واسترسل ناصر في السباب وهو يهمس في نفسه . هل كل مخططاته التي استغرقت عشر سنين من الإعداد الدقيق سوف تذهب سدى في اللحظات الأخيرة ؟ . «وأمام ثكنات قصر النيل شاهد رجال البوليس في زيهم الأبيض هم يصطفون . ولم يكن ذلك جزءاً من التخطيط ، وهرولت السيارة السوداء الصغيرة متجهة إلى المحطة التالية .

وفجأة ظهر اثنان من راكبي "الموتوسيكلات « من رجال البوليس ، وأمروهم بالتوقف إلى جانب الطريق ، ثم طلب أحدهما بوجه عابس أوراق من بداخل السيارة ، ثم سأل ناصر عن السبب ورد رجل البوليس ببرود : أنك تقود السيارة والأضواء مطفأة - هل تدري أن ذلك ممنوع ؟ "ولم يجب ناصر ببنت شفة ، فلقد نسي فعلاً أن يضيء الأنوار الرئيسية لسيارته . أما رجل البوليس الآخر فقد تجول ببصره في شك في السيارة وتساءل عن سبب قيادتهما السيارة والأضواء مطفأة . هل في نيتهما القيام بشئ خارج

(*) وهي سينما الروضة التي كانت قائمة في شارع المنيل (المترجم) .

القانون أم أنهما هاربان من شيء؟ وبعد لحظات مجنونة كاد فيها مصير الثورة أن يحسم . فقد كان من قمة الغرابة في هذه اللحظة الحرجة أن يقاد الزعيمان إلى مركز البوليس بسب مخالفة مرور تافهة . واستمر رجلا الشرطة يتفحصان أوراقهما . وأخيراً بعد توجيه اللوم الشديد لهما ، ركب رجلا الشرطة الموتوسيكلات ، وتبادل التأثيران ابتسامة عصبية. ثم اندفعا إلى هليوبوليس ليلتقيا بشركائهما في المؤامرة .

وبعد دقائق ، شاهدا طابورا من الأضواء الأمامية قادماً وهو يهبط من الشارع الرئيسي من ناحية التكنات الذي كان به ثلاث حارات للمرور ، وعلى جانبيه الأشجار. لقد كان من الصعب تبيين من مسافة بعيدة من هم ؟ هل هم قواتهم؟ أم وحدات عبأها الملك فجأة ؟ وركن ناصر سيارته إلى جانب الطريق ليتأكد من ذلك . ومرت أولى العربات المحملة بلابسي الكاكي، ثم توقفت عربة قيادة فجأة ، وأحاطت وحدة من حاملي الرشاشات بالسيارة الأوستن ، وصوب ضابط شاب مسدسه نحو البكباشي ناصر ، بينما قال للنقيب عامر والملازم : توفيق "في استطاعتكما الذهاب أما أنت فبرتبة بكباشي وجميع الرتب العليا سوف يلقي القبض عليها الليلة . أننى أسف لكن يجب أن تعتبر نفسك مقبوضاً عليك عسكرياً !! « .

وقد حاولوا المجادلة لكن لم يكن من ورائها فائدة . تلك هي عقوبة الزعيم الذى يخفى شخصيته في سرية تامة ! وصاح الضابط الشاب وهو يضغط على أسنانه لأحد الجنود : "خذه وضعه تحت الحراسة !! « . وفي هذه اللحظة توقفت عربة جيب ونزل منها قائد وحدة الرشاشات . لقد كان البكباشي يوسف صديق أحد أقرب الأصدقاء إلي عبد الناصر . ثم صاح : «ماذا يحدث بحق» فأجاب عبد الناصر متجهماً : «لقد القى رجالك القبض على ! « . وبسرعة لخص له الموقف حول الاجتماع الذى كان منعقداً في مقر القيادة العامة وهنا صاح قائلاً : «هيا بنا لنمسك بهذه المجموعة كلها».

تحرك الطابور نحو مركز القيادة في القبة ، وخارج مركز القيادة تولى عبد الحكيم مهمة تأمين العملية ، وسرعان ما حوصر ذلك البناء الجاثم في

صمت ، ولبضع دقائق أبدى الحراس مقاومة شكلية ثم توقف إطلاق النيران .
وهرول عامر وصديق وناصر صاعدين درجات السلم وقد أمسك كل منهم
بمسدسه، واندفعوا إلى مكتب القائد العام ، ولم يبد المقاومة في الداخل سوى
لواء واحد أطلق ثلاث طلقات من وراء ساتر في أحد أركان الحجرة ، أما
الباقون فقد رفعوا أيديهم مستسلمين دون أن ينطقوا بكلمة واحدة .

وخلال ذلك الوقت كانت دبابات حسين الشافعي تحتل محطة الإذاعة(*)
والمطار ، بينما استولت سرية الفرسان التابعة لخالد محيي الدين على
القشلاق الكبير في العباسية . وبذلك أصبح في إمكانهم توجيه ضربتهم،
وبصرف النظر عن المناوشة التي وقعت في مقر القيادة العامة والتي لقي
فيها جنديان مصرعهما. وهما الإصابتان الوحيدتان في الانقلاب - سقطت
القاهرة ومراكز أعصاب الجيش كلها في أيدي الضباط الأحرار دون إطلاق
طلقة واحدة وبالرغم من العثرات التي ظهرت في اللحظات الأخيرة ، نفذت
ال خطة تماماً مثل عقارب الساعة . وعند الساعة الواحدة والنصف من صباح
٢٣ يوليو جلس ناصر - ذو الأربعة والثلاثين ربيعاً - والذي خطط للثورة
لأكثر من عشر سنوات والتي لم يستغرق تنفيذها بالكاد ساعة - على مكتب
رئيس الأركان ومعه حفنه من رفاقه ، وهم يواجهون مشكلة جسيمة لم يسبق
لهم خوضها وهي إدارة شئون الأمة . ومن خارج النافذة كان هناك شخص
يطأطئ رأسه ليتفادى طلقات الرصاص أكان ذلك انقلاباً مضاداً؟ لا لم يكن
ذلك سوى أنور السادات الذي كان قد عاد لتوه من السينما ، والذي أوقفه
الحرس بدوره .

إن هذا النجاح الذي تحقق بسهولة في لحظة حرجة لا يمكن تصديقها كان
يتطلب تعزيزه . فأرسل ضابطان في عربة مدرعة لإحضار محمد نجيب .
وفي الساعة الثالثة كان اللواء يهرول وهو يصعد السلم وقد ارتسمت على
وجهه ابتسامة عريضة وهو يكرر كلمة : «مبروك ... مبروك» مصافحاً

(٥) في شارع الشريفين بقصر النيل .

كل من يقابله . إلى أن قام أحدهم بتقديم سماعة التليفون إليه . لقد كان الهلالي باشا رئيس الوزراء يتحدث من الإسكندرية . وعلى مدى نصف ساعة راح يحاور نجيب عارضاً كل الإغراءات لكي يلغى الانقلاب ، فقد كان الهلالي يظن أنه يتعامل مع حركة تمرد صغيرة قام بها الجنود الساخطون والتي يمكن حل أسباب السخط بمنحهم بعض الحقوق . وعندما وضع سماعة التليفون كان قد أدرك أن الأمر أكبر مما كان يتصور .

كما جاءت مكالمات هاتفية أخرى أيضاً ومعها أخبار النجاح من خارج العاصمة ، غير أن ناصر كان يعلم جيداً أن المخاطر لا تزال هائلة . فقد كان يحدث عدد من الأشياء كانت قادرة على إصابة الانقلاب باخفاق تام . فقد كانت القوات البريطانية في منطقة القنال تمثل الخطر الأكبر ، ومن أجل هذا السبب أرسل على صبرى إلى السفارة الأمريكية حتى قبل ساعة الصفر ليطمئن السفير ويحظى بتأييده ، إذ لم يكن من المحتمل أن يكون حدوث الانقلاب قد جاء مفاجئاً للأمريكيين . فقد كان مساعده جيفرسون كافري Jefferson Caffery على اتصال سري بالضباط الأحرار منذ وقت ليس بالقصير ، بالإضافة إلى ذلك مرت إشارة مقنعة إلى الملحق البحري الأمريكي أثناء حفل كوكتيل كان قد أقيم قبل أسبوعين ، غير أنه من المؤكد أن تأثير «كافري» فعل الكثير لتهدئه مخاوف السفارة البريطانية والتي كانت قد وضعت قواتها في فايد في حالة طوارئ . وأخيراً قبلوا أنه شأن داخلي لا يبرر التدخل .

ظل الطابق العلوى في مبنى قيادة الجيش يتلأأ بالأضواء طوال الليل . ووسط مناخ من الإثارة والانفعال والتهانى ، اتخذت أولى القرارات . فقد تم الاتفاق على أن يلقب محمد نجيب بلقب : "القائد العام لقوات مصر المسلحة" وأن الثورة يجب أن تعلن باسمه . وخط عامر نص البيان على بعض صفحات كراسة مدرسية مهلهلة . وعلى عجل أرسل إلى الصحف . وفى الساعة السادسة صباحاً أذاعه أنور السادات على الهواء مباشرة من استديوهات إذاعة الحكومة المصرية والتي كان قد تم الاستيلاء عليها . هذا

بالنسبة للجانب الأول. ثم تلا ذلك مسألة الحكومة المدنية ، ولقد بدا على ماهر الذى كثيراً ما تولى المنصب فى أوقات الطوارئ بأنه الرجل المناسب لتولى تصريف الأمور فى هدوء ، ويستطيع التعامل مع الملك . بالإضافة إلى ذلك فقد كان معروفاً أنه معاد للإنجليز . وللمرة الثانية ذهب أنور السادات بصحبة كمال الدين حسين حيث وجدا رئيس الوزراء السابق فى الحمام . ولقد كان الأمر شائكاً إلا أنه أمكن التوصل إلى اتفاق جعل نجيب يعلن فى أول مؤتمر صحفى يعقده أن على ماهر سوف يرأس مجلس الوزراء.

فى غداة اليوم التالى جاءت الأنباء من الإسكندرية بأن فاروق يخطط للقيام بانقلاب مضاد ، وقد تم اعتراض رسالة لاسلكية موجهة إلى القيادة البريطانية العامة فى فايد يرجو فيها التدخل لحمايته . ومن هنا أصبح التخلص من فاروق ضرورة ملحة . وكان ناصر مصرأ على ذلك بشدة . فقد اخبر نجيب أن على فاروق مغادرة البلاد خلال ثمان وأربعين ساعة على الأكثر. غير أن بعض الضباط لم يكونوا مقتنعين بذلك بتاتا . فقد كانوا يسعون وراء رأس فاروق فى خلال ساعات قليلة من الليل دارت مناقشة مثيرة . كانت فى الواقع محاكمة لفاروق. وردد جمال سالم كلمات عزيز المصرى(*) الذى كان قد طلب منه المشورة حول أفضل الطرق للتعامل مع

(*) اسمه الحقيقى عبد العزيز زكى . ولد فى القاهرة لأبوين شركسين عام ١٨٧٩ وكفلته أخته وهو فى الخامسة عشرة من عمره بعد وفاة والديه . حصل على البكالوريا من مدرسة التوفيقية عام ١٨٩٦ ، التحق بمدرسة الحقوق على غير إرادته ورغبته ونزعتة العسكرية . سافر إلى الاستانة حيث التحق بالمدرسة العسكرية وهناك اشتهر باسم عزيز المصرى . وذاع صيته كمحارب وعسكرى أثناء الحروب العثمانية فى البلقان عام ١٩٠٤ حيث ابتكر هناك حرب العصابات ، كون مع مجموعة من الساخطين على السلطان عبد الحميد جمعية الوطن عام ١٩٠٦ التى أسفرت عن عزل السلطان ونفيه إلى خارج البلاد وتعيين السلطان محمد الخامس بدلاً منه . بدأ دعوته إلى الوحدة العربية والقومية العربية . اشترك فى الحرب التركية الإيطالية وتطوع

الملك. فقد قال آكل النار العجوز بازدرأء: «إن رأس فاروق هي التي تهمنى بالذات بعد أن تسقط... إذا أردتم تطهير البلاد فعليكم بالقتل والاستمرار فى القتل». غير أن ناصر نفسه حبذ فكرة النفى لأن الدماء ما أن تبدأ تسيل فلن يكون هناك من يقدر على وقفها. وأن الاعتدال سوف يحسن من صورة الثورة. «أن منظر الملك السمين فى نوادى أوروبا الليلية على الأقل سوف يبررها». وفى النهاية تم التصويت، فقد صوت ستة من مجلس قيادة الثورة بأن فاروق يجب أن يشنق، بينما صوت سبعة بأنه يجب أن ينفى.

لمحاربة الإيطاليين فى ليبيا حيث درب قوات المقاومة الليبية بزعامة عمر المختار على أسلوب حرب العصابات. أفلقت ميوله العربية الدولة العثمانية فاعتقل وحكم عليه بالإعدام لكن أفرج عنه تحت غضب العرب العارم واعتراضات بريطانيا. انضم بعد ذلك إلى الشريف حسين بعد قيام الثورة العربية الكبرى عام ١٩١٦. لكنه اختلف مع الشريف حسين فعزله عن القيادة فعاد إلى القاهرة عام ١٩١٧. اختاره الملك فؤاد ضمن بعثته الإشراف على فاروق أثناء تعليمه فى إنجلترا. قضى معظم سنوات الحرب العالمية الأولى وما بعدها فى عدد من الدول الأوروبية ثم عاد إلى مصر فى بداية الثلاثينيات من القرن المنصرم وتولى عدداً من المناصب وحصل خلالها على الباشوية ورتبة فريق، وعين عام ١٩٣٩ رئيساً للأركان وبعدها أحيل إلى التقاعد. وفى عام ١٩٤١ حاول مع اثنين من أصدقائه الهروب على طائرة من مطار ألماظة الحربى إلى خطوط القوات الألمانية بالصحراء الغربية إلا أن المحاولة فشلت وتم اعتقاله. وفى عام ١٩٤٨ استعاد نشاطه الوطنى حيث قام بدور هام فى تنظيم كتائب المتطوعين فى حرب فلسطين. وفى عام ١٩٥١ شارك كتائب التحرير الفدائية فى منطقة القناة. وعرف عنه أنه الأب الروحى لثورة ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢. فقد تعرف على أنور السادات ثم جمال عبد الناصر الذى رأى فيه شبابه الثائر، فعينه سفيراً لمصر فى موسكو عام ١٩٥٣ حيث شارك فى تسليح الجيش المصرى. وآخر مساهماته الفعالة هى وضع خطة لانسحاب الجيش المصرى من سيناء أثناء العدوان الثلاثى عام ١٩٥٦ فأنقذ بذلك جزءاً كبيراً من الجيش المصرى. توفى عزيز المصرى فى ١٥ يونيو عام ١٩٦٥ وتم تشييع جثمانه فى جنازة عسكرية (المترجم عن غادة المصرى - من أوراق القرن العشرين) الأهرام ١٩٩٩.

وطار محمد نجيب وأنور السادات إلى الإسكندرية ، حيث سلما على ماهر
إنذار الجيش النهائى ، ولم يكن هناك أدنى خوف من إعلانه : كانت مقدمة
نص الإنذار كما يلى : "نظراً لفوضى حكمك وتعديك على الدستور ،
واحترارك لرغبة الأمة فإن الجيش الذى يمثل قوة الشعب قد أمر أن يتنازل
جلالتكم عن العرش لصالح ولى عهدكم . صاحب السمو الأمير أحمد فؤاد
فى هذا اليوم ٢٦ يوليو وأن عليكم مغادرة البلاد فى نفس اليوم قبل الساعة
السادسة » . ويتذكر أنور السادات : "إن رئيس الوزراء عندما قرأه ، اعتلاه
شحوب الموت . وهمس بصوت خفيض: "أن فاروق لم يستمع أبداً لما قلته
له . إنه ينال فقط ما يستحقه » .

لم يفصح على ماهر أبداً عما دار خلال مقابلته التى طالت مع فاروق فى
ذلك الصباح . غير أن منظر الدبابات التى كانت تحاصر القصر وصوت
إطلاق النار أقنعت أنه لا أمل فى المقاومة . ويذكر سليمان حافظ القانونى
الذى أعد القرار الفعلى للتنازل عن العرش أن فاروق فعل كل ما فى وسعه
لكى يبدو هادئاً بالرغم من سعاله العصبى وارتبائه للذين كشفوا عن الفرع
الذى اعتراه . فى المرة الأولى عند توقيعه على الوثيقة ارتعشت يده بشدة
لدرجة أن توقيعه لم يكن ليقرأ ، فاعتذر وأعاد التوقيع مرة أخرى .

وقبل حلول الساعة السادسة بدقائق هبط فاروق من سلال قصر رأس
التين وهو يمشى الهويناً مرتدياً الزى الكامل للقائد العام للأسطول ، تتبعه
الملكة ناريمان تحمل الملك الطفل بين ذراعيها . وكان الملك قد قضى فترة
ما بعد الظهر فى تعبئة كل ما استطاعت يداه أن تطوله . فقد حمل على
اليخت الملكى ٢٠٤ حقيبة وصندوق . وبناء على طلبه اصطحبه السفير
الأمريكى آمنا إلى السفينة . ثم قام أربعة من الضباط باصطحاب الملك
السابق وهو يعبر الجسر وهم : محمد نجيب وجمال سالم ، وحسين الشافعى ،
وأحمد شوقي . ومهما أخفى فاروق من انفعاله خلف العدسات السوداء
لنظاراته ، إلا أن صوته كان أجش ، عندما قال لنجيب وهو يضافحه : «ما
فعلتموه بى ، كنت على وشك أن أفعله بكم... إنكم سوف تكتشفون فى الوقت
المناسب أن حكم مصر ليس بالأمر السهل » .

وبعد دقائق تهادت "المحروسة" بهيئتها الملكية للخروج من حدود الميناء، ثم توارت ببطيء إلى الأفق الصحو مع مغيب شمس الصيف تحت زئير الواحد والعشرين طلقة للمدفعية .

لم يكن ذلك مجرد نهاية لحكم الأسرة التي أسسها محمد علي فحسب، بل كان بمثابة إسدال الستار على حقبة كاملة من تاريخ مصر .

الفصل الثامن عشر

من البكباشية إلى رئاسة الجمهورية

كان أول إعلان سمع به كل مصرى عن أن ثورة قامت باسمهم جاء من صوت أنور السادات من الراديو فى الصباح الباكر ليوم الأربعاء الموافق ٢٣ يوليو، فقد استمعوا إلى صوت الإرهابى القديم وهو يعلن: «اجتازت مصر فترة عصبية من تاريخها الأخير من الرشوة، والفساد، وعدم استقرار الحكم. وقد كان لكل هذه العوامل تأثير كبير على الجيش.. وعلى ذلك فقد قمنا بتطهير أنفسنا... ولا بد أن مصر كلها ستتلقى هذا الخبر بالابتهاج» (*).

وسرعان ما تحولت الدهشة إلى حماس جياش عندما شوهد منظر محمد نجيب ذلك الرجل الطيب الذى يدخن الغليون يحيط به كوكبه غير معروفة

(*) ما ذكره المؤلف هو مقتطفات من البيان الأول للثورة، أما نص البيان فهو كالتالى: «اجتازت مصر فترة عصبية فى تاريخها الأخير من الرشوة والفساد وعدم استقرار الحكم، وقد كان لكل هذه العوامل تأثير كبير على الجيش، وتسبب المرتشون والمغرضون فى هزيمتنا فى حرب فلسطين، وأما فترة ما بعد الحرب فقد تضافرت فيها عوامل الفساد، وتآمر الخونة على الجيش، وتولى أمره إما جاهل أو فاسد حتى تصبح مصر بلا جيش يحميها، وعلى ذلك فقد قمنا بتطهير أنفسنا، وتولى أمرنا فى داخل الجيش رجال نثق فى قدرتهم وفى خلقهم وفى وطنيتهم، ولا بد أن مصر كلها ستتلقى هذا الخبر بالابتهاج».

«أما من رأينا اعتقالهم من رجال الجيش السابقين فهؤلاء لن ينالهم ضرر، وسيطلق سراحهم فى الوقت مناسب، وإنى أؤكد للشعب المصرى أن الجيش اليوم كله أصبح يعمل لصالح الوطن فى ظل الدستور مجرداً من أية غاية، وانتهاز هذه الفرصة فأطلب من الشعب إلا يسمح لأحد من الخونة بأن يلجأ لأعمال التخريب أو العنف، لأن هذا ليس فى صالح مصر، وأن أى عمل من هذا القبيل سيقابل بشدة لم يسبق لها مثيل، وسيلقى فاعله جزاء الخائن فى الحال، وسيقوم الجيش بواجبه هذا متعاوناً مع البوليس، وإنى اطمئن إخواننا الأجانب على مصالحهم وأرواحهم وأموالهم، ويعتبر الجيش مسئولاً عنهم. والله ولى التوفيق» نقلاً عن عبد الرحمن الرافعى (المتروجم).

من شباب الضباط يقمصانهم قصيرة الأكمام : وهو يشق طريقه عبر الشوارع فى سيارة مكشوفة ، متوقفا بين الحين والآخر لأداء موجة حارة من المصافحة وتقبيل الأطفال . فقد بدا كل ذلك تواضعا يدعو للبهجة ، بعيداً عن الرسميات ، إذا ما قورنت بسلوك الملك المتغطرس الذى يدعو للسخط . ولم يكن هناك إحساس بعدم الأمان والتفهم إلا بين بعض الجاليات الأجنبية . إذ بدا لهم ذلك العالم الفاسد الذى كانوا يعرفونه يتفسخ ويتشقق ، بينما راح سكرتيرو السفارات الأجنبية القلقين يحكون رءوسهم وهم فى حيرة من أمرهم ماذا يردون على البرقيات التى كانت تنهال عليهم من الخارج ، وكان المتخصصون فى الشؤون العربية ، والبعثة العسكرية البريطانية بالذات هم أكثر الناس انزعاجاً ، إذ أنهم لم يعرفوا هوية الانقلاب . هل هو ببساطة شأن داخلى خاص بالجيش ، أم شئ يتعلق بانتخابات نادى الضباط ؟ فقد كان اللواء نجيب قد وقع فى خلاف مع الملك . وكان على اتصال بالإخوان المسلمين ، الذين كانوا يرددون منذ سنوات أن دكتاتورية عسكرية عادلة هى ما تحتاجه البلاد ، غير أن نجيب لم يكن واحداً من الضباط الذين كانت البعثة العسكرية تخطب ودهم للقيام بهذه المهمة ، فقد كان معروفاً عنه بأنه يميل إلى معارضة الإنجليز فى آرائه . والآخرين «فتيان» نجيب Naguib boys : أنور السادات كان قد وضع فى غياهب السجن خلال الحرب لنشاطاته النازية ، وكذلك لدوره فى اغتيال السير أمين عثمان ، أما خالد محيى الدين فكان يفترض أنه كان شيوعياً ، أما شوقى ، ويوسف صديق ، فقد كانا معروفين بأنهما متهوران . كل شئ بدأ ينذر بسوء الطالع خاصة فى قلب موسم صيف شديد الحرارة ، غير أن الأمريكيين كانوا فى اطمئنان مؤكد . فقد بدوا وكأنهم يعرفون أكثر من أى أحد آخر عن الموضوع كله .

طار النحاس وفؤاد سراج الدين عائدين من أجازتهما الصيفية السنوية فى أكسى - لى - بأن Aix - Les - Bains ، ليعلنا تضامنها مع الثوار ، ويتبأون بعودة الوفد للسلطة . وكانت هناك تقارير كل صباح أن « عصابة » الانقلاب العسكرى كانت فى اجتماع دائم طوال الليل . وفى منتجع

«كبرى» شجب فاروق استيلاء «الشيوعيين» على الحكم في البلاد ، بينما امتدح راديو بوخارست حركة الشعب التي إنزلت ضربة بالإقطاع المصري. وصدر قرار بإلغاء ألقاب «باشا» و «وبك» ، وفي نفس الوقت تم القبض على اثنين من قيادات العمل عندما ثارا في مصنع للغزل في « كفر الدوار » ، ثم نفذ فيهما حكم الإعدام(*) .

ربما كان النظام «سلطويا» ، لكنه لم يكن أبداً شيوعياً ، هكذا ردت التقارير من السفارة البريطانية على استفسارات لندن ، ولكن بماذا يمكن أن توصف هذه العصبية، لم يكن ذلك في مقدور أحد أن يخمن بالضبط. على أى حال أضافت البرقيات أملة أن الضباط سوف يضعون حداً لمهزلة السيادة المصرية على السودان ، وأنهم سوف يكونون أكثر واقعية في مسألة قاعدة منطقة قناة السويس.

حقاً ، لم يكن هناك في هذه المرحلة أى لون سياسى يغلب على الثورة إذ كانت مجرد ثورة «لابسى الكاكي» ، فسرعان ما بدأ ظهور الزى العسكرى فى كل مكان : فى الشوارع ، فى المقاهى ، وفى النوادى . كما قام محمد نجيب بجولة ناجحة فى المديرىات حيث كان يقابل فى كل مكان يتوقف فيه بعاصفة من التصفيق وهتافات « يعيش نجيب » ، بينما افترضت الصحافة ملمحة بأنه هو العقل المدبر للثورة كلها . ثم بدأت تركيز على الملامح المألوفة المتواضعة لذلك اللواء ، ولم تعر سوى قليل من الانتباه لشباب الضباط الذين كانوا يحيطون به ، فقد وضعهم «سيفتون دلمر» Sefton Delmer مراسل صحيفة : « لندن ديلى أكسبريس London Daily Express » بأنهم مجرد مجموعة تابعة له من « البكباسية » غير الأكفاء، ولم يدر يبال أحد أن هنا الجنرال كان مقيد السلطة تماماً مثل «دوج البندقية» قديماً(**)

(*) وهما خميس البقرى (المترجم) .

(**) لقب منصب حاكم جمهورية البندقية فى العصور الوسطى (القرن الثالث عشر)

واسمه انريكو واندولو Enerico Dandolo (المترجم) .

إذ كان عليه أن يقدم تقريراً كل صباح للحشد المجتمع في حجرة بالطابق العلوى في مبنى القيادة العامة ، ومن هناك يتلقى تعليماته من الصبية «The Boys» الذين لم تتوقف مناقشاتهم طوال الليل . وقليل من الناس كانوا على علم أن فلسفة الحكم بأكملها كانت تتشكل بكل اجتهاد من البداية خلال جلسات هذا الماراثون الليلي، والذي سوف يأتي بكل تأكيد بتغييرات جذرية لكافة طبقات الناس في المجتمع والتي سوف يكون لها تأثير واسع الانتشار عبر أفريقيا والشرق الأوسط.

لقد قضى عبد الناصر وصحبه عقداً بأكمله وهم يخططون لهذا الانقلاب واضعين في حسابهم أى أحداث غير متوقعة . وكانوا يعرفون جيداً ماذا كان يتوجب عليهم القضاء عليه : النظام الملكى الفاسد ، ونفوذ كبار رجال الإقطاع ، ومراكز النفوذ التى يمتلكها الأجانب فى كل مكان ، والاحتلال البريطانى لقناة السويس . غير انه لم يكن لديهم أى فكرة دقيقة عن أى بديل لتلك المؤسسات ضاربة الجذور منذ زمن طويل ، فقد كان لديهم صورة مشوشة عن نوع المجتمع الذى كانوا يودون أن يكون البديل ، لكن لم يكن لديهم أى معرفة بوسائل الحكم المطلوب لتنفيذ . فاغلبهم لم يكن قد قرأ الكثير أبعد من الملخصات العسكرية . وقصص المغامرات ، والدعاية الوطنية التى كانت تروج لها الصحافة اليومية، لكن الوطنية المصرية منذ جذورها الأولى كان دائماً تضع كل شئ فى منظور إما أبيض أو اسود، عسكر أو حرامية ، وكان تركز اهتمامها على التخلص من الأشياء أكثر من اهتمامها بإعادة بنائها .

واليوم أصبح المصريون من أبناء طين الدلتا لأول مرة منذ عهد فراعنتهم يديرون دفة بلادهم . وكان من الضرورى وضع أساس فلسفة سياسية تتبع من واقع جذور التربة . ولهذا توافد سيل من الزوار على الحجرة العليا التى تقع أعلى مبنى القيادة العامة للقوات المسلحة : أساتذة جامعات ، مهندسون ، محامون ، صحفيون ، مهندسون زراعيون ، مثقفون، وماركسيون ، والذين من خلال المحاورات معهم التى لم تكد تنتهى حتى بدأت تتضح ملامح الإجابات على التساؤلات حول المشاكل والقضايا التى كانت تواجه القيادة العسكرية .

وهكذا انقضت الأسابيع السبعة من الصيف الحار الذى عطل النشاط
الذهنى ، وبدأ رجل الشارع ينصرف عن الانقلاب كتمرد للجيش ضد
فاروق ، بينما راح الباشوات السابقون فى نادى محمد على يتأملون فى
أفضل الطرق لإغراء الضباط للعودة إلى ثكناتهم وليضعوا ملكاً جديداً (ربما
الأمير عبد المنعم) على العرش . وفجأة مع نسمات شهر سبتمبر الأولى
ضرب ناصر ضربته . فقد ألقى القبض على ما يقرب من أربعين شخصية
سياسية من العهد البائد . وأقيل على ماهر ، وحل محله محمد نجيب . وتمت
مصادرة كل الممتلكات الملكية ، وصدر قانون يمنع أى شخص من أن يمتلك
أكثر من مائتى فدان من الأرض الزراعية ، وبدأت الدولة تتخذ إجراءات
تكاد تصل فى الحقيقة إلى درجة المصادرة. وتلا ذلك تخفيض عام فى قيمة
الإيجارات ، ووضعت لوائح جديدة للعمال جعلت من الصعب (أو على أقل
تقدير جعلت من الأمور المكلفة) طرد العمال أو الموظفين من وظائفهم .
وبدهشة مماثلة للمصريين الذين تربوا منذ وقت طويل على « وحدة وادى
النيل » كان الإعلان عن سياسة تضع أمام السودانيين مبدأ حرية الاختيار
بين الاستقلال التام أو الاتحاد مع مصر .

وفى مطلع عام ١٩٥٣ أظهر النظام إحدى استعراضات عضلات القوة،
فقد جمد الأحزاب السياسية ، وأعلن : « أن قائد الثورة وأعضاء مجلس
قيادتها » سوف يسIRON شئون البلاد لمدة ثلاث سنوات قادمة . وتكررت
الصورة : بأن العصابة هى المسئولة وليس مجرد اللواء ، كل هذا وعبد
الناصر قابع فى الظل كشخصية مجهولة فعلاً حتى جاء عصر ١٨ يونيو عام
١٩٥٣ بعد عام تقريباً من حدوث الانقلاب ، عندما وقف لأول مرة أمام
جمهور صاخب خارج قصر عابدين ليعلن على العالم إلغاء الملكية، وأن
مصر منذ هذه اللحظة جمهورية رئيسها محمد نجيب ، وبأنه نائب له.
وأخيراً أميط القناع عن السر ، أما المراقبون الذى يشكون فى وجود قوة
كبيرة فى الظل Eminence grise تقف من وراء اللواء مدخن الغليون ، لم
يعودوا يدسون بأنوفهم لشم موقع القوة الفعلى ، والتساؤل عن المخطط الفعلى
لكل مراحل الثورة .

غير أن الجمهور لم يشعر بالارتياح لذلك البكباشى فارغ القامة الذى يميل إلى الحزن ، بعكس ما كان يشعر به نحو ذلك الرجل الطيب « صاحب الغليون » فلقد قام نجيب بمجهود كبير فى العلاقات العامة ، وإذا كانت الثورة قد قبلت على نطاق واسع ، ليس فى مصر فحسب ، بل فى كل مكان تلقى فيه الاهتمام فإن مرجع ذلك قبل كل شئ إلى شعبيته الشخصية ، وجاذبية سلوكه ، الذى يدعو إلى الطمأنينة . فقد يشيخ « سلوين لويدي Selwyn Lloyd » بأنفه فى كبرياء وأنفه عن هذا النظام « الذى لم يسبق له مثيل » ، لكن لم يكد يمر شهر بعد حدوث الانقلاب حتى اقترحت صحيفة لندنية أنه يتعين اختيار نجيب قائداً أعلى لقوات الحلفاء فى الشرق الأوسط ، كما كان كافرى السفير الأمريكى بالقاهرة لا يقل فى تفاؤله الحالم . فقد أعلن « أن أولادى my boys » (كما كان يفضل أن يطلق على نجيب وعصبته) : « قادرون على إنقاذ مصر من المد الأحمر ، الذى لم تكن مفاصد فاروق وباشواته قادرين على وضع حد لانتشاره عبر البلاد . أنهم سوف يقومون بعدد من الإصلاحات ويرفعون من مستوى معيشة الناس... أننا سوف نشجعهم » . وهذا ما فعله الأمريكيون بالفعل . فقد دعمت واشنطنون كلماته بتقديم المساعدة الاقتصادية تحت بئد النقطة الرابعة Point IV وكذلك عن طريق الاتفاقيات الثقافية التى كانت جزءاً من «برنامج فولبرايت Fulbright Programme» كما وصفه « جون فوستر دالاس John Foster Dulles » عقب زيارة له قام بها إلى القاهرة فى ربيع عام ١٩٥٣ : « بأنه واحد من أبرز زعماء العالم الحر فى فترة ما بعد الحرب » ، وأضاف فى مؤتمر صحفى : « إن مصر الآن على أعتاب مستقبل عظيم » .

وعلى مستوى أقل ارتياحاً كانت هناك حقيقة ، وهى الترقب الدائم لمواجهة أى تحركات من جانب الثورة المضادة ، فقد كان عبد الناصر منذ البداية منكباً على بناء وتدعيم جهاز القوة من وراء الكواليس ، متحملاً نفس المشقة التى تحملها وهو يخطط للانقلاب الثورى ذاته ، فلم تمض وقت طويل حتى كانت شرطته السرية تتسلل إلى كل ركن ، كما كانت نفسها تحت

رقابة شرطة سرية أخرى . فقد طبق « التكتيك » الشمولي دون حدوث أى أخطاء ظاهرة ، فقد كان فى مقدور أكثر الزوار تردداً على وزارة الداخلية أن يلاحظ بنوداً مثل « مخبرون كاذبون » . كما كان فرض الرقابة على الصحف ، بل حتى على البريد الشخصى تكاد أن تكون شاملة . وكان هذا لا يقل تشاؤماً لدى هؤلاء الذين اعترضوا على تلك «السلطوية المتنامية» وعلى الوجود المؤكد لكبار قادة النازيين الذين هربوا من محاكمات «نورمبرج Noremborg» (*) ولكن على الجانب الآخر كان هناك على الدوام الهيئة المعتدلة لنجيب التى رفضت إشاعة أى إحساس بالقلق بدرجة خطيرة ، إذ لم يكن من غير المقبول أن يحاول تحويل نفسه إلى نسخة أخرى من «هتلر» فمن الواضح أنه كان شخصاً شديد الطيبة والصراحة لكى يكون على هذا النهج.

غير أن تلك كانت إحدى المشاكل ، وربما كان الصدام بين الجنرال الطيب « وأولاده » الثوريين واقعاً لا مفر منه منذ البداية ، إذ أن ناصر لم يرد له أن يكون أكثر من رئيس صورى ، لكن بمرور الزمن ، زادت أهمية نجيب حتى تجاوزت الحد أن يكون مجرد رمز ، ففى وجدان الناس أصبح هو الأب الحقيقى للثورة ، فمنذ أن استدعوه بمكالمة تليفونية فى اللحظة الأخيرة أصبح الآن يسرق هدير الهتاف ، وكان هذا أمراً سيئاً ، ولا يزال يتوقع منه الأسوأ تلك كانت وجهة نظر ناصر إذ أن التأثير الذى كان على سجيته لذلك الجنرال ذى العقيلة المعتدلة بدأ يصل إلى الحد الفاصل للتقدم الثورى . ولم يخف نجيب نفوره ممن عدد من الأمور التى كانت تتم باسمه وأحياناً بدون علمه ، وفى النهاية أوضح بشكل صريح أن لم يعد يتحمل أن يكون مجرد إيهاماً للبصم ، وبدأ يصر بصفته رئيساً للجمهورية على وجوب سماع رأيه ، والحقيقة أن نجيب فى أعماق نفسه كان لا يزال يحس بأنه واحد من رجال النظام القديم ، فقد شعر أنه ذهب أكثر مما ينبغى لكى

(٥) محاكمات أقامها الحلفاء بعد هزيمة ألمانيا النازية لأعضاء المؤسسة النازية المسئولة عن الحرب واضطهاد اليهود .

يُقدر على ابتلاع نوعية التغيير التي تتطلبها ثورة ناصر ، وبالتالي فقد كان يمثل وهو لا يدري أفضل الآمال التي كان يتمناها كل هؤلاء الذين يمثلون الجناح اليميني والجناح اليساري على السواء ، والذين كانوا يسعون إلى الفكك من النظام الاوتوقراطي الذي كان ناصر يقيمه .

وعندما جاءت في النهاية لحظة اختبار القوة بين الرجلين ، لم يكن نجيب ندا للبكباشي الماكر . إذ أدت تزايد شعبيته العارمة إلى صدور الأمر من عبد الناصر بأن يوضع رهن الاعتقال ، وأجبر أن يظهر إلى جواره ، بينما كان الرئيس يخبر جمهوراً يهتف له بجنون بأن خلافتهما «مرت كسحابة صيف» غير أن ناصر استمر يستخدم تكتيكاته بمهارة كأستاذ في لعب الشطرنج (فكثير ما كان يصور ربما كرمز لذلك أمام لوحة الشطرنج) ، فقد تظاهر بقبول سياسة نجيب بأنه يتوجب على عصبة الثوار أن تحل نفسها وتعود إلى ثكناتها استعداداً للعودة للحياة الديموقراطية الطبيعية ذات الطابع القديم . فقد رفعت الرقابة على الصحف ، وصدرت الوعود بالحرية السياسية . وطوال ثلاثة أيام محمومة بدا الثوار كما لو كانوا قد انتحروا على طريقة الهاري كاري Hari Kari (*) وأن عالم ناصر الدكتاتوري قد أنهار ، لكنه قام باتخاذ بعض الخطوات التي تتسم بالحرص الشديد من وراء الكواليس . فقد قام بتطهير المنافسين ، وتحذير الأصدقاء .

وجد نجيب نفسه فجأة وقد وقع في مصيدة . فقد جئ به إلى السلطة عن طريق ثورة جيش في مواجهة نظام سياسي سيئ السمعة . وهو الآن متورط بشكل واضح في إعادة الانقلاب إلى الوراء لصالح زعامات قيادية منتخبة أو كبار ملاك الأراضي ، أو أن يكون البديل هم الإخوان المسلمون أو حتى الشيوعيون . فقد نظمت نقابات العمال إضراباً لم يكن في الحقيقة سوى تجميل للواجهة السياسية أخرجت الجماهير عن بكرة أبيها

(*) طريقة يابانية للانتحار بطعن الواحد لبطنه بالسيف ، وكان يقدم بها القادة المهزومون في الحرب خاصة بعد الحرب العالمية الثانية (المترجم) .



جمال عبد الناصر أصغر رئيس وزراء
في تاريخ مصر (١٩٥٤-١٩٥٦)
ورئيساً لأول جمهورية

إلى الشوارع . وقام الجيش يقوده الضباط الأحرار بالاندفاع للوقوف إلى جانب ناصر . لقد كانت جزءاً من لعبة شيطانية ذات وجهين تقوم على تكتيك خطوة إلى الخلف وخطوتين إلى الأمام (والذي استعير بلا شك من لينين) . وخلال هذه الساعات المسعورة، بدا مستقبل البلاد كما لو كان يطهى فى قدر كبير يغلى ، وأخيراً استسلم نجيب، فلقد بلغ السيل الزبى. فلن تكون هناك حرية بكل مخاوفها الديمقراطية ، بل حكومة سلطوية تمسك الهراوة يقودها مجلس قيادة الثورة، ونظام حكم الدولة البوليسية . لقد فاز ناصر وأصبح الآن على عتبة طريق كفاح مترشح كسيد على مصر ، مقيماً نظام حكم درامى كما لو كان قائماً على طول تاريخه الطويل.

الفصل التاسع عشر الحياد الإيجابي

فى أى اتجاه سياسى واقتصادى يا ترى سوف يوجه هذا الدكتاتور البالغ من العمر السادسة والثلاثين ربيعاً (وهو أول مصرى حقيقى يحكم مصر منذ ألفين وخمسمائة سنة) دفة بلاده التى تعرضت لسوء الإدارة من قبل القوى الأجنبية لفترة طويلة ، واستغلتها أوروبا النشطة المتقدمة صناعياً؟ فمن ناحية العقيدة : مصر دولة إسلامية تتصل بالإسلام فى آسيا ، والهند، وأفريقيا ، بل وحتى فى الصين ، وما دام الإسلام انبثق من جزيرة العرب، فقد كان من الطبيعى أن يكون قدر مصر بصفاتها أكبر وأقوى دولة فى الشرق الأوسط أن تعى أنها زعيمة العرب، خاصة أن الجامع الأزهر جعل من مصر مركز القوة الحيوية فى العالم الإسلامى . غير أن نظرة على الخريطة تبين أن مصر من ناحية الحقيقة تقع فى أفريقيا ، وتعتمد فى بقائها ذاته على مياه النيل الذى تتبع من أعماق الجنوب من تلك القارة الغامضة ، كما أن ملامح وجه الفلاح بالإضافة إلى شخصيته السلبية ، وحنقه المكبوت بدت كصفات أفريقية أكثر منها « بحر متوسطيه » . وفى نفس الوقت فإن مصر إحدى أمم البحر المتوسط ترتبط مع بلدانه منذ زمن بعيد بتقاليد تجارية قديمة قدم الزمان ، ولأكثر من قرن كان اقتصادها مرتبطاً بالنظم الغربية التى تقوم على حرية المشروعات التجارية ، ويجب أن نقر ونعترف أن بلدانا قليلة لها مثل تلك الشخصية المحيرة والمقسمة . ولقد أفصح جمال عبد الناصر عن هذه المعضلة ، وكذلك عن تطلعاته أو على أقل تقدير أفكاره التى عبر عنها لمحمد حسنين هيكل والذى صاغها بدوره فى كتيب صغير اسمه « فلسفة الثورة ».

«وأنا أجلس أحياناً فى غرفة مكتبى وأسرح بخواطرى فى نفس هذا الموضوع ، أسأل نفسى.

- ما هو دورنا الإيجابى فى هذا العالم المضطرب ؟ وأين هذا المكان

الذى نقوم فيه بهذا الدور » ويقول : « واستعرض ظروفنا وأخرج بمجموعة من الدوائر لا مفر منها من أن يدور عليها نشاطنا . وأن نحاول الحركة فيها بكل طاقتنا . ولن نستطيع أن ننظر إلى العالم نظرة بلهاء لأننا ندرك مكاننا على هذه الخريطة ودورنا بحكم هذا المكان أيمن أن نتجاهل إن هناك دائرة عريضة تحيط بنا ، وأن هذه الدائرة منا ونحن منها . امتزج تاريخها بتاريخنا وارتبطت مصالحنا بمصالحها ؟ أيمن أن نتجاهل أن هناك قارة إفريقية شاء لنا القدر أن نكون فيها ، وشاء أيضاً أن يكون فيها اليوم صراع يدور حول مستقبلها ، وهو صراع سوف تكون إثارة علينا سواء أردنا أم لم نرد ؟ أيمن أن نتجاهل أن هناك عالماً إسلامياً تجمعنا وإياه روابط لا تفر بها العقيدة الدينية فحسب ، وإنما تشهدها حقائق التاريخ... كل هذه حقائق أصيلة ذات جذور عميقة فى حياتنا . » إن ظروف التاريخ مليئة بالأبطال الذين صنعوا لأنفسهم أدوار بطولية مجيدة قاموا بها فى ظروف حاسمة على مسرحه .. ولست أدري لماذا يخيل إلى دائماً أن فى هذه المنطقة إلى نعيش فيها دوراً هائماً على وجهة يبحث عن البطل الذى يقوم به ، ثم لست أدري لماذا يخيل إلى أن هذا الدور الذى أرهقة التجوال فى المنطقة الواسعة الممتدة فى كل مكان حولنا قد استقر به المطاف متعباً منهوك القوى على حدود بلادنا يشير إلينا أن نتحرك وأن ننهض بالدور وترتدى ملابسه لأن أحداً غيرنا لا يستطيع القيام به» .

«وأبادر فأقول أن الدور ليس دور زعامة . إنما هو دور تفاعل وتجاوب مع كل هذه العوامل ويكون من شأنه تفجير الطاقة الهائلة الكامنة فى كل اتجاه من الاتجاهات المحيطة بها ، ويكون من شأنه تجربة لخلق قوة كبيرة فى هذه المنطقة ترفع من شأنها وتقوم بدور إيجابى فى مستقبل البشر» (*) .

هذه الأفكار الحاملة التى كانت حقاً البذور الأولى لكل طموحاته التى عبر عنها بصراحة وصدق ، رسمت الطريقة التى كان بها عقل ذلك الزعيم

(*) فلسفة الثورة - طبعة دار المعارف ص ٦٠ - ٦١ (المترجم) .

الثورى يعمل ، واستقبلها المحللون السياسيون فى الغرب بقدر كبير من سوء التفسير حيث لم تكن ذكرى كتاب « هتلر » : « كفاحى Mein Kampf » قد محيت من الأذهان بعد . إذا بدت لهم مثل هذه الطموحات على الأقل غير مريحة ، والذى لا شك فيه أن مأساة الموقف تكمن فى أن ناصر كان على قدر قليل من الإدراك بذلك ، ولم يكن لديه أدنى تقدير لمصالح الغرب فى الوقت الذى كان فيه المفكرون السياسيون فى كل من « الهوابتهول » أو قصر « الإيلزيه » (ليسوا على استعداد أن يضعوا أنفسهم فى أحذية غير الأوروبيين من الذين كانوا قد ذاقوا مهانة الذل حتى الثمالة على يد الاستعمار الغربى . وفى الخمسينات من القرن العشرين كانت رياح التغيير لا تزال تهب بلطف ، غير أن هؤلاء السياسيين لم يكونوا قادرين أو ينوون إدراك أنه بعد قرون من تتابع الخضوع للقوى الأجنبية واحدة بعد أخرى ، فإن الرغبة الأساسية التى يتحرق لها كل مصرى هى أن يدير شئونه بالطريقة التى يرغبها دون تدخل خارجى . وأن يكون سيد قدره لا أكثر ولا أقل .

وينهى ناصر كتيبه الصغير بقوله : « وحين أحاول أن أحلل عناصر قوتنا لأجد مفراً أن أضع ثلاثة مصادر بارزة من مصادرها ، يجب أن تكون لها أول ما يدخل فى الحساب .

أول هذه المصادر أننا مجموعة من الشعوب المتجاورة ، المترابطة بكل رباط مادى ومعنوى يمكن أن يربط مجموعة من الشعوب .

أما المصدر الثانى فهو أرضنا نفسها ، ومكانها على خريطة العالم ، ذلك الموقع الاستراتيجى الهام الذى يعتبر بحق ملتقى طرق العالم ، ومعبر تجارته ، وممر جيوشه .

يبقى المصدر الثالث وهو البترول... النموذج الهام لمصادر القوة فى بلادنا» (*) .

(*) المصدر السابق ص ٧٥ .

ومهما يبدو ذلك الكتيب الصغير في نظر الآخرين ، فإنه يكشف عن أن ناصر كان مفكراً وطنياً ، تحركة رغبة جامحة أن يرفع من مستوى رفاهية ومكانة مصر ، وكذلك القضية العربية . ويتجاهل بشكل يكاد أن يكون ساذجاً المصالح الدولية القائمة ، وكان مصيره - كما أصبح واضحاً فيما بعد - أن يلهب بالسوط رياح التغيير حتى حولها إلى قوة الإعصار ، وأن يصبح عاملاً أساسياً في الحرب الباردة . وقليل من المصريين في هذه المرحلة كانوا يشعرون بأنهم متورطون شخصياً في الصراع الكبير بين الشرق والغرب ، وأغلبهم كان لديه اقتناع قليل للإحساس بأن النظام الرأسمالي يتفوق على النظام الشيوعي ، أو بمعنى أوضح أن الشيوعية أفضل من الرأسمالية ، غير أن المصريين كانوا على استعداد للقتال ولكن لو كان هناك تناول هادئ ومستفهم للأمور ، ولم يكن من المحال أن تظل مصر في المعسكر الغربي . ولكن كما حدث فإن السياسات الحمقاء وغير المعقولة التي اتبعتها كل من لندن وباريس ، وواشنطن ، على السواء هي التي عجلت بظهور الاتحاد السوفيتي فوق الأرض المصرية ، كما أن مجرد العداء المقنع من جانب الغرب كان بديلاً ضعيفاً في نفوس العرب عن الدفئ المتوهج الذي بدأ يشع من ناحية الشمال الشرقي .

أما على الجبهة الداخلية ، فقد كانت أهداف ناصر واضحة بشكل كبير ، فقد دمرت الملكية المتفسخة ، والغيث الأحزاب السياسية العتيقة الفاسدة ، وبدأ الشروع في الإصلاحات الاجتماعية والزراعية ، وأصبح ما يريده عبد الناصر الآن أكثر من أي شيء آخر هو استئصال آخر معاقل الاحتلال الذي أبقى مصر تحت وصاية إنجلترا الصارمة والمتمثل في وجود ما يقرب من ٧٠,٠٠٠ جندي بريطاني في منطقة القنال . هذا ما أطلقت عليه الصحافة «المشكلة الوطنية».

لقد كأنه قاعدة القنال في تنامي مضطرب مثل توبسي Topsy أثناء وبعد الحرب ، حتى أصبحت أكبر قاعدة عسكرية لبريطانيا في أي مكان من العالم ، كما أن قادة القاعدة الجوية اعترفوا بصراحة بأن معداتها أصبحت عتيقة تماماً حتى أن لا أحد يدرى على وجه التأكيد كم من المخزونات قد

ترك مدفوناً في الصحراء (التقدير التقريب في وقت وجود قاعدة السويس وضع لها ثمناً تقديرياً يبلغ ٢٥٠ مليون إسترليني لما في المخازن هناك) وإلى حد ما كانت قاعدة منطقة القناة قد حلت محل جيش الهند القديم في نطاق الاستراتيجية الإمبراطورية ، وشكلت حصناً أساسياً للحرب الباردة. وبناءً عليه فإن البريطانيين أساساً لم يتوقعوا أو كان في نيّتهم مغادرتها - خاصة بسبب الأهمية التي تقدمها لمناطق البترول في الشرق الأوسط . لقد كانت معاهدة ١٩٣٦ هي التي بها اكتسبت القاعدة وجودها الشرعي الذي لم يستمر أكثر من عام ١٩٥٦ ، بشكل واضح كان هناك نيّة واضحة لفترة امتداد . ولم يخف الجنرال إرسكين Erskine القائد العام سراً حول هذا الموضوع . فقد أسر لمن يثق فيهم عام ١٩٥٢ بقوله : « نستطيع أن نتقلها عنى أننا لن نترك القناة » وإذا كان قرار الجلاء قد صدر بعد عامين فقط من ذلك التاريخ فإن سبب ذلك هو التجربة التي ظهرت خلال أعمال الشغب عام ١٩٥١ بأن القاعدة لا يمكن أن تبقى في وجود عمق معاد . وفي السابق كان هناك عنصر في اللعبة يدور حول مفاوضات الجلاء . والبريطانيون يريدون الاحتفاظ بالقناة ، وفاروق كان من حاجة إلى الوجود البريطاني كسياسة لتأمين بقائه على العرش في مواجهة شعبية . ولهذا بقيت القاعدة بالرغم من الانفجارات المتكررة التي كان يقوم بها الوفد من آن لآخر، لأنها كانت على الأقل في صالح ضلعين من أضلاع المثلث القديم للسلطة في مصر اللذين حتماً بقاءها .

ولكن مجرد ان جلس الضباط الأحرار إلى مائدة المفاوضات ، حتى تغير الموقف من جذورة ، لقد كان ناصر في حاجة ماسه لذهاب البريطانيين حتى أنه كان على استعداد لقبول صفقه أدنى مما كانت تتادى به صيحات الوطنيين وهو : « الجلاء غير المشروط » . وأن يتفاوض على اتفاق جديد بواقعية المحترف . وعلى الجانب الآخر فإن الحكومة البريطانية كانت تدرك أن ناصر جاد فيما يطلب، وفي أي الحالات فإن التركيز يمثل هذا الحجم (على القناة) لم يعد يتمشى ومتطلبات الاستراتيجية النووية . ولا يتعارض إلا قليلاً مع التصور الذي أطلق عليه تشرسل Churchill : « هذه القاعدة »

المكلفة «This Costly Base» ، ومن ثم، تم التوصل إلى اتفاق وسط غريب، بمقتضاه تم جلاء الجيش تاركاً قاعدة رمزية يديرها مدنيون بريطانيون متعاقدون.

ولقد تم توقيع معاهدة الجلاء في ٢٧ يوليو عام ١٩٥٤ ، وأصبحت سارية المفعول منذ ١٩ أكتوبر عام ١٩٥٤ ، رغم أنها أفصحت قليلاً بشكل ما عن: «الدفاع المشترك» وبذلك خيبت آمال الرأي العام عند غلاة الوطنيين لدرجة أن الإخوان المسلمين حاولوا اغتيال عبد ناصر ، غير أن ذلك حقق له هيبة عالية ومفاجئة في الشرق الأوسط كرجل قادر على انتزاع التنازلات من المستعمرين . ومنذ هذه اللحظة فصاعداً أصبح في عيون أغلب القوميين العرب بطلاً . حيث بدأت صورة تطل من واجهات الحوانيث والمقاهي من عدن حتى حلب كما أنه كان لهذه الاتفاقية أربع نتائج أخرى حاسمة وربما متوقعة.

فلقد أدى فراغ القوة « الذي تولد عن ذلك في نظام دفاع الغرب في الشرق الأوسط إلى استبداله بحلف بغداد الذي أوحى به الأمريكيون : «ذلك الحاجز الشمالي Northern tier» الذي بدأ في عيون جون فوستر دالاس John Foster Dulles (والذي لم يكن مجرد شاهد في إجلاء البريطانيين من أجل أسبقية السيطرة العسكرية في مناطق النفط) فكرة رائعة ، غير أنها لم تكن أكثر من فكرة بغیضة عند ناصر ، وبالمثل عند القوميين التقدميين الآخرين في الشرق الأوسط والذين كانوا يعارضون فكرة نوري السعيد في نقل مركز القوة إلى بغداد ، أو بالفعل ضد أي تحالف بين العرب والغرب، والسبب نفسه . لأخلاء الطريق لروسيا التي أقيم حلف بغداد أساساً ضدها لكي تقفز فوق هذا الحاجز ، وتبدأ في مغازله مصر من أجل مصلحتها . كما أن إسرائيل فسرت عملية الجلاء على حد وصف رئيس وزرائها بأنه بمثابة «هجر إسرائيل لقدرها» . وأخيراً كشفت الرصاصات الثمان التي أطلقها إرهابي من الإخوان المسلمين على ناصر في أثناء شرحه لاتفاق الجلاء لحشد جماهيري تجمع في الإسكندرية عن وجود مؤامرة مثيرة دبرها الإخوان المسلمون ومعهم ١١٦ من الضباط الأحرار لاغتيال ناصر وإعادة

نجيب إلى السلطة . وهذا أعطاء العذر للتطهير الدموي للإخوان المسلمين بشكل شامل صدم الرأي العام، غير أنه أكمل قبضة انقلاب عام ١٩٥٢ وذلك عن طريق إخلاء أى عثرة تقف أمام سلطة عبد الناصر : وكان الشعار الذى علق فى لافتات فى كل شوارع القاهرة احتفالاً باتفاق الجلاء هو : « ارفع رأسك يا أخى فقد مضى عهد الاستبداد » لكن الحال أصبح كما كان فى أيام مصر القديمة ، هناك رجل واحد تحنى له الرعوس ، وبذلك لم يعد البكباشى رئيساً فقط ، بل فرعوناً أيضاً.

بعد ذلك بدأ سيل يدعو للإعجاب من كبار الشخصيات الهامة (VIP) يتدفق على القاهرة تعبيراً عن احترامهم لفرعون مصر الجديد . فقد جاء تيتو رئيس يوغوسلافيا . وقدم بعضاً من النصائح الهامة حول مزايا النظام المركزى وشروط الأعمال الحرة Private Enterprise ، وبعدها بعشرة أيام وصل نهر من الهند وقدم بعض الأفكار المفيدة حول «ملاعبة الشرق ضد الغرب»، وتبعه سوكارنو رئيس إندونيسيا الذى أخرج مضيفه عندما أحضر على مائدة العشاء الرسمية اثنين من مضيفات خطوط طيران « بأن أمريكان» التقطهما من بهو الفندق ، لكنه بعث السرور فى نفسه بابدأ ملاحظته بأن : « أمم أفريقيا وآسيا لم تعد أدوات ودمى للعب بها من جانب لا يستطيعون أن يؤثروا فيها » وزائر آخر جاء لفترة قصيرة هو انتونى أيدن Anthony Eden الذى كانت وجهة نظره نحو الرئيس (على حد كلمات ناصر نفسه) «أنه كما لو كان يتكلم إلى مسئول أدنى منه درجة والذى لا يتوقع منه أن يفهم فى السياسة الدولية».

وبعد أيام تلت ، فى أبريل عام ١٩٥٥ قفز عبد الناصر إلى إحدى طائرات خطوط طيران الهند Air India فى مطار القاهرة الدولى وأقنع فى أول رحلة له خارج العالم العربى . كانت هناك تسع وعشرون أمة ممثلة فى مؤتمر باندونج Bandung : ملكيات ، دول إقطاعية ، جمهوريات ، شيوعيون ومعادون للشيوعية . من كل الاتجاهات السياسية ، لكن يجمعها هدف واحد مشترك ، أنها جميعاً لم تكن من ذوات البشرة البيضاء ، وأن أغلبها كانت واقعة تحت السيطرة والاحتلال ، أنها كانت تشغل حماساً بعد

أن أسكرتها خمرة القومية ، كما أن أغلبها كان ينتمى إلى دول الحياد (وهو تعبير كان يفسر في ذلك الوقت على أنه عداء للغرب) . وبالنسبة لناصر الذى كان أصغر الوفود سناً ، والوحيد الذى ظهر في زيه العسكرى ، كانت باندونج تجربة ذات أهمية كبرى ، فقد رحبت به الأمم بشدة حيث لفت أنظار كثير من الوفود خاصة شواين لاي Chou En Lai الذى خرج عن خطة ليكسب صداقة مصر . كل ذلك أعطاه الإيحاء أن مصر قوة في الشرق التائر - الكتلة الثالثة - التى هى لا شيوعية ولا رأسمالية والتى كانت تمثل خمسة وثمانين فى المائة من سكان العالم . وعاد إلى القاهرة . وهو يحمل تفكيراً عالمياً بعد أن حقق لنفسه مكانة كواحد من الأربعة الكبار فى العالم الأفرو - آسيوى . وهى حقيقة لم تمر دون ملاحظة لا فى بكين ولا فى موسكو .

وفى نفس الوقت حدث فى الاتجاه المعاكس تيار متتابع من سوء الفهم وفقدان الثقة ، وتطورات الخلافات التى سرعان ما حولت الشرق الأوسط إلى جحيم تصاعد لهيبه حتى أدى إلى حدوث كارثة ذات حجم تاريخى .

فقد سبق فى عام ١٩٥٣ أن حاول جون فوستر دالاس - دون إحراز أى نجاح - فى أن يغرى مصر للانضمام إلى تحالف شرق أوسطى تحت رعاية الولايات المتحدة بهدف تقييد نفوذ روسيا حتى لا تتوسع فى نشر الشيوعية فى المنطقة ، ولكى يحرس مصالح البترول الأمريكية ، وتلى ذلك قيام حلف بغداد الذى كان أساساً عبارة عن زواج بين المصالح التجارية الغربية وطبقة الباشوات العتيقة من السياسيين الذين كانوا يرون إبقاء الحال كما هو عليه . لكن ذلك كان لا يجد تجاوباً مع الشعب من جيل ناصر ولا إغراء من جانب الذين يعملون من أجل القومية العربية . ومنذ اللحظة التى قام فيها الحلف أصبح من المحتم أن يؤدى ذلك إلى صدام الغرب مع قوى القومية العربية والتى كان من الممكن بشئ من المعالجة الهادئة أن تصل إلى اتفاق مع الولايات المتحدة التى كانوا يكتنون لها الإعجاب بل وحتى مع سادتهم القدامى البريطانيين والفرنسيين . وكانت وجهة النظر العربية أن الدفاع عن المنطقة يجب أن يأتى من الداخل من خلال الإصلاحات الاجتماعية والتقدمية ، ومن خلال قوميتهم الخاصة وذلك من خلال قيام حلف وحدوى عربى مستقل

وغير منحاز ، وليس من خلال تحالف غير مقبول شعبياً يفرض عليهم من الخارج. وكان ناصر نفسه واضحاً كل الوضوح بخصوص ذلك .فقد كان يقول فى العن وفى السر أن مصر لن توقع على أى تحالفات دفاعية تأتى من الخارج .

وبالرغم من أن ناصر لم يكن مستعداً لتحالفات الحرب الباردة مع الغرب إلا أن مصر كانت لا تزال تميل إلى الغرب بمعنى أنها كانت غير شيوعية ومدركة لأخطار الشيوعية ، فحتى عام ١٩٥٤ كان نظام الحكم يتمتع حقاً بما اسماه دين اتشيسون (Dean Asheson) « الصداقة النشطة مع الولايات المتحدة » . فقد منح قرض تبلغ قيمته أربعون مليون دولار من أجل التطوير، كما أن الخبراء الأمريكيين من كل تخصص كانوا يشاهدون فى القاهرة . وكانت السياسة الأمريكية تقوم أساساً على دمج مصر فى حلف دفاعى شرقى أوسطى مقابل بيع السلاح للجيش المصرى ، وأن تسيطر على الاقتصاد المصرى عن طريق تقديم قرض لتمويل مشروع السد العالى فى أسوان . ولكن الإعلان عن قيام حلف بغداد بالرغم من المعارضة المصرية وتجديد النشاط المفاجئ لإسرائيل وضع نهاية لشهر العسل.

وفى ٢٨ فبراير عام ١٩٥٥ أيقظت مكالمة تليفونية فى منتصف الليل ناصر لتحمل إليه نبأ هاما وهو أن القوات الإسرائيلية قد اجتاحت عبر خط الهدنة عند غزة فى غارة خطط لها بمهارة حيث استولت على نقطة المفروض أنها كانت محصنة ، وأوقعت بالمصريين خسائر بلغت ٦٩ جندياً. وفى اليوم التالى صرح رئيس وزراء إسرائيل أنه إذا أصرت مصر على إبقاء حالة الحرب الفعلية مع إسرائيل فعليها أن تتحمل العواقب . غير أن ذلك كان بالنسبة لعبد الناصر لحظة صدق . فقد اعترف فيما بعد « بأن كارثة غزة كانت بمثابة جرس الإنذار . فقد بدأنا على الفور فى فحص أهمية السلام وقوى التوازن فى المنطقة » والتى كانت تعنى أنه ضاعف بحثه عن الأسلحة الحديثة .

وبخلاف الموقف الإسرائيلى كان ناصر يعتمد على الجيش لفرض نفوذه

الشخصى أكثر من أى شئ آخر . فمئذ انقلابه الثورى ، فعل كل ما فى وسعه لإبقاء الضباط فى القوات المسلحة على ولائهم له . فقد عين الكثيرين منهم ممن يحملون رتبة نقيب وصاغ ، وكذلك قادة الألوية فى مواقع حكومية عليا لضمان تأييدهم ، كما أنه قدم لهيئة الضباط العديد من الامتيازات التى جعلت منها طبقة جديدة مميزة . ولقد كانت القوات المسلحة التى استولى عليها فى عام ١٩٥٢ ، فقيرة التسليح ، وتعاني من الإحساس بالإهانة التى لا تتناسب مع ماضيها التليد . وكان أمراً بالنسبة للجيل الجديد من شباب الضباط أن تبقى القوات المسلحة إلى الأبد فى موقف الضعف . وكان كل ما يريدونه فى عام ١٩٥٥ هو الدبابات والطائرات النفاثة التى كانت وقتذاك أحدث ما يمكن الحصول عليه من سلاح .

أخذت بعثات عبد الناصر العسكرية تبحث بنشاط عن مصادر التسليح من الغرب ، غير أن بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة كانت تحاول الحفاظ على السلام فى الشرق الأوسط عن طريق تقييد بيع المعدات الحربية . كما أن الكونجرس الأمريكى أجاز قراراً بحظر شحن السلاح الأمريكى إلى أى بلد لا يوافق على السيطرة الأمريكية عند استخدامها . كل هذا كان يعنى الإحباط التام لبعثات المصرية لشراء السلاح .

جاء أول تلميح كمصدر بديل لتموين السلاح فى « باندونج » عندما عرض شواين لآى على ناصر السلاح ، ثم بعد ذلك انتحى السفير الروسى فى حفل استقبال دبلوماسى أقيم فى عام ١٩٥٥ به جانبا وسأله بصراحة عما إذا كانت حكومته تبدى اهتماماً بشراء السلاح من الاتحاد السوفيتى . وبعد مرور شهرين وصل المستر شيبيلوف Shepilov إلى القاهرة كمبعوث خاص من جريدة البرافدا تحت غطاء « مهمة صحفية » ، ولكنه كان فى الواقع يضع الأساس لعقد صفقة .

وبالرغم من ذلك كان ناصر متردداً حول اتخاذ قرار قد يدفعه تجاه اليسار ، ولكن فى شهر سبتمبر عندما غزت القوات الإسرائيلية واحتلت «العوجة» وهى منطقة منزوعة السلاح بمقتضى هدنة ١٩٤٩ ، اكتشفت

المخابرات المصرية أن فرنسا تزود سرّاً إسرائيل بالسلاح ، عندئذ قطع ناصر تردده ، و ثم توقيع العقد بين مصر وروسيا في ٢٤ سبتمبر .

ولما كان يتوقع اندلاع موجة من الغضب الذي يسببه الإعلان عن هذه الأنباء ، فقد خطط لجعل هذه الصفقة سرّاً لأطول وقت بقدر ما يستطيع . غير أن السير همفري تريفلان Sir Humphrey Trevelyan سفير بريطانيا الذي كان قد عين حديثاً في منصبه ، اشتم الخبر ، فطلب مقابلة عاجلة . و يروى « مايلز كوبرلاند » Miles Coperland « أحد قاطني حي ماديسون أفينو Madison Avenue الثرى الذى أبقاه ناصر كمستشار له فى العلاقات العامة فى كتابه لعبة الأمم « Game of Nation » ، كيف تصادف وجوده هو و « كرميت روزفلت Kermit Roosevelt » من وكالة المخابرات الأمريكية (C. I. A) فى المكتب عندما أعلن عن وصول السفير ، عندئذ سأل عبد الناصر وهو يحرك عينية الشبيهتين بعينى الثعبان ما لو كان صبيّاً وقع فى حيرة ، ماذا تظن ما يجب عليّ إخباره ؟ فأجاب روزفلت بومضة إلهام مفاجئ « حسناً سيدى الرئيس لماذا لا تهون من الأمر قليلاً بأن تسميها صفقة سلاح تشيكية بدلاً من روسية ؟ فكما تعرف فإن ذلك قد يبدو أفضل !» .

وهكذا ولدت أسطورة « السلاح التشيكي » التى ابتكرت من تحت ثياب أمريكى ، غير أنها كانت تتناسب الحسابات الروسية أيضاً . وفى مساء اليوم التالى عندما كان ناصر يفتتح معرضاً للسلاح فى الجزيرة أعلن الخبر . فقد أخبر الجمهور المبتهج : « أن الغرب قد رفض أن يعطينا وسائل الدفاع عن أنفسنا . ولقد تلقينا عرضاً من تشيكوسلوفاكيا لمدنا بالأسلحة التى نحتاجها ، على أساس تجارى خالص مقابل السداد بالقطن ولقد تم توقيع الاتفاق منذ لحظات» .

وبعد ذلك ، خرجت عناوين الصحف الرئيسية حول العالم تحمل النبأ : « الشيوعيون يسلحون مصر » وأصبح عبد الناصر بذلك أكثر من أى وقت مضى قرة عين مصر ، بل أكثر منها « قرة عين » العالم العربى ، فقد لمس ذلك وتراً حساساً بالنسبة لجماهير الشرق الأوسط : وهو عطشهم لما يسمونه

«الكرامة» والتي لا تعدو أن تكون حرية اتخاذ قرارهم بأنفسهم بدلاً من أن يكونوا رهن إشارة الغرب . ولكن هذا التصرف المنفرد قد اخل بميزان القوى في الشرق الأوسط تماماً ، والذي كان أمراً عزيزاً لدى الهوا بتهول والبنـتاجون Pentagon . وفتحت الأبواب على مصراعيها للتسلل الروسي ، وبدأ العد التنازلي للطريق إلى السويس وما ترتب على ذلك.

الفصل العشرون

صفحة مقابل صفحة

كان جمال عبد الناصر لا يزال بعيداً عن تحقيق دورة « كالبعبع » الكبير للغرب . ففي الأسابيع التي تلت ضجة الأسلحة التشيكية لم يخطر ببال لندن ولا واشنطن حقيقة أن مصر تتجه نحو الحرب ، ففي محاولة لإفساد الانتصار الدبلوماسي الروسي ، سعت قوى الغرب إلى استعادة مكانتها عن طريق تحريك درامي مماثل لتقديم عرض تمويل السد العالي في أسوان ، فقد كان على رأس المشاكل الملحة التي واجهتها حكومة الثورة هو فقر الفلاح المدقع ومستوى المعيشة المتدنى لما يزيد عن خمسة وعشرين مليون مصري(*) محشورين في وادي النيل الضيق . ولم تكن الست ملايين فدان المزروعة والمحشورة بين الصحراء الشاسعة غير الممطرة - والتي تمثل مجرد اثنان في المائة من مساحة البلاد ، تكاد تكفى لإعالة السكان الذين كان عددهم يتزايد بنسبة نصف مليون كل عام . فإحصائياً وبيئياً كانت التوقعات مروعة . وكان البريطانيون قد أقاموا سدّاً في أسوان عند نهاية القرن (التاسع عشر) غير أن مزاياه كانت قد تضاءلت منذ زمن طويل . وكانت فكرة بناء سد آخر أكبر حجماً بكثير قد درست منذ عقود . وفي عام ١٩٤٧م لاحظ عالم الهيدرولوجيا أدريان دانيانوس Adrian Daninos أن مياه النيل تتدفق جنوب أسوان عبر حوض طبيعي شاسع المساحة مما قد يشكل مشروعاّ لسد يبلغ حجمه عشرين مرة تقريباً من حجم السد القائم . لقد كانت مشكلة مصر دائماً هي حجز وتخزين مياه النهر التي هي شريان الحياة بدلاً من تركها تتدفق بلا فائدة نحو البحر المتوسط عندما يفيض النيل في شهر سبتمبر من كل عام . ولقد جادل الخبراء أنه من الممكن تخزين كمية هائلة من المياه التي يمكن استخدامها في زراعة ما لا يقل عن مليوني فدان

(٠) هو تعداد الشعب المصري مما ذلك الوقت وحتى نهاية القرن بلغ تعداد الشعب المصري ٦٢ مليون نسمة (المترجم)

بالإضافة إلى توليد طاقة كهربائية هائلة من أجل إعطاء دفعة جديدة للتوسع الصناعي.

لقد كان من الواضح أن بناء هذا الخزان الضخم بمثابة مسألة حياة أو موت بالنسبة لمصر ، وأن الإجراء الواقعي الوحيد لمواجهة مشكلة الانفجار السكاني هو إضافة مساحات جديدة من الصحراء إلى المساحة القابلة للزراعة ، وإعطاء دفعة جديدة للصناعة . وكان أول الإنجازات للمجلس الثورى هو تشكيل مجموعة لدراسة المشروع . وبعد عامين أعلن ناصر رسمياً قرارة بإنجاز مشروع السد العالى كواحد من أكثر المشروعات الهندسية طموحاً وجرأة التى لم يسبق لأحد التفكير فى تنفيذه من قبل ، والذي وصفه بأنه « يفوق حجم الهرم الأكبر بنحو سبع وعشرين مرة » وهو شعار ملأ نفوس المصريين بالكبرياء ، فى حين سخر أعداؤه منه بأنه هرم ديماجوجى a demagogic pyramid .

وبلا شك ، كانت تكاليف مثل ذلك المشروع العملاق تفوق قدرات مصر المالية ، ولم يكن هناك فى الواقع سوى بلدان اثنان فى العالم يمتلكان المصادر الكافية لبنائه : وهما الولايات المتحدة وروسيا . وقد حذر بعض مستشارى ناصر أن قبول الأسلحة الروسية سيثير غضب قوى الغرب مما يعرض طلب المعونة منهم للخطر ، غير أن تقديره للموقف (الذى كان يقوم على أساليب تيتو ونهرو) كان مختلفا ، ولما كان فى أعماق نفسه مقامراً ، فقد شرع فى ملاعبة الشرق ضد الغرب فى كل ما كان يراه يستحق ، وكانت الصيغة بسيطة لدرجة الإغراء . وفى تنفيذه ذلك بمهارة لم يضع فى حسابه بباله أنه قد يفشل .

فخلال شتاء عام ١٩٥٥ والأيام المبكرة لعام ١٩٥٦ بدت الأمور تسير كالسحر ، فبعد أن أمن صفقته مع روسيا ، عاد يغازل الغرب مرة أخرى ، وفى ذلك الوقت كان البريطانيون يجلون عن منطقة القنال طبقاً لمعاهدة ١٩٥٤ ، وللحصول على أى فائدة سياسية من هذا الانسحاب كان من الواضح أن هناك رغبة فى التقارب من القاهرة . وفى الخطبة التى ألقاها

السير أنتوني أيدن Anthony Eden فى الجيلدهول Guildhall أشارت إلى الأمل فى قيام ما أطلق عليه « غرسه محمومة للعلاقة الأنجلو - مصرية The Febrile plant of Anglo-Egyptian Friendship كانت تنمو أقوى فأقوى، كما المح إلى إمكانية العثور على حل للمسألة العربية الإسرائيلية ، بالرغم من أن ذلك كان بمثابة ديناميت سياسى لأى قائد عربى يفكر فى مصالحة قد تقابل إسرائيل عند منتصف الطريق بالنسبة لادعاءاتها فى الأرض : فقد صرح ناصر « بأن مقترحات أيدن أرضية جيدة للتفاوض » . وفى نفس الوقت أكدت الحكومة البريطانية فى هدوء أن حلف بغداد الذى كان ناصر يظن أنه موجه ضد مصر قد لا يتوسع .

وفى هذا المناخ المفعم بالأمل . صدر تأكيد فى مطلع عام ١٩٥٦ أن البنك الدولى سوف يقدم ٢٠٠ مليون دولار . تدفع منها الولايات المتحدة ٥٥ مليون دولار وبريطانيا ١٥ مليون دولار لتمويل المرحلة الأولى من بناء السد العالى، غير أن رجال المال لم يقبلوا المخاطرة : وكانت شروطهم أن ميزانية مصر يجب أن توضع تحت إدارة البنك الدولى ، وأن حساباتها كلها توضع تحت الفحص و أن لا يكون لمصر الحق فى استئانة أى قروض من جهات أخرى - وهذا معناه العودة إلى فرض السيطرة عليها من الخارج (وبالتالى السيطرة السياسية) وهو بالتحديد الأمر الذى كان على الثورة (وفى ذاكرتها ديون القرن التاسع عشر) أن ترفضه ، ومن ثم كما حدث بينما كانت المفاوضات مستمرة فى نيويورك ، كان المبعوث الروسى يجرى محادثات مع ناصر فى القاهرة ، وبالمثل أعلن أن حكومته على استعداد لتقديم المساعدة الفنية والاقتصادية لمصر من أجل بناء السد العالى . وبالرغم من أن الشروط الروسية كانت غامضة ألا أن القوتين الكبيرتين كانتا على استعداد للمزايدة عليها. ومن ثم لم يكد يمر أسبوعان حتى اختلطت الأمور كلها بطريقة هزلية.

وصل الجنرال تمبلر Templar القائد العام - دون توقع - إلى عمان لمناقشة إمكانية ضم الأردن والفيلق العربى الذى كان لا يزال تحت قيادة جلوب باشا Glubb Pasha إلى حلف بغداد ، واشتعل ناصر غضباً لما اعتبره نكت صارخ للوعد ، فقد شرع فى شن حملة إعلامية قاسية من راديو القاهرة

ضد كل من بريطانيا والأردن . وبعد ذلك بوقت قليل مرّ المستر سلوين لويد Selwyn Lloyd بالقاهرة . وفي نفس اللحظة التي كان فيها متواجداً في مكتب الرئيس المصري (وفي ضوء كل التقارير التي تضع الأسس حول وجهة نظر القاهرة نحو الأردن) وصلت رسالة تقول أن الملك حسين قد قام بطرد جلوب باشا وأمهله ساعتين فقط لكي يغادر البلاد . ومما لا شك فيه أن ناصر لا بد وأن يكون قد أيتسم وهو يطلع على الأنباء ، غير أن وزير الخارجية البريطانية فجأة سارع إلى تكوين استنتاج أن هذا الحادث خطط له ليتماشي بهدف التعبير عن توجيه الإهانة له : (وقد ثبت فيما بعد أنه لم يكن لناصر أي علاقة بموضوع الطرد والذي ربما كان نتيجة لاستياء الملك حسين منذ وقت طويل من وضع الجنرال المميز خاصة عندما قرأ في جريدة الأوبزيرفر The Observer أن جلوب باشا هو «ملك الأردن غير المتوج»).

وفي اليوم التالي قبل سلوين لويد في البحرين التي كان من المفروض أنها محمية بريطانية بفضاظة من قبل جمهور معاد ، ومرة أخرى عزا ذلك لتحريض راديو القاهرة : وبطريقة أو بأخرى بدأ سلوين لويد أقل الناس غروراً بأي حال من الأحوال كما لو كان قد قدر له أن يقع تحت تأثير شيطان مريد في كل ما يتعلق بمصر ، واستحوذت عليه فكرة مفادها أن كل مشاكل بريطانيا في الشرق الأوسط سببها نشاطات بكباشي متعصب بدا قادراً على إثارة الاضطرابات من بعد في أي مكان يحلو له .

وفي ربيع عام ١٩٥٦ بدأت فكرة موازية عن ناصر تتولد في هذه المرة في فرنسا حيث كان فقدان الهند الصينية لا يزال ماثلاً في الأذهان وكان على فرنسا أن تبذل خسارة انفصال كلاً من تونس ومراكش وذلك باستقلالهما ، وكانت مصر على ألا تسير الجزائر في طريق مشابه . وفي مارس ذهب المسيو بينو Pinaud إلى القاهرة لإقناع الرئيس ناصر بالتوقف عن تأييد ودعم الوطنيين الجزائريين . غير أن ناصر لفت نظرة أن الجزائريين : « أخوتنا... ولا نستطيع أن ننكر عروبتنا » ومقابل ذلك طلب أنه يتوجب على فرنسا أن تتوقف عن تسليح إسرائيل وكان ذلك مثلاً آخر على كيفية عدم القدرة على

إقامة الصداقة والتأثير على الناس . وعاد المسيو بينو إلى فرنسا وهو غير مرتاح بالمرة .

وأخيراً تشابكت خطوط العداء في واشنطن حيث كان اللوبي اليهودي يعمل بجد . إذ أندلع القتال مرة أخرى على الحدود المصرية - الإسرائيلية . وفي نفس الوقت وافق الفرنسيون والكنديون (وذلك بتدبير من البنتاجون) على بيع طائرات نفثة لإسرائيل ، إلا أنه كنتيجة لمجهودات المستر همرشولد Hammarskjold المتواصلة من أجل إيجاد حل لمشكلة فلسطين ، فقد كان هناك تلميحات أن الاتحاد السوفيتي قد تزعم مبدأ فرض الخطر من جانب القوى الكبرى على شحن السلاح إلى الشرق الأوسط في الوقت الذي كانت فيه أصوات الصقور الداعية للحرب في إسرائيل تؤيد القيام بحرب مانعة Preventive War ضد العرب ، جعل مصر تدرك أنها إن لم تكن على قدر من الحذر ، فإنها قد تجد نفسها متورطة في حرب مما يجعل إمدادها بالسلاح في خطر . وفي هذه اللحظة تذكر عبد الناصر محادثاته مع شواين لاي Chou En - lai . وبدأت صحف القاهرة تعرض رأياً للنقاش وهو أن : « روسيا ليست المصدر البديل الأوحده للحصول على السلاح بدلاً من الغرب » . وسافرت بعثة عسكرية إلى بكين (*) (وكان واضحاً أنها لا تلتزم بقرار الحظر الصادر من الأمم المتحدة) . وفجأة أعلنت مصر اعترافها بالصين الحمراء في شهر مايو . وقد تزامن ذلك مع انضمام ناصر إلى أحد لقاءات رؤساء الدول الذي عقد في القاهرة وضم كلاً من البانديت نهرو ، والرئيس سوكارنو مؤكدين تمسكهم المشترك بسياسة الحياد ، ولم تكن أي من هذه التطورات تروق لواشنطن ، حيث علق جون فوستر دالاس بازديراء قائلاً: «أن مبدأ الحياد الإيجابي . ليس سوى فكرة غير أخلاقية قصيرة النظر» ، كذلك بدأ الكونجرس يبدى مظاهر نفاذ الصبر ، حيث راح المتحدثون الصهاينة يضغطون بسرور في الداخل على أن أي مساعدة

(*) لم تكن الصين الحالية حتى هذه اللحظة عضواً في الأمم المتحدة إنما كان يشغل مكانها الصين الوطنية (تايوان) .

مالية تقدم لمصر - خاصة فيما يتعلق بمشروع سد أسوان - لن تؤدي سوى إلى تدعيم مركز الدكتاتور الشيوعي والمصاب بجنون العظمة .

ولما أدرك أحمد حسين - سفير مصر في واشنطن - أن الرأي العام بدأ يعارض تقديم القرض طار عائدًا إلى القاهرة محذرًا ناصر أن عليه أن يتصرف بسرعة إذا ما أراد إكمال الاتفاق مع البنك الدولي ، وبالرغم من أنه كان رافضًا أن يضع رأسه في هذا الشرك الاقتصادي ؛ إلا أن ناصر وافق أخيرًا . فقد كان السد أمرًا حيويًا للغاية بالنسبة لمصر قبل أي شيء آخر ، فقد اعتبر أن نفوذه وهيئته - خاصة في تلك اللحظة التي كان فيها آخر جندي في القوات البريطانية يغادر القناة - كافيًا في التغلب على آخر معارضة عدائية في وطنه . وفي ٩ يوليو أكد المستر يوجين بلال Eugene Black رئيس البنك الدولي في رسالة إلى وزير المالية المصري موافقته على تقديم العرض . وفي ١٧ يوليو عاد أحمد حسين إلى نيويورك وصرح عند وصوله أن مصر قد قبلت شروط القرض .

لقد كانت تلك لحظة غير عادية بالنسبة للعالم كله ، فبصرف النظر عن النظرية الأيديولوجية البحتة القائلة بأن رأس المال المستثمر يجب أن يستخدم لرفع مستوى المعيشة في البلدان النامية وتلك التي ضربها الفقر في قارتي أفريقيا وآسيا ، إلا أن هذا المشروع الذي يحبس الأنفاس - بكل دلائله المالية سوف يؤدي بكل وضوح إلى ربط مصر بأكثر من شعورها بالجميل نحو الدول المانحة . لقد كان ذلك ذروة صفقه كبرى من الدبلوماسية الصبورية التي قامت بها السفارتان الأمريكية والبريطانية في القاهرة ، وتمثل حقا نقطة تاريخية أعيدت فيها مصر الثورة أخيرًا إلى أحضان الغرب .

لقد كان رد الفعل المتوقع في واشنطن هو إبداء الفرحة إزاء هذا النجاح الدبلوماسي الشاق ، ولكن بدلًا من ذلك فعل المستر جون فوستر دلاس عكس ما كان متوقعًا ، وقد كان شخصًا لا يمكن التنبأ بما يفعل بالرغم من أنه كان قد تلقى تعليمه كرجل قانون ودبلوماسي في نفس الوقت ، وربما كان تفسير ذلك أنه كان يستمع كثيرًا إلى اللوبي اليهودي أو إلى قلق أصدقائه في عالم

النفط . ومهما كان الدافع الذى يحركه ، فقد رأى وزير الخارجية الأمريكى أن الوقت قد حان بعد أن قدمت الحكومة المصرية نفسها أخيراً وهى تتوسل لطلب المساعدة - للحط من منزلة عبد الناصر بتوجيه صفة له ذات أبعاد دولية ، فمن جانب واحد ، دون أن يستشير حلفاءه ، أو حتى تقديم المشورة للحكومة المصرية ، سحب فجأة عرض الولايات المتحدة بتصريح قاسى وصارم للصحافة ، والذى كان فى أساسه انتقاد عنيف للاقتصاد المصرى وحكومته . وبدون شك فقد اعتقد أن مثل هذا الرفض الدبلوماسى الذى لم يسبق له مثيل سوف يكون كافياً لإسقاط نظام الحكم فى القاهرة ، وأن يوضح للعالم بأسره وللدول النامية بالذات أنها لا تدفع من أجل ملاعبة موسكو ضد واشنطن .

لقد كان متوقعاً أن هذا التصرف الأمريكى لم يكن مفاجئاً سواء لكريستيان بينو الذى كان قد أعلن منذ بضعة أيام سبقت على الملأ أنه كان قد قدم صورة واضحة لمستّر دالاس عن ناصر ، أو لإنطونى إيدن الذى كان قد شعر بوخزة من الألم من انتقادات المقالات الافتتاحية فى الصحف للتصرفات العدوانية التى وردت من قاعدة منطقة قناة السويس ، وكان أشد ما أحزنه هو فرحة المصريين العارمة عند إنزال العلم البريطانى عندما أبحر آخر الجنود البريطانيين من بور سعيد بعد سبعين عاماً من الاحتلال ، لكن التوقيت لم يكن متوقعاً . فقبل يوم واحد (١٨ يوليو) كان السير توبى لوى Sir Toby Lowe من وزارة الخارجية قد أعاد تأكيد - خلال حفل استقبال أقيم على شرف وزير التجارة المصرى ترحيب الحكومة البريطانية واستعدادها لتنفيذ القروض . وبعد ثمان وأربعين ساعة تبعت الحكومة البريطانية مسلك الحكومة الأمريكية عندما أصدرت تصريحاً للصحافة بأنها قد سحبت هى الأخرى عرضها لتقديم القرض ، وبالتالي لم تخطر سوى السفير المصرى لدى بلاط سانت جيمس St. James .

وفى يوم ٢٠ يوليو الحرج غادر جمال عبد الناصر بلجراد حيث كان هو ونهرو يعقدان ثلاث اجتماعات كبرى أطلق عليها قمة المحايدى Neutralists ، ولقد أثار بيانهم الختامى الكثير من الجدل حول اختيار كلماته ، والذى أكد

تمسكهم بسياسة الحياد الإيجابي Positive Co-existence . وكان لناصر كل العذر أن يشعر بالرضا عندما أقلعت طائرته إلى القاهرة وعلى متنها نهرو . . فقد كان الزعيم الهندي هو ضيف الشرف في احتفالات الذكرى الرابعة لقيام ثورة ٢٣ يوليو . وهذا في حد ذاته أكد تزايد وضع مصر في العالم غير المتورط . ففي ٢٣ يوليو كان سيقام استعراض كبير لأسلحة مصر الحديثة . وفي قمة خطبته كان ناصر سيعلم عن بناء السد العالي في أسوان . . وفي الساعة الثالثة صباحًا حطت طائرته حيث كان في استقباله أعضاء حكومته وقد بدت على وجوههم الكآبة وهم يطلعون جمال على أنباء سحب التمويل الأمريكي ، وبعد أن أنزل نهرو وفي قصر القبة ، شرع ناصر على الفور في عقد اجتماع مغلق مع مستشاريه حيث كانت درجة الحرارة قد بلغت في القاهرة ١١٧ درجة فهرنهايت في الظل ، مما جعلها تغلي في حمام من الإشاعات ، فقد راهن الناس علنا عن خلف عبد الناصر ، أما في عيون كثير من العرب فإن ما حدث لم يكن سوى تكرار لإنذار اللورد كيللرن القاسي لفاروق عام ١٩٤٢ ، حتى في هذه المرحلة من تطور الأحداث في الشرق الأوسط ، فقد بدأ من غير المتصور أن يفلت أي نظام حكم من هذه الضربة المحسوبة من جانب القوى الكبرى .

لقد كان رجال السياسة المصريون والغربيون يقللون من شخصية ورد الفعل الذي يكاد أن يكون متوقعًا لرجل أعلن في أكثر من مرة : « لو أن أحدًا بصق في وجهي ، سوف أرد بالبصق عليه عشرة مرات » . فبالنسبة لرجل مثل ناصر تجري في عروقه دماء الرجل « الصعيدي » كانت كراهية العبودية للغرب جزءًا لا يتجزأ من شخصيته ، منذ أن كان تلميذًا مثيّرًا للشعب . وأكثر من ذلك لم يكن مشروع سد أسوان العالي مجرد لعبة دبلوماسية بل كان أمرًا حيويًا تمامًا بالنسبة لرخاء البلاد . وخلف الأبواب المغلقة ، ظل رجال النظام على مدار الساعة يعملون وقد تصاعدت منهم أعمدة التدخين من أجل التخطيط للانتقام . وصدر تصريح بأن الرئيس سوف يلقي خطبة هامة في الإسكندرية في ٢٦ يوليو .

وفي الساعة السابعة من مساء ذلك اليوم ، وبالتزامن في نفس الساعة التي

أَقْلَعَ فيها فاروق من الميناء إلى منفاه ، تدفقت جموع غفيرة إلى ميدان محمد على . ومن شرفة مبنى البورصة ، نفس الشرفة التي كادت رصاصات أحد القتلة أن تصيبه في عام ١٩٥٤ ، ظهر عبد الناصر أمام مجموعة من الميكروفونات لقد بدأ في حالة استرخاء تام ، وبدأ يتحدث بطريقة باللهجة غير الرسمية أو بالطريقة العامية (أو بالبلدى التي تعنى حرفياً لهجة البلدة أى القرية وهى طريقة المصرى عندما يصف طريقة حياته المميزة النابعة من ترابه). فالأول مرة سمعت الجماهير رئيسها - المعروف حتى تلك اللحظة بالصرامة - وهو يتحدث إليها كما يتحدثون لبعضهم البعض ، فقد بدأ بالسخرية من الدبلوماسيين الأمريكيين ومشاكلهم فى التعامل مع المستر دالاس ، ثم تحول فجأة إلى الحديث عن مستر بلاك Black مدير البنك الدولى قائلاً : عندما جاء إلى مكتبى ذكرنى « بفرديناند دى ليبس » قالها وهو يضغط فى نطقه على الاسم بنبرة مميزة : « ذلك الفرنسى الذى كان مكلفاً ببناء قناة السويس من أجل الخديوى » ثم أضاف : « نعم مستر دي لسييس » ثم راح يشن هجوماً لاذعاً من ما أسماه . « احتلال الرهن » mortgage colonialism وحتى تلك اللحظة كانت لهجته خليطاً من النيرات ، ولكن فجأة تغيرت نبرته وسرت الكهرباء فى عروق الجمهور الكبير كما لو كانوا قد تعرضوا لصدمة كهربائية.

وفى صوت عميق غاضب أجش شق نسيم المساء صاح : « أيها المصريون لزم من طویل كانت تلك الشركة الاستعمارية تسرقنا ، لقد كانت دولة داخل الدولة تلك الشركة العالمية لقناة السويس Compagnie Universelle du Canal Maritime de Suez لكننا لن نسمح بأن ننهب مرة أخرى ، لأننى أستطيع أن أقول لكم أنه منذ تلك اللحظة أصبحت الشركة مؤمنة وتم الاستيلاء على منشآتها ، فمذ الليلة أصبحت قناة السويس لنا هل تسمعوننى؟

وانفجرت الساحة بأكملها فى انفعال مجنون وتعانق الغرباء من الناس، وربت كل منهم على ظهر الآخر ، وفى الحال أطلق ناصر نوبة من الضحك (ربما فقط فى هذه اللحظة كان قد أدرك مدى التوتر العاطفى الذى لمسه) ، ثم استطرد يقول : « ستفق القنال على السد . لقد بنى المصريون القناة ، لقد

بنيت على جماجم أبناء وطننا . لقد قضى ١٢٠,٠٠٠ مصرى نحبهم وهم يقومون بحفرها . لقد كانت الولايات المتحدة وبريطانيا على وشك أن يقدموا لنا ٧٠ مليون دولار لبناء السد ، لكن دخل القناة مائة مليون دولار فى العام ، وخلال خمس سنوات فإن ذلك يعنى نصف بليون دولار ، فلندع الأمريكيين يموتون بغيظهم . فلسنا فى حاجة إليهم... إننا سوف نعتمد على قوتنا . إن قناتنا سوف يديرها المصريون وسوف يبني المصريون السد .. ولتذهب أمريكا إلى الجحيم هل تسمعوننى ؟

وعند الغسق الأحمر كانت الإسكندرية عن بكرة أبيها ترقص فرحاً ، لقد جلبت الشجاعة المطلقة لما فعله ناصر الدموع فى العيون ، فغريزيا بدت الجماهير كما لو كانت تدرك أن هذه اللحظة هى واحدة من أشد اللحظات انفعالا على طول تاريخهم الطويل . لقد تحدوا أكبر قوة على ظهر الأرض ، وتم خداع الأجانب الممقوتين . وأخيراً أصبح فى استطاعتهم أن يرفعوا رءوسهم . فأخيراً أصبحوا يقفون على أقدامهم ، ومهما تكون النتيجة فقد كانت تلك اللحظة لحظة انفجار خالصة . وبالنسبة لأى شخص كان متواجداً فى الإسكندرية ذلك المساء ، كانت تلك تجربة مثيرة غير عادية من الانفعال.

حقاً ما أن همس ناصر بكلمة دى ليبس فى الميكروفونات حتى قام الجيش - الذى تصرف بناء على كلمة السر المسبقة بالاستيلاء على مقار إدارة شركة قناة السويس ، وكذلك على النقاط الاستراتيجية من بورسعيد حتى السويس . وفى لندن تلقى السير انطونى أيدن الذى كان مضيفاً لحفل عشاء أقيم على شرف فيصل ملك العراق رسالة . غادر على أثرها المائدة مكفهرًا . وفى اليوم التالى أدان ناصر فى البرلمان وأصفا إيات بأنه « هتلر جديد » وفى الجمعية الوطنية الفرنسية حذر المسيو موليه Mollet ذلك « اللص الوقح الذى سوف يجبر على التراجع عما فعل ». وتقدمت هاتان الحكومتان رسمياً بشكوى شديدة اللهجة . ومن جانبه أطلق دالاس على التاميم « ضربة مؤلمة للثقة الدولية » ، غير أن الاتحاد السوفيتى أيد ناصر. وتدفقت على القاهرة برقيات التهئة من كافة أنحاء العالم الأقرو أسوى .

ومهما كان الجدل حول شرعية الاستيلاء على شركة القناة إلا أن لا أحد يشك أنها في الأساس شركة مصرية ، وبالتالي بالمفهوم الشرعى الواضح كان من الممكن للحكومة المصرية تأميمها مقابل دفع تعويضات كما حدث للكثير من الشركات في إنجلترا وجهات أخرى ، غير أن خطة ناصر وما شملته من تكرار عبارات ديما جوجية حولت المصريين لأن يكونوا في طليعة الصراع ضد الاستعمار الغربى مما قضى على المزاعم الدبلوماسية ، وكشف عن الكراهية المتبادلة وفقدان الثقة بين كلا الطرفين .

إن الابتهاج العفوى الذى صدر من جانب المصريين ، والذى تردد صدهاء فى أنحاء الشرق الأوسط ، جعل من ناصر فى يوم وليلة بطلاً ذا حجم أسطورى .

وبنفس القدر كان هناك غضب شيطانى فى الغرب ، إذ لم يعد كل من أيدن ، ولويد ، وموليه ، وبينو يهتمون بالجانب الشرعى للموضوع ، إنما كان يسعون لسفك دماء ناصر . وكما لاحظ لاقوتير Lacoutures : « ربما ليست الشريعة الإسلامية وحدها هى التى تقطع يد السارق ، كما أعلن أيدن من خلال الإذاعة أن الصراع ضد عبد الناصر وليس موجهاً ضد الشعب المصرى ، أما لويد فقد تحدث فى خطاب إلى اجتماع حزب المحافظين عن «إسقاط عبد الناصر من كرسيه» . وفى ٣١ يوليو أعلن رئيس الوزراء البريطانى عن إجراءات وقائية ، شملت إرسال قوات إلى قبرص ، كما سمح لفرنسا بوضع قوات لها فى الجزيرة أيضاً . لقد كانت وجهة نظر الهوايتهول كما لخصها أحد المسئولين فى وزارة الخزانة إلى زملائه خلال حفل غداء . إذ قال وهو « يرتشف مشروب الجين الوردى اللون » Pink Gin « إن ما نريده الآن هو حرب صغيرة لطيفة سريعة ومنظمة » وفى الحقيقة أن القرار حول هذا الموضوع كان قد اتخذ سراً من قبل أيدن وموليه ، والذى لا شك فيه فإن تصرفات الفرنسيين والبريطانيين منذ نهاية شهر يوليو فصاعداً كانت موجهة نحو هدف واحد لا غيره ، وهو إهانة وإسقاط الزعيم المصرى إذ كتب « توم ليتل » Tom Little : « لقد كان يكمن فى كل كلمة أو تصرف إنذار نهائى من الحكومتين البريطانية والفرنسية تمثل فى حشد القوات فى

منطقة البحر المتوسط وكذلك في رسالة « بعثه منزيس Menzies » التي تحمل الرسالة: خذها أو أتركها»، وكذلك تكرار القول كما هو في حالة جمعية المنتفعين بقناة السويس Suez Canal User s Association أن على مصر أن تقبل أو تتحمل النتائج .

وفي ظل الظروف القائمة أصبح دالاس . الذي أشعل فتيل الأزمة كلها قلقاً خشية أن تتطور مسألة السويس إلى حرب تستعر فيها النيران ، ويتورط فيها الشرق الأوسط كله معرضاً للخطر من بين ما يتعرض للخسائر - مصالح الولايات المتحدة النفطية ، فقد كانت خطته لتأسيس « جمعية المنتفعين بقناة السويس (SCUA) Sues Canal User s Association » بالرغم من أنه كان مقدراً لها الفشل تتطور بهدف أساسى وهو إعطاء فرصة للأعصاب الملتهبة لكى تهدأ . فقد عقدت الأمم المتحدة مؤتمراً فى لندن لم يثمر عن نتائج ليس لأن الوفود دعت فى الحقيقة للموافقة على المقترحات البريطانية والفرنسية أكثر مما دعت لمناقشتها ، ولكن لأن عبد الناصر رفض أساساً الحضور على أساس أن جدول الأعمال فى حد ذاته يطالب مصر بوجوب التخلي عن حقوقها فى إدارة القنال . وفى الخاتمة صدر قرار بإرسال وفد إلى القاهرة لكى يعرض على ناصر المطالبة بفرض سلطة دولية . وكان اختيار المستر منزيس الإسترالى لرئاسة البعثة فى حد ذاته أمر له مغزى . إذ لم يوجد نموذج أوضح للاستعمار من الطراز القديم من : « بوب الفولاذى الشره » Pig-iron Bob . أو أى شخص آخر أقل احتمالاً فى الحصول على نتائج إيجابية مع قائد ثورى حساس . فقد ألقى المستر منزيس محاضرة على إسماع عبد الناصر كما لو كان تلميذاً مشاغباً ، ولما بلغ صبرة مداه أنهى عبد الناصر الاجتماع وبلهجة حادة علق راديو القاهرة على ذلك : « فإن متريس لم يتحدث كرئيس وزراء إسترالى بل كبغل إسترالى .. لقد داس على كل المبادئ التى يعيش عليها القرن العشرين . وبعد مضى سنوات أخبر رئيس وفد صناعى مصرى أحد الذين كانوا قد شاركوا فى الحملة قديماً وهو « بللى روتس » Belly Rootes خلال حفل غداء فى « ديفونشير هاوس » Devorshire House : « لو أنك - لورد روتس - ترأست الوفد لما كان هناك

داع أبداً لحرب السويس . لقد كان المعنى واضحاً .

والحقيقة أنه منذ اللحظة التي أعلن فيها تأميم قناة السويس ، تراجع عبد الناصر ليصبح معقولاً ، فقد كان مستعداً للوصول إلى حل وسط حول مسألة القناة ، بالرغم أنه لم يكن مستعداً للتخلي عن حقوق السيادة المصرية الأساسية على الممر المائي ، فبعد كل شيء كان من الكثير أن يتوقع أنه في هذا اليوم وفي ذلك العصر أن مصر المستقلة تخضع لشروط فرضت عليها عندما كانت مستعمرة في الإمبراطورية العثمانية . فقد كان في استطاعته أن يرى كيف أن أزمة السويس قد هزت الغرب حتى الأعماق ، وكان راغباً أن يقدم تنازلات كثيرة وكبيرة لإقناع القوى بأن مصالحهم الحيوية في القناة لن تتأثر مادياً . لكن برغم الضوضاء العدوانية التي كانت تحدث في لندن وباريس إلا أنه (كما أخبر ديزموند ستيوارت Desmond Steuart في مقابلة) لم يتوقع أن يقوم البريطانيون والفرنسيون بعمل عسكري . فقد ذكر بأمتهاض لستيوارت: « لقد أثبت أيدن أنني مخطئ لقد أعددت تقييماً للموقف من وجهة نظره... وقد ناقشت معه أنه من وجهة نظرهم أنهم سوف يفقدون الكثير .. الكثير جداً^(٢٦) .

هكذا أعد المسرح لطوفان السويس ، فعلى جانب وقف جمال عبد الناصر البالغ من العمر ٣٨ عاماً ، رئيس الجمهورية وقائد نظام الحكم الثوري في مصر - تؤيده جماهير مواطنيه ، ويكاد أن نقول أيضاً الرأي العام بكل ثقله في الشرق الأوسط ومن خلفه أفريقيا وآسيا وروسيا ؛ على الجانب الآخر السير أنطوني أيدن رئيس وزراء إنجلترا ، والمستر سلوين لويد وزير خارجيتها، والمسيو جى موليه رئيس وزراء فرنسا والمسيو بينو وزير خارجيته ، كذلك البطش المسلح لهذين البلدين إلى جانب المستر ديفيد بن جوريون David Ben Gurion رئيس وزراء إسرائيل وقوات إسرائيل المسلحة، وفي الخلفية حق النقض (الفيتو) المضمون من جانب الرئيس إيزنهاور Eisenhower الذي كان في ذلك الوقت غارقاً في انتخابات الرئاسة للولايات المتحدة .

كان دوايت ايزنهاور Dwight Eisenhower ينتمى إلى مدرسة للفكر تقول أن ما لا يمكن تسجيله على أحد جوانب صفحة كاملة من الورق من حجم الفولسكاب لا يستحق النظر فيه . ففي مكان ما فى وزارة الخارجية كانت هناك مذكرة عرضت عليه فى سبتمبر عام ١٩٥٦م ، وكانت تتكون من ثلاث فقرات . وبكل الاعتبارات بعد أن قرأ رئيس الولايات المتحدة هذه الوثيقة الحادة ، أمسك بقلمه الحبر وخط كلمة واحدة على الهامش الأيسر لا : « لقد كانت تتضمن الاقتراح الأنجلو فرنسى بغزو مصر » .

ومنذ تلك اللحظة تبلورت جفوة غريبة فى العلاقات الأنجلو أمريكية . إذ لم يكن بينهما سوى تبادل دبلوماسى ضعيف أو معدوم فوق الصعيد الروتينى . وكانت وزارة الخارجية على دراية بالرغم من أنها لم تحاط علماً - بما يحدث لكنها كانت تراقب نشاطات حلفائها البريطانيين بشك تكاد أن تخفيه بمشقة ، فقد كان أنطونى أيدن يلعب بأوراقه وقد ضمها إلى صدره ، وذلك لأن المظهر الغريب لمسألة السويس أنه بينما كل شئ قد وضع على مستوى الأزمة ، وبينما كانت الأفواج العسكرية البريطانية علناً فى طريقها إلى قبرص والأسطول الفرنسى على أهبة الاستعداد ، وهيئة الأركان الفرنسية كانت فى لندن . إلا أن كل ذلك اعتبر مجرد مناورات دبلوماسية لجزء من سياسة القوى الكبرى . وبالرغم من كل الدعاية التى أعطيت لإبحار القوات وللاستعدادات العسكرية ، إلا أن لا أحد كان يعتقد أن هذه التصرفات لم تكن أكثر من مجرد إدارة للمسرح . ففي إنجلترا بأكملها لم يكن هناك سوى ست شخصيات على علم بأن قرار الحرب قد اتخذ فعلاً هذه الأحوال الغريبة للأحداث أكدتها حكاية اجتماع الحكومة عندما تجرأ أنطونى ناتج Anthony Nutting وزير الدولة فى وزارة الخارجية أن يثير بعض الاعتراضات على هذه السياسة التى توضع خطوطها . وقد صرف « أيدن » احتجاجه بحركة تعبر عن نفاذ صبره ، ثم قاطعة قائلاً : « إنه لمن الواضح أنك لم تخدم أبداً فى حكومة حرب » ، عندئذ رد الوزير مندهشاً : « منذ متى يا سيادة رئيس الوزراء - ونحن فى حالة حرب ؟ » .

وفى نهاية شهر سبتمبر ثم التوصل فى الأمم المتحدة إلى حل جيد يقوم

على ست نقاط لإدارة القناة . أما مصر فقد أدهشت معظم الناس عندما أظهرت مقدرتها في استمرار مرور السفن عبر الممر المائي حتى أن مجموعة المرشدين الجدد كانت قد وصلت إلى المستوى الطبيعي .

وبالإضافة إلى ذلك . كانت أمريكا معترضة على الاستعراض الأنجلو - فرنسي للقوة ، كما أن المنتفعين بالقناة أصبحوا يميلون أكثر فأكثر نحو عقد اتفاقات حول تعريفه المرور مع الإدارة المصرية الناجحة ، وبالتالي كانت كل الأدلة تؤيد الافتراض القائل أن أزمة الصيف حول قناة السويس كانت تقرب من نهايتها .

وبالرغم من أن الفكرة السائدة في عالمنا الشمولي المعاصر هو التقليل من دور الفرد في التاريخ على أساس أن رجل الساعة ، يتصرف ببساطة طبقا لاتجاهات وضغوط الساعة فإنه شخصيًا مجهول الهوية وأنه لا حيلة له، إلا أنه في حالة السويس فإنه لا يمكن إسقاط دور الشخصيات ، وتحزبات الرموز الأساسية من حسابنا . ما دامت القرارات وبالتالي المسؤولية تقع على عاتقهم وحدهم .

ففي ١٥ أكتوبر لامست عجلات طائرة أرض مطار يقع في جنوب فرنسا، حيث عقد لقاء سري ، وفي اليوم التالي من عقد هذا اللقاء غير القانوني مع ديفيد بن جوريون David Ben Gurion أصبح قرار غزو مصر مؤكدًا بعد اجتماع خاص عقد بين أيدين وموليه . كانت الخطة الفرنسية وضعت على أساس القيام بهجوم مباشر على بور سعيد والإسكندرية في وقت واحد ، غير أنها استبعدت لصالح خطة أخرى تقوم على عملية إنزال مشترك في بور سعيد ، ثم تزحف القوات نحو الإسماعيلية والسويس مع الوضع في الأذهان أن العمل الذي يقومون به بدون استشارة البرلمان أو الجمعية الوطنية أو حلفائهما أو حتى الولايات المتحدة كان هذان الرجلان يزجان حكوميتهما في مغامرة من الصعب أن تكتب لهما فيها فرصة النجاح، حتى ولو قدر لهما احتلال منطقة القنال فإن الاحتفاظ بها سوف يكون من الصعب في مواجهة عمق داخلي معاد ، وحتى لو قدر لهما إسقاط عبد الناصر (وهو أمر

بعيد الاحتمال) فلن تقدر أى شخصية أخرى ذات ميول غربية أن تشكل الحكومة . والعنصران الوحيدان اللذين فى إمكانها الاستفادة من هذه الظروف هم بقايا الأخوان المسلمين والشيوعيين ، وفى كل الاحتمالات - كما كان يخشى دالاس فإن مصر وسائر العالم العربى سوف تهب فى نوبة من العنف ضد أى شئ يمت بصلة لبريطانيا وفرنسا والغرب بأكمله .

تلك هى المقامرة التى أقدمنا عليها. أما الأجيال القادمة فى المستقبل فإن أبسط حكمها على ذلك سيكون أن رجلاً إنجليزياً معتل الصحة ومصاب بداء العصاب استدرجه رجل فرنسى ماهر، بل ورجل يهودى أكثر مكرًا ليسير فى طريق الضلال.

الفصل الواحد والعشرون
رد الفعل الثلاثي

فى يوم الاثنين الموافق التاسع والعشرين من أكتوبر أصطحب جمال عبد الناصر أسرته فى نزهة إلى الريف ، فلقد كانت المناسبة هو الاحتفال بالعيد الخامس لميلاد ابنه عبد الحميد ، فبعد الضغوط التى تعرض لها خلال الأسابيع القليلة الماضية ، شعر أنه من حقه إن يقضى بضع ساعات قليلة بعيداً عن العمل ، فالיום السابق كان يوماً حافلاً بالبرقيات العاجلة : ففى المجر اقتحم الروس بودابست ، وفى دمشق كانت هناك أعمال شغب ، وفى القدس تعرضت القنصلية الفرنسية لهجوم من قبل الجمهور الأردنى (*) الغاضب احتجاجاً على ما يحدث فى الجزائر . إما إسرائيل فقد أعلنت التعبئة العامة بسبب أحداث الأردن . جميعها أنباء أزمات لكنها كما ظن ليس لها تأثير مباشر على مصر . وتحت الأشجار الكثيفة فى القناطر الخيرية تناولت الأسرة غداءها مثلما تفعل أى أسرة مصرية عادية (بالرغم من أنه لم يسمح بالطبع للناس الآخرين بالاقتراب من القناطر فى ذلك اليوم) ، وفى المساء عادت إلى البيت لحفل عيد الميلاد ، وبينما كان ناصر يداعب أبناءه وهو جالس على الأرض ، إذ بسكرتيه يدخل عليه مهرولاً يحمل رسالة : لقد بدا الجيش الإسرائيلى الهجوم « عندئذ اندفع إلى مكتبه فى الناحية الأخرى من البيت ، واستدعى عبد الحكيم عامر الذى أكد له أن الألوية الإسرائيلىة اخترقت الأراضى المصرية متجهة نحو خليج العقبة ، وأن بعض الطوابير المسلحة الأخرى تتقدم فى سيناء ، كما أن هناك تقاريراً عن إيراد جوى عند ممر متلاً . واعترف المشير عامر بأنه وأخذ على غرة لأنه كان يتوقع أن يكون الهجوم على الأردن . وانكب ناصر على الخريطة يدرسها ثم أعطى أوامره بأن يكون هناك صمود عند أبو عجيلة . وفى عصر اليوم التالى تسلم من سفيره فى لندن رسالة مشفرة سرية للغاية ، لكنها لم تفصح

(*) يقصد الفلسطينى ، فقد كانت الصفقة الغربية وعاصمتها القدس تحت الحكم الأردنى (المترجم).

إلا عن موضوعات قليلة يصعب فهمها حتى أنه أمر أن يعاد إرسالها بالشفرة مرة أخرى . فقد أفاد السفير أن موليه وبينو قد وصلا هذا الصباح إلى لندن ، وأنه والسفير الإسرائيلي قد تسلما إنذاراً أنه يتوجب على الأطراف المتحاربة أن تصدر أمراً فورياً بوقف إطلاق النار ، وأن ينسحب كل طرف عشرة أميال عن القناة ، وذلك خلال اثنا عشرة ساعة ، وفي حالة عدم تنفيذ ذلك فإن القوات البريطانية والفرنسية : « سوف تتدخل مهما تطلب ذلك من قوة ضرورية لتأمين الإذعان » وأنها أيضاً سوف يتحركان نحو قناة السويس لضمان حرية المرور عبر القناة . لم يكذب عبد الناصر يصدق عيناه : لقد تعرضت مصر للغزو ، كما طلب أن تسحب قواتها من سيناء ، ومن القنال من الأرض المصرية أنه لأمر يستعصى على الفهم .

وفي لندن أيضاً - بدأ هذا الإنذار كما لو كان لغزاً حتى أن كثيراً من الناس ظنوا أنهم استمعوا خطأ إلى الأنباء . ففي شارع الصحافة (فليت ستريت Fleet Street) شهق ستيفن باربر Stephen Barber مساعد رئيس تحرير صحيفة نيوز كرونكل News Chronicle وواحد من أذكى العقليات في شئون الشرق الأوسط وهو يعيد صياغة « المانشيت » الرئيسي في الصفحة الأولى . إذ كتب بإيجاز : « إيدن فقد عقله .. إنه متصلب .. يحملق كالمجنون .. أننا على وشك من إحداث أكبر فوضى في التاريخ ! » .

أما الحكومة الإسرائيلية التي لم تكن قواتها قد اقتربت بعد من قناة السويس ، فقد أعلنت على الفور قبولها الإنذار . أما عبد الناصر وهو في قمة الغضب - فقد استدعى سفيرى بريطانيا وفرنسا وأخبرهما : « إن إنذاركم مرفوض على الإطلاق . إن مصر ستدافع عن كرامتها » . لقد كان الإنذار صدمة مروعة ولكنه كما اعترف فيما بعد - لم يخطر بباله أن البريطانيين والفرنسيين سوف يهاجمون مصر إلى أن بدأت القنابل تتساقط بالفعل ، فلقد كان متأكداً أن ما يحدث ليس إلا فصلاً من عملية خداع ، فقد كان يعلم أنه باستثناء وجود قوات للمظلات في ممر متلاً : فليس هناك أثر للإسرائيليين على بعد ٢٠٠ كيلو متر من القناة .

انتهت مهلة الإنذار في فجر يوم ٣١ أكتوبر ولم يحدث شئ ، لكن في

السابعة والنصف من مساء ذلك اليوم ، بدأ تساقط القنابل ، وعندها فقط أدرك ناصر أن بريطانيا وفرنسا تتويان فعلاً الحرب ، وعندها فقط أرسل أوامره للجيش بالانسحاب من سيناء ، وأن يتركز في جبهة واحدة بين الإسماعيلية وبلبيس ، وبالرغم من التحام مؤخرتها في اشتباك شرس ، قامت القوات المصرية بالانسحاب بقدر ما استطاعت ، غير أنه تم اللحاق بكثيرين وضرب حولهم الحصار ، واستمروا في المعركة حتى اجبروا على الاستسلام ، لكن لم يكن هناك انسحاب فوضوى تجاه الدلتا ، ولم يكن هناك ملامح عامة لهزيمة منكرة كما ادعت أجهزة الدعاية الإسرائيلية كذلك لم يكن هناك أى هزيمة للإسرائيليين كما كان يصيح راديو القاهرة . لقد كان الأجراء الوحيد الذى كان فى مقدور ناصر أن يتخذه عندما تبين له أن الغزو الأنجلو الفرنسى لمنطقة القتال أصبح مؤكداً - هو أنه بدأ فى تركيز قواته فى قلب مصر . بالإضافة إلى ذلك بدأت الموجة الأولى من طائرات القوات الجوية الملكية Royal Air force وقاذفات القنابل الفرنسية فى الهجوم عند ساعة الصفر ، ودمرت الطائرات المصرية وهي رابضة فى ممرات المطارات فى ألماتة وهليوبوليس اللذين يبعدان ميلاً أقل أو أكثر من بيت ناصر الخاص . وعندما جاءت الأنباء بأن غالبية القوات الجوية قد أبيدت عند بداية الهجوم ، اتخذ عبد الناصر قراراً صارماً فى مواجهة طلبات سلاح القوات الجوية الغاضب ، إذ أمر بجمع ما تبقى من الطائرات القابلة للخدمة لكى تطير إلى أماكن آمنة فى صعيد مصر ، إذ لم يكن فى مقدوره الاستغناء عنها من أجل الاشتباك فى سيناء مع النفاثات الأقوى : من فرنسية وإسرائيلية ، خاصة إذا ما تعرضت لخطر الهجوم من جانب سلاح الطيران الملكى أثناء توجههم إلى هناك ، فلقد كان فى حاجة ماسة إليها فى اللحظة الهامة وهي عندما يبدأ القتال الفعلى فوق الدلتا ذاتها .

ومنذ البداية أخذ على عاتقه مسئولية القيادة الشخصية للقوات المسلحة ، وبالمثل كل الخطط الاستراتيجية والأعلام والدبلوماسية ، وكلما استمرت غارات السلاح الجوى الملكى ، والتى كانت بكل تأكيد من أغرب عمليات القصف ، حتى أن البريجادير فرجيسون Brigadier Fergusson الذى كان

مسئولاً عن « حرب الحلفاء النفسية ضد مصر » كان يذيع مقدماً ما هي المناطق التي سوف تتعرض للقصف محذراً الناس أن تبتعد عن هذه الأماكن. أما عبد الناصر فقد شن هجوماً من صنعه . ولكونه مقامراً على الدوام فقد راهن بأكبر قدر على مستقبله السياسى فى هذه اللحظة حتى أن أصدقاءه كانوا على استعداد لاستخراج حبات الكستناء (أبو فروة) من النار من أجله . فقد قامر على إحراز نصر دبلوماسى لكى يغطى على الهزيمة العسكرية المحتملة . فقد كان يعلم أن العالم الأفرو - أسيوى بأكمله وكثير من بلدان الغرب قد روعها حدوث العدوان على مصر ، بل كان يعلم أنه داخل إنجلترا ذاتها انقسم الرأى العام بشدة حول هذا التصرف ، كما كان يعلم أن فى قدرته الاعتماد على تأييد حتى هذه اللحظة - على كل من روسيا والولايات المتحدة . ولهذا كانت تجرى من مكتبة مكالمات تليفونية لمسافات بعيدة طوال ساعات الليل والنهار لمحادثة سفرائه وكذلك رؤساء الدول حول العالم يطلب النجدة.

وهناك شئ آخر كان على دراية به لم يفهمه كل من « أيدن » وموليه وكذلك موظفو الخارجية البريطانية وموظفو كواى دورساي Quai d Orsay (مبنى وزارة الخارجية الفرنسية) ، بالرغم من أن سفارتيهما فى القاهرة ركزتا عليه مراراً وتكراراً ، والذى مفاده أنه فى حالة أزمة وطنية مثل هذه ، عندما يتعرض تراب مصر للتهديد من قبل بريطانيا وفرنسا وخاصة العدو الأكبر إسرائيل ، فإن الأناس العاديين فى مصر بالرغم من الارتباك والخوف - الذى هم فيه سوف يقفون من خلفه وفى اللحظة التى كانت فيها طائرات سلاح الجو الملكى تسقط ملايين المنشورات فوق القاهرة تحرض الشعب على أن يهب فى ثورة ضد « الطاغية ناصر » ، كان هو بنفسه يتجه إلى الأزهر لأداء صلاة الجمعة ، ويتحدث إلى الجماهير وهو جالس القرفصاء فوق الحصر مخاطبة إياهم : « يا أخواتى ! » وأخبرهم بأن كل واحد منهم جندى فى جيش التحرير قائلاً : « سوف نخوض معركة مريرة » . وفى مناسبة أخرى وفى كلمات تختلف عن كلمات قائد آخر قال : «سنحارب من قرية إلى قرية ، ومن بيت إلى بيت ، ولن نستسلم أبداً» لقد

أثار تأثر الجماهير بكل ما تحمله الكلمة من معنى ، فعندما غادر المسجد وصل إلى سيارته بشقّ لأنفس ، ولم يكن هناك شك في ذلك ، فقد وقف الناس إلى جانبه بقوة بما في ذلك أولئك الذين عبروا من قبل عن كراهيتهم لسياساته .

لقد كان هناك شعور خرافي يظهر من خلال المرايا لذلك الأسبوع الأول من شهر نوفمبر ، ربما أشد وطأة في إنجلترا منه في مصر ، فلا أحد ممن كان في لندن في ذلك الوقت سوف تغيب عن ذاكرته تلك الهستيريا الغربية التي حلت بكل واحد تقريباً ، فقد انقسمت البلاد إلى جبهتين واضحتين حول هذه القضية ، فالصقور - كما يمكن أن نسميهم الآن - غمرتهم الفرحة بأن أجراء قوياً قد اتخذ أخيراً ، فقد كانوا يراقبون برعب متزايد بريطانيا العظمى المنتصرة عام ١٩٤٥ ، وهي تتخلى عن مكانتها الاستعمارية ، وتتحول إلى إنجلترا الصغرى ، تعيسة الحظ خلال الخمسينيات وهي تقع تحت رحمة أي أمة أو مستعمرة صغيرة ، فإخفاقها التام في الميدان والانسحاب من قاعدتها الكبرى في منطقة القنال كان كافياً بتصعيد هذا الإحساس بالإحباط الذي كانوا قد شعروا به بعد فقدانهم الهند. أما الآن فقد جاء الوقت المناسب - كما كانوا يعتقدون - لكي يتوقف هذا التفسخ ، وأن تستعيد بريطانيا (حامية الحرية) زعامتها . أما الحمايم ، على الجانب الآخر - فقد اعتراهم الفرع من عودة دبلوماسية البوارج « Gun Boat diplomacy » التي تعود بهم إلى أيام الملكة فكتوريا ، إذ أنهم لم يستسيغوا الفكرة القائلة بأن تشن بريطانيا (حامية القانون والنظام) عدواناً وحشياً مكشوفاً ضد أمة صغيرة من أجل خلاف يتوجب أن تعالجه الأمم المتحدة ، ومن ثم فإنها تقامر بإشعال النيران في الشرق الأوسط كله ، مما قد يؤدي إلى اندلاع حرب نووية . وبالرغم من أن جميع المحافظين كانوا صقوراً ، بينما حزب العمال والأحرار كانوا حمائم ، إلا أن هذا الانقسام لم يكن حاسماً بأي حال من الأحوال بين الأحزاب . إذ أن بعض المحافظين الصارمين كانوا معادين للحرب حتى الثمالة ، في حين أن بعض اتحادات العمال ممن يضعون فوق رءوسهم قلنسوات من القماش ، كانوا يصفقون لها. وفي الحانات ، وفي قاعات

الكلية الجامعية ، وفي حجرات التدخين في النوادي على طول البلاد وعرضها جرت مناقشات عاطفية . ومرة واحدة نسي الناس البرود الإنجليزي التقليدي فالأسر كانت تضرب على موائد الطعام ، والناس تتشاجر في الطرقات بل أن الأنبياء تناقلت (ربما بدون دقة) أن اسقفين في حرم المجمع المقدس تبادلا اللكمات ، حتى أن الحكومة ذاتها كانت منشقة على نفسها . فقد قدم انطوني ناتج استقالته من الحكومة ومعه العديد من كبار مساعدي أيدين . وبدأت « أم البرلمانات » في مظهر شجار غير برلماني أدان فيه أعضاؤه أيدين بعبارات قاسية تكاد تقارب في بعض النواحي تلك التي وصفه بها راديو القاهرة .

بعد الهجوم الأولي ، واستئناف السلاح الطيران الملكي إلقاء قنابله ، حدثت فجوة غريبة استمرت أربعة أيام ، صدرت خلالها بلاغات رسمية من كل من قبرص ولندن تضع جدولاً زمنياً للزحف والتقدم البطيء لحملة هجوم تطلع تجاه الشرق من مالطة ، لكن كان من الصعب أن يفهم إن كان ذلك يعني الإعداد لغزو أم لا .

وفي أثناء ذلك استهلك الوقت بينما كانت المعركة الدبلوماسية لتأييد العالم تتزايد في تحركها نحو صالح مصر . ففي الثاني من نوفمبر صدر قرار أمريكي في الجمعية العامة للأمم المتحدة يطالب إسرائيل بالانسحاب إلى وراء خط الهدنة ، ويطلب الأعضاء الآخرين بعدم وضع « مواد عسكرية » في المنطقة ، وصوتت كل من بريطانيا وفرنسا ضد ذلك القرار ، لكن بعد مناقشات استمرت تسع ساعات، مرر القرار بأغلبية ٦٤ صوتاً ضد خمسة أصوات ، ولم يؤيد الموقف الأنجلو فرنسي سوى استراليا ونيوزيلندا (وبالطبع إسرائيل) ، غير أنه في عتبة الإنزال الفعلي على أرض مصر بعث روبرت منزيس ببرقية عاجلة إلى أيدين تحمل ما قل ودل من كانبيرا يقول فيها : « لا تفعلها Don't do it ».

كان هجوم الطلعات الأولية المحمولة جواً من جانب بريطانيا وفرنسا على بورسعيد والتي بدأت أخيراً في ٥ نوفمبر بمثابة تحدياً للأمم المتحدة وللرأي

العام العالمى . ولقد واجهت قوات المظلات مقاومة خفيفة لكن بتصميم على الصمود ، وفى ما بعد الظهر أحاطوا بالمدينة ، وألمح القائد العسكرى المصرى فى المنطقة عن رغبته فى مناقشة شروط الاستسلام .

وخلال ساعة قاطع السير أنطونى أيدن مناقشة ذات ضجيج فى مجلس العموم ليقرأ نص برقية وصلت على التو من مركز قيادة العمليات فى قبرص هذا نصها : « إن القائد العسكرى فى بور سعيد يناقش الآن شروط الاستسلام . لقد أمرنا بوقف إطلاق النار » . وفى الحال ساد الإحساس بأن ناصر قد استسلم وكان رد الفعل عاصفة من التصفيف وهم وقوف لأيدن .

وفى نفس اللحظة كان ناصر قد وضع سماعة التليفون بعد أن أصدر أمراً مقتضياً باستمرار إطلاق النار ولو اقتضى الأمر أن تتحول بور سعيد كلها إلى خرائب ، أما مكالمته الثانية فقد كانت إلى « بولجانين Bulganin » فى موسكو ، والذى كان رد فعله إرسال مذكرات إلى بريطانيا وفرنسا وإسرائيل يعلن فيها أن روسيا مستعدة لاستخدام القوة : « لسحق المعتدين واستعادة السلام » .

وعند الغسق استؤنف القتال . وفى صباح اليوم التالى فى الساعة الرابعة والأربعين دقيقة رست القوة الرئيسية الإنجليزية الفرنسية فى بور سعيد . ومع قدوم العصر كانت المدينة بكاملها قد وقعت فى أيديهم ، وكانت عربة البريجادير م. أ. هـ. بتلر Brigadier M. A. H. Butler تتجه نحو الممر الضيق الواقع بين القناة وبحيرة التمساح فى اتجاه الإسماعيلية والسويس .

وفى أثناء ذلك ، لم يعد السير أنطونى أيدن ذلك الشخص الذى توردت وجنتاه خجلاً من الانتصار ، والذى كان يلوح ببرقية وقف إطلاق النار فى مجلس العموم مساءً اليوم الذى سبق - لم يعد مجبراً للخضوع لمثل هذا الضغط الدبلوماسى ، حتى أنه ظن أنه قد بلغ أقصى قامته . فبصرف النظر عن الإدانة للعدوان على مستوى العالم ، فإن المذكرة اشتملت تلميحاتاً عريضة بأن : « ما لم توقف بريطانيا وفرنسا عدوانهما فى الحال فإن لندن وباريس

قد تتعرضان للقصف مما قد يفجر أول حرب عالمية نووية « إن تلميح الكرملين بالصواريخ كان من المحتمل أن يكون أمراً مشكوكاً فيه ، لكن تناقص الاحتياطي الأسترليني الذي بدأ في الخامس من أكتوبر ، ووصل إلى أقصاه في الخامس من نوفمبر بدرجة تثير القلق (حتى أن مائة مليون إسترليني كانت مطلوبة لعملية الإنقاذ في اليوم الواحد فقط) حتى أن الخزانة أخطرت أنه إن لم يصل الدعم الفوري بما يقرب من ألف مليون إسترليني من الولايات المتحدة فإن الإسترليني مضطر لخفض قيمته خلال أربع وعشرين ساعة .

كتب جيمس رستون James Reston في مجلة النيويورك تايمز New York Times يوم ٣١ أكتوبر يقول : « عندما سمع أيزنهاور لأول مرة عن الإنذار ، سرت قعقعة في البيت الأبيض - بلغة التكنات - لم نسمع عن مثيلتها منذ أيام الجنرال « جرانت General Grant »(*) . وفي عصر السادس من نوفمبر تحدث أيزنهاور إلى إيدن تليفونياً دون أن يتصنع في كلماته ، إذا أبلغه بلهجة رقيب حازم: « إن لم يأمر إيدن بوقف إطلاق النار عند منتصف الليل فإنه سوف يدمر الجنية الإسترليني » عند هذه النقطة انهار رئيس الوزراء المرهق تماماً .

ولقد رحبت القيادة العسكرية في قبرص - وهي لا تصدق - بقرار وقف إطلاق النار وبدرجة لا تقل عند البريجادير بتلر وهو يسارع متجهاً نحو الإسماعية ، في بادئ الأمر تجاهل الإشارة ولم يصدقها إلا عندما سلمه عامل اللاسلكي الخاص بدبابته الأمر المباشر : « من رئيس الوزراء إلى البريجادير بتلر . عليك بالتوقف على الفور » عندئذ أوقف التقدم أخيراً دون أن يخفي مظاهر خيبة الأمل . وعندما عاد إلى قبرص أخبر رجال الصحافة: « لم يكن في مقدوري إلا أن أشعر بالإحباط أكثر من أي فرد آخر بوقف النار عند منتصف الليل . لأنني أعرف أنه في استطاعتنا أن نستولي على

(٠) أحد زعماء حرب الاستقلال الأمريكية .

الإسماعيلية في زمن أقصاه وقت الظهيرة . ولا يمكن لأي دراسة أكاديمية أن تخفي حقيقة أن العملية كلها كانت عملية إخفاق بشع . وأن ناصر بالرغم من أنه لم ينتصر في أي معركة لكنه كسب الحرب . وكما توقع ستيفن باربر Stephen Barber كانت أكبر حالة من الفوضى ، وحالة نادرة في تاريخ الاستعمار البريطاني ، فخلال أسبوع واحد من التصرف الجنوني الذي لا مثيل له ، جلبت إنجلترا على نفسها اللوم تقريباً من جانب كل أمة من أمم العالم ، وفقدت بذلك إلى الأبد وضعها المتميز في العالم العربي، وأكثر من هذا وذلك فإن تكتيك العملية كلها تم بطريقة سيئة .

لقد أصبح الآن مقبولاً علي المستوى العام ، حتى في أوساط «الصقور» أن التدخل العسكري كان خطأ رهيباً ، بالإضافة إلى ذلك أنه قد تم التخطيط له بحرص بالتناسق مع ثلاثة أمم معتدية هي : إسرائيل وفرنسا وبريطانيا . وإذا ما أغفلنا مثل هذا التعاون فإنه يصبح عندئذ أمراً ساذجاً لا يغتفر بالرغم من الإنكار المشبوب بالعواطف ، ولكن غير مقنع في ذلك الوقت من جانب كل واحد تقريباً في الهوايتهول بما في ذلك رئيس الوزراء نفسه . كانت المشكلة هو تفسير السبب الذي خرجت فيه هذه العملية بالذات عن مسارها ، ولشرح الإنذار السخيف الذي وجه إلى مصر ، والذي لم يكن له أي علاقة بأي شكل من الأشكال بالموقف في ذلك الوقت الذي صدر فيه ، وكذلك المضايقات التي سببتها للقيادة العسكرية في قبرص التي وجدت نفسها ببساطة وقد وقعت في ورطة أثناء اللحظات الحاسمة بين صدور الإنذار والإنزال الفعلي في بور سعيد ، كما أنه ليس من السهل أيضاً تفهم الحكمة من وراء الهجوم أساساً عشية الانتخابات الأمريكية بالذات .

وعندما يماط اللثام عن وثائق حملة السويس(*) في الوقت المناسب ، فقد يصبح في الإمكان العثور على حقيقة ما حدث فعلاً ففي غياب ذلك فإن أكثر

(*) نشر أغلبها الأستاذ محمد حسنين هيكل في كتابه : « ملفات السويس - حرب الثلاثين عاماً ، مركز الأهرام للترجمة والنشر ، القاهرة ١٩٨٦ (المترجم) .

التفسيرات الممكنة بأنه لسبب ما انطلقت العملية كلها لعدة أيام سابقة عن الجدول الزمني الذي كان معداً لها . وهذا قد يعطى معنى لأشياء غير ذات معنى .

إن أكثر الاحتمالات أن الخطة التي كانت قد رسمت من قبل ، وعلى وجه التجديد يوم ١٦ أكتوبر هي أن يقوم الإسرائيليون بهجوم مفاجئ في سيناء خلال الأسبوع الأول من شهر نوفمبر يقصد أن تتقدم قواتهم حتى تصبح بعد ثلاثة أيام على مقربة من القنال ، وفي الخامس من نوفمبر عشية يوم الانتخابات الأمريكية (عندما يكون ايزنهاور مجرداً من السلطة مؤقتاً) تصدر الحكومتان البريطانية والفرنسية وهما ترفعان أيديهما في رعب خوفاً من حدوث تهديد للملاحقة في القناة إنذارهما المشترك ، وهما يعلمان مقدماً بالنتائج . وفي الوقت الذي يكون فيه الأمريكيون أمام صناديق الاقتراع ، يبدأ ضرب مصر بالقنابل ، وخلال أربع وعشرين ساعة تكون حملة الغزو البرمائية في طريقها قبل أن تتمكن واشنطن أو الأمم المتحدة من اتخاذ أى خطوة . عندئذ يكون قد تم احتلال منطقة القنال ، وربما تكون قوة ضاربة قد وصلت إلى مقربة من القاهرة لتضع نهاية لناصر .

ولكن يبدو من المحتمل أن إسرائيل ، وقد فقدت الثقة في حلفائها ، أو كانت تشعر بالخوف أن ايزنهاور قد يقوم بطريقة ما بإقناع بريطانيا وفرنسا في اللحظة الأخيرة بالعدول عن خطتهما ، انتهزت مزية الانتفاضة المفاجئة في المجر . فمن وجه نظرها ان تلك ستاراً من الدخان هيئه لها الحظ السعيد لتشرع في القتال بمفردها . ومن المحتمل جداً أن الفرنسيين كانوا قد تلقوا منها إخطاراً مقدماً ، ولم يعترضوا على هذا التغيير في الخطة ، غير أن أيدن كاد أن يكون قد أخذ على غرة بكل تأكيد . فقد كان رجلاً مريضاً تساوره الظنون . كما أن شركاءه في المؤامرة في باريس وتل أبيب لم يكن لديهم النية أن يسمحوا له بفرصة اختيار اللحظة الأخيرة . ولما ووجه بالأمر الواقع Fait Accompli : اعترى الذعر أيدن فأنهار . لقد صدر الإنذار بدون أى تغيير مما جعله في ظل الظروف المتغيرة وثيقة غير مسئولة بدرجة كبيرة ، ومن بدأت العملية وهو يتأرجح بين القبول والرفض ، غير أن

تغيير التواريخ فأجأ المخططون وقلب حساباتهم رأساً على عقب . فمنذ التحرك البطيء بطيء الفيلة للقوات العسكرية وهي تقترب من قبرص حيث بدأ أسبوع كامل من المعاناة بسبب التأخير قبل أن يبدأوا في الرسو في ذلك الوقت ، كانت وجهة النظر العالمية قد أكدت إنها بعد ست وثلاثين ساعة فيما بعد .

وبقدر ما كان يهم بريطانيا ، أصبحت السويس أشبه بهيكل عظمي موضوع في دولاب ، فهو ما زال موضوعاً يستبعد بهزة كتفين استهجاناً ، أو على أقل تقدير يقلل من شأنه . فبعد ثلاث سنوات من الحدث أجريت الانتخابات العامة كسب فيها المحافظون دونما أن يشيروا ولو بالكاد إلى هزيمة السويس ، والتي كانت واحدة من أقل الحدود الفاصلة في تاريخ بريطانيا الاستعماري استساغه ، أن الشعور بالنشاط لم يبدأ في الزوال إلا حديثاً فقد ظهر جيل جديد من الإنجليز أقل اهتماماً أو وربما كان معترضاً أساساً) بأهمية عام ١٩٥٦ ، فقد أدركوا ، وقبلوا واستكروا وجهات النظر الأساسية ، ورؤى الرجال الذين كانوا مسؤولين عن مثل ذلك الفصل المدمر بل الأجرامي : فقد صدر المانشيت « الرئيسي في إحدى كبريات الصحف في ذلك الوقت يقول «رجال مجرمون ! » . على أي حال كان العالم بقدر من الغفران قد اجتاز بعض الجوانب منذ محاكمات «نورمبرج» ، فقد اختفى السير أنطوني أيدين في بطريقة متحضرة إلى عالم النسيان في مجلس اللوردات ، وربما كان جمال عبد الناصر من بين كل الناس الذي أغلق ملف حادثة السويس بكل كرامة عندما قال : « سوف نغفر ولكن لن ننسى » .

وباعتراف الجميع كان ثمن ذلك العفو غالياً ، ففي الخامس من نوفمبر قطع ناصر علاقاته الدبلوماسية مع بريطانيا وفرنسا ، وأمر بمصادرة كل الممتلكات البريطانية والفرنسية ، وما أن توقف غزو السويس ، وزال الخطر حتى بدأ يوجه غضبه ضد أقرب الضحايا وأكثرهم ملاءمة اليهود الذين لا حول لهم ولا قوة ، والمقيمين في مصر من البريطانيين والفرنسيين . ومنذ وقت طويل كان قد أمر بالقبض الجماعي ، والاعتقال أو الطرد لعدد كبير من الخمسين ألف يهودي في البلاد وقام بترحيلهم وأغلبهم عاش كل

حياته في مصر ولا يعرف وطناً غيره ، ولم يسمح لهم إلا بأخذ خمسة جنسيات إسترلينية وحقية واحدة بها المتعلقة الشخصية الخاصة بكل واحد منهم . ونفس المصير كان ينتظر حملة جوازات السفر البريطانية والفرنسية بما في ذلك عدد كبير من المالطيين والقبارصة . وقوبل الجمهور البريطاني بمنظر غير معتاد لمئات اللاجئين الأنجلو ساكسونيين عند ميناء دوفر Dover ومطار هيثرو Heathrow (وإلى أن خفت اللوائح كانوا يجبرون على دفع الجمارك عند الخروج على القليل من المتاع الذي استطاعوا حمله معهم !) .

كان الطرق على الباب يحدث دائماً عند منتصف الليل ، وفي حالات كثيرة كان يطلب من المرحلين التوقيع على إعلان رسمي باللغة العربية يؤكدون فيه أنهم يغادرون البلاد من تلقاء أنفسهم متخليين عن مطالباتهم بممتلكاتهم . وكان ذلك يعرف « بالتمصير Egyptianization » ، إذ وضع ناصر بنفسه حصراً لقوائم المؤسسات التجارية والممتلكات التي يتوجب الاستيلاء عليها . فقد قال لوزير ماليته : « إن أمامنا فرصة أرسلتها السماء لنا لكي نظهر البلاد من النفوذ الأجنبي.. تأكد من أنك تقوم بعملك على الوجه الأكمل » . وخلال أيام معدودات نزلت ممتلكات بريطانية تقدر بمائة مليون إسترليني ، وكانت تشمل مستشفيات ومدارس ، بل وحتى شركة شل ذات الاعتبار في مصر ، ومعها ما يتبعها حقول النفط الأنجلو مصرية ، كما منع نوى المهن من البريطانيين والفرنسيين من ممارسة مهنهم ، كما حظر على الشركات البريطانية والفرنسيين رفع القضايا أمام المحاكم المصرية ، حتى أفلام السينما والكتب والبريطانية والفرنسية حظر دخولها البلاد . كما صدرت التعليمات إلى وزارة التربية والتعليم يقطع كل علاقاتها الثقافية مع إنجلترا وفرنسا ، كما أعيد كتابة المقررات المدرسية بحيث يستبعد منها بقدر الإمكان أى إشارة إلى البلدين اللذين فرضاً سيادتهما على مصر لما يقرب من قرن ونصف قرن . لقد كان من بين الأسباب التي برر بها إيدن تدخله في السويس هو حماية الممتلكات البريطانية . فقلما صدرت مثل هذه التصريحات الطائشة في مجلس العموم البريطانية ، أما الأسهم

البريطانية في مصر والتي لم تكن في خطر قبل الغزو فقد صورت بأكملها كنتيجة له . وبصرف النظر عن هذا الثمن من البؤس الإنساني (والذي عوض أخيراً كنتيجة للاحتجاج العنيف من جانب الجمهور عن طريق لجنة ظلت تتجادل حول نواحي قانونية فرعية مع بعض المطالبين لمدة اثني عشرة عاماً من حدوث الواقعة) . لقد كانت قائمة الحسابات التي كان يتوجب على دافع الضرائب أن يسدها مربةكة : ١٠٠ مليون إسترليني تكاليف العملية بالإضافة إلى ٢٥٠ مليون إسترليني ثمن المخازن والمعدات التي كانت موجودة في قاعدة منطقة القناة والتي استسلمت في هدوء إلى مصر (والتي كانت ستستولى عليها بأي حال من الأحوال) كشيء مقابل شيء Quid pro Quo نظير الخسائر التي أحدثتها عند ضرب بور سعيد بالقنابل . وفي واقع الأمر لم يكن الخراب الذي حل ببور سعيد كبيراً ، فلقد أسر مسئول قيادي مصري بعد ذلك بعدة سنوات قائلاً : « في الحقيقة ساعدنا ذلك كثيراً في التخلص من المناطق العشوائية القذرة والتي كاتب ستستغرق منا سنوات لإزالتها » والذي لا شك فيه أن مصر رغم أنها خسرت الكثير في المعارك العسكرية التي وقعت إلا أنها كسبت الحرب . فمن باب السخرية أنها رفعت بشدة ذلك الرجل عينه التي كانت تبغى تحطيمه . إن مكانة ناصر التي كانت حتى ذلك الوقت لا تزال غير مؤكدة بالرغم نجاحاته السابقة أصبحت الآن مدعومة بشكل عارم في مصر وعبر الشرق الأوسط . والأكثر من ذلك كما قال : « صلاح الدين آخر الزمان » نفسه وهو يسترجع بفكرة بلا شك إلى أيام السيادة الأوروبية منذ حملة نابليون : « لقد أصبح في أماكننا بعد السويس أن نؤمم كل الأسهم الأجنبية في بلادنا ، وبذلك استعادت السويس ثروات الشعب المصري المنهوبة ».

الفصل الثانى والعشرون

قيام الجمهورية العربية المتحدة

بعد أن أكتسح عن طريق موجة عبادة الفرد عبر الشرق الأوسط ، بدأ ناصر على الفور في تحويل نجاحه في انتزاع السيطرة على القناة من الأجانب إلى رأس مال أملاً أن يصبح فرعوناً ليس على مصر فحسب ، بل على كل العالم العربى - وهى أولى دوائر النفوذ التى كان قد حلم بها فى «فلسفة الثورة» إذ بدأ يسرع الخطى فى مناوراته الدولية ، وتأييد الحركات الراديكالية التقدمية من مراكش إلى بغداد ، فبالنسبة له فقد كان جوهر الصراع يتمثل فى استئصال بقايا الاحتلال والتى كانت تعنى بكل نواياها وأغراضها النفوذ الغربى والتورط معه فى أى شكل أو صيغة .

ولكن النجاح الحقيقى هو أن « الناصرية » بدأت تتكون فى أعقاب معركة السويس مسببه رد فعلى عصبى لدى هؤلاء الذين كانوا يفضلون بقاء الوضع على ما عليه Status quo على أحداث التغيير الجذرى الذى روج له راديو القاهرة بصوت مرتفع . أن سعى عبد الناصر لقيادة العرب أدى إلى زيادة العداء مع الحكومات العربية الأخرى ، والتى كان أغلبها لا يزاولون محافظين - وكذلك من جانب واشنطنون التى بدأت تتدم لو أنها لم تعارض عملية السويس بشكل حاسم .

ففى مطلع عام ١٩٥٧ أقامت الولايات المتحدة ما كان يعرف «بنظرية ايزنهاور» Eisenhower Doctrine ، هذه النظرية كانت تدعو إلى أن الشيوعية الدولية تمثل خطراً على الشرق الأدنى ، وكانت تعد بأنها سوف تقدم كل مساعدة مالية لأى حكومة تتصدى لها . وفى نفس الوقت انضمت الولايات المتحدة إلى جبهة الحصار الاقتصادى على مصر والذى كانت بريطانيا وفرنسا قد فرضته بعد السويس فقد أراد دلاس الذى اشعل الفتيل الأول لأزمة السويس أن يضيق الخناق على ناصر أول الأمر ، وبعد أن يلحق به الأذى يصبح فى مقدرة (أى دالاس) أن يبنى جبهة مؤيدة للغرب

ومعادية للشيوعية ومعادية لناصر فى الشرق الأوسط، لكن رد الفعل لذلك أن تحول ناصر إلى قرة عين الكرملين أكثر من أى وقت مضى .

لقد كانت هناك تيارات متعارضة فى السياسة العربية فى تلك الفترة ، وكذلك تغيرات كثيرة ، وتحول فى اتجاهات الرياح . ولكن يمكن تحديد جوهره الصراع . فمن ناحية الأيديولوجية : كان الصراع بين القوميين العرب والمحافظين (الرجعيين) ، ومن الناحية الفعلية كان الصراع بين روسيا والولايات المتحدة . وكان النفط هو جائزة السباق .

كانت كل من لبنان ، والعراق ، والأردن ، والسعودية العربية قد قبلت نظرية «إيزنهاور» ، أما سوريا التى كانت ذات اتجاه وحدوى عربى ومحايد مثل مصر فقد عارضته ، وبدلاً من ذلك بسبب خوفها من أن تصبح ضحية لأى انقلاب سواء من جانب اليسار أو اليمين (كان التأثير الشيوعى والنفوذ السوفيتى قويين ، حيث تم اكتشاف انقلاب عسكرى عراقى) فقد أقدم السوريون على خطوة جريئة حتى ولو كانت يائسة ، فقد طلبوا من ناصر أن يقيم اتحاداً فورياً وشاملاً بين سوريا ومصر .

وبالرغم من أن عبد الناصر قد أدرك خطورة مثل هذا الزواج ، لكن كان من الصعب عليه أن يقاوم إغراء فرحته بأن تمتد حدوده شرقاً حتى العراق وقد تكون فرصة لا تتكرر ، ومن ثم ففي الساعة الخامسة بعد ظهر اليوم الأول من فبراير عام ١٩٥٨ وقف جمال عبد الناصر ، وشكرى القوتلى ، جنباً إلى جنب فى شرفة قصر عابدين فى القاهرة وأعلن أن مصر وسوريا منذ تلك اللحظة سوف يكونان « دولة واحدة ، وجيش واحد ، وحزب واحد » هذه الظاهرة الغريبة هى التى عرفت بالجمهورية العربية المتحدة التى خرجت إلى الوجود .

وفى مطلع عام ١٩٥٩ كان قد تم التوصل إلى اتفاق مالى ليحل العلاقات بين لندن والقاهرة بما يرضى المقيمين السابقين من الإنجليز و الذين طردوا منذ أحداث السويس أن يعودوا إلى بيوتهم ، غير أنهم فوجئوا من الناحية

الرسمية أنهم لن يعودوا إلى مصر أبداً لأن « مصر » لم تعد قائمة، لقد أصبحت الأقليم « الجنوبي للجمهورية العربية المتحدة ».

لقد كان هذا الاسم - غير البراق إلى حد ما - رمزاً للتغيرات التي حدثت خلال غياب استمر تسع وعشرون عاماً . حتى ولو بدت في الظاهر أشياء مرضية بنفس القدر ، فبالرغم من أن كل شيء كان قد تغير تماماً ، إلا أن دفئ الاستقبال المصرى القديم ظل كما هو ، فكثير من الإنجليز الذين قد يعانون بعضهم بعضاً ببرود خلال حفلات الاستقبال ، غلبهم رقة الترحيب بعودتهم ، فمعارفهم السطحيون كانوا يعانونهم في الشوارع ، وخدم النوادي كانوا يصافحونهم ، وكان الدوبى Dhobis (*) والفراشين وسائقى التاكسى وكل صغار الناس الذين عرفوهم كانوا مسرورين من تلقاء أنفسهم أن يروهم مرة أخرى ، فسحر الحياة الشرقية البسيطة لم يتغير : فضوضاء المقاهى على رصيف الشوارع ، وبائعو الليمون فى الطرقات ، ومحلات الفول والطعمية ، ومحترفو لعبة التنس وهم يقرعون الكرة فى النادي ، والمشروبات الكثيرة الباردة فى دور السينما الصيفية ، والحوانيت الصغيرة التى تنتج يدوياً الأحذية الرائعة المصنوعة من الجلد ، وكذلك القمصان - كل هذه الأشياء وما على شاكلتها ظلت على حالها دون تغيير ، غير أن المناخ العام أصبح يختلف تماماً ، فلم يكن هو التأثير المرئى الجديد للقاهرة الذى قد تغير بكل المعانى على مدى الأفق والتى انعكست صورتها على صفحة مياه النيل ، ولا برج التلفزيون الجديد(**) الذى ارتفع مثل الصاروخ فى أرض الجزيرة التى أكدت رغبة مصر المتناسقة لأن تقفز إلى الإمام إلى عصر جديد ، بل كان ذلك دليلاً على أن هذه القفزة قد حدثت فعلاً .

لم تعد القاهرة الأوروبية تلك القرية المتأنقة المميزة التى نقف أنيقة على مسافة ليست بعيدة من العاصمة الكبرى التى تموج بالبشر ، فقد أصبحت

(*) هكذا كتبها ولست أدري ماذا يقصد بالدوبى !

(**) برج الجزيرة لم يكن مخصصاً للتلفزيون (المراجع).



بدأ تحديث مصر فى عهد جمال عبد الناصر. والصورة
تظهر العماائر الحديثة على شاطئ النيل ومن الخلف
يظهر تل المقطم وقلعة محمد على.



ناصر هبة السماء للعالم: هكذا رفع عثمان أحمد عثمان
هذا الشعار ولاءً وتحيةً للرئيس. وهذا يبين وجه النفاق
فقد ألف عثمان أحمد عثمان كتاباً بعد وفاة ناصر هاجمه
فيه بشدة ويقول عليه الكثير من الأقاويل التي لم تثبت
حتى الآن صحتها.

الآن من ذكريات الماضى تتمسك بأهدابه من خلال مبانيها المعتادة، لقد حل محل المنشآت الأرستقراطية الضخمة ذات الأتساع الرحب ، والتي أقامها ثلاثة أجيال: رجال الإدارة البريطانيون ، رجال البنوك الفرنسيون ، والتجار الإيطاليون - حل محلها الطابع الوطنى الذى زحف عليها من قلب المدينة العتيقة ذات طراز العصور الوسطى ، بكل ضوضائها وترابها والازدحام الصاخب فيها ، ونفس الشئ حدث فى الإسكندرية ، حيث اختفت البشرة والمظهر الأوروبى إلى الأبد ، فقد تولى المصريون أمورهم هكذا كان الأمر ببساطة.

فمنذ السويس ، شرع المصريون ينتقلون باطراد إلى البيوت الخاصة والشقق التى صودرت من البريطانيين والفرنسيين واليهود ، وقاموا بسرعة بشراء ممتلكات الأجانب الآخرين الذين شاهدوا الشعارات المكتوبة على الحوائط ، وغادروا البلاد برغبتهم . وكثير من السكان الجدد كانوا من شباب الضباط الذين أصبحوا الآن طبقة « مميزة » جديدة ، ولكى يضمن ناصر ولاء الجيش له ، فقد أوكل إليهم الإشراف على البنوك ، وشركات التأمين ، والشركات التى مصرت ، وأغلب هؤلاء الضباط أصبحوا رجال أعمال وغرقوا فى ثراء مفاجئ . وأصبحوا يمارسون نفس نمط الحياة تماماً مثل الأوروبيين الذين حلوا محلهم .

لقد غيرت حرب السويس اتجاه التطور فى مصر تغييراً جذرياً ولكن من أجلها ظل التأثير الأوروبى قائماً فى مسلك الطبقة العسكرية المصرية ، فكما حدث دمرت القنابل بور سعيد ، وأحدثت إحساساً قوياً بالظلم ، محطمة الارتباط التقليدى مع الماضى ، وخالقه إحساساً جديداً بالوعى الوطنى . فعامة الناس بدأت تحس بالارتباط بالوطن لأول مرة ، وكانوا مصممين أكثر من أى وقت مضى أن الأرض ومصادر الدخل فى البلاد يجب أن تكون للمصريين وحدهم .

ولقد جاءت المقاطعة التى فرضتها كل من بريطانيا وفرنسا وبالتالى الولايات على مصر بعد حرب السويس بهدف تفسخ الاقتصاد المصرى بعد

حرب السويس بنتائج عكسية منشطة ، فعندما دخلت مصر في الستينيات كان هناك شك في تحقيق العظمة للبلاد ، وفي انطلاقة الآمال على أى حال . فبصرف النظر عن محاولة إخضاع ناصر ليجثو على ركبتيه ، فإن هذه الوسائل الغربية أعطت دفعة قوية نحو توجيه البلاد نحو التصنيع وتحريرها من الروابط المالية الأجنبية . ففي مواجهة الحصار الاقتصادي من جانب الشركاء التجاريين التقليديين ، اتجهت ان جمهورية العربية المتحدة إلى ألمانيا الغربية وإلى الكتلة الشرقية لكي تباع إنتاجها من القطن ولكي تساعد في وضع برنامج متعجل من أجل خلق صناعات جديدة .

فبينما قطعت الروابط التجارية التقليدية أوصالها ، وبالرغم من أن الجمهورية العربية المتحدة اتبعت المنهج الشمولى إلا أنها ظلت بعيدة من أن تصبح دولة اشتراكية . ففي عام ١٩٥٩ ساهم القطاع الخاص بنحو ثمانية في المائة من الناتج القومى ، كما أن الدولة أعطت توجيهاتها لتشجيع رجال الأعمال نحو المجال الصناعى ، كما أن فكرة تحويل نشاطهم العام نحو الصناعة بدا جذابًا لكثير من التجار الذين كانوا قد عانوا من القيود التي فرضت على الاستيراد ، وكانوا لا يزالون يتذكرون الأيام الخوالى عندما كانوا يجنون الأرباح الكبيرة من مصانعهم المحلية خلال الحرب العالمية ١٩٣٩ - ١٩٤٥ ، وبينما كان العقد السابق يتسم بالجري وراء الحصول على الامتيازات والوكالات التجارية ، أصبح الاندفاع الآن نحو الحصول على تراخيص الصناعة. فكل واحد يتصور نفسه أنه رجل أعمال أصبح الآن منكبًا على دراسة مشروع أو أكثر ليضع أى شئ بدءًا من معجون الأسنان إلى الجرارات الزراعية ، فقد كان هناك مناخ من التنافس المحموم على الريادة من جانب الشركات الخاصة في المشروعات الجديدة التي فتحت أبوابها حديثًا للدخول في الخطة الخمسية ، فقد وضعت السلطة الحكومية تخطيطها الأساسى في خدمة هذه الثورة الصناعية .

والذى لا شك فيه فإن بعض هذه المشروعات كان جادًا ، غير أن بعضها كان أشبه بالكتابة بالدخان ، إذ أنها فشلت لأنها لم تأخذ في حسابها الغياب شبه الكامل للعقلية التجارية القادرة على التعامل مع تعقيدات المشروعات



كان من أهم أعمال جمال عبدالناصر التعليمية جعل التعليم العالى بالمجان وارسال البعثات إلى أوروبا وأخيراً تطوير جامعة الأزهر لتدرس العلوم والطب والهندسة إلى جانب العلوم الشرعية والفقهية والصورة تبين طالباً يستذكر دروسه فى صحن الجامع أو جامع الأزهر

الحديثة ، ودفع المشروعات الطموحة قدماً إلى الأمام على مدى وقت قصير ، فبعض العقليات الماهرة من رجال الأعمال كانت تمارس عملها من القاهرة أو الإسكندرية، لكن اغلب هؤلاء كانوا من اليونانيين أو الأرمن أو اليهود ، وبالرغم من أنهم كانوا يحملون جوازات سفر مصرية ، فإن ذلك كان بغرض الاستفادة من التسهيلات الممنوحة وليس لخدمة الهدف الأصلي ، فمعظم هؤلاء الناس شاهدوا ما كان يكتب على الجدران عام ١٩٥٢ . وقرب نهاية الخمسينات غادروا البلاد في هدوء ليحققوا ثروات جديدة لأنفسهم في جنيف وميلانو وسان باولو . أما المصريون الذين قفزوا لكي يحلو محلهم فلم يكن لديهم لا المعرفة ولا الميل . وحتى على أعلى مستويات الحكومة كان هناك صعوبة لدرجة مدهشة للتمييز بين ما هو محتمل وقابل للتطبيق ، وما هو مجرد وهم وخداع للنفس .

وهناك مثال نموذجي لهذا المناخ في تلك الفترة المتهورة وهو مصنع سيارات رمسيس ، فقد كانت الجرارات والسيارات تجمع منذ بضع سنوات سابقة من أجزاء مفككة (C. K. D.) . غير أن الفضل يرجع في اتخاذ الخطوة الأولى إلى مشروع بريطاني من أجل التصنيع الفعلي لسيارة مصرية، وكانت تلك الخطوة تعود إلى مرحلة ما قبل السويس ، فقد ظهرت سيارة السباق من طراز فينكس ٢ أس . آر ٦ (Phoenix 2 SR. 6) في سباق « لو مان أند رايمز Le Man & Rheims » عام ١٩٥٦م ، وعهد مشروع تطوير السيارة فينكس (التي سميت على اسم الطائر الخرافي الذي ينفث النار في الأساطير المصرية القديمة) إلى شركة معروفة جداً من شركات المدلاند Midland وهي شركة «ميدوز أوف فولفر هامبتون Meadows of Wolverhampton» التي أنتجت مجموعة من النماذج المصغرة من السيارات التي يمكن إنتاجها في أي مكان في العالم . وبعد توقيع الاتفاق المالي بين بريطانيا ومصر ، أرسل نموذجان من هذه السيارة الصغيرة إلى المكان الأصلي الذي استلهمت منه فكرتها . وبعد ساعات من وصولهما شرعت مجموعة من رجال الأعمال المصريين في التفاوض حول خطوط إنتاجها ، وكسبوا إلى جانبهم مساندة عبد الحكيم عامر القائد العام للقوات

المسلحة للجمهورية العربية المتحدة الذى وعدهم أن يتحدث إلى ناصر حول هذه الفكرة . وفى عصر اليوم التالى تلقوا دعوة لعرض السيارة على الرئيس .

وبعد أن قاموا على عجل بنزع لوحات الأسماء الإنجليزية . قادوا هذه النماذج الأولية لتلك السيارة إلى بيت ناصر الخاص فى منشية البكرى حيث وجدوه يمارس لعبة التنس مع عامره وبوجوه جادة تماماً قالوا له أنهم كانوا يعكفون لعدة سنوات لإنتاج سيارة مصرية لكل الشعب ، وأنهم لو حصلوا على تأييد الحكومة فأن فى إمكانهم إقامة مصنع للإنتاجها خلال ثلاثة شهور فى التاريخ الذى يناسب الاحتفال بيوم الثورة فى ٢٣ يوليو .

وبنفس الملامح الجادة الصريحة ، قضى ناصر ساعة وهو يجرب السيارات ويتفحصها من كل زاوية ، وفى إحدى مراحل الفحص دخل بجسمه تحتها ، ثم أخرج رأسه فى وضع الرئيس ليبدى ملاحظة وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة عريضة قائلاً : « هل تعرفون أننى كنت ذات مرة معلماً للهندسة فى الكلية الحربية؟ » وأخيراً بعد أن ربت بلطف على جسم السيارة الصغيرة الذى كان من تصميم ميشيلوتى Michelotti من مادة الفايبرجلاس Fiberglass أعطى موافقته على المشروع بشرط إجراء بعض التغييرات المحددة ، ثم ألتفت إلى حكيم عامر قائلاً : « قل لعزیز صدقى (وزير الصناعة) أن يدفع هذا المشروع قدماً إلى الأمام . وتأكد من أنه يعطيه الأولوية فى اهتماماته » . ثم أضاف بلهجة ذات مغزى : « لقد حصلنا على كثير من الوعود . وكانت النتائج قليلة من جانب القطاع العام .. فدعونا نرى ماذا يقدر القطاع الخاص على فعله » .

وبعد أن صافح المتبنين للمشروع قبل أن يستدير عائداً أضاف وقد ارتسمت على وجهه معالم غمزة عين : « إن ذلك سوف يكون أول صفقة تعقدها مع بريطانيا منذ الاتفاق .. دعونا نرى ماذا سنحصل عليه من التعاون مع الإنجليز » .

وعندما عاد الشركاء مبهجين إلى مكاتبهم ، كان فى انتظارهم رسالة

عاجلة تقول : « أن الرئيس يقترح أن اسم رمسيس سوف يكون مناسبًا للسيارة » .

وسرعان ما أزيحت الإجراءات البيروقراطية جانبًا ، وثم شحن قطع التجميع لخمس وعشرين سيارة من إنجلترا على وجه السرعة ، ووصلت إلى الإسكندرية بعد أن استغرقت أسبوعًا تقريبًا ، وجمعت السيارات وطلبت بالألوان التي تلقت النظر (واحدة منها حملت الألوان الأحمر والأبيض والأسود لون علم الجمهورية العربية المتحدة) ، ثم عرضت على الجمهور في ميدان التحرير بالقاهرة أثناء الاحتفالات ليوم ٢٣ يوليو ، واستقبلتها الصحافة والتلفزيون كرمز للتقدم الصناعي في الجمهورية العربية المتحدة : « ورفع شعار يقول : سيارة الشعب العربى صنعتها الأيدى العربية من أجل الشعب العربى ! » . وفى إحدى أفلام الكرتون التى لقيت إقبالًا كبيرًا ظهر رجال السياسة الغربيون وقد أصابهم الإحباط وقد جلسوا فوق الجمال وهم يرمقون سيارة رمسيس وبداخلها ناصر وكتب تحتها تعليق يقول : « كانوا يظنون أننا لا نملك غير الإبل بينما نحن نصنع سيارتنا بأيدينا » .

وعلى طول الطريق الصحراوى ، وعلى مسافة ليست ببعيدة عن الأهرامات، حددت مائة فدان من أجل مصنع رمسيس ، وسرعان ما برزت مبان ضخمة للمصانع من وسط الرمال فى المنطقة التى بنى فيها فراعنة الأسرة الخامسة مقابرهم منذ خمسة آلاف عام مضت ، كما منحت سيارة رمسيس حق الاحتكار بالنسبة للسيارات الصغيرة وهذا كان يعنى أن يحظر استيراد سيارات منافسة صغيرة أو تصنع داخل الجمهورية العربية المتحدة .

وسافر وفد من القاهرة إلى إنجلترا للتعاقد على أجزاء أول عشرة آلاف سيارة، وللتفاوض على ضمانات الشروط المالية ، وقد قبل الوفد بترحاب مهذب، لكنهم سرعان ما تبين لهم أن الحكومة البريطانية ليست متحمسة على الإطلاق لفكرة قيام أى تعاون يشجع على ازدهار الصناعة فى الجمهورية العربية المتحدة ما دامت القاهرة تتباطئ فى رد الممتلكات البريطانية المصادرة ، وترك القائم بالأعمال البريطانى كولن كرو Colin Crowe

وبطانته وقد حفيت أقدامهم في مكاتب الوزارات دون جدوى . ولقد مورس الضغط على المصنعين التعساء في الميدلاند بشدة والذين كان من الطبيعي أن يسرهم ضمان هذه الصفقة الهامة ، كما وضع رئيس غرفة التجارة بلطف بأنه لن يصل إلى المصنع القريب من الأهرامات أى قطع تجميع من أجل سيارة كل العرب حيث أن ٩٩% منها يصنع في إنجلترا ، ومن ثم سافر الوفد مخيب الآمال على طائرة أقلعت بعد ظهر ذلك اليوم من لندن إلى شتوتجارت Stuttgart حيث استقبلوا بتعاطف شديد من الألمان ، ولم تمر أسابيع قليلة حتى كانت أول شحنة من المكونات لجزء كبير معدل « من سيارة الشعب العربى » قد خرجت من مصانع N.S.U. فى نيكارسولم Neckarsulm قاصدة القاهرة. ولمدة اثنا عشرة عاماً أو أكثر استمر الالتزام بإرسال قطع المكونات بنفس الطريقة إلى المصنع القريب من الأهرامات والذى كان قد شمله التأميم . وكان هذا المصنع يقوم بتصنيع قطع الأثاث خلال فترات النقص الشديد فى العملة الصعبة من أن لآخر والتي كانت تتسبب فى وقف إمداد قطع المكونات لعربات رمسيس والتي أصبح أكثر من خمسها يصنع فعلاً فى الجمهورية العربية المتحدة .

إن قضية السيارة رمسيس تصور التشكك فى وجهة نظر كل من الشرق والغرب ، بينما تؤكد استمرار العداء الذى أفسد العلاقة بين لندن والقاهرة ، وكما حدث فقد فاز الألمان الغربيون بأغلب هذه الجائزة وبالذات إلى جانب الكثير من المشروعات الصناعية فى الجمهورية العربية المتحدة ، وقد شمل ذلك فيما بعد إنتاج بعض المواد العسكرية بل وحتى المحاولات الأولى لصناعة الصواريخ .

لقد كانت مزايا التعاون الصناعى مع الجمهورية العربية المتحدة تلقى الاهتمام المركز . وكان الخط الذى اتبع هو تكرار لما ورد فى فكر عبد الناصر حول « دوائر النفوذ » كما عبر عنها وزير الصناعة بصراحة ذات مرة بقوله : « إننا من الناحية الاستراتيجية فى موقع غاية فى الأهمية .. إننا من ناحية الإمكانيات قادة العالم العربى ، وبالمثل نحن البوابة إلى أفريقيا ، إننا فى حاجة إلى مساعدتكم لاستمرار عملية التصنيع وفى المقابل سوف

تكون نقطة الانطلاق لكم لكي تصلوا إلى الأسواق الحيوية في الشرق الأوسط وأفريقيا . أن لدينا أقوى محطة إذاعة في العالم ، إذ تذيع بثمان وسبعين لغة سوف نجدها لكي تشجع إنتاجنا المشترك . إن لدينا أيضاً اتفاقات سياسية وتبادلية مع عدد من البلدان التي لا تستطيعون التعامل معها بسبب النقص في عملاتهم الصعبة وسياساتهم الاستيرادية ، ولكن عن طريق تصنيع منتجاتكم في مصانع الجمهورية العربية المتحدة ، مستخدمين الأيدي العاملة الرخيصة التي لدينا ، فسيكون من الممكن اختراق هذه الأسواق » .

لقد كانت الصناعة الألمانية الغربية سريعة لتفهم قوة هذه الحجة ، وفيما بعد أصبح هذا المبدأ عندما طبق بدلاً من ذلك في مجال التسلل السياسي ، واحداً من أكبر الأسباب الرئيسية للتورط الروسي في الجمهورية العربية المتحدة .

غير أنه حتى أيام غروب عام ١٩٦٠ ، كانت الجمهورية العربية المتحدة لا تزال متوجهة نحو الغرب ، بصرف النظر عن المعدات العسكرية الروسية ، والوعد الخاص بالسد العالي ، لم يكن هناك سوى مكتبات روسية قليلة ، وداراً واحدة للعرض تعرض أفلاماً روسية ، وكانت المساهمات الروسية في مجالات الأحداث الرياضية هي المظهر الوحيد الملموس للتسلل الروسي ، ولو أن الجمهورية العربية المتحدة كانت تتجه شرقاً ، إلا أن ذلك كان محاولة للتغيير . فمن الناحية الجغرافية وطبقاً لمجالها المحايد ، كانت لا تزال يسار الوسط ، ففي مطلع الستينات كان من بين الزوار الجدد الذين ظهروا في القاهرة ، أغلبية كبيرة من الألمان .

في اليوم الأخير من شهر سبتمبر هام ١٩٦١ أقام أحد أفراد أسرة البدراوى عاشور حفل استقبال بمناسبة زواج ابنته . وكانت أسرة البدراوى - تماماً مثل الضباط الأحرار أنفسهم - تتبع من أصول فلاحية ، غير أن الحفل كان مثلاً للانغماس في الإسراف والتبذير بما يناسب الأعيان الإقطاعيين في المنصورة ، فقد غطى ملعب التنس في فيلا الباشا السابق في حي الدقى بالموائد من أجل إقامة بوفيه كبير . كانت أكوام عالية من صناديق زجاجات

الشمبانيا الفرنسية على أحد جوانبه . بالرغم من أن المظهر العام كان أقل صخبًا من المناسبات المشابهة في الماضي . وقرب نهاية المساء شوهد بعض الضيوف المرحين وهم يرتدون ثياب العشاء الرسمية ، ومن بين حين وآخر كانوا يتقارعون الكؤوس ولكن ليس في نخب العروس . وقد تظاهر آل البداروي أنهم لا يلاحظون ذلك ، بالرغم من المحتمل أنهم مدركين صالح في نخب من يتقارعون الكؤوس . فمذ يومين ، قامت مجموعة من شباب الضباط السوريين في دمشق بانقلاب ، وأعلنت سوريا انسحابها من الجمهورية العربية المتحدة ، فقد ثبت للسوريين أن « الناصرية » عسيرة الهضم بالنسبة لهم ، وأنهم كرهوا أن يعاملوا كشركاء صغار في الوحدة ، كما أنهم عاقوا نظام الحزب الواحد الذي فرض عليهم ، والأهم من ذلك أن المسؤولين المصريين الذين كانوا باضطراد يتولون المناصب في بلدهم بدوا في نظرهم متعجرفين ومتعطرسين ومعطلين .

ومذ البداية تدهورت الوحدة بطريقة سيئة ، فقد أعترض الجيش السوري على بقائه تحت القيادة المصرية ، أما المستخدمين المدنيين فقد ساءهم أن يروا أغلب السلطة التنفيذية والتشريعية وهي تتحول نحو القاهرة ، كما أن التجار السوريين من رجال الأعمال لم يرتاحوا للتحكمات التي فرضت عليهم، صحيح أن جماهير الشعب كانت تبجل ناصر ، غير أن الطبقة الوسطى كانت قد ضاقت ذرعًا من الوحدة مع مصر .

كان رد الفعل الغريزي أن يرسل ناصر بقواته ، بل أنه أعلن فعلاً حالة الطوارئ في سلاح المظلات ، غير أنه أعاد التفكير عندما تبين له أن ذلك لن يؤدي إلا لحرب أهلية ، فتخلى عن الفكرة ، وربما هو أيضًا كان غير مرتاح للموضوع كله. فقد أعلن للمصريين من خلال خطبة أذيعت بالتلفزيون: « طوال ثلاث سنوات ونصف السنة لم يكن أمامنا شيء سوى المشاكل في سوريا .. تقريبًا ثلاثة أرباع وقتي قضيته في محاولة حل المشاكل السورية » . غير أنه لم يخفى حقيقة أنها كانت ضربة مؤلمة . فأعداؤه في العالم العربي لم يخفوا سرورهم ، وفي مصر أيضًا شعر عدد كبير من الناس بالفرحة أيضًا ، وتمنوا أن يؤدي ذلك إلى سقوطه .

ولما ناقش بعد ذلك بوقت طويل تلك النكسة مع تيتو ، ألقى ناصر (الذى كان فى ذلك الوقت يطور الشعور برسالته العقائدية) اللوم على نفسه ، لأنه قلل من شأن العناصر الرجعية فى سوريا ، وعبر عن شكواه بأن الطبقات الثرية تقف دائماً ضده ، وشرح ذلك بقوله : « لقد ارتكبنا غلطة كبرى . فلم نكن مستعدين أبداً للتصالح مع الاستعمار .. بينما تصالحنا مع الرجعية . والآن فى سوريا انضمت الرأسمالية والإقطاع إلى قوى الاستعمار للقضاء على مكاسب الجماهير وضرب الثورة الاشتراكية . »

ويقال أن تيتو قدم له بعض النصائح الواقعية! فى يوغوسلافيا لا يوجد هناك مثل هذه المشاكل لذات السبب نفسه ، لأنه لم يعد هناك أناس أغنياء ، وليس هناك شئ مثل الرأسمالية والإقطاع . والحل سهل : أوقف الأغنياء من أن يكونوا أغنياء، استئصال البرجوازية ! .

كانت هذه بالضبط الخطوط التى كان ناصر يفكر فى إتباعها ، فقد كان يتشكك فى أنه أن لم يقضى عليهم على الفور فإن هناك خطر أن تتبع الطبقة الوسطى من المصريين نفس خطوات السوريين . ويدبرون ثورة من صنعهم، ولذا أمر على الفور باقتلاع جذور شأفتهم قبل أن يتوفر لهم الوقت للتصرف .

فى نوفمبر ١٩٦١ وضعت ١٢٠٠ أسرة من أغنى الأسر تمت الحراسة، وهذا يعنى أن ممتلكاتهم قد صودرت منهم وكذلك مصالحهم . وفى نفس الوقت أممت كل البنوك وشركات التأمين ومؤسسات التصدير ، إلى جانب بضع مئات من الشركات الصناعية التجارية . هذه المصادرة الصارمة لمصادر الثورة الكبرى كان تعنى أن الحكومة انتزعت بين عشية وضحاها ما يقرب من ثمانين فى المائة من المصانع والشركات التجارية أو مصرتها كما أطلق ناصر عليها .

وبعد ذلك بقليل ، انتزعت ملكيات الأراضى الزراعية المملوكة للأجانب والتى كانت تربو مساحتها على ١٥٠,٠٠٠ فدان ، كذلك صودرت الأسهم المملوكة لليونانيين - الجالية الأجنبية الوحيدة التى لم يلمسها أى إجراء من

قبل - والتي كانت تقدر بمبلغ ١٢٠ مليون جنيه . وقد وصف ناصر تأميمات عام ١٩٦١ بأنها: « أكبر انتصار للدفع الثوري في المجال الاقتصادي » فقد تغير اقتصاد البلاد تغيراً جوهرياً بدرجة تفوق أى وقت آخر منذ أيام محمد على . لقد ضربت الاشتراكية مصر بهدف الانتقام . وأصبحت على حد تعبير عالم الاقتصاد تشارلز عيسوى : دولة شمولية اشتراكية .

الفصل الثالث والعشرون
ما يسترو العالم العربى

منذ الأيام المبكرة لتولية السلطة ، عرف دائماً بأنه « الرئيس » وأحياناً عرف بأعجاب أقل درجة باسم جيمى Jimmy ، أما عند الجميع فى مصر فقد كان يشار إليه بضمير الغائب هو . لقد أصبح فجأة أكثر الناس كراهية ، أكثرهم أعجاباً وأكثرهم مصدراً للخوف فى الشرق الأوسط . لقد جلس وحيداً وبعيداً فى مكتبه بقبلته ذات الطابقين والتي بناها فى منشية البكرى من ثكنات العباسية وضاحية مصر الجديدة . ولم يكن أحد فى البلاد يجرؤ أن يخمن أين سيضرب ضربته التالية فيداه كانتا ممسكتان بزمام الحكومة وبدأت نظرتة الشبيهة بنظرة الأفعى تلم بكل شئ يحدث بالتفصيل بأنفه الأمور .

فلو أن شخصاً سحب ميلاً يزد على ألفا جنيه من البنك ، كان على علم به ، ولو أن أحداً تقدم بطلب للحصول على تأشيرة خروج لمغادرة البلاد كان عليه أن يحصل على موافقته أولاً . ولو منح إذن بالتصدير كان على جمال عبد الناصر أن ينظر فيه أولاً ، فهو الذى يقرر كل الترقيات والتعيينات . وكل وحده الذى يعرف الشعب لأجهزة المخابرات السرية الثلاث المنفصلة والتي نتعامل مع التحسس والتجسس المضاد داخل البلاد وخارجها ولدى كل شعبة تعليمات بمراقبة الشعب الأخرى .

وعلى طول خمسة آلاف سنة عرفت أرض مصر القديمة حكماً مستبدين من كل نوع ، غير ان أسلوب « الرئيس » كان يختلف عن كل من سبقوه ، ففي حياته الخاصة كان صارماً مستبداً أسسته باستبداد كرمويل Cromwell (*) ، إذ عاش حياته بلا مظاهر فى بيته المنعزل الذى لا يزد فى مظهره عن بيت أى مهنى ناجح فى أوروبا أو أمريكا . لم تخط قدمان خطوة نحو أماكن اللهو البراقة فى القاهرة ، بل أن ظهر حياة الليل فى القاهرة لدرجة أن « راقصات

(*) دكتاتور إنجليزى .



مساء عدم الانحياز البارزين فى العالم خلال
خمسينيات والستينيات من القرن العشرين نهرو،
نكاروما، عبد الناصر، وتيتو



الرئيس عبد الناصر يرحب بخرو شيف (رئيس وزراء
الاتحاد السوفيتى) فى القاهرة عام ١٩٦٤ وفى هذا
اللقاء أنعم رئيس الوزراء السوفيتى بأرفع وسام وهو
بطل الاتحاد السوفيتى



الرئيس ناصر ونائبه المنتظر أنور السادات يؤديان
القسم الدستوري أمام مجلس الأمة (الشعب) في القاهرة
عام ١٩٦٩

البطن « كان عليهن أن يغطين أنفسهن حتى سرّة البدن . ولكن بالرغم من أنه كان يصد على الظهور في مظهر الرجل المحمل بالهوم ، ورجل الأسرة الطيب إلا أنه لم يكن بأى حال من الأحوال غير مهتم بزخارف السلطنة ، فموكله السريع في شوارع القاهرة الذى يتكون من الكاديلاك السوداء الكبيرة يحيط بها من الجانبين رتل من راكبي الموتوسيكلات ويتبعها دسنة من سيارات الشيفورليه السوداء ذات الصالون ، أو اسطول من طائرات الأليوش ذات اللون الفضى عندما كان يسافر إلى الخارج ، كانت ذات تأثير كبير للرهبنة والأعجاب فى زمن الطائرات النفائة الفارهة تماماً مثل موكب العربات المزينة عند أى فرعون ولم يكن أبداً مستعداً لأن يضع رباط العنق الأبيض أو الزى الخاص بحفلات العشاء عين أن حفلات العشاء التى كان يقيمها فى قصر القبة كانت لا تقل بذخاً إسرائفاً عن أيام فاروق ، إذ كان الطهارة هم نفس الطهارة والخدم هم نفس الخدم .

أما الروتين اليومي فى حياته فقلما كان يتغير ، فهو عادة يستيقظ فى الساعة السابعة صباحاً ، ثم يقرأ صحف القاهرة الرئيسية وهو يتناول إفطاره ليطمئن على أن محررى الصحف يلتزمون بالتعليمات التى صدرت إليهم ، وقرب الساعة التاسعة يتجول عبر القاعة إلى مكتبه حيث يقضى الصباح توقع على « الدوسيهات » ويقرأ تقارير وزرائه وسفرائه ويصدر الأوامر ولم يعقد أبداً أى اجتماع فى فترة الصباح ، وإذا حدث وتحدث إلى وزير فأن ذلك يكون دائماً عبر الهاتف .

وبعد تناول الغداء كان عادة يتناول مع أسرته كان يغفو غفوة القيلولة ، من حين لآخر كان يمارس التنس مع عبد الحكيم عامر وزكريا محي الدين فى ملعبه الخاص بحديقته . وفى الساعة الخامسة بعد الظهر بمبدأ نشاطه اليومي الحقيقى حيث يعقد سلسلة من المؤتمرات والاجتماعات وتتسمر المقابلات إلى وقت متأخر من الليل .

فى القاهرة - خاصة فى فصل الصيف - يحبذ رجال الأعمال والمهنيون العمل فى المساء عندما تنقضى حرارة النهار . وقد اتبع ناصر هذه العادة ،

مكلما تأخر الوقت كلما شعر بالاسترخاء . فبعض من اجتماعاته الأكثر أهمية كانت تتعقد بعد منتصف الليل . وحول هذا الوقت كان تناول عشاءه : جبن أبيض على الملوحة وطماطم والبصل ومعها كوب من عصير البرتقال تقدم إليه على صنية في مكتبه . وعندما في النهاية يذهب إلى سريرة كان بتأبط عدد من المحلات ليقرأها لمدة ساعتين .

كانت المجالات هي هوايته المفضلة ، وكثير ما كان يمضي ساعداً يتفحص خلالها مجلات : التايم Time ولايف Life ، Erves نيوزويك Newsweek ولكبريس L Express إلى جانب مطبوعات عربية كثيرة بالإضافة إلى ذلك معزماً بمشاهدة أفلام السينما ، وكان لديه في منزله مجرد خاصة بها جهاز عرض ، كان اختياره عادة أفلام الغرب الأمريكي والعرض الموسيقية ، وأحياناً كان يركب فلمين أو ثلاثة أفلام بطولها كاملاً واحد بعد الآخر من الأفلام التي لم تعرض بعد ، وم أفلامه المفضلة فيلم « لورانس العرب Lawrence of Arabia » . وعندما علم أن رقابته منعه لأسباب سياسية ، أم بالغاء هذا الطر واعطى تعليماته بأن يعرض في جميع دور السينما بالبلاد وقال أنه دعاية جيدة للعرب .

وفي كل مدينة أو قرية ، وفي كل نافذة عرض في الحوانيت وفي كل مكتب حكوي ، علقت صور كبيرة له تحمل ابتسامة عريضة كابتسامة من ينظف أسنانه بفرشاة ، غير انه نفسه كان نادر الظهورين الجمهور إلا لأداء الصلاة في المسجد في صباح أيام الجمع، وعند عقد الاجتماعات في الاتحاد القومي لقد كان شخصاً من الصعب الوصول إليه حتى لوزرائه وللدبلوماسيين الأجانب ، وفي مقابلات كان يعطى الأولوية لممثلي الدول الصغرى المحايدة مفضلاً إياهم على ممثلي القوى الأوربية الذين كان يجد لذة في إيقائهم في حجرة الانتصار، وبالرغم من ذلك فقد كان هناك سيل دائم من الزوار جاءوا من كل أنحاء العالم إلى بيته في منشية البكري ، حيث يسرون بين صفين من الأصمعي الكبيرة للأزهار عند المدخل - وكان من الضروري أن تلتقط لهم صور وهم يصافحون ناصر أمام المدفأة الرخامية السوداء أمام لوج أسبانية غير لافتية للنظر تمثل طفلين من أطفال الفلاحين .

وعلى خلاف البروتوكول المعقد عند طلب المقابلة . فقد كان اللقاء الفعلي مع نصار يميل إلى أن تكون على سجيته ففي أحيان كثيرة خاصة في شهور الصيف فإنه يأتي يتهاوى عبر الردهة وقد وضع في قدمية خفين ، وقد ارتدى قميصاً مفتوحاً حول الرقبة فوق « البنطلون » بالرغم أنه اثناء كثير من المناسبات الرسمية كان يرتدى بدلة مناسبة مثل رجال الأعمال مفصلة عليه بدقة ، غير أنها لم تكن أنيقة ، ورباط عنق مقلم وقد يصحب زوارة إلى بهو الاستقبال الذى كان بأثاثه المقلد لطراز لويس السادس عشر ويرياته اليللورية تبدو كصورة طبق الأصل لأى أثاث بيت مصرى فى أى ضاحية من ضواحي . وما أن يسار إلى الزوار بالجلوس حتى تقدم لهم فنجان صغير من لبن التركى المحوج « قهوة مزبوظة » .

وعادة كان الحديث يسترسل بسهولة ، فمنذ الأيام الماجنته لتظيم الضباط الأحرار كانت لديه الموهبة أن يجعل زائريه يشعرون أنه لا توجد بينه وبينهم حواجز وأن اللقاء كان « بينهم وبين ناصر » وكان يعرض وجهة نظره بصراحة وغاية فى المهارة حتى فى أكثر قراراته ذات الاحتمالين كان تبدو فى غاية العقلانية . كان يتحدث الانجليزية بطلاقة حتى ان كثير من الدبلوماسيين الأجانب ورجال الصحافة الذى كانوا يكرهون سياسته كانوا يعترفون رغم ذلك بعد مقابلته أنه قد انحازوا إلى جانبه متأثرين بالأخلاص الواضح لناصر نفسه .

من قدراً كبيراً من الكاريزما Charisma وسحره على الجماهير كان بسبب هذا التعامل : « رجل لرجل » والتي ظهرت بدرجة مؤثرة فى التلفزيون ، حتى أن الناس الذين كرهوا كانوا - بعد شاهدته فى التلفزيون يهزون رءوسهم ، ويتنمتون رغماً عن أنفسهم قائلين : « إنه رجل طيب » .

والذى لا شك فيه أن كثيراً من الانجازات مت تحت إشرافه ففي خلال الستينات كان المدارس تفتح بمستوى مذهل : مدرسة كل يوم ، كما تحسنت الخدمات الطبية ، فقد ميزانية وزارة الصحة عام ١٩٦٢ أربع مرات من الميزانية التى كانت مخصصة بلغت لها عام ١٩٥٢ ، كما صدرت مياه

الشرب النظيفة إلى كل قرب في الدلتا ومصر العليا ، وحتى الأمراض التي كانت تحدث في شكل وباء ثم القضاء عليها تقريباً كما حدث تقدم في محاربة البلهارسيا والملاريا ، أما المسألة الصعبة الخاصة بالسيطرة على نسبة المواليد ، التي كانت سألته حيوية في بلد كان السكان يتزايدون بنسبة نصف مليون نسمة كل عام ، فقد تم التعامل معها بجدية ، كما تحسن مستوى المعيشة للعامل في المشروعات الصناعية وكذلك ظروف العمل، وأقيمت كمثّل من المباني للشقق الشعبية لأسكان قاطنى الأكواخ العشوائية ، كما تحسن نظام النقل البرى ، ودخلت الكهرباء أماكن على نطاق أوسع ، كما عومل وضع المرأة بشئ من التحررية فى بناء المجتمع حتى أن امرأة أصبحت وزيرة للشئون الاجتماعية .

إن أى شخص يعود إلى القاهرة بعد غياب سنوات قليلة سوف يعترف بكل أمانة بأن ثمة تغييرات كبرى قد حدثت . ولكن الأكثر أهمية من الملامح السطحية والمرئية لظاهرة للتحرر الاجتماعى - الطرايش لم تعد توضع على الرأس (لأنها اعتبرت رمزاً للسيطرة التركية البالية) ، وحل القميص والبنطلون محل الجلابية ، وغصت الشوارع والوانيت بفتيات يرتدين أزياء ذات أسلوب أوروبى ملئ بالحيوية ، كل ذلك كان يغطى إحساساً سائداً وملموساساً للكرامة التي أعيدت إلى الناس . فقد أصبحوا بعد زمن طويل قادرين أن يرفعوا رءوسهم غالية والتي كانت تبدو لأى متعاطف تتحرك بطريقة غريبة ، والتي كان يطلق عليها امصريون اسم الكرامة... وبالرغم من التشوش من جانب السلطة ، فإن النظام قد نجح فى دمج المصريين رجالاً ونساءً فى مجتمع واحد ، جعلهم فخورين أن يكونوا مصريون .

وعلى الجانب الآخر ، كان هنا اجانب الأسوأ للحركة الثورية فقد أصبحت نسبة كبيرة من السكان غير منتجة ، تجلس فى الدواوين والمكاتب الحكومية، ولما كان جهاز البوليس السرى (المباحث) مليئاً بالفاسدين ومعتاد البلطجة الذين كانوا يلتقون بتقلهم بطريقة لا تجلب السرور كما زيادة المركزية لم يدي إلا لظهور البيروقراطية بدرجة تفوق الماضى . والوزراء لم يكونوا أكثر من إيهام للبصم على القرارات الرئاسية ، وكان الفساد منتشرًا مثلما

كان أيام فاروق . والمثل على ذلك مديرية التحرير الواقعة بين القاهرة والإسكندرية والتي أصبحت فضيحة مكشوفة ، وكان إنتاجها إذا ما قورن بالاتساج العادى ، فإنه كان يكلف ضعف قيمة تكاليف الإنتاج فى الأرض العادية . ونفس التكاليف كانت تطبق على الحديد والصلب فى الصنع الضخم التى اقيم فى حلوان .

كانت حركة التصنيع تكاد بالكاد تحدث فى مشاكل البلاد الاقتصادية الهائلة . فقد كانت مصانع الحكومية غير فعالة حتى فى وجود الأيدى العاملة الرخيصة نسبياً ، ونتيجة لذلك فإن الديون التى جلبت لتمويل تطويرها كانت بوضوح ستتحول إلى رهن خطير للمستقبل .

ومنذ عام ١٩٥٦ كان عبد الناصر يسعى لأقامة سلطة على أساس دستورى ، وتكون حزب واحد وهو الاتحاد القومى ليحل محل كل أحزاب السايية السابقة ، واختبر المرشحون بحرص ، وقليل منهم كانوا مستعدين أن يخرجوا عن خط الرئيس ، الذى وصف بـتنفسه ذات مرة الاتحاد القومى بأنه : « مجرد واجهة تنظيمية amene organizational Facode لا تتأثر بقوى الجماهير ولا بمطالبها الحقيقية » . وخلال فترة الوحدة مع سوريا إمتد الاتحاد القومى إلى إقليمى الجمهورية العربية المتحدة ، غير ان التغييرات والتقيحات المستمرة جعلت هذا التنظيم فى النهاية معقداً حتى أصبح بافعل يهدم نفسه بنفسه : عندئذ شعرنا مر كأن هناك حاجة لا عادة إجباء هذا التنظيم وأن يعطى قداً من المبادر للجماهير والتى كانت تنسم من فجر التاريخ باللامبالاة السياسية ، تاركة للحكومة كل شئ ، وفى نفس الوقت كان يريد ن يضمّن للثورة مستقبلها ضد أعدائها الذين كانوا يتربصون بها ، وينتظرون سراً فرصة لضربها .

فبعد سنة شهور من الانفصال المهين لسوريا ، قدم الميثاق القومى الذى كتب معظمه بنفسه ، وكان يمثل محاولة من جانب مهندس والمنفذ الرئيسى للثورة لتقنين نظرياته السياسية ، وابتكار النظام الذى يحمى به نفسه من المنشقين والذى به يعطى الجماهير فرصة للالتحام بالحكومة تلك الوثيق التى

كانت تتألف من ٣٠,٠٠٠ كلمة كشفت أيضاً أن رئيس الجمهورية العربية المتحدة كان لا يزال يغذى بعض الأحقاد العتيقة .

فمثلاً ركز الميثاق القومي طويلاً على الطريقة التي سلبت بها إنجلترا كلا من الهند ومصر من ثرائهما لتطور صناعاتها في لانكشير Lancashire، وأعلن أن البلاد ذات الماضي الاستعماري يجب أن « تجبر لتقدم إلى الأمم التي تطمح جزءاً من ثرائها القومي الذي امتصوه عندما كانت ثروتها نهبا للناهيين » وأضاف أن الديموقراطية السياسية يجب ألا تتفصل عن الديموقراطية الاجتماعية «وأنها لا تستطيع البقاء تحت سيطرة أى فئة : فالديموقراطية تعن سيطرة وسيادة الشعب كل الشعب » ، ومن ثم فإن الاتحاد القومي يجب أن يتحول إلى الاتحاد الاشتراكي العربي لكي يصبح السلطة التي تمثل الشعب والحارس على حقوقه ومن ثم فإن الفلاحين والعمال يجب أن يكون لهم نصف المقاعد فيه « لأنهم يمثلون غالبية الشعب » .

وهناك فصل هام عالج حق النقد الذي وصف بأنه : « ضمان للحرية » ثم تبع ذلك عبارة تحمل معنيين : « لضمان الحاسم لحرية الصحافة يقبع في انها تؤول إلى الشعب » ، وفي عبارة حول حتمية النظام الاشتراكي ذكر الميثاق أن يوم العمل قد خفف إلى سبع ساعات ، وأن العامل له الحق في الاشتراك في الإدارة والإرباح . وأن كل مواطن له حق التعليم والرعاية الصحية ، والحصول على عمل يناسب قدراته ، على معاش مضمون بالإضافة إلى ذلك يجب اعتبار النساء على قدم المساواة مع الرجال «وعليهم العمل جنباً إلى جن لإنتاج المزيد من الطعام.

لقد أعلن ناصر إلى جمهور المستمعين وهو يقوم الميثاق قائلاً : «بالطبع الرزق على الله . نحن نعرف ذلك والرسول محمد قال أن علينا أن نتوكل على الله ، لكنه لم يخبر إتباعه أن يعتمدوا على الله ولا يفعلوا شيئاً » « إن الميثاق القومي » و« الاتحاد الاشتراكي العربي » ومجلس الأمة كانت تمثل في الحقيقة محاولة جادة قام بها ناصر لينشر سلطته من أعلى القمة إلى أسفلها ومن عيناها إلى يسارها ، بالرغم كان من اصع أن نرى كيف تقدم

على النجاح فى دولة شمولية ، فكان كل الحديث عن حرية الصحافة لا يمكن إلا لصحفى طائش ومتهور أن يحاول تويه أى نقد حقيقى لسياسة الحكومة ، حتى أقرب زملاء ناصر مثل زكريا محى الدين يجدون أنفسهم فى طى النسيان لو أنهم اقترحوا سياسات تخالف سياسة « الرئيس ك فقد أعلن فى خطبة تالية : « إننا نسمح بحدوث أى انشقاق يقوم بيننا - فلو أن شخصاً انشق فعلى الاتحاد الاشتراكى أن يفصح عن ذلك ويبحث مسألة طرده » أن عمليات التطهير منم أن لآخر لم تشجع على أخذ المبادرة أو حرية الفكره وبسواء أدرك ذلك أم لم يدرك فإن طراز ايدولوجيه ناصر بتأييد مع صراحة الشك » .

وفى الحقيقة بدأ جمال عبد الناصر وهو يجلس خلف مكتبة من خشب الماهو جانبى ذى السبعة أقدام فى بيته بمنشية البكرى وإلى جواره عشرة خطوط تليفونية ساخنة فى انشغال متزايد طوال ساعات الليل والنهار فى مواجهة كل الشئون فى الداخل والخارج . فمن ناحية كان عليه أن يعالج المشاكل الاجتماعية والاقتصادية الطارئة فى مصر ذاتها وفى نفس الوقت كان يسحق أى مظاهر المعارضة داخل البلاد من ناحية ، ومن ناحية أخرى كان عليه أن يحيط محاولات إعدائه على مستوى العالم ، ويفرض سيطرته على العالم العربى بأكمله . ولكى يحقق طموحاته . كان عملاً مشغولين فى إثارة المتاعب فى كل مكان يقدرون عليه . وعلى الخصوص كانت عيونه مركزة على نظم الحكم المحافظة والتى كانت بطبيعتها نقب فى وجه أى شئ ينادى به ، مثل الانفعاليون السوريون الرجعيون كما سماهم راديو القاهرة ، ومثل الملك فيصل ملك العربية السعودية والملك حسين ملك الأردن، وكان أكثر هؤلاء الحكام رجعية الأمام أحمد حاكم اليمن ، وبالطبع كانت هناك إسرائيل بالرغم من أن الدولة الصهيونية كان أقل فى الأولوية فى أفكاره كما كان يفترض فى هذه المرحلة.

ففى العراق حدث أن أطاح انقلاب موال لناصر الأسرة المالكة وأنت باللواء قاسم إلى الحكم ، وفى لبنان قامت مجموعة ثورة بدفع البلاد تقريباً إلى المعسكر المصرى ، غير أن هذه المحاولة وبدت فى مهدها بفعل الرئيس

ايزنهاور الذى قام بأرسال قوات المارينز Marines إلى لبنان والأردن لضمان سلامة هويتهم . ومنذ تلك اللحظة واجهت حملة ناصر لتوحيد العالم العربى تحت زعامته عدداً مذهلاً من النجاح والفشل . فقد تحول قاسم إلى منافس مريـر وقف فى وجه تصاعد نفوذ القاهرة حتى أطيح به بدوره ، وتولى طرف آخر موال لحزب عبد الناصر تحت زعامة العقيد الركن عبد السلام عارف . ولما أصبحت سوريا فى مصيدة بين حومتين مناضلين من القوميين العرب فى كل من بغداد والقاهرة ، حدث فيها انقلاب مضاب ، غير أن حزب البعث فى هذه المرة استولى على السلطة .

وقد اعتبرت كل من سوريا والعراق والجمهورية العربية المتحدة أنفسها دولاً تقدمية لكرس نفسها « للوحدة والحرية والاشتراكية . وفى هذه اللحظة أصبح فى الأمكان أن تتكون دولة ثلاثية تحت قيادة ناصر . وفى الحقيقة أعلن عن هذا الاتحاد الفدرالى فى ١٧ إبريل عام ١٩٦٣ ، وكلن كل ذلك هو ما حدث ولم يكن البعثيين السوريين على استعداد لإعطاء ناصر الزعامة التى يسعى لها ، إذ لم تمر ثلاثة شهور حتى إنهارت العلاقات بين الشركاء المتطلعين إلى المستقبل لدرجة أعلن فيها ناصر غاضباً أن الجمهورية العربية المتحدة ليست على استعداد للدخول فى وحدة مع « حكومة سجون فاشية نازية » هكذا كان حال الوحدة العربية .

وبعد عام لاحق ، قام عبد الناصر بمحاولة أخيرة لجمع شمل القادة العرب عندما أعلنت إسرائيل عام ١٩٦٤ نيتها فى تحويل نهر الأردن من بحيرة طرية إلى صحراء النقب ، فقد استخدم ذلك كذريعة (فأى شئ له علاقة بإسرائيل كان يمثل قنبلة سياسية ولا أحد يجرؤ على رفض الحضور) ليدعو إلى عقد قمة عربية فى القاهرة ، وبالرغم من أن تم خلاله إصلاح بعض الحسور .

إذا اتفقت الجمهورية العربية المتحدة وتصالحت تقريباً مع جميع الأطراف فيما عدا السوريين فقد أظهر المؤتمر قدراً كبيراً بين الاتحاد بقدر ما كان بتطلبه الموقف إلا أن صدهاء كان أكبر من صوته . كما يقول المثل العربى القديم.

وحتى في وجود المنافسات القومية والخلافات السياسية التي نمت بشدة في العالم العربي إلا أن علاقة الجمهورية العربية المتحدة مع الغرب استمرت في التدهور . وبمجيئ الرئيس كنيدي كان هناك مرحلة قصيرة من الأزدهار والفتاهم المشترك ، بل وحتى الصداقة والتي كان من المحتمل أن تؤدي إلى عودة العلاقات الودية ، إلا أن إدارة جونسون سرعان ما أصبحت علنا معادية لناصر ، وشاركتها حكومة العمل البريطانية في هذه الكراهية ، والتي كانت تكاد أن تكون غير متوقعة حتى بين الرفاق الاشتراكيين ، فقد كانت سياسة ناصر الحيادية والتي كانت تعني المعارضة المتواصلة لوجود القواعد العسكرية الغربية في أفريقيا والشرق الأوسط جنبا إلى جنب مع دعمه المستمر للحركات الثورية الراد يطالبه ضد نظم الحكم الموالية للغرب (كما كان الال في الكونجو) أضف إلى ذلك سياسياته الاشتراكية التي ألحقت الخسائر بمصالح الغرب التجارية الشاسعة في مصر دون دفع التعويض المناسب لم تؤدي سوى إلى قيام العداء ضده في بريطانيا والولايات المتحدة ، وبالطبع فقد وجدت كل من لندن وواشنطن في مجهوداتهما للوقف في وجه نفوذه المخرب نفسيهما تدعمان أعداء الناصرية أينما كان ذلك ضروريا .

ولقد بدأ « الرئيس » نفسه يستأذ هذا الاتجاه ، ففي عام ١٩٦٥ أقدم على قطع العلاقات الدبلوماسية مع ألمانيا الغربية بالرغم من العلاقات الحتمية التي كانت قائمة بين البلدين والمساعدات الكبرى التي قدمتها إلى الجمهورية العربية المتحدة خاصة في مجال التصنيع ، وذلك تعبيراً عن غضبه لعقد اتفاق تعويضات مع إسرائيل ، وهكذا دخل عبد الناصر تدريجياً وهو بغير طريقة متبعداً عن الغرب في فلك الاتحاد السوفيتي .

كان الروس يمارسون لعبتهم بهدوء وذكاء ، فقد فتحت صفقة الأسلحة التشيكية عام ١٩٥٥ الأبواب ، وقد دعم هذا التسلل تقديم المساعدات الفنية والاقتصادية بعد السويس إلى جانب عقد صفقات كبيرة لشراء القطن مما قلل بدرجة كبيرة من تأثير المقاطعة الغربية . وكانت الخطوة التالية في التسلل

الروسي توقيع اتفاق السد العالي ، وهنا جعل بثبات الجمهورية العربية المتحدة لتصبح دولة تابعة .

لم يبدو الاستعمار السوفيتي يقلق بال ناصر ، فقد اعتقد أن نستطيع استخدام مناورات الحرب الباردة الروسية لخدمة مخططاته التوسعية ، وكان واثقاً أنه في قدرته تخلص نفسه من أحضان الدب في أى لحظة يختارها . أما موسكو ، فقد كانت تتوى بهدوء أن يستخدم الجمهورية العربية المتحدة كراس حرب للمتسلل ليس إلى الشرق الأوسط فقط بل إلى أعماق أفريقيا وتستطيع كذلك أن تحتفظ بالعناق على مستوى المصافحة بالأيدى . من بين الموضوعات الكثيرة ليس أقلها الحاجة غى ضرورة القضاء على النفوذ الغربى وكافة القواعد الأجنبية والتي رأى جروشيف Krushchev وناصر أن العين بالعين . كان « الرئيس » كان يناسب جيداً فخططات موسكو حتى أو خروشيف عندما أسوان بمناسبة حفل افتتاح المرحلة الأولى للسد العالي أنعم على ناصر بوسام « بطل الاتحاد السوفيتي » وهو أعلى وسام شرف وتقدير يستطيع الاتحاد السوفيتي منحه ، وإلى هذه الشراكة الحميمة يمكن أرجاع حرب اليمن .

فى صيف عام ١٩٦٢ توفى الإمام أحمد فى سن متأخرة وخلفه ابنه البدر . وبعد ذلك بأيام وعلى وجه التحديد فى ٢٨ سبتمبر ثارت مجموعة من الضباط اليميني بقيادة العقيد عبد الله السلال على الإمام الجديد وأعلنوا الجمهورية ، وفر البدر هارباً ، ولما عدة السعودية جمع التأييد بين القبائل اليمنية وبسرعة استجاب ناصر لطلب السلال للمساعدة ، وسرعان ما أصبح الجيش المصرى متورطاً بشدة فى تلال اليمن ، حيث كان أنصار الملكية يتحصنون ، وما ظهر فى البداية على أنه نزهة للقوات المصرية المتفوقة عسكرياً تحول بمضى الوقت إلى « فيتنام العرب » .

واستمرت الحرب بن كروفر على طوال خمس سنوات وفى مراحلها الأولى كانت تكلف نصف مليون جنيه والذي كان واضحاً أنه فوق طاقة الجمهورية العربية المتحدة المالية ، ولكن لو أن مصر كان يقدم القوى

البشرية (والتي لم يكن لديها نقص منها) ، لكنها محملة تماماً بتحويل الحملة ففي مقابل المعدات السوفيتية العسكرية والسد العالي في اسوان ، كان ناصر مستعداً أن يلقى بطل ثقله لقلب النظام في اليمن . إذ كانت هناك اعتبارات سياسية وجغرافية أيضاً وراء هذه المقامرة . فمن الناحية السياسية كانت بالطبع جزءاً من صراعه الذي لا يستكين للحصول على زعامة العالم العربي ، وعلى وجه التحديد التحدى بين قوى التقدم وقوى الرجعية ، ومن الناحية الجغرافية ، فإن هذا الركن الاقطاعي الواقع عند المدخل الجنوبي للبحر الأحمر كان يمثل نقطة استراتيجية ، كما كان الكرملين يدرك أيضاً أنه يمكن منها ضرب حقول البترول في الخليج العربي .

ولقد استمرت الحرب في طريقها المرهق والقاتل في تلال اليمن ، وأصبح من الواضح أن قوات حملة الجمهورية العربية المتحدة والتي كانت تزيد على ما يقرب من ستين ألف رجل لم تكن قادرة على تحقيق التفوق على رجال القبائل العتاة البدائيين اليمنيين بالرغم من الضرب بالقنابل اليومى بواسطة النفاثات الروسية الجديدة التي كانت في حوزة ناصر بل بالرغم (كما ادعى) من استخدام الغازات السامة ، واستمر أنصار الملكية اليمنيون ، والذين كانت تدعهم السعودية العربية بالسلاح والمال في قتالهم ، وما كان يظن أنه نصر سريع للمصريين حول إلى حملة طويلة لا ثمار لها والتي أهملتها العناوين الكبرى تصبح حرباً منسية في بلاد بعيدة لم تضاف أى بريق لصورة ناصر . هنا البكباشي صاحب الايديولوجية والذي عام من حصار الفالوجا وهو يقسم أنه سوف يفكر ألف مرة قبل أن يورط شعبه في اى حرب - قد تغيز كثيراً خلال الخمس عشرة عاماً . وأصبح حاداً في طريقه الذي سبب الكثير من الموت للعرب أكثر من أى رجل آخر في التاريخ .

ففي حفل كوكتيل أقيم بالقاهرة في هذه الفترة ونجت صحفية أمريكية أحد الدبلوماسيين الذي كان يعبر عن هذه الحقيقة المرة تعد أعلنت ويكاد الغضب يغلبها : « هل تدرك أنك تتحدث عن أهم شخصية في الشرق الأوسط منذ النبي محمد » ؟ وقد هز مراسل صحيفة لندنية كان واقفاً بالقرب منها كتفيه

مستهجناً وتساءل عما يظنه ناصر نفسه عن الموقف في اليمن وفي مصر
ذاتها . وتخيل أن ناصر في أعماق أعماق قلية لآبد وأن يقول : « كم بلغ بي
الأرهاق ... وأى فوضى رهية تسببت في حدوثها .. » .

الفصل الرابع والعشرون

سبعون ساعة في قيظ يونيو

حتى وعندما بدأ أخيراً يسحب قواته من اليمن في ربيع عام ١٩٦٧ فإن جمال عبد الناصر لابد وأن يكون قد أدرك في نهاية المطاف أن مخططاته الطموحة الحمقاء لقيادة العالم العربي قد فشلت تماماً . حتى حملة اليمن لو ثبت أنها كانت بمثابة الكارثة ، فأنها كانت لا تساوى شيئاً إذا ما قورنت بالذى سيتلو ذلك ، إذ لم يكن حتى في أبشع أحلامه وكوايسه يتخيل الكارثة التي سوف تنزل بمصر في فصل ذلك الصيف ذاته .

ففي العاشر من مايو وصل إلى مكتبه في منشية البكري أربعة تقارير غاية في السرية قدمتها المخابرات . أحدها من شبكة التجسس الخاصة به ، والباقي من أجهزة المخابرات من كل روسيا وسوريا ولبنان . كلها أفصحت عن نفس الأنباء المشؤومة . أن الجيش الإسرائيلي يحشد قواته على حدود سوريا وأن الهجوم على دمشق بات وشيكاً .

كان التوتر بين إسرائيل والجمهورية العربية المتحدة عند أدنى درجاته منذ شهور ، فبالرغم من أن البلدين من الناحية الفنية كانا لا يزالان في حالة حرب ، إلا أن ناصر كان مشغولاً لقمة رأسه في مشاكل أخرى : الحرب في اليمن ، الرجعيون في الجزيرة العربية ، ومحاولاته لطرد الإنجليز من عدن . كل هذا كان لا يعطيه فرصة في التفكير كثيراً في إسرائيل . فقد كان اهتمامه الأكبر منصّباً على الحرب ضد الرجعية ونشر الدعاية للاشتراكية أكثر من اهتمامه بإشعال الحرب مع اليهود .

ولذات السبب ، لم تكن إسرائيل تتوقع حدوث أى مشاكل في ذلك الوقت مع الجمهورية العربية المتحدة . فسفنها كانت لا تزال ممنوعة من استخدام قناة السويس ، غير أن لذلك قصة قديمة . فقد كان خليج تيران مفتوحاً أمامهم . وكانت وحدة من قوات الأمم المتحدة تقوم بحراسة حدود سيناء . أما

مع سوريا فقد كان الأمر يختلف . فقد قام قادتها البعثيون بالتحول بزاوية حادة نحو اليسار . وكانت الغارات المستمرة التي كان يقوم بها فدائيو فتح من سوريا بعضها كان يضرب أعماق الأراضي الإسرائيلية قد أصبح أمراً لا يحتمل . ولكي تضع نهاية لهذه المضايقات كان لابد من إلحاق هزيمة بها ، وبالرغم من أن النفاثات الإسرائيلية أسقطت ست نفاثات سورية فوق سماء دمشق في السابع من إبريل انتقاماً لذلك ، فقد كان الكنيست تحت ضغوط من قبل أشد أعضائه ميلاً للعسكرية لكي يقوم بحملة على سوريا لوضع نهاية لحكم البعث .

في ٨ مايو طار وفد سوري إلى القاهرة لضمان المساعدة من ناصر ، وقد راوغ الرئيس وأخبرهم أنه يجب أن يقتنع أولاً بأن إسرائيل تخطط بالفعل للقيام بهجوم كما يعتقدون . وبعد يومين أكدت تقارير المخابرات على مكتبه هذه المخاوف .

وبالنسبة لعبد الناصر ، كان ذلك تطوراً غاية في الإرباك . إذ كان آخر شيء يبغيه هو الحرب مع إسرائيل ، فالكثير من قواته كان لا يزال غارقاً في مستنقع اليمن حيث فقد عدداً كبيراً من رجاله ومعداته ، وما بقي منها كانت مصر في أمس الحاجة إليه من أجل حماية أمنها الداخلي . وبالرغم من أن عبد الحكيم عامر (القائد العام للقوات المسلحة) أصر أن الجيش مستعد «لإلقاء إسرائيل في البحر» كان ناصر على علم تام أن قواته المسلحة ليست في هيئة مناسبة للدخول في معركة في مثل ذلك الوقت ، وعلى الجانب الآخر لو أن الإسرائيليين اجتاحوا سوريا وفشلت الجمهورية العربية المتحدة في الانتقام منهم ، فإنه سوف يفقد هيئته في العالم العربي إلى الأبد ، وكما كان يحدث عندما كان يدعو للحل الوسط في الماضي - كما حدث عدة مرات - فقد كان خصومه يتهمونه بأنه على علاقة بإسرائيل ، ولكي يستعيد وضعه كزعيم روي للعرب لم يكن في استطاعته أن يضحى بالبقاء دون أن يتصرف .

ولما وجد نفسه وقد وقع في ورطة محيرة ، فقد قرر ناصر اللجوء إلى

سلاح « التهويش » ، إذا بدأ في استعراض كبير لقواته . فقد قام بعرض لقوات مشاته ودباباته عبر شوارع القاهرة متأكداً أنها مرت عبر شوارع «جاردن سيتي» تحت نوافذ السفارة الأمريكية . وفي نفس الوقت أحدث ضجيجاً مبالغاً للحرب كان الغرض منه نقل رسالة أنه سوف يأتي لنجدة سوريا .

وكجزء من خطة الخداع أرسل شطراً من عتاده العسكري بشكل تفاخري إلى سيناء . وطلب من القائد المحلي فيها أن يتصل بالجنرال « ريكي Rikhye » مندوب الأمم المتحدة ويطلب منه سحب قوات الهدنة الخاصة بالأمم المتحدة من منطقة الحدود ، ورد الجنرال « ريكي » أن مثل ذلك التصرف خارج اختصاصاته، لكن ذلك طبقاً لشروط الاتفاق مع الأمم المتحدة كان طلباً مشروعاً ، لكن يجب أن يناقش مباشرة بين الرئيس ناصر ويوتانت UThant السكرتير العام .

وإزاء ذلك شعر ناصر أنه مضطر أن يقدم طلباً رسمياً إلى « يو تانت » لكي يسحب قوات الأمم المتحدة من الأراضي المصرية . وطبقاً لحساباته بأن الموقف قد تعقد لدرجة تدعو إلى تدخل القوى العظمى كي تضغط على كل من إسرائيل والعرب لحل الأزمة ، ولو حدث ذلك لنجحت مخططاته.

وبدلاً من ذلك فعل يوتانت عكس ما كان يتوقعه ، إذ وافق على الفور على طلب ناصر ، وفجأة سحبت الأمم المتحدة قواتها التي حافظت على السلام في منطقة الحدود بين إسرائيل والجمهورية العربية المتحدة لمدة إحدى عشرة سنة مليئاً بذلك طلب عبد الناصر .

ولكونه دائماً مقامراً ، فقد صعد إلى « الخازوق » . ففي ٢٢ مايو احتل شرم الشيخ وحظر مرور السفن الإسرائيلية في خليج العقبة ، وبذلك أغلق ميناء «إيلات» الحيوى تماماً . إن مثل ذلك التصرف الجريء هو أحد الصفات المميزة لناصر . فقد كان يسعده أن تكون الكرة في ملعبه ، وبالفعل بدأ في ذلك الوقت كما لو كان قد حقق ضربة كبرى على حساب إسرائيل .

وأنه كسب لعبة « البوكر » على مستوى العالم .

طار يوتانت إلى القاهرة مهموماً يحمل معه مقترحات حل سلمى للأزمة التي لم يكن ناصر - وهو يتصرف بمهارة من موقف أساسه ضعيف - غير ميال لقبولها . وتحدث الرئيس جونسون على الخط الساخن مع كوسيجين Kosygin واتفق زعيماً القوى العظمى على الضغط على عمليهما أن يتجنباً إشعال الحرب . وفي ٢٨ مايو عقد عبد الناصر مؤتمراً صحفياً ، وأبدى فيه بعض الملاحظات العدوانية بالذات لكي تتزامن مع وصول تشارلز يوست Charles Yost كممثل شخصي للرئيس جونسون ، وبالرغم من ذلك توصلاً إلى اتفاق بينهما أن تحل الأزمة من خلال القنوات الدبلوماسية ، فمسألة مضايق إيران تعرض على محكمة العدل الدولية للتحكيم في مدينة لاهاي Hague ، وأن على زكريا محيي الدين أن يغادر القاهرة إلى نيويورك لمناقشة حل بين أطراف النزاع .

وغادر تشارلز يوست القاهرة في الثالث من يونيو قبل اندلاع الحرب بيومين بعد أن أكد لناصر أن إسرائيل لن تقوم بأى عدوان ما دامت المفاوضات مستمرة . وقد استرخى ناصر خلال الأسبوع لأول مرة منذ ما يقرب من شهر ، فقد بدت مخططاته كما لو كانت قد نجحت ، ونهض من موقف حرج وقد سبقته سمعته .

لكى بعد أربع وعشرين ساعة واجه العالم صداماً أصم أذنيه ، إذ قابل الإسرائيليون خداعه بشراسة وبلا رحمة .

فحتى منتصف مايو سلك الإسرائيليون مسلكاً حذراً ، ولكن مسترخٍ إزاء الجمهورية العربية المتحدة . وبصفتها أكبر جيرانها العرب وأكثرهم تأثيراً ، كانت الجمهورية العربية المتحدة تلقائياً عدوها رقم واحد ، ولسنين أثبت ناصر أنه أكثر العرب اعتدالاً على الأقل فيما يتعلق بالنسبة لسياساته إزاء إسرائيل . وخلال الشهور القليلة انتقل مجال الخطر نحو الشمال حيث كان نظام حكم البعث السورى يقوم بتدريب وتسليح فدائيي « فتح » ، وأخيراً

اتخذ القرار بوضع نهاية لهذا النشاط بإسقاط نظام حكم البعث في دمشق ،
وأفادت تقارير المخابرات الإسرائيلية أن العرب والجمهورية العربية بالذات
ليسوا في حالة الاستعداد للقيام بنجدة سوريا.

لقد كانت تصرفات ناصر منذ ١٠ مايو فصاعداً من وجهة نظر تل أبيب
هى التى غيرت الموقف ، فالمبالغة فى الإعلان عن التعبئة العامة ، وطلب
انسحاب قوات الأمم المتحدة المحافظة على السلام ، والتهديدات التى أطلقها
راديو القاهرة ، وأخرها إغلاق مضائق تيران وقد أظهرت أن ناصر - العدو
رقم واحد - لديه نوايا عدوانية بالرغم من كل شئ : هل لديه ذلك فعلاً ؟ أم
مجرد تهويز ؟ فقد كان لدى المخابرات الإسرائيلية المعلومات الكاملة لأدق
التفاصيل عن قدرات جيش الجمهورية العربية المتحدة . وربما كان
المسؤولون فى تل أبيب على دراية ربما أكثر من ناصر نفسه أن الجيش
المصرى غير قادر على الصمود فى حرب فى مثل ذلك الوقت . إن دولة
إسرائيل بطبيعتها وجغرافيتها الخاصة كانت غزواً عدوانياً للعالم العربى ،
وأكثر من ذلك لكى تبقى فعلية التوسع ، ومن ثم تزايد الاقتتاع فى تل أبيب
أن الفرصة متاحة فى ذلك الوقت لكى تحطم الحدود الضيقة التى فرضت
عليها أعوام ١٩٤٩ و ١٩٥٦ ، لكى تحقق الحدود الآمنة فى مواجهة جيرانها
العرب المعادين لها بالاندفاع نحو حدود يسهل الدفاع فيها . وإن مثل هذه
الفرصة لن تتكرر ، وقد انتشرت نفس وجهة نظر الصقور عبر البلاد كلها :
«أنها ميونيخ ! Munich (*)» هكذا كان الناس يهدرون من صنف حتى بير

(٥) إشارة إلى معاهدة ميونيخ التى عقدت فى سبتمبر عام ١٩٣٨ عندما سافر رؤساء
حكومات كل من بريطانيا وفرنسا وإيطاليا لاسترضاء أدولف هتلر حتى لا يعلن
الحرب وذلك برضوخهم لمطالبه بضم أجزاء من تشيكوسلوفاكيا التى يتحدث أهلها
الألمانية ، غير أن هذه التنازلات فتحت شهية هتلر للتوسع فقد قامت قواته فى مارس
عام ١٩٣٩ بضم ما تبقى من تشيكوسلوفاكيا، وفى الأول من سبتمبر عام ١٩٣٩ ابتلع
بولندا بأكملها، ولما حاولت فرنسا التصدى له قام باحتلالها كما هدد باحتلال بريطانيا

سبع : «إننا إذا تركنا العرب يفلتون هذه المرة التي نحن فيها قادرون على هزيمتهم فيها بكل تأكيد، فأننا سنكون قد ضيعنا الفرصة التي منحها الله لنا ، لا تدعونا نعانى من ميونيخ مرة أخرى !!»

غير أن رئيس الوزراء ليفي إشكول Levi Eshol كان بطبيعته معتدلاً، وكان لا يزال شخصياً يميل إلى التسوية ، ولكن في ٢٠ مايو عندما جاءت الأنباء تحمل إغلاق مضائق تيران ، قام زملاؤه في مجلس الدفاع بإجباره على الانصياع لرأيهم . إذ ناقشوا ضرورة الهجوم الفوري : لقد انتظر شعب إسرائيل طويلاً بما فيه الكفاية عبر السنين أن يقوم المفاوضون الدوليون لإنقاذهم من الخطر الرابض على الحدود . وأن الوقت لم يعد إلى جانب إسرائيل إذ أن العتاد الحربي لدى العرب كان يزداد قوة بفضل شحنات السلاح من الاتحاد السوفيتي . كما أن الجمهورية العربية المتحدة لم تكن مستعدة فكل شيء كان يحذ مزايا الهجوم الخاطف على الفور .

وفي ٢١ مايو صدرت الأوامر السرية للتعبئة العامة الشاملة لكن لم يحدث شيء بعدها ، فقد غيرت مجهودات يوتانت للوساطة وتحذيرات الاتحاد السوفيتي ، والضغط الدبلوماسي من جانب الولايات المتحدة من الموقف ، وفي الحقيقة فإن تصلب ناصر ، وإقلاع الملك حسين الفجائي إلى القاهرة في ٣٠ مايو وهو يقود طائرته الكوميت الخاصة بنفسه ليوقع معاهدة دفاع مشترك مع الجمهورية العربية المتحدة تضع الجيش الأردني تحت قيادة ناصر الشاملة في حالة حدوث الحرب ، كل هذه الأمور لم تخدم سوى تثبيت إسرائيل بعزمها. وعندما أصبح «موشيه دايان» وزيراً للدفاع في اليوم التالي ، كان أول إجراء قام به هو إلغاء الخطة التي كانت قد وضعت من قبل بهدف محدد هو الاستيلاء على غزة ، وأصدر الأوامر بالتركيز بدلاً من ذلك لاستيلاء على شبه جزيرة سيناء كلها والوصول إلى قناة السويس .

مما كان سبباً في قيام الحرب العالمية الثانية . ومن المعروف أن إسرائيل كانت تشجع عن عبد الناصر انه هتلر جديد (المترجم) .

وبعد خمسة أيام شن الإسرائيليون هجومهم . ففي الساعة ٨٤٥ (بتوقيت القاهرة) من صباح يوم الاثنين الخامس من يونيو اندفعت أول موجة من طائرات الميراج والموسستير . لقد اختير اليوم والساعة بحرص ففي المعتاد كان الهجوم يتوقع دائماً عند الفجر حيث تكون الدفاعات في أقصى درجات اليقظة ، لكن بعد أربع ساعات تتحول هذه اليقظة الشديدة إلى حالة من الاسترخاء . وبما أن الرتب العليا تصل إلى مكاتبها في الساعة التاسعة صباحاً ، وقبلها بربع ساعة يكونون جميعاً في طريقهم إلى العمل حيث يقعون في زحام مواصلات القاهرة ، لكن الأهم من ذلك علمت المخابرات (الإسرائيلية) أن اجتماعاً على أعلى مستوى مقرر له أن يعقد صباح ذلك اليوم في سيناء ، وبالتالي فإن غالبية الوحدات القتالية سوف تكون بدون قادتها مؤقتاً .

وجهت أول موجة من ضربات الطيران أهدافها نحو عشرة مطارات في سيناء . وكان التوقيت مخططاً بمهارة ودقة بحيث تصل جميع الطائرات إلى المطارات في نفس اللحظة لتحقيق أكبر قدر من المفاجأة .

وقع الشطر الأكبر من طائرات القوات الجوية المصرية في المصيدة وهي رابضة على الأرض ، والحقيقة فإن طائرات التدريب الوحيدة كانت أربع طائرات غير مسلحة يقوم على قيادتها معلم وثلاث طلاب تدريب . وفي قاعدة أبو صوير قرب الإسماعيلية كان الطيارون المصريون يشربون القهوة عندما انقضت النفاثات الإسرائيلية ودمرت طائراتهم من طراز الميج وهو تقف مصطفة عند الممرات ، كما فجرت ثمان تشكيلات أخرى إلى قطع صغير بينما كانت متوقفة عند نهاية المدرجات في قواعد الطيران الأخرى .

وما كادت الموجة الأولى تصيب أهدافها ، حتى تلتها الموجة الثانية من ورائها ، وثالثة كانت في طريقها . وكان الإسرائيليون يديرون العمليات بطريقة لا تعقل وبسرعة طوال الوقت . ففي أقل من عشرة دقائق بعد عودتهم إلى قواعدهم يعودون للإقلاع مرة أخرى . وفي خلال ساعة من هجمتهم الأولى يكونون فوق الأهداف للمرة الثانية ، وبدلاً من القنوم مباشرة

من ناحية الشمال الشرقى ، كانوا يقومون بالهجوم من ناحية الغرب عبر الصحراء لمهاجمة قواعد الطيران حول القاهرة وهم يحلقون على ارتفاع لا يزيد عن عشرة إلى خمس عشرة متراً من سطح الأرض وذلك لخداع أجهزة الرادار . وكان الهدف هو القضاء على أكبر عدد ممكن من مقاتلات الميج ، وقاذفات القنابل بعيدة المدى ، وجعل الممرات غير صالحة للاستعمال .

ولمدة مائة وسبعين دقيقة ظل الإسرائيليون يضربون بعنف المطارات المصرية دون توقف . وخلال ذلك الوقت أمكن لهم تدمير ٣٠٠ طائرة من مجموع ٣٥٠ طائرة مقاتلة مصرية ، بما فى ذلك الثلاثين طائرة طويلة المدى من طراز قاذفات القنابل ت . يو ١٦ (T. U. 16) لقد كان حجم الكارثة مذهلاً وبدرجة لا تصدق . ففى أقل من ثلاث ساعات كانت قوات ناصر الجوية قد دمرت تقريباً بكاملها . أن حجم الهجوم الإسرائيلى المذهل - وكون أن طائراتهم كان تأتى من الغرب من ناحية ليبيا ، حيث كان لبريطانيا وللولايات المتحدة قواعد جوية هناك قاد المصريين لافتراض أن الطائرات البريطانية والأمريكية قد شاركت فى الغارات الجوية ، إذ بدا غير مفهوم أن يقوم الإسرائيليون وحدهم بسحق الطائرات الروسية النفثة ذات السمعة العالية الخاصة بالجمهورية العربية المتحدة فى مثل ذلك الوقت القصير .

لم يأخذ هذا الهجوم سلاح الطيران المصرى وحده على غرة تماماً ، بل كل إنسان فى القاهرة . ولقد سمعت أصوات طلقات المدافع المضادة للطائرات فى الساعة التاسعة صباحاً ، غير أن الناس لم يعبئوا كثيراً بذلك ، وتوجهوا كما اعتادوا إلى أعمالهم ، فقد كانت فكرة الحرب بعيدة عن أذهانهم تماماً . وبعد مرور ساعة بدأت صفارات الإنذار فى العويل . وفى نفس الوقت انطلق راديو القاهرة معلناً بياناً أن الجمهورية العربية « قد تعرضت لعدوان غادر » ، وكان ذلك أكثر العبارات التى أذاعها صدقاً ، لكن سرعان ما بدأت أجهزة الدعاية تعمل ، وانهال سيل من البيانات عن نجاح المصريين فى إسقاط أربعين... ثم خمسين... ثم ستين طائرة للعدو . وفى نهاية اليوم ادعت القاهرة أن نحو ١٣٠ مقاتلة إسرائيلية قد دمرت بالرغم من أن

صفارات الإنذار كان يتخللها هدير المدافع المضادة للطائرات، وازدحمت شوارع القاهرة بالناس ، وبعد كل بيان عن إيقاع المزيد من الخسائر كان الناس يهتفون مسرورين مبتهجين يعانق بعضهم بعضاً ، ولم يكن يدور فى بالهم أدنى فكرة عن حقيقة ما كان يحدث ، ولا حتى ناصر . إذ لم يعلم أن سلاح طيرانه قد قضى عليه إلا فى وقت متأخر من بعد ظهر ذلك اليوم ، إذ لم يجرؤ أحد على إخباره بذلك فى حينه . وفيما بعد روى - وهو حزين - كيف أنه قضى الساعات الحاسمة الأولى من الحرب وهو منكفى على الخرائط ليحدد الأماكن التى يأمر بالصمود الدفاعى فيها فى سيناء . ولم يكن قبل الساعة الرابعة من بعد الظهر عندما استجمع أحدهم شجاعته ليقول له : « لم تعد لدينا أى طائرات ! » .

وفى الساعة ٩١٥ (بتوقيت القاهرة) ، وعلى وجه التحديد بعد نصف ساعة من قيام النفاثات بإبادة القوات الجوية المصرية ، عبر سلاح المدرعات الإسرائيلى الحدود ، وبدأ يندفع نحو التحصينات المصرية فى خان يونس ورفع اللتين تقعان على مقربة من غزة ، واندفعت الدبابات الإسرائيلية إلى الأمام فى موجات تتقدمها وحدة مشاة ميكانيكية تسير مكشوفة فى سيارات نصف مجنزرة . وقد ساعدتها السرعة والتوقيت وقبل كل شئ المفاجأة على الاختراق ، وما أن اخترقت الحصون الدفاعية ، حتى بدأت المدرعات تزيد من سرعتها ، حيث اتجه أحد طوابيرها يمينا ليستولى على غزة بينما اتجهت الأخرى نحو العريش على الساحل وإلى القنطرة على قناة السويس . لقد استغرق الجيش الإسرائيلى اثنين وسبعين ساعة ليصل إلى القناة ، وانقضت النفاثات الإسرائيلية على المدرعات المصرية وعلى خطوط التموين والنقل وعلى المشاة بجراه كتلك التى قاموا بها ضد سلاح الطيار الجوى المصرى .

لقد كسب الإسرائيليون حرب الأيام الستة بكل نواياها واهدافها فى الساعات الثلاث الأولى ، ولأن من يملك السماء يملك الصحراء مهما كانت قواته الأرضية من القوة ، فقد فقدت الجمهورية العربية المتحدة ٧٠٠ دبابة روسية جديدة من طراز ٥٥ ت T.55 لم تستخدم بعد ، وما يزيد على ١٠٠

قطعة مدفعية سحقته النفاثات الإسرائيلية ، وامتألت رمال سيناء بحطام قطع المعادن المحترقة ، بعضها دمرته نيران المدافع ، والبعض الآخر أحرقه النابالم ، ففي ممر متلاً المتعرج تكومت مئات من المصفحات وعربات الجيب فوق بعضها البعض في تكدس مرورى غريب .

لقد تم التخطيط لهذه العملية بذكاء ، ونفذت بقسوة ، فرجال الصحافة الذين تمكنوا من الذهاب إلى الجبهة أجمعوا جميعاً على الثناء على يهود «الصابرا» العتاة من رجال الكوماندوز الذين حاربوا وفتحات الدبابات مكشوفة تحت النيران الثقيلة ، وبالمثل كان جهاز المخابرات الإسرائيلية البارع مدهشاً ، فقد توصل إلى معرفة الذبذبات اللاسلكية والشفرة الخاصة بكلمة السر لكل وحدة وفرقة ، بل وحتى أسماء وكنية الضباط ، واستمر يرسل لهم أوامر مدسوسة مما أدى إلى وقوع الكثير من الدبابات في مصايد، والبعض الآخر أرسل إلى مناطق البرية الشاسعة في مطاردات وهمية حتى فرغت من الوقود .

وفى وقت متأخر من ليل الخميس عندما وافقت الجمهورية العربية المتحدة على وقف إطلاق النار غير المشروط ، كان كل ما تبقى من جيش ناصر قدر ضئيل باستثناء الآلاف من المنسحبين فى غير نظام بعد أن هجرهم ضباطهم ، وهم يجرون أقدامهم جراً دون جدوى نحو الوطن ، وكثير منهم لم يكمل السير ، وتركوا ليلاقوا الهلاك من العطش والإرهاق فى حرارة الصحراء القاسية.

وفى مصر ذاتها استمرت الصحافة والإذاعة فى بث تيار لا يتوقف من الدعاية ، وهى تكرر باستمرار الرواية الخيالية تماماً بأن الطائرات الأمريكية من قاعدة « هويلس Wheelus » فى ليبيا ، وطائرات الكانبيرا البريطانية كانت تعمل جنباً مع سلاح الطيران الإسرائيلى . وفى يوم الجمعة الموافق التاسع من يونيو خرجت صحف القاهرة تحمل العنوان الرئيسى التالى : «الإسرائيليون يواجهون المزيد من الهزائم على كل الجبهات... الجمهورية العربية ترد الضربة .. » وتحت ذلك بينط صغير جداً جاء الاعتراف

الواقعي . قبول وقف إطلاق النار ! لقد أخفى الأمر كله عما حدث على الجبهة عن جماهير المصريين ، إذ لم يكن لديهم فكرة عن حجم الكارثة التي حلت بالوطن .

ولكن من وراء الأبواب الموصدة في منشية البكري لم يكن لهذه الحقائق القاسية أن تمر مرور الكرام ، فقد كان ناصر نفسه في حالة انهيار من جراء توالي هذه الأحداث المروعة ، فقد دمر سلاح طيرانه ، ولقى جيشه هزيمة في واحدة من أسرع وأحسم الهزائم التي عرفت حتى الآن ، كما أن الإسرائيليين على ضفاف قناة السويس نفس القناة التي انتزعها من بريطانيا العظمى بعد دفع ثمن مؤلم ، في حين لم يرفع الروس إصبعاً لمنع تقدم العدو . وكان الرأي العام العالمي بأجمعه يقف إلى جانب إسرائيل . كما أن أقرب أصدقائه تحول إلى الدخول في خصام معه . فقبل ذلك بأربعة أيام، كان يركب موجة النجاح ، واليوم كل شيء بناه قد تحطم تماماً . لقد كسبت إسرائيل وانتصر الرجعيون ! .

وقد تهامس بعض مستشاريه أن الوقت قد حان ليتقاعد ويدخل إلى طي النسيان ولو حتى لفترة . وكانوا جميعاً يعتقدون أن الأمل الوحيد هو إرجاع ساعة الثورة إلى الوراء ، وإن تَوَكَّلَ فطيرة المذلة ، وأن يتم الركوع تحت جناحي أمريكا ، لكن هذه الوصفة كانت شديدة المرارة لناصر لابتلاعها . وأن الأكرم له أن يستقيل، إذ قال وهو مرهق : « كان زكريا محيي الدين دائماً يريد التصالح مع أمريكا .. فإذا توصلنا إلى ذلك فالأفضل له أن يتولى المسؤولية بدلاً مني وله تمنياتي الطيبة» .

وفي الساعة السابعة من مساء اليوم التالي ظهر على الراديو والتلفزيون لأول مرة منذ اندلاع الحرب . وسرت الشائعات بالطريقة السرية كما يحدث في مصر أن شيئاً خطيراً يحدث ، وكان كل بالغ تقريباً في البلاد ينتظر سماع ما سيقوله الرئيس . وعندما ظهرت ملامحه التي تعودوا عليها على الشاشة ، وكان وجهه وجه رجل بلغ به التحمل أقصى درجة ، فقد كان يتعلم ببطء وهو يخرج الكلمات من فمه . فقد كان الفرعون المنكسر يقرأ من ورقة نصاً معد سلفاً .

فقد قال : « أيها الأخوة لقد تعودنا معاً في أوقات النصر وفي أوقات الضيق، وفي الساعات الحلوة وفي الساعات المرة أن نتحدث بقلب مفتوح ، ويخبر كل منا الآخر بالحقائق ... والآن لا نستطيع أن نخفي على أنفسنا أننا قد واجهنا نكسة في الأيام القليلة الماضية .. وأقول لكم الحق أنني راغب في تحمل المسؤولية بأكملها . لقد اتخذت قراراً أريدكم أن تساعدوني عليه » وبغضبه في الحلق كلما لفظ بالكلمات - « لقد قررت ان أسلم مهمتي كاملة ونهائياً وكل منصب وكل دور سياسي ، وأن أعود إلى صفوف الشعب لكي أؤدي واجبي معهم مثل أي مواطن آخر » .

ثم بعد ذلك عين زكريا محيي الدين كخليفته في الرئاسة ، وانتهى خطابه بالتعبير عن أمله أن تستمر الطبقات العاملة في حمل رسالة الثورة الاشتراكية .

وعلى غير العادة حدث شيء غريب لم يسبق له مثيل ، إذ بدأ الناس يتدفقون نحو وسط المدينة كحشد من النحل ، من كل شارع ومن كل بيت ، وكثير منهم سالت الدموع من عينيه وهم يهتفون : « ناصر... ناصر... ناصر لا تتركنا أننا في حاجة إليك » وفي أصيل ذلك اليوم الساخن بعد موجه الوجوه المعذبة ، كان هناك مشهد لا يمكن تصديقه . فقد تجمعت جموع غفيرة حول مبنى مجلس الأمة وهي تتغنى باسم ناصر ، بل حاول جمهور أكبر يعتقد المراقبون أن عدده يقرب من نصف مليون رجل أن يشق طريقه عبر الطريق الرئيسي إلى منشية البكرى . وقضوا ليلتهم خارج بيت وهم يلوحون بلافتات كتبت على عجل يرجونه فيها ألا يتنحي .

وعلى طوال الدلتا وعرضها استمر هذا المنظر المجنون الهستيرى ، ففي بور سعيد اضطر المحافظ أن يتوسل إلى الجماهير من خلال أجهزة الاتصال ليمنع كل الجمهور من السير إلى القاهرة موضحاً أن المدينة لو أفرغت من سكانها فإن الإسرائيليين سوف يحتلونها .

وعندما استعاد قوته بفعل ذلك التأييد العاطفي ، سحب ناصر استقالته في

اليوم التالي ، وعلى الفور زعمت أوروبا وأمريكا أن العملية كلها مصطنعة ومديرة لاستعادة هيبة سلطته المحطمة ، غير أن هؤلاء الذين يعرفون مصر لم يساورهم أدنى شك في إخلاص الجماهير ، قد كتب شاهد عيان خبير مثل إريك رولو Eric Rouleau مراسل صحيفة « لوموند » مؤكداً بشكل لا يقبل الشك تماماً : « لقد سافرت إلى شطر كبير من العالم ، لكني لم أشهد شعباً بأكمله وقد انغمس في حداد مثل هذا ويصرخون في ألم مثلما فعلوا .. لقد جاءتنى الإجابة من قبل أحدهم كان يريد في الصباح لناصر أن يستقيل .. وفي المساء كان يهتف أن يبقى ، إذ قال : «أن ناصر بمثابة الوالد بالنسبة لى .. قد يغضب الواحد منا مع أبيه ، ويوجه له النقد، لكن لا أحد يريد أن يذهب .. بدونه أنا أشعر بالضياع ».

أن مشهد جنازة عبد الناصر بعد ثلاث سنوات من هذا الحدث وضحت ذلك التفسير بوضوح.

الفصل الخامس والعشرون
آلام إعادة البناء

إن ما كان يتوقعه البعض بأنه نهاية إنجازاته قد تحول بعد ذلك إلى بداية جديدة ، غير أنها كانت بداية لنهايته .

فبالرغم من أن الجماهير صرخت فيه أن ينهض ويعود إلى السلطة إلا أن الصورة العامة لناصر كانت قد تشوهت بحيث يصعب إعادتها إلى ما كانت عليه . فقد تعرضت للتشريح المؤلم داخل الجيش نفسه ، بالإضافة إلى تصاعد الصراع السياسى بين جناح اليمين وجناح اليسار : بين هؤلاء الذين سعوا إلى إسراع الخطى نحو الاشتراكية العربية ، عاملين على زيادة العلاقات مع الاتحاد السوفيتى، وبين التكنوقراط الذين كانوا يرون أن الحل الأوحـد لكوارث الأمة هو إعادة العلاقات مع دول الغرب والتركيز على حل المشاكل الاقتصادية المتفاقمة والتي لا يمكن تركها على الرف .

أما بالنسبة للصراع على الزعامة السياسية الذى كشف الستار عنه خلال شهور عام ١٩٦٧ الحارة ، فقد تبلور إلى مواجهة بين جمال عبد الناصر وبين عبد الحكيم عامر . فعندما قدم عبد الحكيم عامر استقالته من منصبه كقائد عام للقوات المسلحة مثلما فعل عبد الناصر من رئاسة الدولة ، وذلك عندما وصل الإسرائيليون إلى ضفة القنال ، لم يطلب منه أحد العودة إلى منصبه . فمن ناحية الحقيقة كان العار قد ركبه بصفته القائد العام للقوات المسلحة ، والمسئول عن الكارثة مسئولية مباشرة ، غير أنه كان فى جلساته الخاصة يعبر عن اعتقاده أن « الرئيس » هو المسئول المباشر عنها . ولما كان غير متحمس بشدة لى يكون صاحب نظرية مثل ناصر، فقد كان يركز مجهوداته فى بناء قوة مصرية ضاربة أكثر من بذل مجهوداته لنشر الاشتراكية العربية . وبعد الدمار الذى جلبته حرب الأيام الستة ، بدأ كثير من الساخطين - خاصة من داخل الجيش - يتجمعون حول عامر . وفى نهاية المطاف وجد هذان الصديقان الحميمان : البكباشى والصاغ - اللذان

خططا ونفذا الثورة - وجدا نفسيهما في مواجهة كل منهما الآخر .

وكما كان يفعل أى بك من بكوات الممالك جمع عامر سرًا أتباعه الذى كان يسيطر عليهم فى « فيلته » بالدقى . وكانت الخطة هى استعادته ومجموعة من قيادة الجيش مناصبهم عن طريق قرار جمهورى مزور أثناء وجود عبد الناصر فى الخرطوم ليحضر مؤتمر القمة العربى . وكان من بين خططهم عزل عبد الناصر ، وإلقاء اللوم عليه وعلى الروس فيما يخص الكوارث التى لحقت بمصر ، ثم توجيه الدعوة إلى دول الغرب لتقديم المساعدة حتى يقف الوطن على قدميه مرة أخرى .

وقبل سفره بيوم ، كشف جهاز المخابرات - الذى طالما أنقذه من العديد من محاولات الاغتيال فى الماضى - عن خيوط هذه المؤامرة . عندئذ استدعى عامر إلى منشية البكرى لعقد اجتماع حاسم فى المكتب الذى طالما اجتمعوا فيه سويا خلال الخمس عشرة سنة الماضية ، وحتى الآن لم يكشف الستار عما دار بينهما . غير أن الصحف ذكرت أن عبد الناصر وهو «يعتصره الحزن والأسى » وجد من الضرورى إلقاء القبض على عبد الحكيم عامر وكذلك على خمسين ضابطا معه وأن يقدم جميعهم إلى المحكمة العسكرية .

فى البداية هدد عامر أنه إذا ما قدم للمحاكمة فإنه سوف يقدم دليلاً دامغاً يدين مجموعة كبيرة من الناس من بينهم عبد الناصر نفسه ، ثم حاول فيما بعد أن ينتحر ، غير الأطباء تمكنوا من إنقاذه ، ولما شعر أن تقديمه للمحاكمة العسكرية وهو على قمة قيادة الجيش عار كبير كان عليه أن يتصدى له ، فقد أقدم فى الرابع عشر من سبتمبر بعد أن خدع حراسه لوقت كاف - من أن يبتلع قنينة من السم وفى هذه المرة قضى نحبه .

تلك هى على أى حال الرواية الرسمية حتى وإن ترددت روايات أخرى فى النوادى والمقاهى . وفى كل الأحوال سواء كان عبد الناصر قد تخلص من صديقه أم لم يتخلص منه ، فقد ظل عبد الناصر مسيطرا على الجمهورية

العربية المتحدة وهي مقلمة الأظافر بنفس الطريقة التي ظل فيها الإسرائيليون يحتلون سيناء ويتحصنون في الخنادق على الضفة الشرقية لقناة السويس ، وخلال الشهور التي تلت أقسم عبد الناصر على استعادة الأرض التي فقدتها حتى ولو كان ذلك عن طريق حرب أخرى .

ولكى يضع الأساس لأحلامه ، كان مستعداً للتضحية بتسليم المزيد من استقلال الجمهورية العربية المتحدة لموسكو مقابل السلاح الروسي الذي كان في حاجة ماسة له لإعادة بناء جيشه وقواته الجوية من جديد .

لقد وضع الانتصار الإسرائيلي الروس في مأزق كبير ، فخلال أسبوعين من تاريخ وقف إطلاق النار ، طار المارشال زخاروف إلى القاهرة ليرى إنقاذ ما يمكن إنقاذه من ساحة الشرق الأوسط الروسية المحطمة ، ثم تلاه بودجورنى نفسه. قد توغل الروس بعمق في المستقبل المصرى لكى يقدرُوا هوة الخسائر ثم يغادرون. ومن أجل هيبتهم فى العالم العربى وفى كل مكان ، كان عليهم دعم ناصر بأى طريقة ، وهذا ما فعلوه عن طريق إرسال شحنات ضخمة من الطائرات والسلاح حتى أنه لم تمض غير شهور حتى استبدل العتاد العسكرى الذى استولى عليه الإسرائيليون خلال الحرب ، وكان الثمن الذى دفعته مصر هو تشديد القبضة الروسية عليها ، بالإضافة إلى زيادة فرض الرهونات على الاقتصاد المصرى الذى بات يئن تحت حمل ثقيل .

فى الماضى سئل مسئول حكومى رفيع المستوى ذات مرة هو يتناول الشاي فى النادى عما إذا كانت البلاد قادرة على تحمل تكلفة المشروعات الكثيرة والطموحة فى مجال التصنيع ، وفى المجال الاجتماعى والتي كان يخطط لها . فأجاب بأن الجمهورية العربية المتحدة مثلها مثل الرجل الذى يستدين من البنوك لبنى مجمعا سكنيا ، وبينما العمل قائم على قدم وساق ، وجد نفسه فى حاجة إلى سيولة مالية ، لكن ما أن اكتمل البناء حتى بدأ فى تأجير وحداته ، وبذلك تمكن من تسديد ديونه « ثم راح يعدد على أصابعه مصادر العملة الصعبة فى الجمهورية العربية المتحدة : إنتاج القطن ودخله

٣٠٠ مليون جنيه إسترليني ، ثم قناة السويس التي تحقق لمصر دخلاً قدره ٢٠٠ مليون جنيه إسترليني ، ثم البترول ودخله ١٠٠ مليون إسترليني ، ثم السياحة ودخلها ٥٠ مليون إسترليني فيكون المجموع من دخل العملات الصعبة هو ٦٥٠ مليون إسترليني ، وهو مبلغ كاف لسد حاجة البلاد في الأحوال العادية ، ثم أنهى حديثه بابتسامة الواثق من نفسه حدث ذلك عام ١٩٦٥ « مع العلم يجب أخذ تلك الأرقام بتحفظات » أما الآن ونتيجة لأحداث ١٩٦٧ ، فقد رهن محصول القطن لروسيا لسنوات قادمة ، أما قناة السويس فقد أغلقت ، وشركات البترول لم تعد قادرة على العمل (بعد أن وقعت حقول البترول في سيناء في أيدي الإسرائيليين) كما توقف السواح عن المجئ . ولمواجهة فقدان هذه المصادر من الدخل في ضربة واحدة فقد تطلب ذلك تحمل نوع خاص من المسؤولية وهذا ما فعله عبد الناصر ، فقد اضطرت الجمهورية العربية المتحدة إلى تعليق الكثير من المشروعات الصناعية والتجارية ، وراحت حرفياً « تتسول » بمعنى الكلمة المال من الدول العربية الأخرى .

لقد بنى ناصر مصر الحديثة ، لكنه في النهاية هو الذي دمرها ، لقد انتزع استقلال بلاده من براثن بريطانيا ، غير أنه سلم هذا الاستقلال طواعية إلى روسيا ، لقد طرد البريطانيين ليحل محلهم السوفيت ، لقد جعل المصريين يفخرون بأنهم مصريون ، لكنه قادهم في حرب فاشلة في اليمن ، وتسبب في هزيمتهم على أيدي الإسرائيليين الذين وصل جيشهم إلى ضفاف القناة .

في عيون أي مفكر مصري كان ناصر مأساة في حد ذاته ولكن بالرغم من ضخامة حجم فشله ، فقد ظل الأب الموقر للجماهير التي لا تزال تعبدوه ولقد عبر لي طالب بكلية الزراعة في جامعة القاهرة يبلغ من العمر خمس وعشرين عاماً بقوله : « أنا شخصياً كنت أتمنى أن آخذ بندقية وأطلق النار عليه لو تحققت لي الفرصة لكن بالرغم من ذلك عندما سمعت بموته ، بكيت عليه » قلت له لماذا ؟ فرد قائلاً : عند يموت الإنسان عليك دائماً أن تذكر محاسنه فلقد كان ناصر شخصيته ديناميكية ، وكان رمزاً لحركة المقاومة العربية فهو الذي أعطانا الشعار والرغبة « لكي نرفع رءوسنا وأن نكون

فخوريين لكوننا مصريين « أننى أعجبت بالشعار بالرغم من كراهيتى للرجل».

وبالرغم أنه لا يبعد بينه وبين طبقة الفلاحين فى صعيد مصر سوى جيل واحد ، إلا أن ناصر أطلق العنان لأمانى الجماهير العريقة المكبوتة التى عبرت عنها أشعار أحمد شوقى ، وموسيقى عبد الوهاب وأغانى أم كلثوم، وروايات طه حسين ، وكأنه قام بترجمتها من كلام إلى عمل إيجابى وتاريخى . لقد كان شخصية محورية فى العالم الثالث غير المنحاز ، إذ فاق بقامته وهامته كل معاصريه . وبسبب كونه بالتحديد على خلاف كبير معهم، فقد جعل الوداد مع جيرانه أمراً محالاً . لقد كان الزعيم العربى الأوحى الذى كان له الوقار القادر على تحقيق السلام مع إسرائيل ، لكنه لم يفعل فى الأسابيع الأخيرة من حياته للتوصل إلى حل يضع نهاية للصراع العربى - اليهودى الذى لا نهاية له .

ولقد كان آخر أعماله السامية هو سبر أغوار العداء بين ياسر عرفات والملك حسين . ولسخرية القدر جاءت وفاته نتيجة لأزمة قلبية فى ٢٩ سبتمبر ١٩٧٠ بينما كان يودع ضيوفه فى مطار القاهرة .

وقد أحدثت وفاته ربكة «عبر العالم بقدر ما كانت تحدثه ضربات المعلم» التى أحدثتها فى حياته .

الخاتمة

رحيل الفرعون

شقت الجماهير طريقها إلى القاهرة ، جاءت فوق أسطح القطارات وفي الحافلات التي تكدست بهم بطريقة تعرض حياتهم للخطر وفوق الجمال والبغال وعربات الكارو التي تجرها الحمير ، فمن كل محافظة تدفق عامة الناس وقد اعتصرهم الحزن ، يتزاحمون بمئات الآلاف في طريقهم إلى العاصمة من أجل المشاركة في جنازة الرجل الذي كان يعرفونه باسم «الرئيس» وعلى قرع الطبول الجنائزية ناحت أصوات الملايين على طول طريق الركب الجنائزي الذي بلغ عشرين كيلو مترا وهم يرددون : ناصر... ناصر... أما رؤساء الدول الثماني عشر ومئات الوفود الأجنبية الذين كانوا يسيرون خلف عربة المدفع التي تجرها الخيول ، فقد كادوا يسقطون تحت الأقدام أمام ذلك البحر الهائج المزمجر بالبشر . ولقد قال جاك شابان دالماس الفرنسي Jacques Chaban Delmas والذي كان يوماً عضواً في فريق الرجبي لكرة القدم « لقد بدوت كما لو كنت قد وقعت وسط اضطراب عظيم». فمنذ موت آخر الفراغنة منذ ألفين وثلاثمائة عام مضت لم تشهد مصر جنازة تأخذ بالقلوب والألباب مثل هذه الجنازة . أن هذا الحزن الذي لا حد له من هذه الملايين العديدة كان بمثابة تأكيد نهائي لسيطرة قبضة ناصر غير العادية على مشاعر الملايين .

لكل أمة نصيبها من الرجال العظام ، غير أن العالم يعرف كيف يسير أموره بعد رحيل هؤلاء العمالقة . لقد أسدل الستار عن عصر ناصر ، وبهدوء تشجع صديقه القديم أنور السادات على ارتداء عباءة الرئاسة ، وبهدوء أيضاً بدأ يراجع بعض ملامح الناصرية المتطرفة ، وبدأت مشقة صعود النل لكي يصلح علاقاته الدولية ، محاولاً استعادة الأرض السليبية ، محققاً الاستقرار الداخلي ، بينما العالم يمسك أنفاسه حول الآمال التي عقدت لتحسن الأمور في الشرق الأوسط .



جنازة الرئيس عبد الناصر تعبر عن الحزن القومي ولم
تعرف مصر جنازة بمثل هذا الحجم منذ جنازات الفراعنة



حتى عندما شرع هو ورفاقه في إعادة النظام من حالة الفوضى لابد وأنهم كانوا يعكسون قول بول فاليري Paul Valery المأثور وهو « الرجل العظيم هو الذي يخلف من ورائه أولئك الذين يتبعونه في المصاعب Great man is he who leaves behind those who Follow him in difficulties

فبالرغم من ضخامة أعماله المبكرة فإن سنوات حكم ناصر العملاقة لم تبعد الكارثة عن مصر ، إذ ترك بلاده ذات التاريخ العريق تصارع حالة الفوضى وهي بين براثن الروس بعد أن ذهب مع الرياح دخلها من العملة الأجنبية ، وبعد ان أصاب قواتها المسلحة الخزي والعار ، تاركاً شعبه يسير مقهوراً تحت مظلة الأوامر الدكتاتورية ومع وجود العدو يدق على الباب.

وبالرغم من كل ذلك فهو لا يزال في نظر الجماهير من أبناء وطنه أعظم مصري منذ أيام الفراعنة.

هوامش الكتاب

- (١) فى عام ٩٦٩م أرسل المعز الخليفة الرابع فى الأسرة الفاطمية المنشقة (التي استولت منذ عام ٩٠٩م على الساحل البربرى من فاس حتى الحدود المصرية) جيشاً تعداده ١٠٠,٠٠٠ رجل تحت قيادة العبد الصقلى جوهر ضد مصر . وألحق جوهر بالحكام الإخشيديين هزيمة عند الجيزة فى نفس المكان الذى حقق فيه نابليون انتصاره على المماليك بعد ثمانية قرون . وعلى الفور شرع فى بناء ووضع أساس المدينة والقصر للخليفة، حيث اختار موقعا على أرض مرتفعة إلى الشمال من الفسطاط التي كانت حتى ذلك الوقت عاصمة لمصر . ويروى المؤرخ العربى المقرئى أن جوهر قام بنفسه بتخطيط المساحة التي بلغت ١٢٠٠ x ١٦٠٠ ياردة وجعل بين قطريها أجراسا معلقة فى الحبال . وكان القصد منها أن يقوم العرافون والمنجمون بدق الأجراس عندما تظهر العلامات أن اللحظة المناسبة قد جاءت لوضع حجر الأساس . ولكن الذى حدث أن حطت حدأة فوق أحد الجبال مما أعطى الإشارة ، فساد الرعب عند المنجمين (وظهور الحداء هذه منتشرة فى القاهرة حتى اليوم ، وقد تنقض فجأة وتختطف الطعام من وعائك إذا ما كنت تتناول طعامك خارج المنزل) وعلى أى حال ما أن أعطيت الإشارة حتى بدأ حفر الأساس وكان كوكب المريخ - القاهرة - كوكب الحرب والصراع فى صعود ومن ثم أعطيت المدينة الجديدة اسم القاهرة بدلا من اسم المنصورية كما كان قصد بها أصلا . ومن ثم فقد احتفل بألفية القاهرة عام ١٩٦٩م .
- (٢) كلمة « الأغا » تعنى حرفياً « الأخ الكبير » ، حتى بعد ان بقيت ارتباطات المدرسة العسكرية قوية بين «الأغا» والأينى Ini الذى حمل فى بعض الأحيان اسم « الأغا» .
- (٣) عرف السلطان قلاوون باسم « الألفى » لأنه ثمنه كان ألف دينار ، بينما على الجانب الآخر بيع « بيسرس » بأربعين دينارا بسبب وجود حول طفيف فى إحدى عينيه بينما بيع مالمكتمار Maliktmr بـ ٥٠٠٠ دينار بسبب جمال هيأته المذهل .
- (٤) ربما اقرب مقارنة للمملوك بدرجة أمير أو بك هو البارون فى أوروبا العصور الوسطى .
- (٥) كان الشذوذ الجنسى شائعا بين المماليك ، وربما كان النظام كله إلى حد ما يقوم على ذلك كما لاحظ نابليون .
- (٦) يميل أغلب المؤرخين الجادين إلى استبعاد حكاية القفزة الدرامية ، كخرافة . غير أن جيوفانى فينيتى Giovanni Fineti الذى كان حاضرا ساعة المذبحة يقول : « هناك زعيم آخر اسمه أمين بك الذى كان شقيقا للألفى حث حصانه النبيل الذى كان يمتطيه بأن يقوم بحركة يائسة كبيرة بأن نخسه حتى جعله يتسلق المتاريس ، مفضلا أن يرتطم بالأرض ليتمزق إلى قطع على أن ينبج غدرا ، فدفعه لأن يقفز إلى أسفل الجرف من ارتفاع يقدر

ينحو ٣٠,٠٠ قدم وربما أكثر، غير أن الحظ حالفه حتى أنه بالرغم من أن الفرس مات عند سقوطه، إلا أن راكبه نجا. وكان هناك معسكر للجنود الألبان أسفل المكان، وكانت خيمة أحد الضباط قريبة من المكان الذي قفر منه، وبدلاً من أن يبتعد عنه، اقترب منه وألقى بنفسه طالباً منه حق الضيافة متوسلاً إليه أن لا فائدة ترجى منه، وقد منحه الضابط حق العفو بل قدم له حق الحماية، وحتى ولو كان في ذلك خطر عليه، وأبقاه مختفياً طوال استمرار الغضب الشعبي وتعديات الجنود. بل أن فينيتي Fineti ادعى أنه رأى أمين بك بعد ذلك بسنوات في سوريا .

(٧) وهذا يعنى فى الحقيقة أنه مات من جراء وباء الطاعون أو ترك فى النهاية لكى يعود إلى موطنه .

(٨) أن توافق إعلان محمد على للقنصلين الفرنسى والبريطانى أنه ينوى إعلان استقلاله مع قرار الباب العالى بطرده من سوريا دفع محمد على للدخول فى حرب مع العثمانيين .

(٩) افتتح فى عام ١٨٥٦ خط السكة الحديد بين القاهرة والإسكندرية وكان الأول من نوعه فى أفريقيا . تلاه رأس كولونى Cope Colony عام ١٨٦٠ ، ثم افتتحت سويسرا والدانمارك أول خط لها عام ١٨٤٤م ، وأسبانيا عام ١٨٤٨ والسويد عام ١٨٥١ ، والنرويج عام ١٨٥٣ والبرتغال عام ١٨٥٤ وجاءت كل من تركيا واليونان بعد مصر (١٨٦٠ وعام ١٨٦٩) . وبينما اكتمل خط الاتحاد الباسيفيكي عبر القارة عبر شمال - أمريكا عام ١٨٦٠ .

(١٠) ومع اقتراب القرن التاسع عشر تغير ميزان القوى بين الغرب والشرق بشكل كبير حتى أصبح لدى الأوربيين فى ذلك الوقت احتمالات أكبر للتدخل .

(١١) وقبل ذلك بشهر أسر سعيد إلى السير هنرى بلور Sir Henery Bulwer فى القسطنطينية بئذمه على تبديد ثروة بلاده (ف . يو . بلور F. U. Bulwer راسل Russell ١٥ ديسمبر ١٨٦٢) .

(١٢) جاء فى مسودة خطاب كتبته زوجة فردى Verdi فى أغسطس عام ١٨٦٩ تؤكد فيه موضوع طلب إسماعيل لعزف ترنيمة Hymn وليس عمل أوبرا . وثم فإن الرواية المعتادة عن أصول أوبرا عايدة غير حقيقية (Frank Walker, The man Verdi, p278) وبالرغم من ذلك فقد كان لدى الخديو النية فى إنجاز أوبرا وطنية - كما كتب بذلك درانهت بك Draneht Bey إلى فردى : « فى المستقبل سوف تصبح أسعد ذكريات حكمه » . وفى البداية رفض فردى ، ولكن عندما كتب مارييت باشا من خلال وساطة كاميل د لوكل Camile du locl أن إسماعيل اقترح : « طرق باب آخر .. » كانت هناك فكرة لتكليف جوند Gound بل حتى فاجنر Wagner ، ولو قبل الأخير القيام بها فربما أنتج شيئاً أكبر Grandiose لأن هذا المؤلف الموسيقى كانت عواطفه متغيرة . غير أن الشروط الذى كانت

بالتأكيد تتناسب الأمير . فقد حددت دفع ١٥٠,٠٠٠ فرنك مع احتفاظ فردى بكل حقوق العرض خارج مصر . وأخيراً افتتح أول عرض لأوبرا عايدة في القاهرة في ٢٤ ديسمبر عام ١٨٧١ في حضور الخديوى . وللأسف فقد نمرت دار الأوبرا تماماً بسبب حريق حدث في ٢٩ أكتوبر عام ١٩٧١ في ما يكاد يتفق مع مرور مائة عام على بنائها .

(١٣) هذه الأرقام مأخوذة عن كتاب السير جورج يونج: Sir George Young مصر (ص ٨٤) مع استبعاد قرض عام ١٨٧٩ الذي لم يكن إسماعيل مسئولاً عنه كليه ، وأرقام الأموال التي استدينت وتسلمت تقدر عادة ما بين ٦٨ مليون إسترليني و ٤٧ مليون إسترليني.

(١٤) وقبل ذلك بعشر سنوات في يناير عام ١٨٦٥ كانت الليدى دى Lady Duff قد كتبت في مؤلفها، خطابات من مصر ١٦٦٣ - ١٨٦٥ (Letters From Egypt 1863 1865) تقول : «في الأسبوع الماضى كان الناس يلعنون إسماعيل في شوارع أسوان وكل إنسان كان يعبر علنا عما يعتقد . وكان الكرباج ينزل على ظهور وإقدام جيراني طوال الصباح . لقد وصل نظام الإبتزار والاستغلال الجماعى حداً من الصعب الذهاب أبعد منه » . وقد عاشت لوسى داف جوردون Lucie Duff Gordon لسنوات طويلة في الأقصر في بيت بناءه سولت Salt القنصل البريطانى العام فوق قمة معبد خيم Khem . وملاحظاتها هامة لأنها كانت الإنجليزية الوحيدة التي عاشت فعلاً في الريف ووصفت ما كان يحدث فيه . وفي عام ١٨٦٧ في آخر الخطابات من مصر Last Letters From Egypt كتبت : « لا أستطيع وصف البؤس هنا . فكل يوم تفرض بعض ضرائب جديدة . إذ كان على كل حيوان: جمل، بقرة ، غنم ، حمار ، فرس أن يدفع . لم يعد الفلاحون قادرين على تناول الخبز، أنهم يعيشون على طعام الذرة المخلوط بالماء والخضراوات الطازجة والجلبان... إلخ . أن الناس في مصر العليا يهربون بالجماعات ، لأنهم غير قادرين تماماً على دفع الضرائب الجديدة وتنفيذ العمل الموكل إليهم. حتى هنا (في القاهرة) فإن الجلد بسبب الضرائب السنوية شئ مرعب .

(١٥) لقد عرضت الملكة فكتوريا على دزرائيلى Dieracli وسام الجارتر Garter أو الدوقية، ومنح عضوية مجلس اللوردات على شقيقه أو ابن أخيه . فرفض كل ذلك ما عدا وسام الجارتر . وعلى أى حال لم يكن جلادستون سعيداً وأعلن إدانته لمؤتمر قبرص ووصفه بأنه « اتفاق مجانين (Insane Covenant) » ونسوع من النفاق « ذى الوجهين act of duplicity ، وقد رد دزرائيلى على ذلك بعبارة من الذم الشهيرة التي أفصح عنها خلال مائدة عامة وصف خلالها جلادستون بأنه «خطيب معقد مخمور بفعل غرور الأطناب الذي يتسم به» . (انظر بليك دزرائيلى ص ٦٤٩ - ٦٥٠ . Blake , Disraeli. pp. 649 - 650).

(١٦) بالرغم من أن اسمه يكتب عرابى Arabi في المصادر الإنجليزية إلا أنه الكلمة العربية المعروفة هي عرابى Orabi .

(١٧) لم يكن الموظفون البريطانيون ، خاصة عندما تزايدت أعدادهم أكثر فأكثر أكفاء بدرجة

ثابتة، بل كانوا يتصفون بعدم اللباقة .. إذ كانت التقاليد الأنجلو هندية التي استوردت إلى مصر والتي تنظر إلى الشرقيين على أنهم مخلوقات أدنى درجة وضعفاء بالمفهوم الأخلاقي، ولا أمل في إصلاحهم لأنهم غير متجاوبين للرحمة ، وأنهم لا يستجيبون إلا «لليد القوية» ولا يكونون أى مشاعر مشتركة من التعاطف بين الرسميين البريطانيين وزملائهم المصريين « جون مارلو: كرومر في مصر John Marlowe, Cromer in Egypt » .

(١٨) كتب اللورد سالسبوري Lord Salisbury الذي تولى وزارة الخارجية في يناير عام ١٨٨٧ إلى هنري درموند - وولف Henry Drummond - Wolff يقول: « أننى من قلبى كنت ، أتمنى إلا نذهب إلى مصر .. غير أن المشاعر الوطنية ومكاسبنا قد أثرت ، لقد تذوقنا لحومهم ولن ندعهم يذهبون » : « الليدى جفيندولين سيسل : حياة روبرت ماركيز أوف سالسبوري ، مجلد ٤ ، ص ٤١) .

Lady Gwendolen Cecil, Life of Robert Marquess of Salisbury, Vol. IV, p41.

(١٩) قام السير كولن سكوت مونكريف Sir Colin Scott Moncrieff بإصلاح القناطر شمال القاهرة ، وكان المخطط الأول لعدد من الإصلاحات الخاصة بالرى على طول البلاد والتي كان من نتائجها التزايد المستمر فى إنتاج مصر الزراعى ، والأكثر من ذلك إثارة للإعجاب جاء خزان أسوان الذى اكتمل بناؤه عام ١٩٠٣ بناء على تصميم السير وليام وليكوكس William Wilcocks بتكاليف تقدر بـ ٣,٥٠٠,٠٠٠ مليون إسترليني تقريباً مما ساعد على تخزين جزء من فيضان النيل لأغراض الرى ، وبذلك حول على الأقل ربع مليون فدان إلى الرى السنوى ليعطى محصولين بل ثلاثة محاصيل سنوياً .

- (٢٠) التحفظات المعنية هي : ١- تأمين خطوط المواصلات للإمبراطورية فى مصر .
٢ - الدفاع عن مصر ضد العدوان أو التدخل الأجنبى سواء كان مباشراً أو غير مباشر .
٣ - حماية المصالح الأجنبية فى مصر وحماية الأقليات .
٤ - السودان .

(٢١) كان أحد الأسباب الأكثر أهمية لاتخاذ القرار لإعادة فتح السودان هو تأثير هزيمة الإيطاليين فى موقعة عدوة .

(٢٢) فى ضوء التفوق البريطانى فى قوة النيران لم يكن حجم الخسائر المتوقع يدعو للدهشة . ويمكن الاستشهاد بما قاله الكابتن بلود Captain Blood كشاهد على معركة أم درمان:

لقد وقف على تل صغير
وتلفت من حوله بعينيه الكسولتين
وقال تحت أنفاسه
مهما يحدث فلدينا أكبر قدر من البنادق
أما هم فليس لديهم شئ منها

(هيلير بيلوك : مسافر عصري
(Hilaire Belloc: A modern Traveller

(٢٣) كان من المعتاد لشركات الأعمال أن ترسل برقيات لها عادة مشفرة بنتللي رقم ٢ Bantleys
. Number Two

(٢٤) تحولت هذه المأدبة التي أقيمت بمناسبة زواج ابنة عمي إلى أن تكون ذات أهمية تاريخية .
فخلالها جاءت الأتباء إلى كبير مهندسي القوات البريطانية في مصر بأن الاندفاع الألماني
قد أوقف على مقربة من الإسكندرية وبناءً على ذلك أوقفت التعليمات التي كانت قد صدرت
له من قبل بفتح أهوسة بحيرة مريوط وإغراق الإسكندرية .

(٢٥) في ٧ مايو عام ١٩٤٦ عرض رئيس الوزراء المستر آتلي سحب كل القوات البريطانية من
الأراضي المصرية ، ووضع حلول عن طريق المفاوضات لمراحل وتاريخ اكتمال هذا
الانسحاب ، وأن تقوم الحكومة المصرية بالتفاوض لجعل إمكانية المساعدة المشتركة في
زمن الحرب أو التهديد الوشيك بالحرب طبقاً لشروط التحالف H. C. Deb 5th Series,
Vol. 423 Cols. 774 ولسوء الحظ انهارت المفاوضات من خلال المعارضة وعدم الثقة
بين كل من إنجلترا ومصر ، وقد زعم اللورد «ستانسجيت» Lord. Stansate فيما بعد أنه
«لو كنا قادرين على إعلان أنه في المستقبل لن تبقى القوات البريطانية في مصر إلا
بالموافقة المصرية لكنا قد عقدنا المعاهدة خلال شهر» . R.11 A. Information Papers
No. 19, P.88.

(٢٦) كما ذكر ناتنج Nutting فيما بعد : كان آخر شيء كان يدور في رأس ناصر خلال أي
مرحلة من مراحل أزمة السويس أن تجازف كل من فرنسا وبريطانيا بتدمير أي أثر
لتأثيرهما وسمعتهما في العالم العربي باستخدام إسرائيل كنزيرة للاستيلاء على القناة
بالقوة» . Anthony Nutting Nasser p. 148.

دراسة نقدية موجزة
عن
مصادر الكتاب

المقدمة:

لا يوجد نقص في المؤلفات عن نابليون ، وفي كل موسم يظهر الجديد منها. لكن العمل المعيارى في هذه المرحلة بالذات من تاريخ نشاطه هو كتاب هويلر وبرودلى . Wheeler and Broadly: Napoleon and the Invasion of England (London 1908) وفي لهجة أخف كتاب : Carola Oman : Britain Against Napoleon (Faber 1947) فهو ملئ بالتفاصيل الطريفة . كذلك فأن كتاب دف كوبر : توليران ، جدير بالقراءة Duff Cooper : Toleyrand (Cape 1932),

أما عن الروايات الفرنسية فقد اعتمدت اعتماداً أساسياً على مؤلف : Michelet et la Jonquiere massive : L Expedition en Egypte (Paris 1899).

لكن على الباحثين الجادين الرجوع إلى Correspondence indite, officielle et Confidentielle de Napoleon Bonaparte: Egypte (Paris 1810 - 1820).

والذى منه نقلنا نص خطاب نابليون إلى تاليران (Vol.II, p. 235) . أما ملاحظاته إلى ميوت Miot فقد أخذتها عن : Jacques Francois Miot : Memoirs Pour Servir a L histoire des expeditions en Egypte et en Syrie (Paris 1814).

* * *

الفصول من ١ - ٣:

أن أكثر الروايات المعاصرة قيمة لأحداث هذه الفترة في مصر هو بكل تأكيد ذلك العمل الهام الذى كتبه الشيخ عبد الرحمن الجبرنى : عجائب الآثار فى التراجم والأخبار .

والذى ترجم إلى الفرنسية تحت عنوان : مذكرات قاطن في القاهرة
(لـ ٩ أجزاء ١٨٨٨ - ١٨٩٦) :

Le Journal d un habitent du Caire (5,vols, Cairo 1888 - 96)

ولد الشيخ الجبرتي في مصر عام ١٧٥٤ . وهو أصلاً من « زيلع »
على الساحل الأفريقي من خليج عدن ، وقد استقرت أسرته في مصر منذ
سبعة أجيال ، وكان جده الأعلى الشيخ علي ينظر إليه كولي من أولياء الله
الصالحين لدرجة أن ضريحه في ادفو كان يقصده الحجاج ، أما والد الجبرتي
فكان معروفاً كأعظم فقهاء اللغة العربية في أيامه ، تاركاً مكتبة يستعير منها
من يريد بالمجان . وكان عبد الرحمن نفسه عالماً وواحداً من أبرز شيوخ
الأزهر ، وقد سجل يومياته من ١٧٨٠ حتى عام ١٨٢٠ (.) عندما اغتيل
بناءً على أوامر من محمد علي - كما قيل - عندما كان يمتطي حماره
قاصداً بولاق ، ولأنه قد اختير لعضوية الديوان ليخدم في الديوان العام أو
الحكومة المحلية التي أقامها بونابرت بمساعدة أعيان المسلمين فقد كان في
مكانة جيدة تؤهل له معرفة ما كان يحدث . فالمجلد السادس (..) من
تواريخه يعطينا وصفاً يومياً ليوم للاحتلال الفرنسي كما يرى من العيون
المصرية ومن أبرز ما فيه أن شطر كبيراً منه قد اهتم بالشكاوى عن منهج
الفرنسيين « في التعايش السلمي » .

وهناك مصدر آخر معاصر : هو نقولا بن يوسف المعروف باسم نقولا
الترك الذي ترجم مؤلفه : حولية مصر « ١٧٩٨ - ١٨٠٤ من العربية
جاستون فييت Gaston Wiet ونشر في القاهرة عام ١٩٥٠ (....) .
ومن الأعمال الحديثة وأكثرها تدقيقاً بكل تأكيد مؤلف «هيرولد» المفعم
بالحيوية والمدعم بالوثائق : يونابرت في مصر Bonaparte in Egypt,

(٠) التاريخ المحدد لوفاة الجبرتي ١٨٢٤ (المراجع) .

(٠٠) لعله يقصد المجلد الثالث (المراجع) .

(٠٠٠) عنوان المؤلف بالعربية « ذكر تملك جمهور فرنساوية الأقطار المصرية والبلاد

الشامية » (المراجع) .

(1963) Hamish .

كذلك يجب إلا يفوتنا مؤلف : الآن مورهيـد The Blue

Nile (Hamish Hamilton 1962)

وقد طبع الآن فى سلسلة Paperback

أما مؤلف ستانلى - لين بول Stanely Lane - Pool

History of Egypt in the Middle Ages

فهو يعطينا قدراً كبيراً من المعلومات عن المماليك . ولكن للحصول على دراسة تفصيلية للمماليك يجب الرجوع إلى مؤلف ديفيد أجالون :

David Agalon : L Eslavage du Mamelouk.

أما عن وصف نابليون للقاهرة فهو مأخوذ من مذكراته التى كتبها فى سانت هيلينا St Helena ، أما عن انطباعات الملازم مورجان مورجان كليفور د Lieut Morgan Morgan Clifford فقد نقلت من مؤلفه :

Egypt: Joural of a young officer of the 12th light dragoons (Privately printed 1802).

* * *

الفصول من ٤ - ٥ :

صدرت أول طبعة من كتاب إدوارد وليام لين عام ١٨٣٦ (.) .

Edward Wiliam Lane: Manners and Customs of The Modern Egyptians (1836).

والآن هو متاح فى طبعة (no. 315) Everyman Library . وقد وصفه ابن شقيقه ستانلى بول Stanlay Poole بأنه أكثر الصور اكتمالاً لحياة شعب كتب على الإطلاق ، والذي لا شك فيه أنه العمل المثالى عن مصر فى عصر محمد على وبالرغم من أن لين Lane نجح فى الاختلاط بعامة الناس فى القاهرة ومشاركتهم فى حياتهم اليومية ، إلا أنه كان مراقبا نزيها ،

(*) ترجم هذا المؤلف إلى العربية انظر هامش ص

ونماذج الحياة التي يصورها لا تزال في الإمكان التعرف عليها في ريف مصر حتى اليوم . وقد اعتمدت عليه في حكاية أو اثنتين رائعتين وفيما عدا ذلك ، فإن أقيم الكتب عن محمد علي كتاب هنري دودول Henry Dodwell (The Founder of Modern Egypt (Cambridge University, Press 1931) وكذلك كتاب شفيق غربال : « بدايات المسألة المصرية وصعود محمد علي » .

The beginings of the Egyptian Question and the rise of Mohamed Ali (Routledge 1928).

أما عن وصف وليام تيرنر Wiliain Turner فهو مأخوذ من مؤلفه Tour of the Levant (Published in 3 volumes 1820) ، أما عن وصف شاهد العيان لمذبحة المماليك بقلم جيوفاني فينيتي فقد نشرها جون موري John Murray عام ١٨٣٠ . أما عن وصف الحياة في مصر فقد كتبه عضو البرلمان الإنجليزي السير جون بورنج John Bowring في تقريره .

Report on Egypt and Candia (Parlimentary Papers 1940 vol. XXI).

كذلك فإن رسالة الدكتوراه التي قدمتها هلين أ. ريفلين

Helen A. Rivlin: The Agricultural Policy of Mohammed Ali in Egypt O.U.P1953. جديرة بالرجوع إليها .

* * *

الفصل السادس :

قليل من المؤرخين خصصوا أكثر من فقرة أو فقرتين عن عباس . وأفضل المعلومات التي استطعت العثور عليها وجدتها في كتاب « ادوين دي ليون (Edwin de Leon : The Khedives Egypt (New york 1877) كان دي ليون قنصل أمريكا في القاهرة لأكثر من ثلاثة عقود ، وهو يعطينا وصفاً مسلياً للحياة الاجتماعية في دوائر القصر خلال عصر عباس ، وسعيد ، وإسماعيل ، وأغلب رواياتي أخذته عنه .

ففي عصر سعيد كن هناك تدفق كبير للأوربيين وبالتالي كان هناك فيض

من المؤلفات بالإنجليزية والفرنسية منذ ذلك الوقت فصاعداً بالرغم من أن المصريين أنفسهم بصرف النظر عن قصائد المديح التي كان القصر يوحى بها ، وبعض الصفحات ذات الطابع الوطني التي كانت تتداول في الخفاء - اختاروا البقاء صامتين ، والحق يقال ، لم يكن أمامهم إلا اختيار ضئيل ، ومما قدمه الإنجليز من مؤلفات فان D. A. Cameron قدم مادة طبية في كتابه:

D. A. Cameron : Egypt in the 19th Century (London 1958)

غير أن أكثر الكتب التي وجدتها إفادة هو كتاب :

Sir George Young : Egypt (Benn 1927).

فهذا المحامي البارز الذي جمع المصادر القانونية عن الدولة العثمانية ما بين ١٩٠٥ - ١٩٠٦ ، يعتبر أحياناً من الموالين (في رأى الأنسكلوبيديا بريتانیکا مثلاً . Encyclopedia Britannica) غير أن ملاحظاته اللاذعة بالنسبة لى غالباً ما تلقى ارتياحاً وترحيباً بدلاً عن النفاق والغلو في الوطنية من جانب الكتاب الآخرين الكثيرين .

* * *

الفصل السابع :

كتب فرانسواز شارلر رو Francois Charles Roux - مؤرخ حياة دي ليسبس والمدير السابق للشركة العالمية لقناة السويس - التاريخ الرسمي لقناة السويس . وبالرغم من انه عمل مثير للإعجب لكنه رواية من جانب واحد . ولذا فضلت الأعماد على المؤلف الرائع : Hugh J. Schonfield : The Suez

Canal in World affairs (Constellation Books 1952).

أما الفقرات التي استعرتها فهي من أوراق دي ليسبس الخاصة , Lettres, Journal, et documents pour Servir a L.histoire du canal de Suez, published in 5 volumes, Pairs 1875 - 81

ولكنها للاستهلاك المحلي أكثر من أى شئ .

* * *

الفصل الثامن :

قدم محمد بك رفعت مادة جيدة عن إسماعيل في كتابه :

The awakening of Modern Egypt (Longmans 1947).

فبالرغم من أنه يجب أنه نتذكر أنه المدير العام السابق لوزارة المعارف في القاهرة فقد كان يكتب عن جد الملك الجالس على العرش ، ومن ثم كان عليه أن يأخذ حذره . لقد وضع جورج يونج قائمة بالديون الأوربية على إسماعيل . أما عن الملامح البنكية فقد وصفت بإعجاب في كتاب .

David S. Landes : Bankers and Pashas (Heinemann 1958)

والذى يتناول ببصيرة نافذة وبدرجة رائعة آليات المالية العليا والاقتصاد الاستعماري في مصر . أما عن كتاب :

A. J. Butler : Court life in Egypt (Chapman and Hall 1884).

وكتاب : Moberley Bell : Khedives and Pashas (طبعة غير موضحة في لندن ١٨٨٤) .

فهما مليئان بالمعلومات المبهجة كما تبدو لعيون زميل جامعة اكسفورد ومراسل لجريدة التايمز ، وكتاب لوسى دف جوردون الشهير الذى طبع بعد وفاتها في عام ١٨٦٩ : Lucie Duff - Gordon : Letters From Egypt : يعطينا صورة حية عن فرع الفلاحين تحت حكم إسماعيل والتي لم تتصنع في كلماته عنه .

* * *

الفصلان التاسع والعاشر :

الكتاب الأمثل : عن إدارة الاحتلال البريطانى لمصر هو كتاب كرومر : Cromer: Modern Egypt (Macmillan 1908) فقد تربى الكثير من شباب الإنجليز على هذه الفترات المضيئة من تاريخهم وهو يبلور وجهات النظر نحو مصر التي أخيراً قادت إلى مأساة السويس أنه قطعة غراء من الأدب الفكتوري ، ولكن نرجو ألا يؤخذ كحقائق مقدسة . كذلك كان « ولفريد

سكافن بلنت « رجلاً عظيماً من عصر فكتوريا ولكن من نوع مختلف . فقد كان دائماً يختلط بالمصريين من كل المستويات . وربما كان يعرف قدراً كبيراً عنهم أكثر مما كان يعرف كرومر الذى كان يغلق على نفسه مكتبة فى دار المعتمد البرطيانى . وما كان فى مقدراته أن يفعل أكثر مما فعل ففى كتابه (Secret History of the British Occupation (Martin in Seker 1907) والذى نقلت عنه الكثير منه فى الفصل التاسع ، يعطينا أحد جوانب الحكاية والتى تبدو فى جوانبها أكثر إقناعاً من وصف كل من كرومر ، وملنر ، وأوكلاند كلوفن .

ومما لا شك فيه فأن « بلنت » كرس نفسه لقضية الوطنية المصرية حتى أنه دفع تكاليف أحد المحامين للقدوم من لندن للدفاع عن عرابى عند محاكمته . وفى أحدث الكتب :

Mary Rowlatt : Founders of Modern Egypt (Asia Publishing House 1962).

تقدم « مارى رولات » وصفاً حياً لضرب الإسكندرية بالقنابل ، وقد استمدت ذلك من خبرة جدها الذى كان يعيش فيها فى ذلك الوقت . وشاهد عيان آخر هو جون نينيت السويسرى :

(John Ninet: Arabi Pasha, (Berne 1884) ويبدو أن « نينيت » قام بالتجول بحرية فى كل مناطق الاضطرابات ، بما فى ذلك معسكر عرابى عشية معركة التل الكبير . لقد نقلت بعضاً من ملاحظاته أما عن المواجهة بين عرابى وتوفيق فقد أخذته من كتاب رفعت باشا ، ومن مذكرات عرابى الخاصة التى نشرها « بلنت » .

* * *

الفصل الحادى عشر :

يتناول كل من اللورد ملنر (Britain in Egypt) والمستر بلنت (My Diaries) ((London 1918) 1914- 1889) من وجهتى نظر متعارضتين موضوع التعامل مع الاحتلال البريطانى لمصر . غير أن جورج يونج يضع

خطا متوازنا بين الاثنين . وحديثا قام جون مارلو بإصدار دراسة موثقة ومحايده :

John Marlowe : Cromer in Egypt (Elk 1970)

وقدم السير رونالد ستور في كتابه :

Ronald Storrs: Orientations, London 1937

صورة متعاطفة عن « إدون جورست » ، رئيسه السابق ، بينما يقدم البارون دي كوسيل Baron de Kusel : An Englishman recollections of Egypt (Bodely Head 1914). أما كتاب اللورد ادوارد سيسيل :

Lord Edward Cecil: The Leisure of an Egyptian official

فقد قابلة القراء بسرور خلال العشرينات من القرن التاسع عشر ، حتى وإن لم يستسغه رجال الطبقات الرسمية في القاهرة . ولقد روى عن اللورد ادوارد عندما ضاق ذرعاً بالحياة في لندن أنه دعا كتشنر إلى الغداء في ولنبحتون باراكتس Wellington Baracts ، وبعد أن أغرقه في الشمبانيا ، أغراه أن يصحبه معه إلى القاهرة كمستشار له ، حيث بقي فيها ليصبح المستشار المالي . وفي المقابل فإن وجهه النظر المصرية تجاه الاحتلال عبرت عنها بإقناع وبشكل طيب عفاف لطفي السيد في كتابها :

Afaf Lotfi al. Sayyid : Egypt and Cromer (Murray 1968).

وقد كان جدي وجدتي معتادين على قضاء الشتاء في القاهرة . بعد انتهاء القرن الماضي . ولما شرع والدي وهو شاب في إدارة مشروعات الأسرة في عام ١٩٠٦ ، فقد كنت محظوظاً أن أكون قادراً على الاستفادة من خبراتهم منذ ذلك الوقت فصاعداً .

* * *

الفصل الثاني عشر :

هناك نقص في المادة التاريخية عن الحرب العالمية الأولى وأنصح هؤلاء

المهتمين بالجوانب العسكرية لها بالرجوع إلى كتاب السير جورج ماكمون والكابتن سايرل فول في كتاباتهم الرسمية .

George Macmunn & Captain Cyril Fall : Military Operations in Egypt & Palestine (HMSO 1928).

وعلى مستوى أقل عمقا هناك كتاب :

P. G. EL-good . Egypt and The Army (Oxford University Press 1924)

الذى يقدم لنا المعلومات المطلوبة . غير أن كتابي المفضل هو :

Priscilla Napier: A late beginner (London 1966)

ففي هذا العرض الطريف عن طفولتها تصف زمن الحرب في القاهرة من خلال عيونها كطفلة صغيرة ، فمن المثير أن نشاركها التفكير في عمن يكون ذلك الشخص الغامض الملقب بالقائد العام للقوات C-in-C القاطن في آخر الشارع . أننى مدين لها بالكثير من المعلومات المفعمة بالحيوية من جانب شاهدة عيان مدققة. أما عن كتاب برايان حاردنر عن اللنبى :

Brian Gardner: Allenby (Cassell 1965).

فهو يعطينا صورة طيبة عن ذلك « الثور » وكذلك عن الموقف السياسى بعد الحرب مباشرة .

* * *

الفصل الثالث عشر:

فى نظرتى على السودان اعتمدت بلا شك على مقاله ليتون ستراكى الشهيرة: Lytton Strachey فى سلسلة : مشاهير الفكتوريين : Eminent Victorians (Collins 1959) وكذلك بالطبع على كتاب ونستون تشرشل .

Winston Churchill : The River War (Thornton Butterworth 1930)

ومن خلال قلم ولفريد بلنت الذى لا يكل ، هناك أيضاً كتاب : Gordon in Khartoum (London 1911) وعن الأحوال فى السودان ربما أفضل وصف هو كتاب رودلف سلاتن باشا 95 1879 : Rudolf Slatin Pasha : Fire and Sword in Sudan (Edward Arnold 1896) بينما أفضل عمل عن الحملة

ككل نجدها في كتاب السير ريجينالد وينجيت : Reginald wingte :
(Mahdism and the Egyptian Sudan (Macmillan 1891).

* * *

الفصل الرابع عشر:

يتتبع كتاب توم ليتل الرائع Tom Little : Egypt Bonn 1958 تاريخ البلاد من عصر الفراعنة فما بعده . ولكنه ذا فائدة خاصة كمصدر عن الوضع السياسي منذ إعلان دستور عام ١٩٢٢(*) فنازلا . فبصفته على رأس وكالة الأنباء العربية Arab News Agency ، كان لـ « ليتل مزايا مراجعة الأحداث (كان جيمس موريس James Morris بالمناسبة نائبا له في مطلع الخمسينات) ونتمنى أن يقدم لنا هذا الكاتب الممتاز الكثير من المعلومات من واقع خبراته في القاهرة أما عن كتاب جون مارلو John Marlow : Anglo Egyptian relations 1800 1953 (Cresst et Press 1954) فهو نادراً ما يتألق . لكنه يقدم كل الحقائق أما عن كتاب لورد لويدي Lord Lloyd : Egypt Since Cromer (Macmilan 1934) فهو في نظري أقرب لغسيل المخ لصالح الرجل الأبيض. ويشرح أمين يوسف بك الموقف المصري في كتابه Amin (1936). Youssef Bey : Independent Egypt وخلال العرض يضيف مذاقا على دوائر القصر خلال حكم فؤاد .

هناك بعض الروايات القصصية التي كتبت في مصر بين الحربين .
فرواية جون نيتل John Knittel : Dr. Ibrahim (الدكتور إبراهيم) تركز على الإحباط الذي يشعر به طبيب في الأرياف - كذلك فإن مؤلفات لورانس داريل (Justines, Cleas, and Balthazars) تعكس بشدة المناخ العالمي للإسكندرية في فترة ما قبل الحرب والتي لها طعم خاص رغم أي شيء ، كما يعبر كفاقي عن عاطفته كذلك لا يجب على الباحث أن يسقط من حسابه

(٥) الصحيح ١٩٢٣ (المراجع) .

رواية :

E. M. Forster : Alexandria (Doubleday 1961).

والذى ربما هو أحسن كتاب إرشادى عن أى مدينة أخرى ، وروايته التى لا تقل إمتاعاً . (Pharos and Pharillon (Hogarth Press 1961) والتى منها نقلت ترجمة جورج فالاسوبولو Valassopoulo عن قصيدة كفاى : (الرب يهجر أنطونى) أما عن وصفى الانطباعى الخاص عن الإسكندرية فليس له مصدر غير تجربتى الخاصة .

* * *

الفصل الخامس عشر :

لقد تتبع صديقى جورج فوشير George Vaucher بدأب نشاط ناصر المبكر فى كتابه : (Julliard 1959) Gamal Abdel Nasser et son equipe حيث عقد لقاءات مع مدرسية وزملائه فى الدراسة ، بل تتبع الكتب القديمة فى المكتبة ولتى كانت من نتيجتها عرفنا انه خلال دراسته فى الكلية الجريدة كان ناصر يقرأ بين الأعمال الأخرى : Robert Graves: Lawrence; Churchill River War; Buchan : Gordon; Liddle Hart: Foch; Emil Ludwig; Napoleon والتى توحى أن كان لديه اهتمام يقظ فى الشخصية التاريخية وعن سيرته بشئ من التعمق هناك كتاب روبرت سان جون الرائع (Mr Graw - Hill 1960) Robert St John : The Boss والذى بالرغم من أنه كان محل إطلاع من جانب الدبلوماسيين الأمريكيين المعينين فى مصر خلال الستينيات ، وبالرغم من أنه عامة متعاطف معه ، إلا أنه بدون توقع حظر دخوله فى مصر (ولحسن الحظ أرسلت لى وزارة الإرشاد القومى نسخة منه!) غير أن أهم المصادر عن أصول الثورة هو كتاب أنور السادات : ثورة على ضفاف النيل : (Alan Wingate 1957) Revolution on the Nile أما عن ما نقلته فى بداية هذا الفصل فهو مأخوذ عن كتاب الميجور جارفيس (John Murray 1936) Major C,S Jarvis : Oriental Spot light

* * *

الفصل السادس عشر :

لقد تناولت غذائي أكثر من مرة في مطعم فاروق المفضل Batades حتى أنني أكاد أتذكر مصدره على وجه الدقة ، فيما وراء الحقيقة أن كل الحكايات التي رويتها - وأكثر منها كان محل تداول في القاهرة ولهؤلاء المهتمين هناك كتاب مايكل ستيرن : فاروق (Bantam : Michael Stern (1965 الذي جمع معلومات غزيرة عن « الفاروقيات » أن أغلب المؤرخين الجادين يميلون إلى رفض الفساد الفاحش والثراء الاستعراضى للسنوات الأخيرة من حكم فاروق في فترة أو فقرتين . لكن يجب أن ننسى أن هذه الفترة الأسطورية أصبحت جزءاً من التراث المصري ولا يزال هناك من يعرفها ، إن لم يكن كثير من الناس أحياناً يتذكرونها بمسحه من الأسف ، ومنذ وهلة قصيرة ردد على مسامعي هانز بادروت Hans Jury Badrutt وما قاله له شقيقة من أبيه عن رحلات الصيف لجماعة البشوات في سانت موريتز ST . Moritz إذا قال : « إنه جد حقيقي أننا لم نصادف مثلهم . فقد اعتاد أن يكون هناك ثلاثين أو أربعين سيارة رولز رويس من مصر في الجراج . والمصريون لا يحلمون أن يكون لديهم شيء آخر غير الرولز رويس اللهم إلا سيارة بنتلي . لقد اعتدنا أن يكون لدينا استعراض من الأناقة Concours d elegance للسيارات . وللكلاب بل وحتى للنساء ، غير أن كل ذلك توقف بعد قيام الثورة » . وعلى مستوى أكثر واقعية نتعامل مع المؤلفات الآتية حول السنوات السابقة على قيام الثورة Tom Litle: Egypt, Jean Simone Lacouture: l Egypt en Mouvement (Seuil 1956) والذي صدرت طبعة منه بعنوان Egypt in Transtion (Methuen 1958)

* * *

الفصل السابع عشر :

يصف كل من المؤلفات الآتية :

Anwar el Sadat: Revolt on the Nile; Vaucher: Gamal Abdel Nasser

et Son Equipe; St. John: The Boss الأحرار وانقلاب ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢ غير أننى أميل إلى إتباع المادة المفصلة التى نشرها ثروت عكاشة فى مجلة « التحرير » وكذلك الوصف الذى قدمه أحمد أبو الفتح فى جريدة « المصرى » وإحسان عبد القدوس فى « روز اليوسف » وكلهم كانوا شهودا مساهمين خلال الساعات الأولى الحاسمة لمجلس قيادة الثورة الجديدة . والخطب المباشرة التى ذكرتها فى قصة الانقلاب ذاته مأخوذة إلى حد كبير من هذه المصادر الثلاثة .

* * *

الفصلان ١٨ - ١٩ :

مؤلف توم ليتل وسانت جون مصادر ممتازة عن الأيام المبكرة للثورة بما فى ذلك تغلب عبد الناصر على نجيب فى مناوراته . ولقد نقلت نصوصاً من كتاب ناصر فلسفة الثورة (والذى إلى حد كبير ألفه له محمد حسنين هيكل) ويصف مايلز كوبلاند سيناريو صفقه الأسلحة التشكيلية فى كتابه :

Miles Copeland : The Game of Nations (McGrow - Hill 1969)

بينما يعالج ديزموند ستيورات الأعمال الفورية للحكومة الجديدة

Desmond Stewart : Young Egypt (Wingate 1958).

* * *

الفصلان ٢٠ - ٢١ :

حتى ولو أن الوثائق الرسمية لاتزال محفوظة بعيداً عن الرجوع إليها إلا أننا لدينا عدداً من الكتب حول حرب السويس فبالإضافة إلى كتاب لاكوثير وليتل وسانت جونز فقد صدرت واحدة من أهم البحوث قام بها إرسكين تشلدرز :

Erskine B. Childers : The Road to Suez (Mac Gibbon & Kee 1962)

: (الطريق إلى السويس) .

ولقد كتب عنه بيتر كالفلوريسى Peter Calvocoressi فى جريدة

الأوبزيرفر Observer : « يا له من كتاب عملاق يتعقب طريدى العدالة ، بل أنه ربما يصمد لاختبارات الزمن ، وبالفعل فأن ارسكين تشلدرز أظهر نفسه باضطراد أقرب إلى الملحوظة من أى شخص آخر . وعلى الجانب الآخر فإن كتاب اللورد آفون (أيدن) : مذكراتى : Sir Antony Eden: (Cassels 1960) - Full Circle Memoirs فهو عمل للأسف فقد الثقة فى عيون أغلب الناس .

* * *

الفصلان ٢٢ - ٢٣ :

باستثناء السواح ، قليل من الإنجليز كانوا يشاهدون فى مصر خلال السيتينات ، لكن بيتر مانسفيلد Peter Mansfield الذى كان مراسلاً لجريده السانداى تايمز Sunday Times فى القاهرة ، جمع الوثائق عن هذه الفترة بطريقة تدعو للإعجاب فى كتابه : ناصر مصر .

(Peter Mansfield : Nasser s Egypt (Penguin 1967) كذلك فإن جوردون وترفيلد الرئيس السابق لهيئة الأذاعة البريطانية B. B. C. القسم العربى جمع بعض من المادة المفيدة خاصة حول الميثاق الوطنى : (Gordon Waterfield : Egypt (Thames & Hudson 1967) وهناك تحليل جيد للوضع الاقتصادى قدمه كلود إستيه فى كتابه Claude Estier : L Egypte en Revolution (Julllard 1965).

* * *

الفصلان الرابع والعشرون والخامس والعشرون :

فى نظرى أن أفضل معالجة للحرب الإسرائيلية - العربية عام ١٩٦٧ هى التى قدمتها مجموعة راندولف ونستون تشرشل فى كتابهم عن حرب الأيام الستة :

Randolf, Winston Churchill team: The six Day War (Heinemeane

(Eric Rouleau, Jean Francois Held, وكتاب Penguin 1967) .

Lacoutures: Israel et les Arabes - Le 3 me Combat (Seuil 1967) .

هذان الكتابان ظهرا خلال أسابيع إن لم يكن خلال أيام من وقوع الحرب
ومنذ وفاة ناصر أصدر جان لاكوتير سيرته بطريقة رائعة : J. Lacoutures :
(Seuil 1971) Nasser كما ان مقتطفات من كتاب محمد حسنين هيكل :
وثائق القاهرة The Cairo document والتي ستشر في دار نشر Doubleday
عام ١٩٧٢ حيث نشرت في حلقات في السانداي تلجراف Sunday
Telegraph ولما كان هيكل هو لسان حال ناصر لسنوات طويلة . وربما كان
أقرب إلى الرئيس المصري أكثر من أى شخص آخر خاصة في المجال
السياسي . فكتابه الواقع في ١٧٠,٠٠٠ كلمة ربما سيثبت أنه أدق « سيرة
حياة » عن جمال عبد الناصر حسين . ويكاد أن يكون سيرة ذاتيه في الحقيقة .
وأخيرا فإن كتاب انطوني ناتنج الرائع يعطينا تاريخا واضحا عن فترة
حكم ناصر (Constable 1972) : Anthony Nutting .

* * *

«تمت الترجمة بحمد الله»

أولاً : فهرست الأسماء الأفرنجية

Codrington, Admiral Clovin, Si Aukland Cook, Thomas Copeland, Miles Corfu	A
	Aber Cromby (Sir Ralf) Abyssina Acheson (Dean) Alderidge (James) Allenby (Lord) Allison (General) Armeneman
Cromer, Lord Formenly Major Eveyln Baring Crowe, Colin	B
D	Bandung Barber (Stephen) Baring Mmajor Eyelyn Barras Bentham (Jeremy) Berthier Bertholet Bismark Black (Eugene) Blunt (Wilfrid Scawen) Bona Parte Bowring (Dr.) de Breuys (Admiral) Burkhardt Butler
Daninos, Adrian Dayan, Moshe Denon, Vivant Desvernois, Nicloas Dilke, Sir Charles Disraeli, Benjamin Drovetti Duff Gordon, Lucie Dulles, John Foster	C
E	Caesar Cameron, D.A. Calais Carnot Cavalla (port) Chaban. Delmas, Jaeques.
Eden, Si Anthony Eisenhower, Dwight Enfantin, Prosper Erskine, General Eshkol, Levi montigo)	
F	
Ferrara Finati (Giovanni) Frazer, General	

L
Lacouture, Simone
Sampson, sir Miles,
Killern, Lord انظر
Lane, William
Lane Poole, Stanely
Lepere
De Lesseps, Ferdinand
Little, Tom
Lloyd, Lord
Lloyd, George
Lloyd, Selwyn
Lorraine, Sir Percy
Louis, Philippe
Lowe, Sir Toby
Ludwig, Emil
M
Macdonald, Ramsay
Meadows of Wolverhampton
de Melito Miot
Memnon
Menou (Llater Abdullah Menou)
Menzies, Robert
Michelet
Millet, Private
Milner, Lord
Missolonghi
Mollet, Guy
Mombello
Monge, Gaspard
Moorehead, Alan
Morea
Morgan, Clifford Morgan

G
Gainsborough
Gallipoali
Gambetta
Gladstone
Glubb Pasha
Gordon, Colonel
Gorst, Sir Eldon Goschen
Granville, Lord
Guizot
H
Hammarskjdd, Dug.
Hartington, Lord
Hastings, Clive Warren
Heath, Edward
Hemens, Mrs.
Hicks, Colonel
Home, Sir Alec Douglas
Hippolyte, Monsieur
J
Johnson. President
Josepheine
K
Keith.
Kennedy, President
Killearn, Lord (Formerly Sir Miles Lampson) .
Kingslake, A. W.
Kitchener, Lord.
Kosygin
Krushchev, Nikita

Turner, Wiliam
U. Thant
V
Vasco da Gama
Venice
Venetian Republic
Vertrey, Lieutenant
Victoria, Queen
W
Wauchope, General
Wellington, Duke
Wilson Sir Rivers
Wingate, Sir Reginald
Wolseley, General (Later Lord)
Y
Yost, Charles
Young, Sir George
Z
Zakharov, Marshel
Zello, 64.

ثانيًا : فهرست الأسماء العربية والمعرّبة

(أ)

أغما	إبراهيم باشا (ابن محمد على)
أغسطس	إبراهيم بك (زعم المماليك)
الاتحاد الاشتراكي العربى	إبراهيم عبد الهادى باشا
الاتحاد العربى	أبو قير
الاتحاد القومى	المقبلة (قانون ١٨٧١)
الأخوان المسلمون	أثينا
الأردن	إثيوبيا
الأزبكية	أحمد (والشيخ - أحد الدراويش)
الأزهر	أحمد حسنين باشا
الأسرة الصاوية	أحمد سوكرانو
	أحمد شوقى
الإسكندر	أحمد عرابى
الإسلام	أحمد (الأمير النيل)
الإسماعيلية	أحمد فؤاد
الإسكندرية	أحمد نجيب الهلالى باشا
الأشراف	ارمينيا
الأعلان الأنجلو - فرنسى	أرنولد توينبى
الأقباط	استراليا
الألبان	إسرائيل
الإمام أحمد (إمام اليمن)	إسماعيل باشا (الابن الأصغر
الإمبراطورية العثمانية	لمحمد على الكبير)
الأناضول	إسماعيل صديق المفتش
الأهرامات	أسوان
الأيوبيون	أسيوط (حصار)

البانيا	الشاغية (قبيلة)
البانى	الشركة العالمية لقناة السويس
البرديسى	الشيخ الشرقاوى
البخارى (صحح)	الصوفانى جـ
البندقية (فينسيا)	الصين (شعبية)
البنك الدولى	أطنة
أحمد الدفتر دار	الفالوجا (حصار)
أحمد بن طولون	الفراعنة ،
أحمد عبود باشا	الفلسطينيون
التتار	الفيلق العربى
التل الكبير (معركة)	القسطنطينية
الجبرتى (عبد الرحمن)	القصير
الجزار (أحمد باشا)	الكاشف (لإقليم البحيرة)
الجزائر	أماظة (مطار)
الجزيرة العربية	ألمانيا الغربية
الجزيرة	المحمودية (ترعة)
الجمهورية العربية المتحدة	المدينة المنورة
الحماد	المسلمون
الخرطوم	المطرية المماليك
الخلفاء المسلمون	المنصورة
السانسيمون	المورة
السعدرية (طائفة من الدراويش)	الميثاق العربى
السعودية	النازيون
السلطان المؤيد	النيل الأزرق
السلطان عبد الحميد	المعاهدة الأنجلو مصرية
السودان	المهدى
السويس	الوقائع المصرية
السيد عمر مكرم	الولايات المتحدة الأمريكية
السيد محمد كريم	الوهابيون

تيتو (جوزيب بروز)
 (ث)
 ثروت عكاشه
 (ج)
 جبل المقطم
 جزيرة سيشل
 جزيرة فاروس
 جلوب باشا
 جمال الدين الأفغانى
 جمال سالم (الصاغ)
 جمال عبد الناصر حسين
 جمال محمد أحمد (مؤرخ
 دبلوماسى سودانى)
 جمعية المنتفعين بقناة السويس
 جمهورية البندقية
 جواهر لال نهرو
 جوزيفين
 (ح)
 حرب الأيام الستة
 حرب اليمن
 حزب الوفد
 حسن مصطفى بك
 حسونة باشا
 حسين الشافعى
 حسين بن طلال (الملك)
 حسين سرى باشا
 حسين سرى عامر (اللواء)
 حسين كامل (السلطان)
 حلب

اليهود
 اليونان
 أمبابة
 أم درمان
 أم كلثوم
 أميان
 أمين بك
 أمين عثمان باشا
 أنطاليا
 أنور السادات
 ايدن
 ايطاليا
 ايلات
 (ب)
 بئر يوسف
 باريس
 باندونج
 بحرايجه
 برفدا
 بريطانيا العظمى
 بنتاءور
 بودجورنى
 (ت)
 تركيا
 توفيق (الخديوى)
 تولون
 تجران باشا
 تحرير (قائد الفرقة الألبانية)
 تونس

سانت هيلينا	حلوان
سالونيك	حليم (النبيل)
سعد توفيق (من ضباط الثورة)	(خـ)
سعد زغلول	خالد محيى الدين
سقارة	خان يونس
سليمان باشا الفرنساوى	خروشوف
(كولونيل سيف سابقا)	خورشيد
سليمان القانونى	خليج تيران
سليمان حافظ	(دـ)
سيناء	دنكرک
(شـ)	(رـ)
شبراخيت (معركة)	رؤوف باشا
شركة شل للبترول	راغب باشا
شركة قناة السويس (انظر	رشيد
الشركة العالمية)	رفح
شرم الشيخ	رمسيس (الفرعون)
شكرى القوتلى	رمسيس (سيارة)
شندى	روزفلت (الرئيس)
(صـ)	رودس
صالح مجدى بك	روسيا
صايم بك	روميل
صقليسة	ريكى (الجنرال)
صلاح الدين الأيوبى (الناصر	(هـ)
صلاح الدين)	زخاروف (المارشال)
صلاح سالم (الصاغ)	زكريا محيى الدين (البكباشى)
صمويل شبرد	زيللو
(طـ)	زيوار باشا
طرابلس (الشام)	(سـ)
طلعت حرب باشا	سان سيمون (الكونت)

طنطا (معركة)

طه حسين

طوسون (بن محمد على)

(ع)

عباس الأول (حفيد محمد على)

عباس حلمى (ابن الخديوى
توفيق)

عبد الحكيم عامر (المشير)

عبد الحميد (ابن جمال عبد
الناصر)

عبدان

عبد السلام عارف

عبد العزيز آل سعود (الملك)

عبد الكريم قاسم (اللواء)

عبد الله السلال (المشير)

عبد الله بن سعود

عبد المجيد (السلطان)

عبد المنعم (الأمير)

عثمان رفقى

عدن

عزيز المصرى (الفريق)

عزيز صدقى

على بك (شيخ البلاد المملوكى)

على صبرى

على ماهر باشا

على فهمى

عمر فتحى (اللواء)

(ك)

كامبو فورميو (معاهدة)

كليبـر

كمال الدين حسين

(ل)

لبنان

لندن

ليفى آشكول

(م)

مالطة

مالك نمر

محمد بن عبد الوهاب (الشيخ)

محمد حسنين هيكل

محمد حسين هيكل

محمد سعيد باشا (أكبر أبناء محمد

على)

محمد عبده (الشيخ)

محمد على باشا الكبير

محمد نجيب (اللواء)

محمود فهمى القراشى باشا

مراكش

مرتضى المراغى باشا

مرسى سعد الدين

مصطفى النحاس باشا

مصطفى كامل

مضيق تيران

مكة

ممر متلا

ثالثًا: أجندة الأحداث الهامة في تاريخ مصر

- ١٧٩٨ نابليون يغزو مصر - معركة الأهرامات (٢١ يوليو) نابليون يدمر الأسطول الفرنسي في خليج إلى قير.
- ١٧٩٩ نابليون يغادر مصر إلى فرنسا ويسلم قيادة الحملة إلى كليبر.
- ١٨٠٠ اغتيال كليبر - مينو يخلفه في القيادة.
- ١٨٠١ حملة أبركرومبي الإنجليزى.
- ١٨٠٢ معاهدة أميان - فرنسا وانجلترا تجلوان عن مصر.
- ١٨٠٥ انتخاب محمد على فى منصب باشا القاهرة.
- ١٨١١ مذبحة المماليك (الأول من مارس) - طوسون يقود حملة على الجزيرة العربية.
- ١٨٢٠ فتح السودان.
- ١٨٢٤ وصول إبراهيم باشا إلى النمورة على رأس قواته.
- ١٨٢٧ معركة نوارين وتدمير الأسطول المصرى.
- ١٨٣١ - ١٨٣١ الحملة على الشام محمد على يصبح رسميًا باشا على مصر ويؤسس أسرة وراثية (١٣ فبراير ١٨٤١).
- ١٨٤٨ الوهن يصيب ذاكرة محمد على تولى إبراهيم ثم عباس على التوالى.
- ١٨٤٩ موت محمد على الكبير - عباس يصبح نائبًا للسلطان (واليًا) العثمانى على مصر.
- ١٨٥٤ سعيد يخلف عباس (يوليو) ويمنح ديليسبس حق امتياز شق قناة السويس (شبه نوفمبر).

- ١٨٥٩ بدء العمل فى حفر قناة السويس.
- ١٨٦٣ إسماعيل باشا يخلف سعيد كوالى على مصر (نائب للسلطان العثمانى).
- ١٨٦٧ إسماعيل ينجح فى الحصول على لقب الخديوى له ولخلفائه.
- ١٨٦٩ افتتاح قناة السويس (١١ نوفمبر).
- ١٨٧٥ دزرائيلى يشتري نصيب مصرفى أسهم قناة السويس من إسماعيل.
- ١٨٧٨ مؤتمر برلين.
- ١٨٧٩ السلطان العثمانى يعزل إسماعيل. توفيق يصبح خديو مصر (يونيو).
- ١٨٧١ البكباشى أحمد عرابى يقود الحركة الوطنية فى الجيش.
- ١٨٨٢ تدخل بريطانيا العظمى وقصف الإسكندرية بالقنابل (يوليو).
- ١٨٨٢ هزيمة عرابى فى التل الكبير (١٣ سبتمبر) وبداية الاحتلال البريطانى فى لمصر.
- ١٨٨٤ اللورد كرومر يصبح الحاكم الفعلى على مصر.
- ١٨٨٥ جوردون يلقى مصرعه فى الخرطوم (٢٦ يناير).
- ١٨٩٢ عباس حلمى يخلف توفيق فى منصب خديوى مصر.
- ١٨٩٨ معركة أم درمان (٢ سبتمبر).
- ١٨٩٩ عقد الاتفاق الأنجلو - مصرى للحكم الثنائى على السودان (١٩ يناير).
- ١٩٠٧ استقالة كرومر - جورست يخلف كرومر كمعتمد بريطانى.
- ١٩١٠ اغتيال بطرس غالى باشا.
- ١٩١١ وفاة جورست وكنتشنر يخلفه كمعتمد بريطانى.

- ١٩١٤ بريطانيا تعلن الحماية على مصر وتعزل الخديوى عباس حلمى.
- ١٩١٨ سعد زغلول يطالب باستقلال مصر.
- ١٩١٩ نفى سعد زغلول خارج مصر. بداية الانتفاضة الثورية ضد بريطانيا.
- ١٩٢٢ إعلان استقلال مصر. والسلطان أحمد فؤاد يصبح لأول مرة الملك أحمد فؤاد (٢٨ فبراير).
- ١٩٢٤ حزب الوفد يكسب الانتخابات بأغلبية عارمة واختيار سعد زغلول رئيساً للوزراء. اغتيال السردار لى ستاك (١٩ نوفمبر).
- ١٩٢٧ وفاة سعد زغلول.
- ١٩٣٦ وفاة الملك فؤاد فجأة، وجلس الملك فاروق على العرش (٢٥ إبريل) توقيع معاهدة ١٩٣٦ بين بريطانيا ومصر.
- ١٩٤٢ الدبابات البريطانية تضرب الحصار حول قصر عابدين وتجبر الملك فاروق على تعيين النحاس باشا رئيساً للوزراء (٤ فبراير). النقيب جمال عبد الناصر يبدأ فى التخطيط للثورة. روميل يصل إلى العلمين (يوليو) معركة العلمين (أكتوبر).
- ١٩٤٦ قيام المظاهرات وأعمال الشعب ضد بريطانيا فى القاهرة والأسكندرية القوات البريطانية تتحرك نحو منطقة القناة.
- ١٩٤٨ إعلان دولة إسرائيل. حرب فلسطين.
- ١٩٥١ النحاس باشا يلغى معاهدة ١٩٣٦ الإنجليزية المصرية ويعلن أن فاروق: « ملكاً على مصر والسودان » بداية الأعمال الفدائية ضد القاعدة البريطانية فى منطقة قناة السويس.
- ١٩٥٢ حريق القاهرة (٢٦ يناير) استيلاء الضباط الأحرار على الحكم فى ٢٣ يوليو. فاروق يتنازل عن العرش ويغادر البلاد (٢٦ يوليو).

- ١٩٥٣ إعلان الجمهورية في مصر برئاسة محمد نجيب وناصر نائباً له.
- ١٩٥٤ بداية الصراع بين نجيب وناصر (فبراير - مارس). توقيع اتفاقية الجلاء مع بريطانيا (يوليو) قمع الإخوان المسلمين على أثر محاولتهم الفاشلة لاغتيال ناصر. فرض الإقامة الجبرية على محمد نجيب (نوفمبر).
- ١٩٥٥ إعلان قيام حلف بغداد. الغارة الإسرائيلية على غزة (فبراير) ناصر يمثل مصر في مؤتمر باندونج (أبريل). إعلان صفقه الأسلحة الشيكية (سبتمبر).
- ١٩٥٦ انتخاب ناصر رئيساً للجمهورية (يونيو). الولايات المتحدة تسحب عرضها لتمويل مشروع السد العالي (يوليو). ناصر يعلن تأميم قناة السويس (٢٦ يوليو). حرب السويس: إسرائيل تهاجم مصر (٢٩ أكتوبر)، بريطانيا وفرنسا تتظاهران بالقيام بدور الشرطة المانعة للحرب - رسو قواتهما عند سواحل بور سعيد ٥ نوفمبر. وقف إطلاق النار في ٦ نوفمبر.
- ١٩٥٨ إعلان قيام الجمهورية العربية المتحدة بين مصر وسوريا.
- ١٩٦١ انفصال سوريا عن الجمهورية العربية المتحدة. حملة من التأميم والمصادرات في مصر.
- ١٩٦٢ عبد الناصر يعلن الميثاق الوطني. حدوث انقلاب عسكري في اليمن.
- ١٩٦٣ مصر تتدخل في اليمن.
- ١٩٦٤ خرشوف في أسوان.
- ١٩٦٧ اشتباكات على الحدود بين سوريا وإسرائيل (أبريل). اندلاع حرب الأيام الستة - استقالة عبد الناصر، لكنه يعود بناءً على المطلب الجماهيري والمسيرات الشعبية (يونيو). انتحار عبد الحكيم عامر. (سبتمبر).

١٩٧٠ بعد إجراء مشاورات في موسكو ناصر يقبل بخطة روجرز لوضع حل مع إسرائيل (يوليو) عقد مؤتمر بين البلدان العربية في القاهرة. ناصر يتدخل لحل النزاع بين حسين وعرفات (٢٧ سبتمبر). وفاة عبد الناصر على أثر أزمة قلبية مفاجئة. (٢٧ سبتمبر). اختيار أنور السادات رئيساً للجمهورية (الأول من أكتوبر ١٩٧٠).

المحتويات

3	1 - مقدمة : بقلم أ.د. يونان لبيب رزق
9	2 - مقدمة المترجم
13	3 - مقدمة المؤلف
23	4 - تمهيد : نابليون يرصد إنجلترا
35	5 - الفصل الأول : تقلبات مفاجئة
45	6 - الفصل الثاني : معركة الأهرامات
63	7 - الفصل الثالث : نهاية حلم
89	8 - الفصل الرابع : مؤسس الأسرة العلوية
107	9 - الفصل الخامس : إمبراطورية لا أمة
127	10 - الفصل السادس : باشوات ونهابون
137	11 - الفصل السابع : قناة عند خليج السويس
149	12 - الفصل الثامن : الثمن الباهظ لمظاهر التبذير والترف
167	13 - الفصل التاسع : حديث بلنت
181	14 - الفصل العاشر : إخضاع عرابي
203	15 - الفصل الحادي عشر : الحاكم بأمره على ضفاف النيل
223	16 - الفصل الثاني عشر : الحرب والثورة
235	17 - الفصل الثالث عشر : نظرة سريعة على السودان
247	18 - الفصل الرابع عشر : الصراع الثلاثي للقوة
259	19 - الفصل الخامس عشر : بذور الثورة
273	20 - الفصل السادس عشر : أفول شمس العهد البائد
293	21 - الفصل السابع عشر : حركة الضباط الأحرار
311	22 - الفصل الثامن عشر : من البكباشية إلى رئاسة الجمهورية
323	23 - الفصل التاسع عشر : الحياد الإيجابي
337	24 - الفصل العشرون : صفقة مقابل صفقة
355	25 - الفصل الواحد والعشرون : رد الفعل الثلاثي

26	- الفصل الثاني والعشرون : قيام الجمهورية العربية المتحدة.....	369
27	- الفصل الثالث والعشرون : مايسترو العالم العربى.....	387
28	- الفصل الرابع والعشرون : سبعون ساعة فى قيظ يونيو.....	403
29	- الفصل الخامس والعشرون : آلام إعادة البناء.....	417
30	- الخاتمة : رحيل الفرعون.....	423
31	- هوامش الكتاب.....	427
32	- دراسة نقدية موجزة عن مصادر الكتاب.....	433
33	- فهرست أسماء الأفرنجية.....	449
34	- فهرست الأسماء العربية والمعربة.....	453
35	- أجندة الأحداث الهامة فى تاريخ مصر.....	459

المشروع القومى للترجمة

- | | | |
|--|------------------------------|--|
| ١- اللغة العليا (طبعة ثانية) | جون كوين | ت : أحمد درويش |
| ٢- الوثنية والإسلام | ك. مادهو بانيكار | ت : أحمد فؤاد بليغ |
| ٣- التراث المسروق | جورج جيمس | ت : شوقي جلال |
| ٤- كيف تتم كتابة السيناريو | انجا كاريتكوف | ت : أحمد الحضرى |
| ٥- ثريا فى غيبوبة | إسماعيل فصيح | ت : محمد علاء الدين منصور |
| ٦- اتجاهات البحث اللسانى | ميلكا إفيتش | ت : سعد مصلوح / وفاء كامل فايد |
| ٧- العلوم الإنسانية والفلسفة | لوسيان غولدمان | ت : يوسف الأنطكى |
| ٨- مشعل الحرائق | ماكس فريش | ت : مصطفى ماهر |
| ٩- التغيرات البيئية | أندروس. جودى | ت : محمود محمد عاشور |
| ١٠- خطاب الحكاية | جيرار جينيت | ت : محمد معتصم وعبد الجليل الأزدي وعمر حلى |
| ١١- مختارات | فيسوفا شيمبوريسكا | ت : هناء عبد الفتاح |
| ١٢- طريق الحرير | ديفيد براونستون وايرين فرانك | ت : أحمد محمود |
| ١٣- ديانة الساميين | روبرتسن سميث | ت : عبد الوهاب علوب |
| ١٤- التحليل النفسى والأدب | جان بيلمان نويل | ت : حسن المودن |
| ١٥- الحركات الفنية | إدوارد لويس سميث | ت : أشرف رفيق عفيقى |
| ١٦- أثينة السوداء | مارتن برنال | ت : يشارف أحمد عثمان |
| ١٧- مختارات | فيليب لاركين | ت : محمد مصطفى بدوى |
| ١٨- الشعر النسائى فى أمريكا اللاتينية | مختارات | ت : طلعت شاهين |
| ١٩- الأعمال الشعرية الكاملة | جورج سفيريس | ت : نعيم عطية |
| ٢٠- قصة العلم | ج. ج. كراوثر | ت : يمنى طريف الخولى / بدوى عبد الفتاح |
| ٢١- خوخة وألف خوخة | صمد بهرنجى | ت : ماجدة العنانى |
| ٢٢- مذكرات رحالة عن المصريين | جون أنتيس | ت : سيد أحمد على الناصرى |
| ٢٣- تجلى الجميل | هانز جيورج جادامر | ت : سعيد توفيق |
| ٢٤- ظلال المستقبل | باتريك بارندر | ت : بكر عباس |
| ٢٥- مثنوى | مولانا جلال الدين الرومى | ت : إبراهيم الدسوقي شتا |
| ٢٦- دين مصر العام | محمد حسين هيكل | ت : أحمد محمد حسين هيكل |
| ٢٧- التنوع البشرى الخلاق | مقالات | ت : نخبة |
| ٢٨- رسالة فى التسامح | جون لوك | ت : منى أبو سنه |
| ٢٩- الموت والوجود | جيمس ب. كارس | ت : بدر الديب |
| ٣٠- الوثنية والإسلام (ط٢) | ك. مادهو بانيكار | ت : أحمد فؤاد بليغ |
| ٣١- مصائر دراسة التاريخ الإسلامى | جان سوفاجيه - كلود كاين | ت : عبد الستار الطوجى / عبد الوهاب علو |
| ٣٢- الانتقراض | ديفيد روس | ت : مصطفى إبراهيم فهمى |
| ٣٣- التاريخ الاقتصادى لإفريقيا الغربية | أ. ج. هويكنز | ت : أحمد فؤاد بليغ |
| ٣٤- الرواية العربية | روجر آلن | ت : حصه إبراهيم المتيف |
| ٣٥- الأسطوره والحداثه | بول. ب. ديكسون | ت : خليل كلفت |

- ٣٦- نظريات السرد الحديثة
- ٣٧- واحة سيوة وموسيقاها
- ٣٨- نقد الحداثة
- ٣٩- الإغريق والحسد
- ٤٠- قصائد حب
- ٤١- ما بعد المركزية الأوربية
- ٤٢- عالم ماك
- ٤٣- اللهب المزوج
- ٤٤- بعد عدة أصياف
- ٤٥- التراث المغفور
- ٤٦- عشرون قصيدة حب
- ٤٧- تاريخ النقد الأدبي الحديث (١)
- ٤٨- حضارة مصر الفرعونية
- ٤٩- الإسلام في البلقان
- ٥٠- ألف ليلة وليلة أو القول الأسير
- ٥١- مسار الرواية الإسبانية أمريكية
- ٥٢- العلاج النفسي التدميمي
- ٥٣- الدراما والتعليم
- ٥٤- المفهوم الإغريقي للمسرح
- ٥٥- ما وراء العلم
- ٥٦- الأعمال الشعرية الكاملة (١)
- ٥٧- الأعمال الشعرية الكاملة (٢)
- ٥٨- مسرحيتان
- ٥٩- المحيرة
- ٦٠- التصميم والشكل
- ٦١- موسوعة علم الإنسان
- ٦٢- لذة النص
- ٦٣- تاريخ النقد الأدبي الحديث (٢)
- ٦٤- برتراند راسل (سيرة حياة)
- ٦٥- في مدح الكسل ومقالات أخرى
- ٦٦- خمس مسرحيات أندلسية
- ٦٧- مختارات
- ٦٨- نتاشا العجوز وقصص أخرى
- ٦٩- العالم الإسلامي في أوائل القرن العشرين
- ٧٠- ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية
- ٧١- السيدة لا تصلح إلا للرمي
- والاس مارتن
- بريجيت شيفر
- ألن تورين
- بيتر والكوت
- آن سكستون
- بيتر جران
- بنجامين باربر
- أوكتايفيو باث
- ألدوس هكسلي
- روبرت ج دنيا - جون ف أ فاين
- يابلو نيرودا
- رينيه ويليك
- فرانسوا دوما
- ه . ت . نوريس
- جمال الدين بن الشيخ
- داريو بيانوبيا وخ . م بينياليستي
- بيتر . ن . نوفاليس وستيفن . ج .
- روجسيفيتز وروجر بيل
- أ . ف . ألنجلتون
- ج . مايكل والتون
- جون بولكنجهوم
- فديريكو غرسية لوركا
- فديريكو غرسية لوركا
- فديريكو غرسية لوركا
- كارلوس مونييث
- جوهانز ايتين
- شارلوت سيمور - سميث
- رولان بارت
- رينيه ويليك
- ألان وود
- برتراند راسل
- أنطونيو جالا
- فرناندو بيسوا
- فالنتين راسبوتين
- عبد الرشيد إبراهيم
- أوخينيو تشانج رودريجت
- داريو فو
- ت : حياة جاسم محمد
- ت : جمال عبد الرحيم
- ت : أنور مغيث
- ت : منيرة كروان
- ت : محمد عيد إبراهيم
- ت : عاطف أصد / إبراهيم فتحي / محمود ماجد
- ت : أحمد محمود
- ت : المهدي أخريف
- ت : مارلين تادرس
- ت : أحمد محمود
- ت : محمود السيد علي
- ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
- ت : ماهر جويجاتي
- ت : عبد الوهاب علوب
- ت : محمد برلانة وعثمانى الميود ويوسف الأنطكي
- ت : محمد أبو العطا
- ت : لطفى فطيم وعادل دمرداش
- ت : مرسى سعد الدين
- ت : محسن مصيلحي
- ت : علي يوسف علي
- ت : محمود علي مكي
- ت : محمود السيد ، ماهر البطوطي
- ت : محمد أبو العطا
- ت : السيد السيد سهيم
- ت : صبري محمد عبد الغنى
- مراجعة وإشراف : محمد الجوهري
- ت : محمد خير البقاعى .
- ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
- ت : رمسيس عوض .
- ت : رمسيس عوض .
- ت : عبد اللطيف عبد الحليم
- ت : المهدي أخريف
- ت : أشرف الصباغ
- ت : أحمد فؤاد متولى وهويدا محمد فهمي
- ت : عبد الحميد غلاب وأحمد حشاد
- ت : حسين محمود

- ٧٢- السياسى العجوز ت . س . إليوت
٧٣- نقد استجابة القارئ جين . ب . توميكنز
٧٤- صلاح الدين والماليك فى مصر ل . ا . سيميتوفا
٧٥- فن التراجم والسير الذاتية أندريه موروا
٧٦- چاك لاكان وإغواء التطفل النفسى مجموعة من الكتاب
٧٧- تاريخ النقد الأدبى الحديث ج ٢ رينيه ويليك
٧٨- العولة : النظرية الاجتماعية والثقافة الكونية رونالد روبرتسون
٧٩- شعرية التأليف بوريدس أوسبنسكى
٨٠- بوشكين عند «نافورة الدموع» ألكسندر بوشكين
٨١- الجماعات المتخيلة بندكت أندرسن
٨٢- مسرح ميغيل ميغيل دى أونامونو
٨٣- مختارات غوتفريد بن
٨٤- موسوعة الأدب والنقد مجموعة من الكتاب
٨٥- منصور الحلاج (مسرحية) صلاح زكى أقطاي
٨٦- طول الليل جمال مير صادقى
٨٧- نون والقلم جلال آل أحمد
٨٨- الابتلاء بالغرب جلال آل أحمد
٨٩- الطريق الثالث أنتونى جيدنز
٩٠- وسم السيف ميغل دى تريباتس
٩١- المسرح والتجريب بين النظرية والتطبيق ياربر الاسوستكا
٩٢- أساليب ومضامين المسرح كارلوس ميغل
الإسباني وأمريكي المعاصر
٩٣- محدثات العولة مايك فيذرستون وسكوت لاش
٩٤- الحب الأول والصحة صمويل بيكيت
٩٥- مختارات من المسرح الإسباني أنطونيو بوويرو بايخو
٩٦- ثلاث زنيقات ووردة قصص مختارة
٩٧- هوية فرنسا مج ١ فرنان برودل
٩٨- الهم الإنسانى والابتزاز الصهيونى نماذج ومقالات
٩٩- تاريخ السينما العالمية ديفيد روينسون
١٠٠- مساعلة العولة بول هيرست وجراهام تومبسون
١٠١- النص الروائى (تقنيات ومناهج) بيرنار فاليط
١٠٢- السياسة والتسامح عبد الكريم الخطيبى
١٠٣- قبر ابن عربى يليه آباء عبد الوهاب المؤيد
١٠٤- أوبرا ماهوجنى برتولت بريشت
١٠٥- مدخل إلى النص الجامع چيرارچينيت
١٠٦- الأدب الأندلسى د. ماريا خيسوس روبييرامتى
١٠٧- صورة الفنان فى الشعر الأمريكى المعاصر نخبة
- ت : فؤاد مجلى
ت : حسن ناظم وعلى حاكم
ت : حسن بيومى
ت : أحمد درويش
ت : عبد المقصود عبد الكريم
ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
ت : أحمد محمود ونورا أمين
ت : سعيد الغانمى وناصر خلاوى
ت : مكارم الغمري
ت . محمد طارق الشرقاوى
ت : محمود السيد على
ت : خالد المعالى
ت . عبد الحميد شيحة
ت : عبد الرازق بركات
ت . أحمد فتحى يوسف شتا
ت : ماجدة العنانى
ت . إبراهيم الدسوقي شتا
ت : أحمد زايد ومحمد محيى الدين
ت . محمد إبراهيم مبروك
ت : محمد هناء عبد الفتاح

ت : نادية جمال الدين
ت : عبد الوهاب علوب
ت : فوزية العشماوى
ت : سرى محمد محمد عبد اللطيف
ت : إدوار الخراط
ت : بشير السباعى
ت . أشرف الصباغ
ت . إبراهيم قنديل
ت : إبراهيم فتحى
ت : رشيد بنحو
ت : عز الدين الكتانى الإدريسى
ت : محمد بنيس
ت : عبد الغفار مكاوى
ت : عبد العزيز شبيل
ت : د. أشرف على دعنور
ت : محمد عبد الله الجعيدى

١٠٨- ثلاث دراسات عن الشعر الأثليسي	مجموعة من النقاد	ت . محمود على مكي
١٠٩- حروب المياه	چون بولوك وعادل درويش	ت . هاشم أحمد محمد
١١٠- النساء في العالم النامي	حسنة بيجوم	ت . منى قطان
١١١- المرأة والجريمة	فرانسييس هيندسون	ت : ريهام حسين إبراهيم
١١٢- الاحتجاج الهادئ	أرلين علوى ماكليود	ت : إكرام يوسف
١١٣- راية التمرد	سادى بلانت	ت : أحمد حسان
١١٤- مسرحيتا حصاد كونجى وسكان المستنقع	رول شويتكا	ت : نسيم مجلى
١١٥- غرفة تخص المرء وحده	فرچينيا وولف	ت : سمىة رمضان
١١٦- امرأة مختلفة (درية شفيق)	سينثيا نلسون	ت : نهاد أحمد سالم
١١٧- المرأة والجنوسة فى الإسلام	ليلى أحمد	ت . منى إبراهيم ، وهالة كمال
١١٨- النهضة النسائية فى مصر	بث بارون	ت : ليس النقاش
١١٩- النساء والأسرة وقوانين الطلاق	أميرة الأزهرى سنيل	ت : بإشراف/ رؤوف عباس
١٢٠- الحركة النسائية والتطور فى الشرق الأوسط	ليلى أبو لغد	ت : نخبة من المترجمين
١٢١- الدليل الصغير فى كتابة المرأة العربية	فاطمة موسى	ت : محمد الجندى ، وإيزابيل
١٢٢- نظام العبودية القديم ونموذج الإنسان	جوزيف فوجت	ت : منيرة كروان
١٢٣- الإمبراطورية العثمانية وعلاقاتها الدولية	نيل الكسندر وفنادولينا	ت : أنور محمد إبراهيم
١٢٤- الفجر الكاذب	چون جراى	ت : أحمد فؤاد بلبع
١٢٥- التحليل الموسيقى	سيدريك ثورپ ديفى	ت : سمحه الخولى
١٢٦- فعل القراءة	قولفانج إيسر	ت : عبد الوهاب علوب .
١٢٧- إرهاب	صفاء فتحي	ت : بشير السباعى
١٢٨- الأدب المقارن	سوزان باسنيت	ت : أميرة حسن نويرة
١٢٩- الرواية الاسبانية المعاصرة	ماريا نولورس أسيس جاروته	ت . محمد أبو العطا وآخرون
١٣٠- الشرق يصعد ثانية	أندريه جونس فرانك	ت : شوقى جلال
١٣١- مصر القديمة (التاريخ الاجتماعى)	مجموعة من المؤلفين	ت : لويس بقطر
١٣٢- ثقافة العولة	مايك فيذرستون	ت : عبد الوهاب علوب
١٣٣- الخوف من المرايا	طارق على	ت : طلعت الشايب
١٣٤- تشريح حضارة	بارى ج. كيمب	ت : أحمد محمود
١٣٥- المختار من نقد ت. س. إليوت	ت. س. إليوت	ت : ماهر شفيق فريد
١٣٦- فلاحو الباشا	كينيث كونو	ت . سحر توفيق
١٣٧- مذكرات ضابط فى الحملة الفرنسية	جوزيف مارى مواريه	ت : كاميليا صبحى
١٣٨- عالم التليفزيون بين الجمال والعنف	إيقلينا تارونى	ت : وجيه سمعان عبد المسيح
١٣٩- النظرية الشعرية عند إليوت وأونيس	عاطف فضول	ت . أسامة إسبر
١٤٠- حيث تلتقى الأنهار	هربرت ميسن	ت : أمل الجبورى
١٤١- اثنتا عشرة مسرحية يونانية	مجموعة من المؤلفين	ت : نعيم عطية
١٤٢- الإسكندرية : تاريخ ودليل	أ. م. فورستر	ت : حسن بيومى
١٤٣- قضايا التنظير فى البحث الاجتماعى	ديريك لايدار	ت : عدلى السمرى
١٤٤- صاحبة اللوكاندة	كارلو جولونوى	ت : سلامة محمد سليمان

١٤٥- موت أرتيميو كروث	كارلوس فوينتس	ت : أحمد حسان
١٤٦- الورقة الحمراء	ميجيل دى ليبس	ت : على عبدالرؤوف البمبي
١٤٧- خطبة الإدانة الطويلة	تاتكريد دورست	ت : عبدالغفار مكاوى
١٤٨- القصة القصيرة (النظرية والتقنية)	إنريكي أندرسون إمبرت	ت : على إبراهيم على منوفى
١٤٩- النظرية الشعرية عند إليوت وأدونيس	عاطف فضول	ت : أسامة إسبر
١٥٠- التجربة الإغريقية	روبرت ج. ليمان	ت : منيرة كروان
١٥١- هوية فرنسا مج ٢ ، ج ١	فرنان برودل	ت : بشير السباعى
١٥٢- عدالة الهنود وقصص أخرى	نخبة من الكتاب	ت : محمد محمد الخطايبى
١٥٣- غرام القراءة	فيولين فاتويك	ت : فاطمة عبدالله محمود
١٥٤- مدرسة فرانكفورت	فيل سليتر	ت : خليل كلفت
١٥٥- الشعر الأمريكى المعاصر	نخبة من الشعراء	ت : أحمد مرسى
١٥٦- المدارس الجمالية الكبرى	جى آنبال وآلان وأوديت فيرمو	ت : مى التلمسانى
١٥٧- خسرو وشيرين	النظامى الكنجوى	ت : عبدالعزيز بقوش
١٥٨- هوية فرنسا مج ٢ ، ج ٢	فرنان برودل	ت : بشير السباعى
١٥٩- الإيديولوجية	ديفيد هوكس	ت: إبراهيم فتحى
١٦٠- آلة الطبيعة	بول إيرليش	ت: حسين بيومى
١٦١- من المسرح الإشبانى	الخانندرو كاسونا وأنطونيو جالا	ت: زيدان عبدالحليم زيدان
١٦٢- تاريخ الكنيسة	يوحنا الآسيوى	ت: صلاح عبدالعزيز محجوب
١٦٣- موسوعة علم الاجتماع	جوردن مارشال	ت: مجموعة من المترجمين
١٦٤- شامبوليون (حياة من نور)	جان لاکوتير	ت: نبيل سعد
١٦٥- حكايات الثعلب	أ. ن أفانا سيفا	ت: سهير المصادفة
١٦٦- العلاقات بين المتنبيين والعلمانيين فى إسرائيل	يشعيا هو ليتمان	ت. محمد محمود أبو غدير
١٦٧- فى عالم طاغور	رابندرانات طاغور	ت. شكرى محمد عياد
١٦٨- دراسات فى الأدب والثقافة	مجموعة من المؤلفين	ت: شكرى محمد عياد
١٦٩- إبداعات أدبية	مجموعة من المبدعين	ت: شكرى محمد عياد
١٧٠- الطريق	ميغيل دليبيس	ت: بسام ياسين رشيد
١٧١- وضع حد	فرانك بيجو	ت. هدى حسين
١٧٢- حجر الشمس	مختارات	ت محمد محمد الخطايبى
١٧٣- معنى الجمال	ولتر ت. ستيس	ت:إمام عبد الفتاح إمام
١٧٤- صناعة الثقافة السوداء	ايليس كاشمور	ت: أحمد محمود
١٧٥- التليفزيون فى الحياة اليومية	لورينزو فيلشس	ت: وجيه سمعان عبد المسيح
١٧٦- نحو مفهوم للاقتصاديات البيئية	توم تيتنبرج	ت: جلال البنا
١٧٧- أنطون تشيخوف	هنرى تروايا	ت: حصة إبراهيم المنيف
١٧٨- مختارات من الشعر اليونانى الحديث	نخبة من الشعراء	ت: محمد جمدى إبراهيم
١٧٩- حكايات أيسوب	أيسوب	ت: إمام عبد الفتاح إمام
١٨٠- قصة جاويد	إسماعيل فصيح	ت: سليم عبد الأمير حمدان
١٨١- النقد الأدبى الأمريكى	فنسنت ب. ليتش	ت: محمد يحيى
١٨٢- العنف والنبوة	و.ب. بيتس	ت: ياسين طه حافظ
١٨٣- جان كوكتو على شاشة السينما	رينيه چيلسون	ت: فتحى العشرى

١٨٤- القاهرة... حالة لا تنام	هانز إيندورفر	ت: دسوقي سعيد
١٨٥- أسفار العهد القديم	توماس تومسن	ت: عبد الوهاب علوب
١٨٦- معجم مصطلحات هيجل	ميخائيل أنورود	ت: إمام عبد الفتاح إمام
١٨٧- الأرضة	بُزرج علوى	ت: علاء منصور
١٨٨- موت الادب	الفين كرنان	ت: بدر الديب
١٨٩- العمى والبصيرة	بول دى مان	ت: سعيد الغانمى
١٩٠- محاورات كونفوشيوس	كونفوشيوس	ت: محسن سيد فرجاني
١٩١- الكلام زأسمال	الحاج أبو بكر إمام	ت: مصطفى حجازى السيد
١٩٢- سياحت تامه إبراهيم بيك جا	زين العابدين المراغى	ت: محمود سلامة علوى
١٩٣- عامل المنجم	بيتز أيزاهامز	ت: محمد عبد الواحد محمد
١٩٤- مختارات من النقد... -أمريكي	مجموعة من النقاد	ت: ماهر شفيق فريد
١٩٥- شتاء ٨٤	إسماعيل فصيح	ت: محمد علاء الدين منصور
١٩٦- المهلة الأخيرة	فالتين راسبوتين	ت: أشرف الصباغ
١٩٧- الفاروق	شمس العلماء شبلى النعمانى	ت: جلال السعيد الحفناوى
١٩٨- الاتصال الجماهيرى	الوين إمزى وآخرون	ت: إبراهيم سلامة إبراهيم
١٩٩- تاريخ يهود مصر فى الفترة العثمانية	يعقوب لاندائوى	ت: جمال احمد الرفاعى وأحمد عبد اللطيف حماد
٢٠٠- ضحايا التنمية	جيرمى سيبروك	ت: فخرى لبيب
٢٠١- الجانب الدينى للفلسفة	جوزايا رويس	ت: أحمد الانصار
٢٠٢- تاريخ النقد الأدبى الحديث ج٤	رينيه ويليك	ت: مجاهد عبد المنعم مجاهد
٢٠٣- الشعر والشاعرية	الطاف حسين حالى	ت: جلال السعيد الحفناوى
٢٠٤- تاريخ نقد العهد القديم	م. سولوفيتشيك، ز. روفشوف	ت: أحمد محمود هويدى
٢٠٥- الجينات والشعوب واللغات	لويجى لوقا كافاللى - سفورزا	ت: أحمد مستجير
٢٠٦- الهيولية تصنع علما جديدا	جيمس جلايك	ت: على يوسف على
٢٠٧- ليل إفريقى	رامون خوتاسندير	ت: محمد أبو العطا عبد الرؤوف
٢٠٨- شخصية العربى فى المسرح الإسرائيلى	دان أوريان	ت: محمد أحمد صالح
٢٠٩- السرد والمسرح	مجموعة من المؤلفين	ت: أشرف الصباغ
٢١٠- مثنويات حكيم سنائى	سنائى الغزنوى	ت: يوسف عبد الفتاح فرج
٢١١- فريديان دوسوسير	جوناثان كلر	ت: محمود حمدي عبد الغنى
٢١٢- قصص الأمير مرزيان	مرزيان بن رستم بن شروين	ت: يوسف عبد الفتاح فرج
٢١٣- مصر منذ قديم تاليلون حتى رحيل عبدالناصر	ريمون فلاور	ت: سيد أحمد على الناصرى
٢١٤- قواعد جديدة للمنهج فى علم الاجتماع	أنتونى جينز	ت: محمد محمود محى الدين
٢١٥- سياحت تامه إبراهيم بيك جا	زين العابدين المراغى	ت: محمود سلامة علوى
٢١٦- جوانب أخرى من حياتهم	مجموعة من المؤلفين	ت: أشرف الصباغ
٢١٧- عولة السياسة العالمية	جون بايلس و ستيت سميت	ت: وجيه سمعان عبد المسيح
٢١٨- رايولا	خوليو كورتازان	ت: على إبراهيم على منوفى
٢١٩- بقايا اليوم	كازو ايشجورو	ت: طلعت الشايب
٢٢٠- الهيولية فى الكون	بارى باركر	ت: على يوسف على
٢٢١- شعرية كفافى	جريجورى جوزدانيس	ت: رفعت سلام

رقم الإيداع : ١٦١٤٢ / ٢٠٠٠

ولى / 0 - 268 - 305 - 977 / I.S.B.N.

مطابع إدارة المطبوعات والنشر ق . م



NAPOLÉON TO NASSER

The Story of Modern Egypt

RAYMOND FLOWER

بعد سنوات من استعراض المؤلفات البريطانية والفرنسية، وقع اختيار المترجم على ذلك المؤلف المهم الذي كتبه ريمون فلورز عن تاريخ مصر الحديث منذ قدوم نابليون وحتى رحيل عبد الناصر، ولذلك لعدة أسباب:

أولها: أن المؤلف عالي الثقافة، ملم بنظريات التاريخ السياسي والاجتماعي والاقتصادي، بل والثقافي، ولا يفصل التاريخ الحديث عن القديم.

ثانيها: أنه عاش في مصر، بل إنه ولد في مصر وتربى فيها، وقضى أسعد أيامه في بيته الريفي في البدرشين؛ حيث الهزم المدرج من خلفه والحقول الخضراء التي يكسرها فيها الفلاح ويشقى هو وماشيته من بزوغ الشمس حتى مغيبها من أمامه؛ مما جعله يدرك أن هذا الفلاح هو أحق من يكتب تاريخه.

ثالثهما: أنه كابن "طبقة ذوات"، اختلط بأبناء مثل هذه الطبقة من المصريين، فكان يتردد على الأماكن الراقية مثل نادي السيارات (الملكي) ونادي الجزيرة الرياضي ويسجل ما كان يدور فيها من أحاديث جانبية وشائعات ونواذر وطرائف، وكما ذكر أنه كان يتردد على ملاعب "الاسكواش" في نادي الجزيرة. ولما قامت الثورة في يوليو ١٩٥٢ اكتشف أن بعض رفاقه في الملعب أعضاء في مجلس قيادة الثورة. وظل ريمون فلورز مقيماً في مصر بعد إنهاء دراسته الجامعية في أرقى جامعات بريطانيا، ويبدو أنه كلف من قبل حكومته بمراقبة الأحداث في مصر، وظل مقيماً فيها حتى رحل عنها عام ١٩٥٦ بعد وقوع العدوان الثلاثي الذي أدانته بشدة، مؤيداً حق مصر في تأمين قناة السويس، ثم عاد إلى مصر بعد انتهاء الحرب، وظل يراقب ويسجل في مذكراته الأحداث الجارية حتى حدوث كارثة ١٩٦٧. عاد بعدها إلى بريطانيا وعكف منذ ذلك التاريخ على كتابة تاريخ مصر منذ قدوم نابليون.